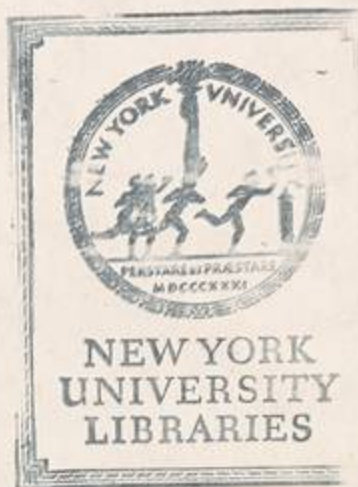
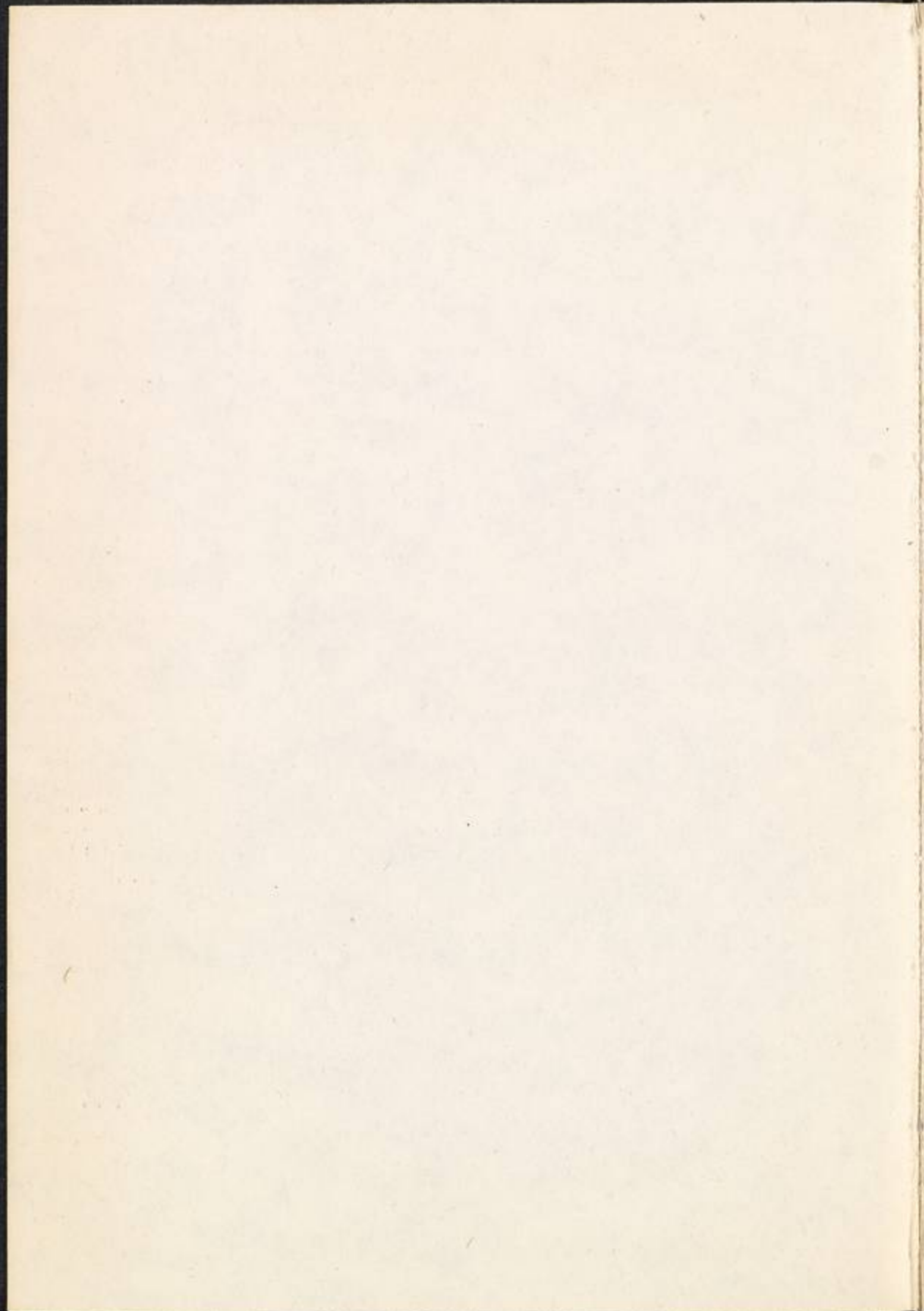


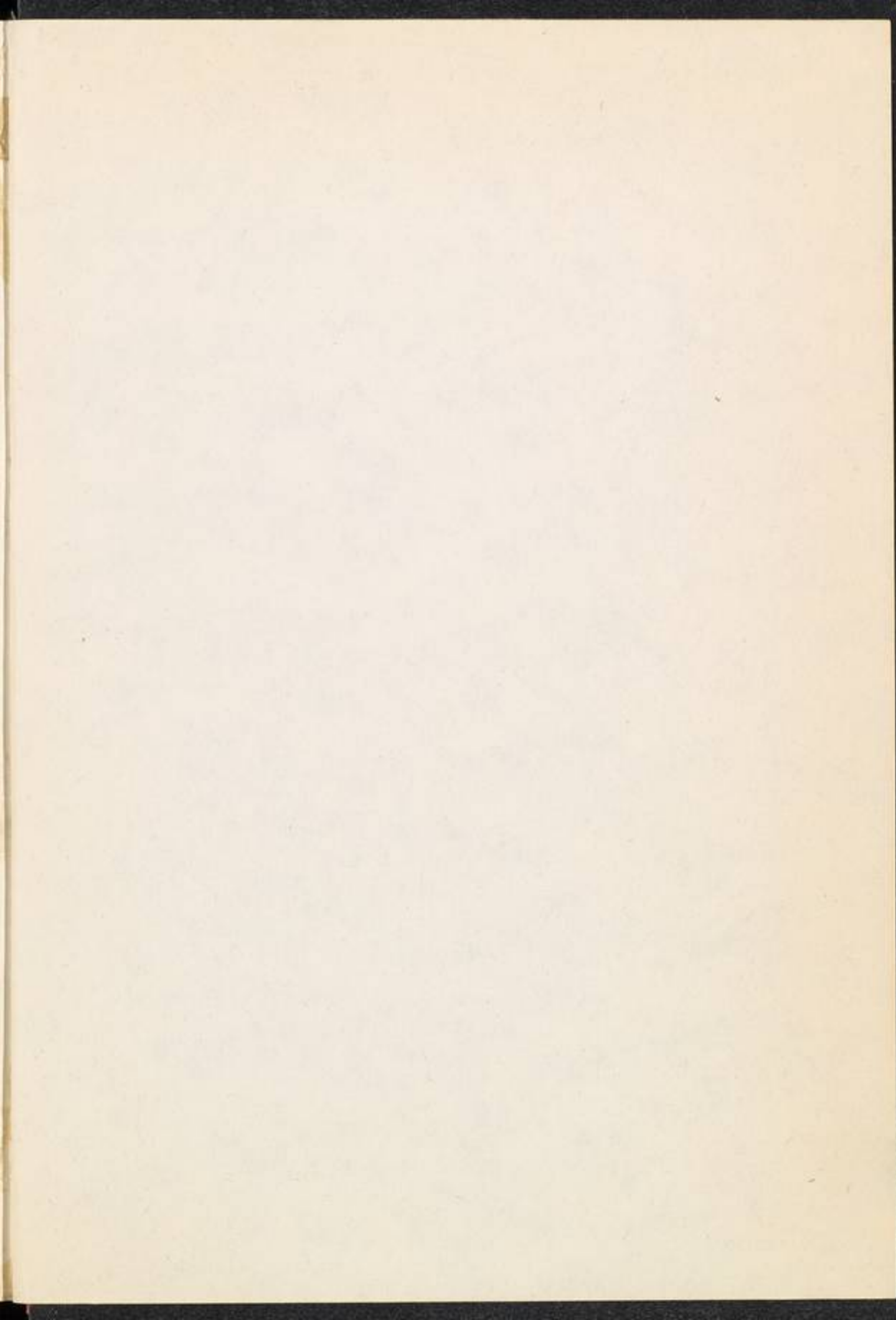


3 1142 03183 1525



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





T
foul

5

الاتجاه القومي
في الشعر العربي الحديث

Handwritten text, possibly a title or heading, in a cursive script. The text is faint and difficult to decipher but appears to be a single line or two.

Handwritten text, possibly a date or a short note, in a cursive script. The text is faint and difficult to decipher.

Handwritten text at the bottom of the page, possibly a signature or a date. The text is faint and difficult to decipher.

Umar
Dagfāf

عُمَرَدَقَّاق

ماجستير في الآداب
مفتش اللغة العربية وآدابها

Umar , Dagfāf

al-Ittijāh al-qawmī fi al-shi'r al-
" 'Arabī al-badīth.

الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث

دراسة تحليلية ترصد تيار القومية العربية ورواقده
في الشعر العربي من الحرين المعاصرين .

الطبعة الثانية

[1963]

لشرو وتوزيع
مكتبة الشرق بـجـلـب
عبدالمستفيـع بـعـقـيـش

حازت هذه الدراسة درجة الماجستير
بتقدير « ممتاز » من معهد
الدراسات العربية العالية التابع
لجامعة الدول العربية بالقاهرة

~~مكتبة~~

PJ

7561

D3

1963

C.I

الطبعة الاولى : معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦١
الطبعة الثانية : مكتبة دار الشرق ، حلب ١٩٦٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تقديم

الشعر من أعرق الموضوعات اتصالاً بوجودان الأمة التي تدعته ، ومن أصدق الأمور بلامح شخصيتها ومنازعتها في حياتها .

ومنذ القدم امتاز العرب من سائر الأمم بشغف بالأدب لا حذله حتى كانت معجزة الاسلام فيها أدبية . فقد خالط الشعر حياتهم وكان دور الشاعر فيها بالاجمال كبيراً وطليعياً . وقد روى عن الرسول انه قال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » وبحق ما قاله ابن خلدون من أن « الشعر ديوان العرب » .

لقد عاش العرب على أدبهم القديم أثناء عصور الغلام فكان خير زاد لهم في محنتهم ، وأثمن دخر قومي صان كيانهم وعصمهم من اليأس .

ولسنا نعرف امة تغفل الشعر في حياتها تغلفه في العرب . ونظرة واحدة إلى تراثنا الأدبي تجعلنا نخال ان جميع العرب شعراء ، فمن لم يمتلك موهبة نظم الشعر لا بد أن يتذوقه ويطرز له . وهكذا غننا الشعر ضمير الأمة العربية ، وسفر تاريخها ، وبجلى تفكيرها ومنازعتها .

ثم ورث المحدثون عن أجدادهم شغفهم بالشعر وجنوحهم لأن يجعلوا منه عامل خير ورسالة تحرر في مجتمعهم الناهض . ولم يعد مفهوم الشعر لديهم في هذا العصر نزوعاً الى تجميل الاسلوب والتأنق في التعبير والعناية بضرور البديع ، بل غدا ملاءمة بين الجمال الفني الخالد الذي لا يختلف جوهره بين الشعر القديم والحديث وبين ذوق العصر النابع من واقع حياة الأمة وتفكيرها ومنازعتها .

وتعد الفترة التي عاشها العالم جميعه والعالم العربي بوجه خاص بين الحربين العالميتين من أحفل الحقب وأثقلها بالأحداث . ففي خلالها انهارت نظم ودالت دول وقامت انتفاضات ونشبت ثورات . وكان أثر ذلك كبيراً في المجتمع العربي اهتزت له أعماقه اهتزازاً سياسياً واجتماعياً وثقافياً كبيراً .

ولم يعد المجتمع الحديث بحيله الثائر يرضى للشعر أن يكون كالآنية المرصعة تسر الناظرين بروقها وتسير إعجابهم بمجيب صنعها . فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معلم الأصالة والوعي بطمع إلى ان يجد في الأدب سدى وجدانه وحياته وواقعه ، وبأمل أن يقع في الفن على ما ينفذي روحه ويتجاوب مع أفكاره ومنازعه ، ومسع آلامه وآماله باعتباره إنساناً قبل كل شيء ، ومواظماً ينتسب إلى شعب هو منه كائخلية من الجسم . كالم يعد بوسع الأدب العربي أن يستمر في عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه دون أن يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها .

وهكذا استجاب الأدب العربي الحديث على اختلاف فئونه لهذا التطور الخلاق في النفس العربية النزاعة إلى الواقع ، فكان شعر اجتماعي وفومي يشكل أبرز ظاهرة فنية في نتاجنا الأدبي الحديث .

وبذلك غدا الزاماً على كل من يؤرخ الحقبة الحديثة من تاريخ العرب الحافل ويتصدى لرصد وجدانهم الجماعي أن يلجأ إلى الأدب . فالفنون ، والشعر بوجه خاص ، مرآة صافية تنعكس على وجهها العميق صور نابضة من حياة الأمة وكفاحها وآلامها وآمالها . وإن مافاضت به قرائع الشعراء وما دبجته أقلام الكتاب ليس في جوهره إلا روح الأمة وسفر نضالها .

وبوحي من ذلك كله نشطت البحوث والدراسات الحديثة تولي المنازع الأدبية والفكرية والاجتماعية في حياة العرب اهتمامها . وكان مهد الدراسات العربية العالية في طليعة المؤسسات الثقافية التي نسذرت نفسها لهذه الغاية ، ويعد إنشاؤه من أجل ما قامت به جامعة الدول العربية .

وما ففكرة هذه الرسالة في الأصل الا من وحي رسالة هذا المعهد العتيد الذي يستمد نسق الحياة من المنازع الحية المتطورة في المجتمع العربي المعاصر ويشق طريقه قدما في ارساء دعائم الدراسات القومية الحديثة على أساس من التجرد العلمي والبحث المنزه بعد ان خالقتها العاطفة وفسدها الهوى . ونحن احوج ما نكون في دراساتنا القومية والفنية الى نور العقل نيكشف به عن الحقيقة لنجعل من ذلك منطلقا ركيناً لحياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية .

وهذا بحث عرضت فيه لمعالجة عرض بارز من اغراض شعرنا الحديث وهو الشعر القومي . وقد حرصت خلاله على تتبع مضمون هذا اللون من الشعر ورصد اتجاهه وما علق به من افكار وما اختلط به من مفاهيم وما رفته من روايد

وقد رأيت ان يشمل بحثي هذا ظاهرة الاتجاه القومي في الشعر الذي صدر عن شعراء الشرق العربي وبخاصة في مصر والشام والعراق . فقد وجدت ان هذه الاقطار ارض النضال ومبعث الحركة الفكرية والادبية ، وموئل الشعر القومي . ولم اشأ ان يمتد بحثي الى انحاء الشرق العربي كالسودان وربوع الجزيرة العربية املا في ملء اطراف البحث من جهة ، ولأن مادة المصادر فيها ما تزال غير متوافرة ، عدا ان النتاج الادبي في هذه البلاد لا يسكاد يختلف في جملته - كما بدا لي - عما ذكرنا من ادب الاقطار الاخرى . كما اني رأيت ان الشطر الآخر من العالم العربي المعروف بالشمال الافريقي او المغرب العربي يحتاج الى دراسات جديدة كاملة تكشف عما كان لظروفه ومعضلاته من اثر في منازعه الفكرية والادبية التي بقيت امداً طويلاً معزولة عن سائر العالم العربي .

ولم اجد بداً من جهة اخرى من ربط ما قاله الشعراء العرب في مبحرهم بما صدر عن اخوانهم في الوطن بعد ان تبين ان شعرهم في هذا المجال كان امتداداً لشعر المشاركة يعالج قضاياهم ويتحسس بمشاعرهم ويتجاوب مع آلامهم وآمالهم ويؤلف معهم وحدة ثقافية وفكرية .

وقد بدا لي اول الامر ان الرقعة المكانية التي آثرتها بالدراسة شديدة الاتساع وانه من الخير ان اقتصر على دراسة الشعر القومي في سورية او مصر

او الشامل لا كون اقدر على تعمق البحث ورصد دقائق الاتجاهات والنزاع ، إلا ان الاستاذ الكبير مناظر الحصري اشار علي بحق بأن هذا الاجترار ليس محمودا في الدراسات القومية التي تمد الوحدة الثقافية والفكرية والاجتماعية من مقوماتها .

اما حدود الفترة الزمانية التي رأيت ان يبقى بحثي ضمنها في بين الحربين العالميتين ، ولم اجد من العالم والأحداث ما يضارع هذين الحدتين اهمية وشمولا ، عدا ان الفترة بينها تعد مرحلة متميزة من المراحل الحاسمة في حياة العرب اتفقت في ابتدائها وانتهائها مع حدثين قوميين شاملين هما قيام الثورة العربية الكبرى إبان الحرب الأولى وانبثاق جامعة الدول العربية في اواخر الحرب الثانية . فضلا عن انها الفترة الحاسمة من حياة العرب الحديثة التي شهدت مدء الاحتلال والنجس .

ومن جهة اخرى رأيت ان اقف في بحثي عند هذا الحد من الزمن دون ان أعدوه الى فترة ما بعد الحرب الثانية التي نعيشها اليوم . فقد تبين لي ان هذه الحقبة المعاصرة مرحلة جديدة اتسمت فيها الحياة الأدبية والسياسية بطابع انقلابي ثائر، وهي لذلك جذيرة بأن تفرد في بحث مستقل ، بالإضافة الي ما بدالي من ان دراسة هذه الفترة ستكون ناقصة من وجوه كثيرة مادام لهيب النضال مستعرا وغبار الجهاد ثائرا ولا بد قبل كل شيء من ان تهدأ الخواطر وتفسح الملامح وتقر المنازع .

ولما كان من العسير حصر الاتجاهات الفكرية والتيارات الأدبية حصراً تاما في حدود زمانية معينة لما لها من جذور سابقة وذبول لاحقة رأيتني في بعض الأحيان مضطرا الى تحطبي هذا الحد كأن اعود الي ما لا بد من التمهيد به في سبيل رصد الاتجاه وتبع تطوره .

وليس يخاف ما يتعرض له كل من يتصدى للدراسات المعاصرة من صعاب ومعزلق نظرأ لعدم استقرار الرأي حولها ، ولاتصال الدراسة ببعض الاحياء من الشعراء او الحكماء مما قيد يؤخذ مأخذ المحاباة او التحامل او التجاهل ، إلا أن

رائدي كان في ذلك الحق والتجرد . وقد حرصت على ان اكون خلال بحثي موضوعياً بعيداً عن الهوى والماطفة والتعصب ولو كان ذلك في المجال القومي . وما جدوى ايمان اعمى كأيمان العجايز قد ينطوي على مفسدة للبحث وتجن على الحقيقة .

اما المنهج الذي آثرته في هذه الدراسة فهو اني عدت تيار القومية العربية اصلاً فجعلته في باب ، كما وجدت له من الروافد والمنازع الهامة التي صحبته وأثرت في سيره وتكوينه مما يستقل بباب آخر ، وكان الباب الثالث ينطوي اخيراً على الموضوعات البارزة التي كانت محور المضمون القومي في الشعر الحديث .

وكان طبعياً ان اتخذ من الطريقة التاريخية الى جانب الطريقة التحليلية منهجاً لي في البحث، وان اجعل من الأحداث التي أنفقت الشعراء وأثرت في الأدب او تأثرت به إطاراً للمراحل دراسي ، اذ لا سبيل الى رصد الاتجاه القومي ونفهم تطوره خلال سيره مواكبا التيارات الاجتماعية والسياسية والنفسية دون الاهتمام بعلم التاريخ واحداثه . والشعر القومي وثيق الصلة بالمجتمع بل مظهر رفيع من مظاهر نشاطه الحيوي . والامر كما يراه « لسنج » في ان الصور لحظة في المكان وللشاعر لحظات تتوالى في الزمان ، اي ان الشاعر يصور الحركة والحدث في الكون والحياة وفي الطبيعة والمجتمع . ودراسة التطور اي رصد انتقال الافكار والتيارات والاتجاهات من طور الى طور انما يعني تتبعها عبر الزمان وهذا هو مجال التاريخ الأدبي .

وقد انهمكت اول الامر شهوراً مديدة في جمع النصوص واستقصائها ، ثم تنسيقها وترتيب الأشباه والنظائر منها ، واستقراء محتواها ، وملاحظة اثر البيئة والأحداث فيها ، ثم الموازنة بينها ، واخيراً الانتهاء الى استجلاء التيار السالب والاتجاه السائد من خلالها .

ولم أغفل في الوقت نفسه الكشف عن النواحي الفنية الوثيقة الصلة بالموضوع . إذ لم يغب عن خاطري لحظة ان ما كنت بصدد دراسته

شعر قبل كل شيء .

وبوحي من هذه الطريقة اوليت اهتمامي التيار الشامل قبل الشاعر ،
والنزعة السائدة قبل الحادث العارض . ولم اعرض لشعر او شاعر الا من حيث
إفصاحه عن اتجاه او إبانته عن مزج ، وحرصت على وضع كل شاعر في الاطار
الذي عاش فيه ، ولم انظر الى ما يصدر عنه من شعر منبثاً عما حوله من الظروف
والملاسات . ولهذا جعلت رائدي في الحكم له او عليه ملاحظة ما كان فيه هو
ومجتمعه لا ما نحن فيه اليوم .

كذلك لم انعب من نفسي ترجمانا لحياة الشعراء وإنما كانت غايي متابعة
التطور القومي في الشعر الحديث بوصفه اداة مبررة عن حياة امة ، وتبع اتجاهه
وهو يسير وتبدأ وتمتثراً وغمضاً ، او يهب جلياً ناشطاً . او متأزراً
جارفاً كالأعصار .

اما الشعر السياسي المحض الذي يدور في فلك الحياة اليومية العابرة
والمجالات المحدودة الضيقة فقد استبعدته من دائرة اهتمامي لأن رائحة النضال لا
تبعث منه ، إلا ما بدالي ضروريا في مقارنته بالشعر القومي وايضاحه حقيقة
المنازع الفكرية والفنية .

وقد يبدو غريباً ان يصلح الأدب مادة اساسية يوثق بها ويعتمد عليها في
تأريخ الاتجاه القومي لدى جيل من الأجيال في حين يملك التاريخ من الوثائق
والمستندات ما لا يملكه الشعر الذي يقيم للعاطفة الشخصية والمشاعر
الذاتية شأناً كبيراً !!

والواقع انه علينا ان ندرك قبل كل شيء ان الفن ليس انفعالا جارفا لا
علاقة للارادة فيه ، ولكنه انفعال منظم يتم وفقاً لارادة صاحبه ويألف مع
تفكيره . والقصيد الفني خلق جديد يدعه الشاعر نتيجة عملية شعورية يشارك
العقل في اخراجها الى النور . والفكر ردف للفن يغذيه ويلونسه
ويوسع امامه الآفاق ، وإن بين جنبي كل شاعر كبير عقلا كبيراً يحمل
موهبة وعبقريته .

فلا انفعال يختلط بالذهن في العمل الأدبي ولا يمكن فصل احدهما عن الآخر سواء في الانسان نفسه ام في الاثر الفني ، فيها متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر . وعند ذلك تغدو الفكرة نفسها مزجاة بماطقة الشاعر بعد ان تلفحها حرارة انفاسه .

والواقع ان الشعر والفن بصورة عامة اصديق تعبيرا عن طبيعة الانسان وتصوراً لمنازعه . ومن هنا ايضاً كان الشعر القومي ادل على حقيقة الوجدان الجماعي وتصور اتجاهات الشعوب العربية ومنازعا برغم انه قد لا يجاري التاريخ في مدى احاطته ، ودقة تسجيله ورصده لأحداث المجتمع ، ومبلغ تقيده بالواقع المحسوس . الا ان الفن وحده هو القادر بأدائه المعبرة عن التجربة الانسانية الداخلية ان يسبر غور النفس وينقل انطباعاتها وتأثراتها بالعالم الخارجي بعد ان تتفاعل معه . ومن هنا كنت حريصاً على رصد الوجدان القومي في نفوس العرب من خلال أشعار تلك الصفوة الممتازة التي كانت الطليعة الواعية للأمة ولسانها الناطق وقلبها الخافق .

وهذا هو ايضا من اسباب عدم اكتفاء الناقد بما تنقله قصيدة واحداة تصدر عن مؤثر خارجي في نفس الشاعر ، لان الخبر المنقول وحده ليس عمدة في ذلك ، فضلا عن انه في التاريخ أكثر ضبطاً ودقة . والشأن هو في الانفعال وتلون المشاعر واختلاف الانطباعات برغم كون المؤثر واحداً .

وهذه الخاصة هي من سمات الفن الذي يبين العلم ، لأن للعنصر الذاتي شأناً كبيراً في تكوينه . وهذا ما دعانا بالتالي الى ايراد نماذج متعددة مجللة من الشعراء خلال بحثنا ، في سبيل تبيين حقيقة الانطباعات التي كانت ترسم في وجدان زمرة من الامة او في ضمير صفوة منها وهم الشعراء نتيجة لحدث معين ضمن نطاق محدد من الزمان والمكان . لأن مدى التأثير ونوعه تجاه مشهد او حادث او قطعة موسيقية او لوحة او قصيدة قد يختلف بين النفوس الانسانية ، كما ان طريقة التعبير عن هذا الاثر او الانفعال تختلف باختلاف معالم الوجه ولون العيون ونبرات

الصوت وبصمات الاصابع . وان التفرد والتميز والذاتية من سمات الأدب ومقومات
الفن ، والتشابه التام بين عمالين اصليين لا وجود له .



ولا بد لي هنا من إيضاح بعض المصطلحات التي يتكرر ذكرها في ثنايا
هذه الرسالة مثل لفظ الشعب والامة والوطنية والقومية (١)

فالشعب جزء من الأمة وفي اساس البلاغة « العرب شعوب » كأن تقول
شعب العراق وشعب فلسطين او شعب بيروت او شعب القاهرة وهذا ما يقابل
كلمة **Peuple** فالأمة العربية جماع الشعوب العربية ، وقد تستعمل لفظة الشعب
بمعنى الامة كأن تقول : الشعب العربي او الشعب الفرنسي .

« والأمة ، وتقابل كلمة **Nation** جماعة من الناس يقطنون بقعة من
الأرض معلومة ، ولهم لغة واحدة في الأعم واخلاق متشابهة وماض مشترك في
الاجهاد والآلام ، وحاضر مشترك في التفكير والمصالح » .

والوطن **Patrie** في الاصطلاح الحديث « البلد او القطر الذي ينسب
اليه المرء من حيث جنسيته او تابعيته خلافا لما جاء في المعجمات ، والوطنية حب
الوطن والعمل في خيره ، وهي لغوياً مصدر صناعي مشتق حديثاً بزيادة ياء النسب
والثناء على كلمة الوطن مثل قول القدماء عروية وجاهلية وكيفية وكمية ، ومن
قرارات مجمع اللغة العربية اعتبار هذا الاشتقاق قياسياً . وكلمة الوطن تعني القطر
الذي ينتسب المرء اليه ويقطنه شعب من الشعوب . وقد يستعمل بجدول او سجع
فيراد به الوطن الكبير الذي تعيش الأمة فوق دربوعه .

والقوم في اللغة الجماعة من الرجال والنساء جميعاً . ويذكر ويؤنث
مثل رهط ونفر وكل ما كان للأدميين من اسماء الجموع التي لا واحد لها ، ونحن
في الاصطلاح الحديث نستعمل لفظة القوم بمعنى الأمة .

(١) اعتدنا في تعريف هذه الإصطلاحات على ما أورده الأمير مدظلي
الشهاني في كتابه « محاضرات في القومية العربية » ص ٣-٥

وقد اشتقنا من القوم مصدراً صناعياً هو القومية Nationalité وكان
من الواجب ان نشق من الامة مصدراً كهذا المصدر وهو (الأمية) ولكن
لهذه الكلمة في اللغة معنى آخر مشهوراً ، نخوف الالتباس حملنا على
المدلول عنه .

فالشعر الوطني ما تعلق بقضية الوطن او الشعب الذي يقطن قطراً . معيناً
وهو اضيق من مدلول الشعر القومي الذي يتسع ليشمل الامة اي مجموعة
الشعوب الشقيقة .

واذا كان الوطن في معجمنا المنزل الذي يقيم فيه المرء فان الوطني بدأ
بجب المنزل ومسقط الرأس ، وان كان القوم هم الأسرة والاقارب فان القومية
تبدأ بجب الاهل .



ويجدر بي القول الآن اني في سبيل استكمال عناصر هذه الرسالة كان لا
بد لي من ان اعتمد على مقدار كبير من الدواوين والمجموعات الشعرية اربت على
المائة عدداً ، خلا كثير مما تصفحته ولم اجد فيه ما نشدته ، وان اطالع قدراً
محدوداً من الصحف والمجلات استمد النصوص الملائمة للموضوع ، وكان جل
اعتمادي على المطبوع من هذه النصوص الا فيما ندر . وقد وجدت ضالتي في
مكتبات حلب ودمشق وبيروت والقاهرة وبخاصة ما كانت تحتويه مكتبة معهد
الدراسات العربية العالية من مصادر شعر الاقطار العربية . ولولاها لما جاء البحث
على هذا الشكل من الاحاطه والشمول . ومن هنا ايضا انطوت هذه الدراسة على
مجموعة مختارة وافية من الشعر القومي الحديث قل ان اجتمع مثلها
في كتاب .

كما اني وقفت على عدد من الدراسات القيمة التي كان لها فضل السبق وشق
الطريق ، في مقدمتها كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد
حسين ، والاتجاهات الأدبية الحديثة للاستاذ انيس المقدسي ، وكلاهما اتخذ من
الشعر والنثر مادة له ، ثم كتاب شعر الحماسة والعروبة للدكتور امجد الطرابلسي

وقد اقتصرت على بحث هذا الموضوع في بلاد الشام . ولقد افدت من جهود هؤلاء الاجلاء ، كما افدت من جهود الكثيرين سواء فيما دمجته اقلامهم من بحوث وما البره من كتب ، وكان الى جانب ذلك جهدي واجتهادي .

واني ارجو ان يكون في رسالتي هذه وما اقيت في اعدادها على هذا الشكل من عناء مرضاة للحقيقة ولضميري ولائمي ، وانا اول من يعترف بما قد يكون فيها من نقائص وعيوب ، كما اقر مع المراد الاصفهانى رحمه الله بأنه « لا يكتب انسان كتابا في يومه الا قال في غده لو تغير هذا لكان احسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان افضل ، ولو ترك هذا لكان اجمل . وهذا من اعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر »



وبعد ، لقد انقضى زهاء عامين على نشر الطبعة الاولى من هذه الدراسة التي صدرت في القاهرة سنة ١٩٦١ في سلسلة منشورات معهد الدراسات العربية العالية بقرار كريم من مجلس القسم فيه وبتوصية كريمة من لجنة المناقشة التي اولتني شرف المثول امام اعضائها : الدكتورة سهير القلماوي والدكتور اسحق موسى الحسيني والاساذ محمد خلف الله احمد ، ويسعدني اليوم ان تجد هذه الدراسة شبابها في طبعتها الثانية المنقحة لتطلع مرة اخرى على قومي العرب الذين سيكون من مفاخر جيلهم - فيما يقول التاريخ - ان ينتهي الاستعمار على ايديهم ، فقد كان تجاوزهم مع الكتاب في طبعته الاولى الحافز الاول على المضي قدماً في هذا المضمار من الدراسات النهجية . وعزمي بعون الله بات وطيداً في ان أتبع هذا الكتاب كتاباً آخر اضع فيه هذا « الشعر القومي في الميزان » ميزان النقد والتحليل ، وأعرض فيه بالدراسة والمقارنة لاساليه وتياراته ومدى علاقته بمناحي الفن ودواعي السياسة ، وذلك في حلقة اخرى جديدة ارجو بها ان تتكامل مراحل دراسة هذا الجانب الاساسي من حياتنا الادبية والقومية والله الموفق .

حلب : ايلول ١٩٦٢

عَمْرَدَقَاق

المدخل بوكير الشعر القومي

كان القرن الثامن عشر آخر حلقة من سلسلة عصور الركود والجهد والفساد في الشرق العربي، فقد كانت هذه البلاد في حوزة الدولة العثمانية، وطال أمد خضوعها لاستبداد المماليك والترك.

ومع هذا التأخر الذي ساد أقطار العرب خلال تلك العهود فإن بصيصاً من نور أخذ يلوح ضئيلاً في بعض مدن الشام في القرن السابع عشر (١) ففي حلب ترجم الأنجيل عن السريانية، وعرفت أول مطبعة في الشرق وتأسس أول مجمع علمي، كما ظهر في بلاد أخرى وخاصة في لبنان بعض رجال الأدب والعلم وأكثرهم من الأكليروس حيث أخذت تنشأ المدارس الدينية والمؤسسات الثقافية بتأثير البعثات التبشيرية التي كانت تفتد إلى البلاد.

وكان كل ذلك من بوادر اليقظة المرتقبة وايداناً بانبثاق عهد جديد. وما إن أهل القرن التاسع عشر، واشتد الاحتكاك بالغرب وتبته النيام على اصوات مدافع نابليون تفرع أذن أبي الهول حتى أخذ شعاع النهضة يبدد سريعاً ظلمات العهود السابقة بفضل تلك الشعلة المباركة التي طلعت من الشام ومصر وامتدت منها إلى سائر اطراف العالم العربي.

لقد كانت التركة فادحة صنعتها عهود مديدة من الذل والانحطاط والجهد والتأخر، خرج منها العرب كمن يتخلص من كابوس وينفض عنه غبار السنين..

(١) انظر جرجي زيدان: التاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٧

ولولا أصالة جعلها الله في نفوس العرب مكنتهم من الاحتفاظ بمقوماتهم في لغتهم وقوميتهم وعقيدتهم التي صانها رجال الأزهر والزيتونة والنجف وسواهم في القرون الماضية المظلمة لما قبض لهذه الأمة ان تقف على قدميها من جديد .

ان آفات الفقر والجهل والمرض التي نابت العرب لم تبق في مصر حتى فجر النهضة سوى ثلاثة ملايين من الناس (١) . وقد قدم الأتراك ارض الكنانة المنكوبة هدية باردة لطموح نابليون الذي لا يجد ... بينما تمكنوا الى حين من الاحتفاظ بسائر الشرق العربي بسبب من ضعفه لا من قوتهم .

وتغيرت حال مصر منذ ذلك الحين ، بعد ان تسلّم محمد علي زمام الامور وأخذ يمد يده الى اوربا يروم الاستفادة من خبرتها وتقدمها . على ان الحركة الادبية لم تنشط في بادئ الامر نظراً لان اهتمام محمد علي اقتصر على تشجيع العلوم وتقوية الجيش ، ولم تكن المطابع قد قذفت بعد بالكتب .

أما السنوات الثلاث التي قضاهها جيش نابليون في مصر فقد « كانت جميعها جهاداً عنيفاً وصراعاً مريراً قاسياً بين الشعب المصري والمعتدين ... وكان لهذه المقاومة الباسلة وهذا الكفاح المرير أثرها في نشأة الشعور القومي عند المصريين ، واحساسهم العميق بحقوقهم الشرعية في حكم بلادهم (٢) .

ولعل من أقدم مظاهر هذا الشعور ما بدأ « من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة العثمانية وتأسيس مملكة عربية كبيرة » (٣) ، وكان يعد نفسه عربياً ويجب أن يعده الناس كذلك (٤) .

(١) المصدر السابق ٤ : ٧

(٢) الدكتور شوقي ضيف : الادب العربي المعاصر ٣

(٣) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ : ١١

(٤) جورج انطونيوس : بقطة العرب ١٨

ومن مظاهر ذلك الشعور العربي الذي تملكه ما تفوه به في قوله المشهورة : « ما أنا بتريكي ، بل أنا ابن مصر ، ان شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربياً قحاً » . ومع إقرارنا باحتمال وجود دوافع توسعية في نفس ابراهيم باشا كانت تشوب زعمته العربية ، فاننا نجد في عبارته تلك ما يؤكد عروبة مصر وأبنائها ويشير الى عزم ذلك القائد على إقامة دولة حديثة على أسس جديدة قومية وليست دينية . « ان ابراهيم لم يخف ما كان يرمي اليه من العمل على بعث الوعي القومي في العرب واعادة بناء القومية العربية ، وابتعاد شعور بالوطنية صحيح عند العرب واثرا كهم في حكم امبراطورية المستقبل اثرا كما تاما ، كما انه يصرح بأنه يعد أفكار أبيه ضيقة ولا تعدوا ان تكون أفكاراً استعمارية (١)

ويمكن ان نعتبر التفاف الشاميين وبخاصة النصارى حول ابراهيم باشا حين فتح سوريا ، تأكيداً لهذه الروح القومية الجديدة التي اخذت تظهر في الشرق العربي منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر .

ولا ريب في ان تراجع الجيش المصري بعد ذلك الى ما وراء حدوده قد جمد الفكرة القومية في النفوس وعاق انطلاقها الى حين ، وهي بعد وليدة لا تعدوا ان تكون مفهوماً دائماً عن العروبة في أذهان الناس . ومنذ ذلك الوقت باعدت الظروف بين مصر وبين أقطار الشرق العربي وبخاصة في أعقاب ثورة عراقى والاحتلال الانجليزي .

وهذا الشعور القومي المبكر الذي ظهرت بوادره في مصر قبل ان تظهر في سائر الشرق العربي أخذ يجد صدىه في الأدب وبثير النزعة الوطنية في نفوس الشعراء والخطباء والكتاب . ويقرن عبدالرحمن الرافعي ظهور الروح الوطنية في الشعر المصري بظهور الحركة الوطنية نفسها في أوائل القرن التاسع عشر ، ويرى ان أول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطبطبائي (٢) أما عباس محمود العقاد فيرى ان طلائع النهضة الشعرية أخذت تظهر في مصر بظهور طلائع الثورة التي

(١) المرجع السابق ٨ - ١٩

(٢) شعراء الوطنية ٦

عرفت بعد باسم الثورة العراقية إذ « دبت في نفوس المصريين أريجية الشمور الوطني وثقة المعارف بحقه ، المنكر لما هو فيه من نجس وإهمال (١) .

وفي الشام أخذت ملاحق اليقظة القومية بالظهور خلال هذه الفترة نفسها أو بعدها بسنوات وبخاصة في أثناء حكم الوالي مدحت باشا في ولاية الشام عام ١٨٧٧ أما في العراق فكانت النهضة الأدبية تسير ببطء الى الامام لان احتكاك هذا القطر بالغرب كاد يكون منعزلاً نظراً لوضعه الجغرافي الداخلي ، ولندرة المطابع وضالة المدارس ، ومع ذلك ظهر في العراق عدد من الادباء الشعراء أمثال ابن الصباغ والشهاب الألوسي ثم محمود شكري الألوسي وعبد الغفار الاخرس وسوام ، في حين كان في الشام من أمثال هؤلاء الشيخ ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم والشيخ أمين الجندي ثم فرنسيس المراث وإبراهيم الأحذب ، والشيخ نجيب الحداد وجبرائيل دلال . وأما في مصر فقد برز أعلام في الادب بعضهم مارس الشعر وبعضهم اقتصر عليه وكان منهم محمود صفوت الساعاتي وصالح مجدي ، وعبدالله فكري وعلي الليثي ومحمود سامي البارودي .

ولم يكن الشعر القومي أو الوطني غرضاً مألوفاً لدى الشعراء حتى القرن التاسع عشر ، إذ أن مفهوم الشعر لم يكن يعدو في ذهنهم ما توارثوه من الاغراض التقليدية ، التي يشوبها غير قليل من آثار الضعف الفني المتبقي من عهود الانحطاط إلا ان عدداً من هؤلاء الشعراء في مصر والشام والعراق كان يمارس نطقاً من الشعر القومي أشبه شيء بالشعر الحماسي الذي عرفه العرب في عصورهم الغابرة .

وواقع ان الظروف السياسية التي كانت تحياها مصر في ظل الاحتلال الانكليزي كانت تختلف عنها في الشام والعراق الداخليتين في نطاق الدولة العثمانية . فقد كان وجود الأجنبي فوق أرض الوطن حافزاً قوياً للمشاعر القومية لم يكن في الشام والعراق ما يضارعه قوة وتأثيراً ، بينما لم ينظر إلى الحكم التركي بهذا المنظار تبعاً لاشتراك الترك وغالبية العرب في الشعور الديني . ومن هنا كان

« ١ » العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ٨ - ١٢

الاتفاض على العثمانين يقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على العنصر القومي وحده وهذا لم يتيسر للعرب إلا في فترة متأخرة نسبياً حين ثاروا على الترك ابان الحرب العالمية الاولى وبعد ان نضجت مشاعرهم القومية ووعهم السياسي الى حد كبير ، في حين استدعى الامر في مصر الاعتماد على العامل الديني باعتباره عنصراً فعالاً في مقاومة الاحتلال الانكليزي .. وقد تجلى كل ذلك في الشعر الحديث فكان شعراء مصر اكثر تمسكاً بالجامعة الاسلامية ، يضاف الى هذا السبب اخرى منها عطف المصريين على الترك وعلى نظام الخلافة بسبب انحسار الحكم العثماني عنهم في وقت مبكر وبالتالي عدم شعورهم بالنقمة التي كان يشعر بها الشاميون والعراقيون تجاه مظالم الترك .

وعلى هذا فان بواكير الشعر القومي بزغته العربية الصافية لانجدها الا في الشام والعراق والمهجر وبخاصة لدى عدد من الشعراء العرب المسيحيين الذين لم يستشعروا بحكم عقيدتهم اية صلة - دينية او قومية - تربطهم بالترك وتجعلهم يستمرون في الخضوع لهم . ولذلك كانت طائفة منهم اسبق من سائر المواطنين العرب الى التحسس بالشاعر القومية العربية .

« ومن اقدم ما نجد من الشعر في هذا الاتجاه الايات التالية للشيخ امين بن خالد الجندي الشاعر الحمصي المعروف المتوفى سنة ١٨٤١ م ، الذي عاصر حملة ابراهيم باشا ، وهي تمثل صرخة من اقدم الصرخات التي اطلقها شعراء الشام تدمراً من جور الاتراك ومظالمهم (١) وقد صادق ابراهيم باشا وصحبه في غزواته وبعد ذلك قبض عليه الاتراك وسجنوه في الاصطبل عام ١٨٣٠ (٢) ومما قاله (٣) :

سلبوا البلاد من العباد فلا ترى في حكمهم ذا نعمة متمولا
والملك ملك الله يؤتبه لمن قد شاء لا هو بالوراثة والولا
من يخبر الاتراك ان جيوشهم هزمت وان (حسينهم) ولي الى

«١» الدكتور امجد الطرابسي : شعر الحماة والعروبة في بلاد الشام ١١

«٢» جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٢١١

«٣» ادهم الجندي : اعلام الادب والفن ٢٧

فالشاعر لا يستطيع ان يخفي فرحته بانتصار جيش مصر العربي
على جيش الترك .

كما نجد ابياتا اخرى في المناسبة نفسها للمعلم بطرس كرامة يهنيء فيها ابراهيم
باشا بفتح عكا

ومن العجيب ان يكون ابراهيم اليازجي ذلك اللغوي المحقق والمعلم
الباحث قد نظم اروع الشعر القومي آنذاك ومنذ عام ١٨٦٨ حين كان في
العشرين من عمره يتأجج حماسة (١) . وقد غدا «عضو الجمعية العلمية الوطنية التي
تشكلت سنة ١٨٧٥ وكان تأسيسها اول ظاهرة من ظواهر الوعي القومي» (٢)
وقصائده الثلاث ، الميمية والبايئة والسينية اشهر من ان نذكرها في هذه المجلة
ولكننا نجتزئ بعض ابياتها ، فالميمية مطلعها (٣) :

سلام ايها العرب الكرام وجد ربوع قطركم الغمام
وفيها يقول :

وما العرب الكرام سوى نصال لها في اجفن العليا مقام
ونحن اولو المآثر من قديم وان جحدت مآثرنا اللثام
اما البايئة وقد طارت شهرتها فمطلعها (٤) :

تنهبوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
وفيها يقول :

فيم التعلل بالآمال تخدعكم واتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

«١» انظر انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ ، ٨٠ .

«٢» جورج الطولونوس ، بقظة العرب ٨ :

«٣» لويس شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٢ ، ٤٠ .

«٤» نشرت القصيدة في جريدة لمشير بالعدد ٨٠ ، ٢٥ ابريل ١٨٩٦ ص ٦٧١

وتبلغ ٤٨ بيتا قد لها الشاعر بكلمة ثريه ولم يفصح عن اسمه والمشهور أنها له وقد
نشرت كاملة في ديوان «المقد» لابراهيم اليازجي ص ٥٦ وهو يشير الي ن سنة
نظمها كانت عام ١٨٨٣

لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب يتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مقتصب

وأما السينية فهي تضارع سابقتها في شهرتها ومنها قوله (١) :

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس
أي النعيم لمن بيت - على بساط الذل جالس
ولمن تباع حقوقه ودماؤه يبع الخسائس
الترك قوم لا يفوز لهم إلا الشاكس

« إن عدداً من هذه الأشعار ألقاها إبراهيم اليازجي بصوت هامس أمام ثمانية من الأعضاء الذين وحدتهم الفكرة المشتركة » (٢) لقد كانت هذه القصائد وأمثالها صيحات مدوية جلجلت أصدائها في أرجاء الشام وسارت في الآفاق حتى غدت على كل لسان . « وان السبب لانتشارها يعود الى أنها رددت صدى الشعور الذي كان كامناً في نفوس من وجهت اليهم الخطاب فايقظت فيهم صادق العواطف » (٣) وكانت من اسباب نقمة السلطان على مدحت باشا والي الشام ، اذ ان اقدم النشرات السرية التي كانت تلمص على جدران بيروت عام ١٨٨٠ اختتمت بمقطعات من تلك الاشعار (٤) واهمية هذه الايات تبدو في كونها اقدم شعر قومي عربي المتزع في النهضة الحديثة ، فقد تجلت من خلالها الفكرة القومية المشبعة بروح الثورة على الاستبداد والتمرد على الحكم الاجني ، واستمدت عناصرها من ماضي العرب المجيد وواقعهم الاليم . والحق ان ما اوردها لليازجي من قصائد ، على قلته ، استطاع ان يجعل منه بحق شاعراً قومياً بل رائداً من رواد الشعر القومي في ادبنا العربي الحديث .

(١) القصيدة كاملة في ، المعقد ، ص ٥٩ ونظمت ايضا عام ١٨٨٣ وتقع في ٦٠ بيتا

(٢) جورج انطونينوس ، يقظة العرب ٤٩

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق ٨٥

كما ان بوادر التمرد على الحكم العثماني ظهرت قوية ايضاً لدى رزق الله
 حسون الحلبي رائد الصحافة ، فهو في اياته التالية التي تعتبر في طليعة بواكير
 الشعر القومي لم يستطع كتمان فرحته بانكسار الترك في الحرب الروسية
 العثمانية ١٨٧٨ حيث يقول (١) :

كم حروب للروس دارت على الترك رحاها ففادرتها طحيننا
 هكذا هكذا تدور على الباغي الليالي ويهلك المجرمونا

وفي ديوانه (النفثات) غمط جديد من الشعر القومي يشير إلى تأثر عدد
 من مثقفي تلك الفترة بالآداب الأجنبية كالقصص الروسي وسواه ويظهر ان الأدب
 الرمزي الذي اعتمده بعض ادباء الروس في نقد أساليب الحكم القيصري قد صادف
 هوى في نفس رزق الله حسون، فنقل تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم في العهد
 العثماني، فالقصائد العربية تصور لنا فساد الحكم على ألسنة الحيوانات وتشير إلى صلف
 الحكام وقسوتهم ، وترينا تحكّم الأقوياء في الضعفاء ، (٢) ، وهذا النمط من
 الشعر الرمزي يعتمد على التلميح حين يتعذر التصريح .

ومن الشعراء المتطرفين الذين لم يجدوا حلاً ناجحاً لدولة الرجل المريض
 سوى هدم كيانه ، قول سليم سر كيس صاحب جريدة المشير (٣) :

يا أهل سوريا القساور من كل مفخور وفاخر
 أفترضون صفارة لم يرضها في الناس صاغر

ومن مشهور أياته (٤) :

زجو صلاح الترك قد خابت أمانينا الكواذب

(١) نشرت الايات في جريدة المشير العدد ٢١ ، انظر ايضا المقدسي ١ - ٢٣

(٢) سامي الكيالي - الحركة الادبية في حلب ٤٤

(٣) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

(٤) المشير ٢١ أبريل ١٨٩٧ المقدسي ١ - ١٧

هي دولة ظلمت وليس - العدل عن ظلم بذهاب
ليس العجبة فقدما بل عيشها إحدى العجائب
وفي هذه الآيات نفحة من روح اليازجي وثورته .

ومن هذا الاتجاه العنيف الثائر قصيدة (العرش والميكل) لجبرائيل دلال
الخلبي وهي تمتاز بجرأتها وصراحتها ، وكان الشاعر قد نظمها في باريس حيث عبر
بحرية عن آرائه في جور السلطان وشعوذة الكهنوت ، ومما قاله فيها مندداً
بالاستبداد الحميدي (١) .

فلم الخضوع لدى البغاة وما لها
هل انها إلا أناس مثلنا
عجبا تتيه بتاجها وقضيتها
وبنا ومنا العزم في تغليبها
فالجيش من أولادنا لقتالها
والبدخ من أموالنا لمعيتها

ثم يحض الدلال قومه العرب على الثورة بقوله :

يا غافلين تنهبوا من رقدة
هيا نهضوا وبطردوها جهداً واقتد
طالت لسعد الوحش في تأديها
ساد الدمار وعم من تخريبها
حتى يرى كل الوري فوق الثرى
بالأمن يرعى شاتها مع ذبيها

على ان ثمن هذه المرأة كان غالياً ، إذ غيب صاحبها في أعماق السجن حيث
قضى لوعة وأسى (٢) :

وكان الشيخ نجيب الحداد من رواد الشعر القومي الحديث الذين تحلوا
بنفج الوعي القومي ، ومن أقدم ما قيل في تصوير أمل العرب في التحرر
والوحدة قوله (٣) :

إنما نحن هيكل واختلاف - الاسم وهم فكلنا أعضاء

١ سامي الكيال - الحركة الادبية في حل ٧٨ - ٨٥

٢ المرجع السابق ٧٣

٣ ديوانه تذكارات الصبا ٥ - ٧

وكان مما قاله أيضاً وتجلت فيه الروح القومية الثورية (١) :
 آن الأوان لأن أحاطر بالدم من لم يحاطر بالدما لم يسلم
 أجزيرة العرب التي أحبتها كم من أكف قد رمتك بأسهم
 لعبت أكف الترك فيك وغادروا في كل قطر منك نهراً من دم

ولا ريب في أن هاتين المقطوعتين غط جديد من أعماط الشعر القومي غير
 الشاعر فيما عن تجاوب العربي مع إخوانه في الأقطار الأخرى وعن النزوع المبكر
 نحو الوحدة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وكان أديب إسحق من كبار رجال الفكر والأدب ، وقد سار البيتان
 الرائعان اللذان ينسبان إليه على كل لسان (٢) :

قتل امريء في غابة جريرة لا تغتفر
 وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

وقد تجلت خلال هذه الفترة نفسها ومضات رائحة لدى عدد من الشعراء
 المصريين وفي مقدمتهم محمود سامي البارودي الذي جعل من نفسه ومن شعره على
 السواء وقوداً للحركة الوطنية . فقد أخذ الشعور بالسخط على الحكام وفساد
 الأحوال يتبلور في أذهان الشعراء ومنهم صالح مجدي الذي توفى قبيل الثورة العراقية ،
 وبدأت تظهر في شعره المطالبة بالحقوق السليمة ، والحد من تسط الترك . والتنديد
 بالظلم والاستبداد . ومن أبرز ما قيل في هذا الصدد أبيات للبارودي نظمها في متفاه
 حيث قال (٣) :

أبى الدهر إلا ان يسود وصيحه وعياك أعتاق الطالب وغده
 اذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت عليه ، فلا بأسف إذا ضاع مجده
 وأقتل داء رؤية العين ظالماً يسيء ويتلى في المحافل حمده

(١) المقدسي - ١ - ٨٥ ولم ترد الابيات في ديوانه

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ١ - ٨٢

(٣) ديوانه ١ - ١٣

علام يعيش المرء في الدهر خاملا أيفرح في الدنيا بيوم يعمده
يرى الضيم ينشأه فيلتذ وقمه كذى جرب يلتذ بالحك جلده

لقد كان البارودي شاعر الثورة العراقية كما كان عبدالله نديم خطيبها، وهما مثال حي لاشتراك الأديب العربي في النضال القومي، وفي طليعة رواد الأدباء المجاهدين في فجر النهضة.

ثم بدأ الشعراء ينظمون القصائد تترى في الشعر القومي، ولم تكند شمس القرن التاسع عشر تؤذن بلغيب حتى أخذت جذور الوعي القومي تعمق في النفوس وكانت طبقة أخرى من الشعراء قد تسلمت راية الشعر القومي وأخذت تبشر دون هواده بالتححرر والاستقلال. ومنذ ذلك الحين يتبوأ الشعراء العراقيون وفي مقدمتهم معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وعبدالمحسن الكاظمي مكانة مرموقة في الشعر الحديث بصورة عامة وفي الشعر القومي بصورة خاصة. وتلتقي هذه القصائد المثارة مع صيحات الأحرار في مصر والشام وتغدو حرباً على الاستبداد الحميدي. وبما يقوله الزهاوي في ذلك مندداً بالحكومة العثمانية (١):

وما هي الا دولة مستبدة تسوس بما يقضي هواها ويعمل
فترفع بالاعزاز من كان جاهلا وتخفص بالاذلال من كان يعقل
وقد عبثت بالشعب اطماع ظلم يحمله من جوره ما يحمل
فتعسا لقوم فوضوا امر أنفسهم الى ملك عن فعله ليس يسأل
فيا ملكا في ظلمه ظل مسرفا فلا الامن موفور ولا هو يعدل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تنقر بها فان يد الايام منهن اطول

بهذه المرأة أنذر الزهاوي الطفلة فكان مصيره السجن والابعاد.

وكما سمي الزهاوي قصيدته هذه « حتام تغفل » اطلق الرصافي على آياته التالية « تنبيه النيام » وعلى آيات أخرى « ايقاظ الرقود » وهذه عناوين شاعت في

دواوين الشعراء خلال تلك المرحلة من نضال العرب القومي ، اذ لن اولى مراحل الثورة على الظلم الشعور به ، ومما يقوله الرصافي في هذه القصيدة (١) :

اما آن أن يغشي البلاد سعودها ويذهب عن هذى النيام وجودها
أما أسد يحمي البلاد غضنفر وقد عاث فيها بالظلم سيدها
عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
واعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

وعلى هذا النوال نسج ولي الدين يكن قوله وكان من ابرز من ندد بالاستبداد من الشعراء (٢) :

صحا كل شعب فاسترد حقوقه فيا ليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم وليس له فيمن تولوه خادم
يقلب من عهد لعهد على الاذى إذا زال عنه عاشم جد عاشم

ودأبت هذه الاصوات الحرة على حمل رسالة الحق والحرة حتى اضطرت عبد الحميد الى نشر دستور البلاد بعد طيه اكثر من ثلاثين عاما . وكان هذا الحدث كبيرا اشاع الفرح في قلوب المواطنين جميعا على اختلاف دياناتهم وقومياتهم . وملا نفوسهم املا واستبشاراً ، ومن العسير ان نجد في ذلك الحين شاعر أو ناثراً أو خطيباً لم يستخفه الطرب ، « الا ان الحماس التحرري الداعي الى تمرد العرب على الترك والانفصال عنهم قد فتر في فورة هذه الفرحة الدستورية لان الانفصال لم يعد له في الظاهر ما يصوغه بعد ان جاء الدستوروا يطعن المواطنين على حرياتهم ويعلن المساواة التامة بينهم على اختلاف مذاهبهم واجناسهم ولغاتهم (٣) »

وقد بدا للجميع ان الاماني قد تحققت وانه ما بعد الدستور زيادة لمستزيد ولا مطلب لمطالب ، اذ عم التسامح واحت الضغائن وتآخى الترك والعرب ورفرفت

(١) ديوانه ١٠٢

(٢) ديوانه ١٩

(٣) الدكتور امجد الطرابلسي ، شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٢٠

الوية المساواة والعدالة والحرية ، واذا الدستور رمز نسجت حوله هالة ككبري من الآمال . ومع ان هذا الدستور لم يحقق شيئاً للعرب الا ان اعلانه احدث هزة في النفوس ففرت بالوعي الى الامام ، كما ادى الى انطلاق اغايد الشعراء لاهجة بالحرية التي طال احتباسها . ومع ان جميع شعراء العرب في شتى اقطارهم ومهاجرهم هلبوا لاعلان الدستور الجديد فان هذا التهليل لم يلغ لدى شعراء مصر المدى الذي بلغه في سائر البلاد ، وما ذلك الا لان مصر كانت غير خاضعة للحكم العثماني المباشر ، ويبدو هذا الفارق بشكل اوضح فيما نظم من قصائد إثر سقوط عبد الحميد . وإذا استثنينا ولي الدين يكن الذي عانى احوال الاستبداد فان اكثر شعراء مصر ومنهم اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومحمد عبد المطلب واحمد محرم اظهروا عطفاً بالغاً على السلطان الخلع . وهم في ذلك إنما كانوا يتجاوبون مع مشاعر المصريين الذين مازالوا حتى ذلك الحين يرجون خيراً في نظام الخلافة والحكومة الاسلامية ، ومن ناحية اخرى فان المصريين لم يكونوا يعانون شيئاً من مظالم العثمانيين بعد انحسار نفوذهم عن مصر ، وإنما كانوا يرحلون تحت وطأة المحتلين الانكليز ، ولهذا لم يشعروا بشيء من النقمة التي كان يشعر بها أهل الشام والعراق في المهجر تجاه تسلط الترك على العرب وطمعهم على قوميتهم .

على ان شعور العطف على السلطان اخذ يتضاءل عند اولئك الشعراء حتى كاد ينقلب احياناً الى تشف وعداء ، ونفس ذلك التحول بوضوح فيما نظمته حافظ وشوقي فيما بعد من قصائد .

وبالرغم من سحق شعوب الدولة العثمانية وقومياتها على عبد الحميد واستبداده بما فهم الترك انفسهم فان مشاعر العرب بصورة عامة ، باستثناء المتطرفين منهم ، ظلت على ولائها للدولة العثمانية بدافع العاطفة الدينية المشتركة ، فاكثرت بما كانت تلح على المطالبة به من تحقيق العدالة بينهم وبين الترك في الوظائف والتمثيل النيابي ، ومن الاحتفاظ بشخصيتهم العربية ولغتهم وحقوقهم المشروعة ، والأخذ بنظام الحكم اللامركزي ضمن نطاق الدولة العثمانية . وبرغم شعور التذمر الذي ساد العرب من جراء معاملة الترك لهم فقد كانوا اول الامر ابعداً ما يكونون عن القيام بآية ثورة

ضدم . ومما يؤكد ذلك ان الشيخ فؤاد الخطيب الذي غدا بعد ذلك شاعر الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد حكم الآستانة هو نفسه الذي كان يخاطب الترك بقوله (١) :

أخواننا الأتراك مدوا لنا يدا من الود إنا قد مددنا لكم يدا
وما تنقضى ثورة دموية فلسنا عطاشا نطلب الدم موردا
ولكننا نرجو إخاء موطدا يعز علينا أن يكون مهيدا

ولكن التكلفة سرعان ما حلت ، والناس مازالوا في عرس فيست الزغاريد في الحلوق وحملت الابتسامات على الثغور ، فلقد تبين للعرب ان الدستور لم يكن الا سرايا من حيث ظنوه ماء زلالا ، اذ كان من المؤمل ان تهاك القوميات المتعددة في جبهة عثمانية واحدة ثبت امام الخطوب الخارجية لولا استئثار جماعة من غلاة الترك بالحكم وتنكرهم للعرب . فيؤلاء - وقد عرفوا بالاتحاديين - اتخذوا من القومية التركية الضيقة مبدأ لها ، وبدت سياستهم (الطورانية) العنصرية في اشع مظاهرها تجاه القوميات الأخرى المحكومة . وقد عبر الشعراء عن خيبة الأمل المريرة التي اصاب العرب نتيجة نذر الترك وتنكرهم للدستور . ولكن انى لعجلة الزمان ان تعود الى الوراء ، وكيف يرضى العرب بان تهدر حقوقهم بعد ان نعموا بالحرية وتنشقوا بجلء رئاسهم نسبتها .

وكان لا بد من صراع قومي خفي حيننا وسافر احيانا بين قوتين رئيسيتين في الدولة العثمانية هما القومية العربية والقومية التركية ، ودخل نضال العرب في مرحلة جديدة ضد التبعية التركية كان من مظاهره تلك الجمعيات العديدة السرية والعلنية التي اخذت على عاتقها عبء العمل ونشر الوعي وتمتة الشعور القومي

وقد حافظ العرب على الأناة وتذرعوا بالصبر في علاقاتهم مع حكومة الاتحاديين التركية وغدا الأمل في تقويم الاعوجاج كبيرا ، ولاسيما ان فريقا من الترك وقف الى جانب مطالب العرب .

وحين وقعت حروب البلقان عام ١٩١٣، التف الرأي العام العربي حول الدولة العثمانية شأنه في جميع الحروب التي خاضتها من قبل، كحربها مع الروس ومع اليونان ثم مع الطليان واخيراً مع شعوب البلقان. وقد تجلّى ذلك في مواقف الشعراء العرب الذين انتصروا بقصائد حارة للعثمانيين وللشرق والاسلام.

غير ان شيئاً مذهلاً قد وقع آنذاك، اذ شبت فجأة نيران حرب عالمية كبرى. عزم الاتحاديون على خوض غمارها بما يشبه مغامرة اليائس فدوا السنة القتال الضاري الى الشرق العربي وجعلوا الدولة العثمانية طرفاً في النزاع بين كتلتين جارتين متناطحتين.

اما العرب فقد اصبحوا يواجهون حرباً ضروساً لا جدوى لهم فيها، ووجد احرارهم والمتطرفون منهم ان هذه الحرب مجازفة كبرى ستطيح بالدولة نفسها وسيتحمل العرب انفسهم نتائج غرور الترك. ومع ذلك بدا لغالبيتهم ان عليهم واجب الدفاع عن دولتهم وتناسي خلافاتهم مع الاتحاديين وما كانوا فيه من اخذ ورد، حتى ان عدداً من اشد شعراء العرب عداوة لترك ولتسلطهم واستبداد سلاطينهم، دعوا الى حمل السلاح الى جانب القوات التركية دفاعاً عن كيان الدولة نذكر منهم الرصافي إذ قال يومئذ (١):

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطننا

فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا

كما ان الشهيد محمداً المحمصاني اخذ احرار العرب ومن اركان (الجمعية العربية الفتاة) أسرع بالعودة الي بلده من مصر إثر سماعه بقيام الحرب ليكون جندياً في صفوف الجيش العثماني (١) .

(١) - ديوانه ١٩١٠ :

وبقيام الحرب العالمية الأولى وما رافقها من أحداث بطش وإرهاب ومجاعة في بلاد الشام والعراق واعلان الحماية الانكليزية والادارة العرفية في مصر .. يدخل نضال العرب مرحلة جديدة حاسمة ، والحرب ولود لثورات

هكذا كان حال الشرق العربي منذ نهضته في القرن التاسع عشر . فالشعور القومي كان يذكو حيناً ويخبو أحياناً ، وما زال كذلك حتى أخذت شعلته في التوهج وقد انعكس كل ذلك على الشعر العربي الحديث فكانت فئة من الشعراء ممن ذكرنا تسم شعورها القومي بالقوة والصفاء والجرأة ووضعت في بواكيرها تلك ، أساساً وطيداً للشعر القومي . وكانت فئة أخرى معتدلة في شعورها هذا تحاول التوفيق بين الطرفين وتتخذ موقفاً وسطاً ، ومن هؤلاء شبلي الملائط وعبدالمجيد الرافعي وخليل مطران وجميل صدقي الزهاوي وسوام .. وكانت فئة ثالثة موالية للدولة العثمانية ومتجاهلة في الوقت نفسه شعور القوميين العرب مع اختلاف في الدافع ، فهو إما شعور ديني صادق وغيره على الدولة الاسلامية من أن تعصف بها مطامع الغرب وإماریاء ونفاق جلب منافع وتحقيق مآرب ، وإما خوف ورهبة من بطش حاكم واستبداد ظلم .

وهذا الشعر الموالي للدولة يمكن أن نطلق عليه اسم الشعر الرسمي كما أسماه أجد الطرابلسي ، ومن أصحابه أحمد شوقي ومحمد عبدالمنظف وأحمد محرم وأمين ناصر الدين وشكيب أرسلان وبدر الدين النعساني .
وسنرصد خلال الفصول التالية هذه المشاعر القومية في الشعر الحديث وتتبعها في قوتها وضعفها ، واندفاعها وجودها ، وازدهارها واتسكاسها .

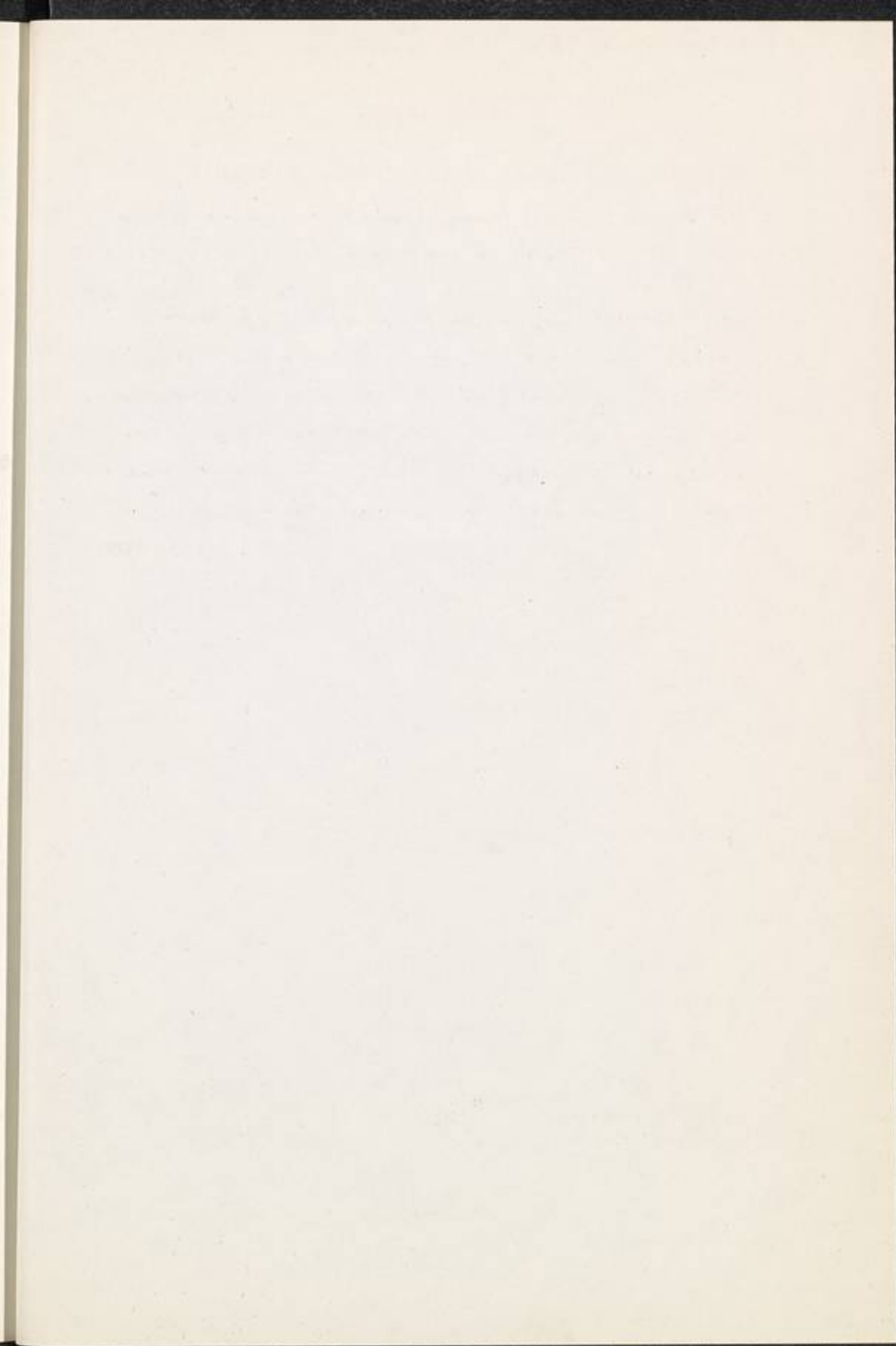
ومن اليسير على الناقد أن يتبين فيما بين يديه من بواكير الشعر القومي شيئاً من الضعف الفني ، إذ لم يقبض للأدب العربي الحديث في تلك الفترة ظهـر شعراء كبار ملكوا ناصية فهمهم ومن أوتى ذلك كالبارودي لم يكن مضمونه الشعري في كثير من قصائده يبلغ مستوى أدائه . فالعشور على ما أوردنا من شواهد كان على المضمون قبل الشكل ، والمعنى قبل اللفظ ، والشعور قبل الشعر .

(١) - مصطفى الشهابي ، محاضرات في القومية العربية ١٠٦

ومما تجدر ملاحظته أن أكثر ما قيل من هذا الشعر لم يجرؤ أصحابه على الجهر به إلا بعيداً عن سلطة الدولة العثمانية في مصر أو في باريس أو في غيرها . وما قيل منه في ربوع الوطن أودى صاحبه أو حالفه الحظ فأقلت ونجبا .

وجملة القول إن أصحاب البواكير الذين أشرنا إليهم هم رواد الشعر القومي الأوائل في القرن التاسع عشر ، وكان لهم فضل السبق وميزة البدء ، وهم الفجر الصادق الذي لاح في دنيا العرب حملاً رسالة التحرر ومبشراً بيوم أغر . ولم تكن أشعارهم تلك على قلة ما نظموه في هذا الموضوع سوى القطر الذي يسبق لنهار الغيث والصيحة المدوية تجاوبت مع تعاليم جمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي وأديب اسحق ، وكانت أشبه بنفخات الصور نهبت العرب من غفلتهم بعد أن ران عليهم الجلود قرونا .





الباب الاول

رَوَافِدُ التَّيَّارِ الْقَوْمِيِّ

- الفصل الأول : الجامعة الاسلامية
- الفصل الثاني : الرابطة الشرقية
- الفصل الثالث : النزعات الاقليمية
- الفصل الرابع : العاطفة الانسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد حضر

الاجتماع المذكور

في يوم الاثنين

العاشر من شهر

ربيع الثانی

سنة ١٣٤٥

هـ الموافق لـ ١٩٢٦

م

ع

ع

ع

ع

ع

الفصل الأول

١

الجامعة الإسلامية

إن البحث في أصل الشعور القومي عند العرب المعاصرين ، يرجع بنا إلى جذور له عميقة تمتد في الماضي ما يقرب من أربعة عشر قرناً حين شعر العرب بكيانهم الموحد وشخصيتهم المتميزة لأول مرة على أثر ظهور الاسلام . وهكذا عرف الشعور القومي الكامن في نفوس قبائل العرب طريقه إلى التبلور بسرعة منذ ذلك الحين ، وارتبط المفهوم القومي بالاسلام طيلة عصور مديدة ، وما يزال كذلك حتى اليوم في أذهان الكثيرين من العرب . ومما ساعد على هذا الالتصاق الشديد بين المفهومين كون الرسول صاحب الدين الجديد عربياً ، وأن الذين نشروا رسالة الاسلام في الأرض كانوا عرباً ، وأن التراث الاسلامي لا يمكن فصله إطلاقاً عن تاريخ العرب والثقافة العربية .

ومع هذا كله « لا يمكن تحديد العرب على وجه الضبط بالاسلام وذلك لأسباب ثلاثة : أولها أن امتداد الاسلام تجاوز العالم العربي بكثير ، وثانيها أن الشعوب العربية فيها عدد كبير من المسيحيين وسواهم من العرب غير المسلمين ، وثالثها أن المسلمين اليوم يضعون لأنفسهم قواعد جديدة للتوفيق بين روح العصر ومعضلات التقيد بمنهج السلف . إلا أن انتشار الاسلام ذلك الانتشار الساحق هو الذي أوجد الدولة العربية التاريخية وطبعها كلها الى يومنا هذا بطابعه وروح حضارته (١) » .

(١) إرنست هو كنج في مقدمته لكتاب العالم العربي تأليف نجلاء عز الدين

وتبعاً لذلك ونظراً لأن المقام الأول في القرون الوسطى كان للعامل الديني، لم يكن ثمة فارق كبير وحدود واضحة بين مفهوم الوطنية ومفهوم الدين، وإن قصائد الشعراء في العصر الأموي ثم العباسي تعبر عن هذه الظاهرة بوضوح، من ذلك مثلاً بائية أبي تمام في المعتصم وقصائد التنبجي في سيف الدولة؛ فهي تصور المعارك التي خاضها الأجداد على أنها صراع بين العرب والروم وبين الإسلام والمسيحية في الوقت نفسه. وقد أحكم هذا الربط بين الدين والقومية إلى حد كبير خلال الحروب الصليبية التي خاضها العرب على أنها حروب قومية وجهاد مقدس معاً.

ثم قام الحكم العثماني أيضاً على هذا الأساس من عدم التمييز؛ فكانت سلطنة الدين والدولة متداخلتين في نظام الخلافة. بل إن ادعاء سلاطين الأتراك أنهم ورثة الخلافة العباسية مكنتهم برغم كونهم ليسوا من العرب من أن يحكموا هذه البلاد قروناً طويلة متخذين من الدين درعاً واقية.

والحق أن اقتران الحكم العثماني بالإسلام ثم عدم تمييز غالبية المسلمين بين خليفة مسلم عادل يحكم على أساس من الشورى وبين سلطان تركي متربع على عرش في الآستانة، قد أساء إلى حركة العرب التحررية. فالإسلام الموروث لدى الترك مزيج من رواسب مختلف العصور انقلبت فيه القيم وتبترت النسب وتشوهت المعالم.. وهو مختلف اختلافاً كبيراً عن الإسلام الأصيل الذي خرج به إلى العالم حيوية متدفقة، وإنسانية سامية، وروحانية إيجابية، وعدالة مناضلة، وإيماناً فعالاً، وأخوة إنسانية بين البشر والديانات.. إن الإسلام الموروث المشوه كان مقترناً مع كيان الدولة العثمانية معاصراً لها منسجماً معها» (١)

وقد اضطر المسلمون العرب - عن وعي أو عن غير وعي - تحت وطأة الأحداث السياسية وتكالب الغرب على بلادهم إلى أن يحكموا الأواصر بين العثمانية والإسلام كيلا يتحواله فرصة النفاذ إلى وطنهم. ومن هنا كانت الصفة الغالبة على الشعر العربي الحديث حتى أوائل القرن العشرين هي المزج بين الدين والقومية واعتبار السلطان التركي خليفة للمسلمين، والدولة العثمانية دولة الإسلام.

(١) محمد المبارك - الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ٦٠

ومنذ اخفاق ثورة عرابي يشير البارودي الى هذا المفهوم المزدوج بقوله (١)؛
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلما وانتمرب

وقد كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي يفهمون الوطنية على أساس ديني. ومثل هذا الشعور دفع بالامام محمد عبده إلى أن يقول « إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين » (٢) كما كان عبدالله نديم وتوفيق البكري ومصطفى كامل الذين أيقظوا الروح الوطنية في مصر من ذوي الاتجاه العثماني أيضاً يرون العثمانية والمصرية من معدن واحد هو الاسلام ولا تنفصم الواحدة عن الأخرى .

وبقي الشعراء في مصر بصورة خاصة ينهلون من معين تلك المبادئ التي صدر عنها هؤلاء الاعلام والتي بقي صداها مائلا في الأذهان إلى ما بعد الحرب الكبرى ، وكان شعراء الجامعة الاسلامية حريصين على دوام الصلة الدينية والسياسية مع العثمانيين وفي مقدمتهم أحمد محرم الذي يقول (٣) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهب

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً حافظ إبراهيم الذي يترقب في مخاطبة العثمانيين ولا يعدو في آياته التي يشير فيها إلى تفاضهم عن احتلال الانكليز لمصر حد العتاب (٤) :

يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ونحن في الله اخوان وفي الكتب
ركتمونا لأقوام تخالفنا في الدين والفضل والأخلاق والأدب

(١) ديوانه ١ - ٣٧

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ١ - ٩٠٩ .

(٣) ديوانه ٢ - ٤ .

(٤) ديوانه ٢ - ١٨ .

ولقد اثار خلع السلطان عبدالحميد تقمة بعض الشعراء فراحوا يبكونه
ويترحمون على عهده وبخاصة في مصر التي كانت في منجاة من ظلمه واستبداده، وذلك
واضح في قصائد احمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وسواهما، ممن اعتقدوا في هذا الامر
مساساً بالاسلام ووقدية الخلافة، وتقويضاً لأبرز اركان الجامعة الاسلامية

وبدافع من ذلك الشعور المشترك بالرابطة الدينية والحذر من الغرب المسيحي
وقف الرأي العام العربي الى جانب الدولة العثمانية في صراعها مع الدول الاجنبية
الاخري، وقد تجلى ذلك على السنة الشعراء العرب بوضوح كما تشير قصائد كثيرة
لشوقي وحافظ والرصافي ومحرم وعبدالمطلب والكاشف والزاهاوي والكاظمي
وعبدالحميد الزافعي وشكيب ارسلان وفؤاد الخطيب .. وغيرهم ممن كان شعرهم صريحاً
في مواجهة اعداء العثمانيين في اثناء حروبهم مع الروس واليونان ودول البلقان، وحين
ثار الصرب واليونان والبلغار على الدولة العثمانية ينشدون التحرر وخلع الربقة
التركية من اعناقهم بلغ الرصافي في حقه وغضبه عليهم حد الشتم المقذع إذ
خاطبهم بقوله (١) :

يا علوج الصرب والبلغار اولاد الزواني

وهذا يشير الى عدم تميز الفكرة القومية في اذهان الشعراء حتى ذلك الحين
فالدولة التي كان يعيش الرصافي في كنفها عثمانية اسلامية وهو يرى في انتفاض شعوب
البلقان عليها اضعافاً لكيانها، وان هذه الشعوب يجب ان تظل محكومة، ولم يكن
الكثيرون يدر كون يومذاك ان هذه الشعوب لا تربطها اية رابطة قومية او سواها
بالترك. ومما يؤكد اثر العقيدة الدينية في موقف الرصافي وسواه من هذه الحركات
القومية ان بعض الشعراء من غير المسلمين نظروا الى هذه الحركات بمنظار آخر
مضاد على نحو ما وجدنا عند ايليا ابي ماضي الذي دعا العرب - كما سيمر بنا - الى ان
يأخذوا امثالهم عن البلقان وان يتشبهوا بالصرب واليونان وانكر عليهم
خضوعهم لانباء جنكز خان (٢)

(١) ديوانه ٤٩٦

(٢) انظر زهير ميرزا؛ أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ص ١٣٥، ١٨٧

لقد كان كل تقلص لظل الامبراطورية العثمانية يعتبره انصار الجامعة
الاسلامية تقلصا لظل الاسلام ويذكر الشعراء بماضيهم في الاندلس . كما كان كل
نصر او تقدم يحرزه العثمانيون يعتبره هؤلاء الشعراء نصراً للاسلام سواء في المجال
العسكري او في المجالات الاخرى . وقد هلك الشعراء قبيل الحرب الاولى وبخاصة
في مصر لأول طيار عثماني ورأوا في نجاحه ذلك نجاحا للمسلمين قاطبة ، وبما
قاله حافظ يومئذ (١) :

أهلاً بأول مسلم في المشرقين علا وطار
النيل والبسفور فيك تجاذبنا ذيل الفخار

وبالرغم من ان هذه الرابطة الدينية اخذت تتضاءل في نفوس العرب قبيل
الحرب الكبرى لتفسح المجال امام المشاعر القومية والمطالب الوطنية فقد وقف كثير
من شعراء العرب ايضاً مع الدولة العثمانية في قتالها ضد الحلفاء عندما نشبت تلك الحرب
مدفوعين بعاطفتهم الدينية قبل كل شيء سواها ، وقد انعكست هذه المؤازرة في
القصائد الكثيرة التي نظمت آنئذ ، من ذلك ما قاله معروف الرصافي الذي يمكن
اعتباره من شعراء الجامعة الاسلامية برغم حملته الشعواء على عبد الحميد
واستبداده (٢)

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطننا
فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستهضوا يا بني الاسلام قاطبة من يسكن البدو والأرياف والمدنا
عار على المسلمين اليوم أنهم لم ينقذوا مصر او لم ينقذوا عدنا
لا زلت يا وطن الاسلام منتصرا بالجيش يزحف من أبنائك الأمانا
ومما كان يدعو الكثيرين من الشعراء والكتاب والزعماء الي التمسك
بفكرة الجامعة الاسلامية ، ما لمسوه لدى عدد من مفكري الغرب وصحفه وساسته
من تنديد بالاسلام وتحفز للاجهاز على اقطاره ، ولعل آيات الرصافي

(١) ديوانه : ٧٦

(٢) ديوانه : ٤٩٢

الأخرى التي نظمها خلال تلك الحرب الأولى خير ما يصور أهمية الرابطة الدينية آنذاك (١):

وبك ان الاسلام أوجد فينا وحدة مثل وحدة الرحمن
فاعتصمنا منها بجبل وثيق هو جبل الاخاء والايان
ليس معنى توحيدنا الله في الملة - إلا اتحادنا في الكيان
وحدة جاءنا من الله فيها مرسل بالكتاب والفرقان
ما نرى سلطة علينا نخلق غير سلطان خالق الأكران

ولكن فظائع جمال باشا في دمشق وبيروت إبان الحرب العالمية الأولى وبطشه باحرار العرب جعلت الكثيرين من الشعراء يتحولون عن شعور الولاء للدولة العثمانية وبالتالي للجامعة الاسلامية، ويفكرون جدياً بالاستقلال، ومنهم عبد الحميد الرافعي وفؤاد الخطيب. اما الشعراء الشبان في ذلك الحين فقد كانوا بصورة عامة اشد شعوراً بوطأة الحكم التركي واكثر تمييزاً بين شؤون السياسة والدين، وقد عبر خليل مردم إثر انتهاء الحرب الأولى عن هذا الشعور بقصيدة مطولة تشيع فيها روح الاغتياب بطرد الترك من بلاد الشام، ومما قاله يومذاك متحدثاً عن قومه العرب (٢):

أحلت ذرام واستبيح حمام وسميوا هوانا سادة ومواليا
يساقون باسم الدين للموت عنوة وهل كان إلا منهم الموت ناشيا
لوت منهم الأسباب أسباب صلبهم رؤوساً من العلياء كانت دوانيا

ولا ريب ان يقظة الشعور القومي كانت الدافع الأول إلى نظم مثل هذه الآراء وذيوعها. فقد غدا العرب منذ ذلك الحين يأبون ان يسخروا لمآرب الترك ويساقون كالمقطعان إلى مذبح تلك الحرب الضروس باسم الاسلام وتحت راية

(١) ديوانه ٤٧٦

(٢) ديوانه ٣٨٧

الدين ، ثم يعلق احرارهم على اعواد المشانق ، وبلسانهم نزل الوحي ومنهم
كان الرسول وبهم انتشر الاسلام .

ومع ذلك ظل بعض الشعراء مثل شكيب ارسلان وبدرالدين النعساني
واحمد محرم واحمد الكاشف وسوام .. على ولائهم لحكام الترك واشفقوا على هذه
الرابطة الدينية ان تنفصم عراها ، وقد وقف شكيب ارسلان ضد بني قومه من
احرار العرب في استانبول حين دعوا الى الانسلاخ عن العثمانيين واعترف انه سيكون
في الصف المقاوم للحسين بن علي ، وانه ينتقد سياسة الخروج على دولة الخلافة (١)
وكان من مظاهر ولائه للعثمانيين اندفاعه في إطرائهم والتسييح بحمدتهم ، ودماء
الاحرار الذين علقهم جمال باشا على الاعواد لم تطل ، فما قاله يومئذ
مخاطبا الأتراك العثمانيين (٢) :

اجبكم حب من يدري موافقكم	في خدمة الدين والاسلام والحسب
مها يكن من هنات بيننا فلنا	معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا	إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجددي بعتان حامي ملتي وأنا	لم أنس قحطان أصلي في الورى وابي

فالشاعر في آياته هذه يغتفر كل إساءة مها تكن بالغة إذا صدرت عن
الترك ولا يرى فيها سوى هنات ، وان العهد القديم لا يمكن ان ينقضب ، وانه إذا لم
تجمع بين العرب والترك وحدة النسب والاصل فكفاهم الدين الواحد والعقيدة
المشتركة ، بل ذهب عبدالحليم المصري إلى ابعد من ذلك حين قال :

إن قيل في مصر إن الترك قد ظلموا	فمر ظلمهم أحلى من الضرب
ما أعذب القتل من سيف الصديق وما	امره إن يكن من غير مصطحب

ولكن سائر العرب في بلاد الشام والعراق كانوا يعانون الوان الظلم من
قبل الترك ، لا كما يسمع به الشاعر المصري فيظنه - وبعض الظن لثم - أحلى من

(١) الدكتور سامي الدهان ، محاضرات عن الامير شكيب ارسلان ص ١٥-١٦

(٢) ديوانه ١٢٩

العسل ، بل على العكس من ذلك كان لسان حلهم يردد بمرارة مع
الشاعر الجاهلي :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وإذا كان الترك مسلمين ، فانهم في نظر الكثيرين قد انحرفوا عن الاسلام
حين استحلوا دماء إخوانهم في الدين ، وكان لا بد للعرب ان يثوروا أخيراً ، وكانهم
دفعوا الي الثورة دفعاً بعد ما بلغ السبيل الزبي .

وبرغم اننا اليوم قد لا نستطيع كثيراً هذا الولاء المفرط للعثمانيين في شعر
شكيب ارسلان واحمد شوقي وعبدالحليم المصري وسواهم إلا اننا يجب ان ننظر
الى الموضوع من خلال الظروف والملابسات التي كانت تسم العالم العربي آنذاك وتجعل
هذا الاتجاه العثماني الاسلامي وجهة نظر منطقية ومقبولة في ذلك الحين لدى الكثيرين
من العرب الذين فهموا الوطنية على اساس من الدين ، فقد رأوا المستعمر الغربي
المسيحي يمدد نحوهم انياباً صليبية ، ولم يكن امامهم بد من تكتلهم وتدعيم وحدتهم
الكبرى في سبيل مقاومته ، ولكن الواقع ان هذا التكتل بين القوميتين الكبيرتين
في الدولة العثمانية لم يكن يشتد امره ويتجلى قوياً في الشعر إلا تجاه المحن والأزمات
فكان العرب والترك يتحدثون مؤقتاً حين يهاجمهم أقوام آخرون من ديانات وقوميات
أخرى ، وعلى هذا الضوء نستطيع ان نفسر مؤازرة عدد من شعراء العرب للدولة
العثمانية عندما كانت تواجهها المحن ، وتغدو مهددة من قبل الغرب . في حين ان
هؤلاء الشعراء أنفسهم كانوا من أشد المعادين لمسلك الحكام الترك في
داخل البلاد .

ومع ان كثيراً من الشعراء كانوا يدركون مدى الضعف الذي بلغتته الدولة
وآلت اليه الخلافة ، فانهم تمسكوا بالوضع الراهن آنذاك وحاولوا دعمه بكل قوتهم
وقنعوا من الخليفة ان يكون رمزاً يلتفتون حوله ويكيلون له الثناء لأنه كان في
نظرهم البقية الباقية من مظاهر السلف

ولا ريب ان الترك الذين احسنوا استغلال هذه العاطفة الدينية لدى العرب

طيلة قرون مديدة لضمان استمرار حكمهم لبلادهم ساروا في هذه السياسة نفسها ايضاً عندما خاضوا غمار الحرب العالمية الأولى واستطاعوا ان يكونوا لأنفسهم بطانة من الشعراء والكتاب تسبح بحمدهم وتعتبرهم حماة الاسلام . وفي كتاب (البعثة الاسلامية إلى دار الخلافة العثمانية) الذي افه محمد كرد علي ونفر من صحبه بإيماز من جمال باشا عام ١٩١٦ قصائد كثيرة تنطق بهذا الاتجاه الرسمي . ومنها ما هو صادر عن رجال الدين كالشيخ بدر الدين النمساني المغالي في عثمانيته وفي مديحه لجمال باشا ، عدا ما في هذا الكتاب من شعر طافح بالاستخذاء الممجوج .

وقد حاول الترت أن يصفوا على خصومتهم مع الحلفاء صفة الحرب المقدسة فراحوا يستنفرون العرب للجهاد برغم أنهم كانوا متحالفين مع الألمان . وبهذا السلاح المعنوي حاربوا الثورة العربية ووصموا رجالها بالكفر والمروق من الدين ، بل إن الكثيرين من العرب وبخاصة في مصر التي لم تطلبها مظالم العثمانيين الترك ، استنكروا من تلقاء أنفسهم ما قام به اخوانهم في الشام والحجاز ضد الخلافة وتحالفهم مع الغرب المسيحي في سبيل تقويض أركان الجامعة الاسلامية . وبنتيجة هذه الدوافع انبرى أحمد محرم يندد بزعم الثورة العربية الشريف حسين لثورته على الخليفة وكان مما قاله (١) :

نبئت ما زعم الشريف وقومه	فسمعت ما لم تسمع الأذنان
ياذا الجلالة لا سعدت بتاجه	ملكا سواك به السعيد الهاني
الترك جند الله لولا بأسهم	لم يبق في الدنيا مقيم أذان

وكان محرم في بيته الأخير يعلق بقاء الاسلام على بقاء الدولة العثمانية ويخشى أن يكون في زوالها زواله .

وكان إلى جانب أحمد محرم وعدد من شعراء مصر ، طائفة أخرى من شعراء الشام والعراق لم يرق لهم ما قام به العرب بزعامة الحسين . وقد اشار معروف

(١) الدكتور محمد حسين - الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر = ٢ - ١٩٦٦ ع ن ديوانه المخطوط .

الرصاصي فيما بعد الى تلك الثورة فقال بين علي الخلفاء بالنصر (١) :

لقد قادت الأعراب نحو عدوكم خيولاً لها في حومة الحرب تجوال
وقامت لهم منكم بمكة راية لكم فتحت فيها من القدس أوقال
لقد أغضبوا البيت الحرام وربه وهم بمقام البيت لا شك جهال
ولو أن عهد المسلمين كعهدكم قدما لحالت دون ذا النصر أهوال
ولكنهم باعوا الديانة بالدني فحالت لعمري منهم اليوم أحوال

ولكن هذا العامل الديني الذي كان يؤلف بين العرب والترك في الدولة العثمانية هو الذي أخذ يباعد بينها ، فمن الواضح أن شريف مكة الحسين بن علي قائد الثورة العربية نفسه كان يفهم القومية فيها دينياً كما يبدو من منشور الثورة ، (٢) إذ وجهه « إلى جميع إخوانه المسلمين » وأحل فيه خلع الطاعة عن حكام الدولة لانحرافهم عن فهم الدين القويم ، كما دعا إلى استخلاص الخلافة من الترك وإعادتها إلى العرب . وفي بعض فقراته إشارات إلى تصرفات الاتحاديين الطائشة التي مست الاسلام وكان لها صدى بالغ لدى مسلمي العرب مما أدى إلى نفورهم من الترك وإعراضهم عن شعور الولاء نحوهم والعطف عليهم ، وبخاصة بعد لجوئهم الى سياسة التتريك ومحاولة نحو اللغة العربية لغة القرآن والرسول ، وتنكر بعض صحف الترك للاسلام ، ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ، واستبدال أسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك بها . وقد أثار كل ذلك بالاضافة الى اضطهاد الترك للعرب وتنكيلهم بأحرارهم حفيظة عدد من الشعراء الذين يحلون الدين في المقام الأول ، وإن الدوافع الدينية التي أثارت مشاعر عبدالمطلب ضد الحسين هي نفسها التي أثارت مشاعر شعراء الشام وحواتهم عن مناصرة الترك بعد أن طفق الكيل ، فالشاعر عبدالحميد

(١) ديوانه ٤١٣ .

(٢) أنظر نص المنشور في ثورة العرب طبعة المقطم - ٢٣١ : والثورة العربية الكبرى

لامين سعيد ١ - ١٤٩ .

الرافعي الطرابلسي الذي كان من أنصار الجامعة العثمانية والعاظمين على الترك انقلب
ثأراً على الاتحاديين غيرة على دينه وعرويته معا وشرع يقول :

طلبتم الاصلاح من عصبة تور بالافساد أقواسها
ترغم حب الدين لكن كما يروج السلعة دلاسها
لو تألف القرآن ما حاربت لسانه حتى التوى فانسها

وقد عبر محمد الهاشمي أحد شعراء العراق عن هذا الاتجاه الديني المتمزج
بالروح القومية حين قال في أواخر الحرب الكبرى إثر اندلاع الثورة العربية
من الحجاز (١) :

بني جنكيز إن الظلم عار وأمر لا يقرب به قرار
ألا من غائر منكم يفار على قوم بنوا للدين سداً
م نشروه في شرق وغرب وفي فرس وفي روم وعرب
وفازوا من فيهم بقرب

بني جنكيز إن الدين يشقى بحكمكم وإن الشرق يبقى
ويملو في بلادكم ويرقى

لقد قامت على الدين القيامة وبذلك الخلافة والإمامة
فما للدين عندكم كرامة

ألم تكن الخلافة في قريش تولوها باصلاح وريش
وأتم قد توليتم بطيش

توليتم بلاد المسلمينا فعمتم في البلاد مخربينا
قيام الحاكمين الظالمينا

أرى لغة النبوة والكتاب تضاع فيا لذلك من عقاب
لدين محمد وأبي تراب

(١) ديوانه ، عبرات الغريب ٧٠

ولهذه الايات أهمية خاصة لانها تصور لنا بوضوح حقيقة المشاعر الدينية والقومية التي دفعت العرب الى ثورتهم على الترك ، وهي تعبر بجلاء عن شعورهم بان الخلافة كانت فيهم ولها ينبغي ان تعود اليهم .

والمعروف ان عبدالرحمن الكواكبي كان اول من نادى بجمل الخلافة في العرب في كتابه المشهور « أم القرى » وهذه الفكرة في الواقع فكرة ثورية تجاوزت مع نفوس العرب الى حد كبير وكانت تقض مضاجع السلطان عبدالحميد الذي كان شديد الحرص على ان يستبقى في الآستانة بعض افراد الاسرة الهاشمية من أنجال الحسين كرهائن لديه حيطة منه تجاه كل حركة قد يقوم بها العرب في الحجاز او غيرها لاسترجاع الخلافة منه ..

ولقد كان الشعراء بالأجمال يعبرون عن حنينهم الى ماضي الخلافة العربية ويتوقون الى استعادة عهدها الزاهرة ومنهم ابو الفضل الوليد الذي يقول (١) :

بنداد يا ثكلى الخلافة رجعي نوحا له تنفتت الأكباد
أنعود فيك خلافة قرشية كانت يابضاً والشعار سواد

٢

ثم تفاقمت الأمور وقطع العرب ذلك الخيط المشترك الذي كان يشدهم الى الترك طيلة عهود مديدة حين قاموا بثورتهم الكبرى التي تعد انتفاضة فكرية واجتماعية وقومية قبل ان تكون ثورة سياسية مسلحة .

وبتأثير هذا العامل الديني ايضا ازداد الشعور القومي انطلاقاً وأخذ العرب المسلمون يقابلون عنجبية الترك وتشدق صحفهم المتطرفة بان راحوا يعتزرون بناصرهم العربي الذي كرمه الله حين جعل الرسالة الحنيفة فيه ، واختار منه محمداً

(١) نفعات الصور ٦٨

نبياً للمسلمين وأُنزل القرآن بلسانه المبين ، وقد اشار الحوماني الى ذلك إذ قال (١) :
كفى العرب فخرأ أن منهم محمداً وان له الشأو الذي ليس يلحق

وإذا كان هذا شعور المسلمين الجديد الذي اخذ يتعاظم بتأثير مظالم الترك
إبان الحرب الأولى ، فكيف حال شعور المسيحيين من العرب الذين كانوا يلاقون
الويلات من التعصب الديني آنذاك ، واية رابطة كان بوسعها أن تشدهم الى الترك
وتشعرهم بالولاء نحوهم سواء أكانت هذه الرابطة دينية ام قومية . حتى ان عدد أمن
الأدباء المسيحيين كانوا يلقون على الترك تبعات تأخر المسلمين وهم مجادهم على نحو
ما نجد في عبارة جبران خليل جبران (٢) « أولم تنته المدينة الاسلامية بيده
الفتوحات العثمانية ، او لم يتفقر امراء العرب بظهور سلاطين المنول ؟ » ونحن نقع على
هذه الفكرة ايضاً في شعر إيليا ابي ماضي إذ قال (٣) :

جرتم بالهلال إلي محاق ولولا جباكم بلغ التاما
والشاعر نفسه يحمل الترك وفساد حكمهم تبعه ما آل اليه
العرب من ضعف :

أرتم بيننا الأحقاد حتى ليقتل بعضنا بعضا خصاما

ثم يشير الى اتحاد المسلمين والمسيحيين بعد ان صهرتهم نيران التعصب والارهاب
فاذا هم يدينون بقومية واحدة :

وشاء الله كيدهم فبتنا كمثل الماء والحجر الثاما
وقالوا نحن للاسلام سور وأن بنا الخلافة والاماما
فهل في دين أحمد ان يجوروا وهل في دين احمد أن نضاما
إلى كم يحصرون الحكم فيهم وكم ذا يتتغون بنا احتكاما

(١) ديوانه ٢٠٠

(٢) مجلة الفنون سنة ١٩١٣ عدد ٨ من ٣٧

(٣) أنظر زهير ميرزا : ايليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر

ولاريب ان شعور النعمة عند ابي ماضي نسج من خيوط البواعث الدينية والقومية معاً . فقد ادى فقدان التسامح في سياسة العثمانيين وما سببه من مجازر ومآس الى ازدياد نفور المسيحيين الذين كانوا يجتمعون عبء الضحايا في اغلب الأحيان فراحوا يرقبون يوم الخلاص بلهفة . وكان هذا الأمر شديد البروز في لبنان حتى انه دفع بعضهم الى التعصب والتطرف كرد فعل مضاد في نفوسهم عندما اخذوا يسعون الى الارتقاء في احضان الدول المستعمرة لاشتراكهم معها في العقيدة الدينية ايضاً ، املا في حمايتها لهم وعيشتهم برعايتها في ظل الأمن والسلام . والسبب نفسه كانت دعوة الشعراء الى قيام نظام حكم اسلامي في بلاد العرب تبعث في تلك الظروف على الحذر والريب .

وحين سقطت الآستانة في يد الخلفاء واصبح الخليفة سجيناً او كالمسجين، وجه الكثيرون ممن يؤيدون الجامعة الاسلامية حزناً على معقل الخلافة ودولة الاسلام وكان هذا الشعور اشد وضوحاً لدى الشعراء في مصر بصورة عامة عبر عنه حافظ ابراهيم الذي لم يرف في ذلك الاحتلال سوى جانبه الديني (١)

أيا صوفيا حان التفرد فاذكري	عهد كرام فيك صلوا وسلموا
إذا عدت يوماً للصليب وأهله	وحلى نواصيک المسيح ومريم
ودقت نواقيس وقام مزمر	من الروم في محرابه يترنم
فلا تنكري عهد المآذن انه	على الله من عهد النواقيس اكرم

ونجد ما يماثل هذه العاطفة الدينية الحادة عند شاعر آخر عرف بقوة عقيدته الاسلامية وتحمسه لنظام الخلافة وهو شاعر المهجر أبو الفضل الوليد الذي كان قد اعتنق الاسلام (٢) . فقد أثار انتصار العرب على العثمانيين واحتلالهم ببلاد العرب حميته الدينية فراح يستنهض قومه لاستعادة مجد الخلافة وطرد المستعمرين وذلك في قوله (٣) :

(١) ديوانه ٢ ٨٨٠

(٢) انظر جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا في المهجر ٥٧ ،

(٣) نفحات الصور ٣٢

أغيروا كلكم عربا وغاروا على الدين الخفيف الاحمدي
 أمور المسلمين إلي ضياع بحكم المستبد العيسوي
 صلاح الدين مات فهل سمي لقاهرهم له بأس السمي
 فيندو الشرق حراً مستقلاً فتجمعه الخلافة من حري

وواضح ان لهفته على زعيم يائس صلاح الدين ، ويرد كيد الاستعمار ،
 عن وطنه ، تتضمن نظراته إلى ان جيوش الغرب الزاحفة الى بلاد العرب لا تختلف في
 شيء عن الجيوش الصليبية التي اجتاحت الشرق العربي قبل بضعة قرون .

إلا ان أبا الفضل الوليد لم يقتصر على هذه النظرة الدينية البحتة بل نظر إلى
 جوهر الموضوع في علاقة الخلافة بالعرب والوضع الجديد الذي آلوا اليه
 بنتيجة نزول قوات الاحتلال في وطنهم وكان مما قاله آنذاك إثر
 انتهاء الحرب (١) :

الشام يقبر والعراق يضام فاليوم لا عرب ولا إسلام
 ابن العروبة والخلافة منها والمسلمون بلادهم أقسام
 لبني أمية أو بني العباس في تلك الربوع امانة وذمام
 هل بعد غزوتها ونكبة اهلبا للمسلمين سلامة وسلام
 او هل تصح خلافة وامامة حيث الفرنجة واليهود قيام

هذه هي حقيقة شعور الفئة النيرة من المسلمين التي كانت تجذب مبدأ الخلافة
 ونظامها في الحكم ولكنها لم تعد تفهم معنى لهذا الوضع الشاذ الذي تجلبى في وجود
 خليفة ليس له من الأمر إلا الاقب في حين غدا المسلمون في الشرق العربي
 يخضعون بالفعل لسلطة الاستعمار الأجنبية .

ثم كانت انتفاضة اتاتورك ضد الخلفاء وجنود اليونان في أعقاب الحرب الأولى
 بلسا لجراح المسلمين الذين أحزنهم سقوط عاصمة الخلافة ، وكانهم وجدوا في

(١) نفحات الصور ١٠٩

انتصاراته على دول الغرب ادراكاً لثأر المسلمين ، واستعادة لهيبة الخلافة المتداعية .
وقد هزل الشعراء لابطل الجديد وراحوا يعاقون عليه أوسع الآمال ، وهذا هو
الرصافي يشيد به ويتفاءل باسمه (١) :

سمي المصطفى لازالت تملو إلى أوج يطاول كل أوج
وكانت فرحة عبدالمطلب وهو من أبرز شعراء الجامعة الإسلامية كبيرة
إذ انتشى بهذا الظفر ووجد فيه نصر أميناً للمسلمين (٢) :

هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا إلى أعقادها من بعد ما ظفرت بخير مرام
هذا الخفيف يسير تحت ظلالها فخم الجلالة سامي الأعلام
ضحك الهلال لها الغداة وربما أجرى مدامعه شؤون غمام
ولعل قصيدة شوقي أشهر ما قيل في ذلك الحدث وفيها يقول (٣) :

الله أكبركم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب
ولا أزيدك بالإسلام معرفة كل الروعة في الإسلام والحسب
لترك ساعات صبر يوم نكبتهم كتبتن في صحف الأخلاق بالذهب
خيل الرسول من القولاذ معدنها وسائر الخيل من لحم ومن عصب
يوم كبدر فخيل الحق راقصة على الصعيد وخيل الله في السحب
هزت دمشق بني أيوب فاتتبهوا يهنئون بني حمدان في حلب
ومسلمو الهند والهندوس في جدل ومسلمو مصر والأقباط في طرب

ان افتتاح شوقي قصيدته بعبارة الله أكبر ، وتشبيهه أتاتورك بخالد بن
الوليد ، وقرنه معركته بمعركة بدر ، ثم تعبيره عن فرحة مسلمي الأرض بذلك
النصر ، كل ذلك يتم بوضوح عن ذلك الشعور الديني نحو الترك الذي كان امتداداً
لشعور شوقي نحو العثمانيين من قبل ومظهراً جليلاً لايمان الشاعر في كلا الحالين
بالجامعة الإسلامية .

(١) - ديوانه ٢٤٠ (٢) - ديوانه ١٥٣ (٣) . الشوقيات ١ - ٦١ .

ولقد غاب عن هؤلاء الشعراء في الواقع جوهر حركة أتاتورك القومية فلم ينظروا إليها إلا بذلك المنظار الديني الذي كان أتاتورك أبعده الناس عنه ، وكان ما يعزز هذا الاتجاه في نفس شوقي اتصال نسبه بالترك . فقد لاحظ محمد حسين هيكل حين قدم لديوان شوقي الأول أن ما قلّه أمير الشعراء في ذلك الجزء عن العرب وما يتصل بهم يشتمل ثلاث قصائد ، وما قلّه عن الخلافة وعن الترك يشتمل ثماني عشرة قصيدة . إذ كان أمير الشعراء على حد تعبير هيكل (١) «المعبر عن الميول والآمال الكينية في نفوس المسلمين جميعاً لا في نفوس المصريين وحدهم ، وحرصهم على وحدتهم ، وعلى كيانهم بزاء الأمم الغربية التي كانت تنظر إليهم بعين صليبية بحتة» .

وينبغي ان نلاحظ أن ما نظمه الشعراء من شعر موال للعثمانيين لم يصدر جميعه بدافع الايمان بالجامعة الاسلامية ، فقد كان منه شعر رسمي ينطق بلسان الحكام ويسبح بمحمد ، طمعاً في بلوغ مآرب وأملا في تحقيق مكاسب ، وكان بعضه يقال عن تقية إثارة للسلامة وتجنباً للارهاب وبخاصة في الشام إبان العهد التركي .

على أن ما حدث بعد ذلك خيب آمال أنصار الجامعة الاسلامية إذ لم يلبث أتاتورك حتى أطاح بالخليفة العثماني وقضى على نظام الخلافة الاسلامي . وكانت هذه الحالة من أخطر ما واجهه المسلمون في تاريخهم الحديث ، فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حاققاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الاسلامية المختلفة ولكنه ظل في كل الأحوال رمزاً للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض (٢) وكانت الصدمة كبيرة في نفوس شعراء الجامعة الاسلامية إذ شعروا بفراغ لا يجد تجاه ذلك الحدث . وقد عبر شوقي عن شعور الخيبة المرير بعد ما علقه من آمال على أتاتورك في بعث الخلافة ، وإعادة أمجادها حين رثاها بقوله (٣) :

(١) أنظر مقدمة الجزء الاول ص ١٣ .

(٢) الدكتور محمد حسين - الاتجاهات الوطنية انظر صفحة ٢٨ فابلي .

(٣) الشوقيات - ١ - ١١٤ .

عادت أغاني العرس رجع نواح
 كفتت في ليل الزفاف بثوبه
 ضجت عليك مآذن ومنابر
 الهند والمهة ومصر حزينه
 والشام تسأل والعراق وفارس
 وعلاقة فصمت عرا أسبابها
 نظمت صفوف المسادين وخطوم
 بالرجال لحرة موهودة
 ونعت بين معالم الأفراح
 ودفنت عند تبلج الاصبح
 وبكت عليك ممالك ونواح
 تبكي عليك بمدمع سحاح
 أحا من الارض الخلافة ماح
 كانت أبر علائق الأرواح
 في كل غدوة جيئة ورواح
 قتلت بغير جريرة وجناح

« ولم يكن أحمد محرم اقل من شوقي حزناً وصدق عاطفة في القصيدة التي كتبها بهذه المناسبة والتي يقول فيها » (١) :

أعن خطب الخلافة تسألينا
 لقد فجع المروءة فيك دهر
 أجبي يا فروق فتى حزينا
 أصابك في ذوبك الأولينا

ثم استعرت معركة الخلافة على الصعيد الفكري وانقسم الناس بين مجذليها
 وراغب عنها ، ولكن الكثيرين اخذوا يبينون ما آل اليه امر المسلمين آخر الأمر في
 ظلها ، وجعلوا ينفضون أيديهم من نظامها بعدما صارت الي شبح هزيل ، ووجد
 عدد من عرفوا بقوة عقائد الدين في خطوة اتتورك خيراً للمسلمين ، ورأوا في
 الحكم الجمهوري عوداً الى نظام الشورى في الاسلام (٢) ، ومن هؤلاء الشاعر
 محرم نفسه الذي يتعزى بزوال الخلافة التداعية على الرغم من حزنه
 لسقوطها ويقول (٢) :

وما نفع الخلافة حين تسمى
 ثوت تتجرع الآلام شتى
 حديث خرافة للهازلينا
 على أيدي الدهاة الماكرينا

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٠ والابيات اختارها

المؤلف من ديوان مخطوط لشاعر

(٢) أنظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٤ - ٤٥

وقد ظل بعض دعاة الجامعة الاسلامية يبنون أنفسهم بعودة نظام الخلافة ويأملون في توحيد شمل مسلمي الارض ، فاخذوا يتنادون لعقد مؤتمر اسلامي عام يهدف الى بحث الأمور والتداول في امر ترشيح خليفة آخر للمسلمين ، إذ لا يصح ان يكون هذا المنصب الأكبر شاغراً ، وقد كانت مصر مركزاً لهذا النشاط ، وقام الأزهريون بدور فعال في سبيل عقده .

وحين أتت الوفود من اقطار المسلمين تبين ان أكثرها كان بيت امر استخلاص الخلافة لبلده ، وان السياسة سخرت المؤتمرين لمآربها ، فكان أمان الله خان ملك الافغان طامعاً في الخلافة ، وكان الملك فؤاد يعمل في الخفاء لهذا الهدف ، عدا تطلع الشريف حسين المبكر اليها منذ اعلن ثورته ، ولم يسفر المؤتمر عن شيء بسبب تعارض الأهواء (١) . اما الحسين فقد اعلن نفسه خليفة على العرب في هذا الجو من الانقسام وبإيعه عدد من مسلمي الشام وبخاصة في شرق الأردن وفلسطين ، وقد نظم عدد من الشعراء في الشام قصائد حول هذه البيعة التي تمت عام ١٩٢٩ من ذلك من قاله بدر الدين الحامد احد شعراء سوريا (٢) :

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي
يا بني هاشم خلافتكم زتموها بالحق والقضب
يا ربوع الحجاز طبت ثرى فيك مجدي وفيك خير نبي

وفي ذلك يقول ايضاً محمد كامل شعيب العمالي من ربوع لبنان مبارياً الحسين بالخلافة (٣) :

اليك ملك العرب مني بيعة مباركة عن أهل صيدا وعامل
أجل بايعتك اليوم فير وهاشم وجارهما آساد حرب ووائل
أبت ان ترى إلاك للعرب ملجأ وأعظم حام للخلافة كافل
غير ان معظم هذه القصائد التي قيلت حول موضوع بيعة الحسين كانت

(١) انظر تفصيل هذه الأمور في محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٤٥٠-٣٩٩

(٢) ديوانه ١٤٧

(٣) الحماسيات في النهضة العربية ١٨

تفتقر الى الحماسة ، ولعل مرد ذلك الى الفترة غير المناسبة التي اعلن فيها الحسين نفسه خليفة ، حتى إن بعضهم استنكر سعي الحسين الى الخلافة مع ان عهدا ولى منذ ان اطاق بها الاتراك قبل قرون ، والى ذلك يقصد الزركلي حين انتقد الحسين (١) :

عجبا لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم
أين الخلافة لا خلافة في الحديث ولا القديم
تلك التي ذهبت مع الأيام قبل ذوي (سليم)

وواضح ان الشاعر لا يقر الحسين على مطالبته بالخلافة ، كما انه من جهة اخرى لا يعتبر سلاطين آل عثمان خلفاء اي انه كان يرى حكمهم للعرب غير شرعي وان الخلافة لم يعد لها معنى بعد ان خرجت من ايدي العرب العباسيين

والواقع ان العرب قد نفذوا ايديهم من نظام الخلافة وبخاصة بعد ان شاركوا هم انفسهم في تقويض اركانها في ثورتهم الكبرى ، بل ان الشكوك والريب اخذت تساورهم تجاه الحسين نفسه بعد ان تبين لهم ضعفه امام الانكليز . وبنتيجة فتور الجماهير تجاه هذه البيعة ولانها كها في مقاومة العدو الاستعماري الجديد تقلص نفوذ الحسين واكتفى بان يعلن نفسه خليفة على الحجاز فحسب تحت ضغط بريطانيا لأسباب اهمها رغبة الخلفاء في حصر نفوذه هذا في بقعة محدودة ، واخلاء الجو لهم ليطلقوا ايدهم في اجزاء الشام الأربعة .

وحين توفي الحسين بن علي بكاه الشعراء وندبوا حظه وحفظ العرب والمسلمين ، ولكن قلة منهم في الشام والعراق ومصر اشارت الى تلك البيعة ، إذ تجاهل اكثرهم ما كان من امرها بعد ان انطوى الحديث عنها وعن موضوع الخلافة نفسه .

والواقع انه منذ سقط الخليفة العثماني طرأ على مضمون الشعر القومي الحديث

(١) ديوانه ٧١

تطور كبير ، واخذ يعبر عن شعور قومي متعاضم بعيداً عن نظام الامبراطوريات .
وادرك العرب ان عهد الخلافة قد ولى ، وان إثارة موضوعها من جديد لم يجلب لهم
إلا الشقاق فجنحوا لرفض مبدأ الخلافة جملة ، وبخاصة بعد ظهور المفاهيم الحديثة
القومية وفصل عدد كبير من الدول بين الدين والقومية في مجال السياسة
والحكم . وقد انعكس هذا الاتجاه لدي اكثر الشعراء والكتّاب في
السنوات التي اعقبت الحرب الأولى .

وإذا كان صوت دعاة الجامعة الإسلامية قد خفت بعد ذلك في الشعر والنثر
وتحول الى دعم جامعة العروبة بصورة عامة ، فقد ظل عدد من الشعراء
يفتقدون الخلافة ونظامها بشيء من الحسرة وiron فيها صورة من الماضي
الزاهر وبقية من المجد الغابر .

٣

على ان ثمة ظاهرة هامة في الشعر القومي الحديث تتجلى واضحة لدي
كثير من الشعراء في مزج الدين بالقومية او بتعبير ادق عدم التمييز بين العروبة وبين
الاسلام ، وغير خاف ان هذه النظرة تختلف عن الدعوة الى الجامعة الإسلامية التي
كانت غالبية على الأذهان حتى انتهاء الحرب الأولى ، والتي يمكن عدها دعوة سياسية
عرضت في ظروف معينة وعاشت خلال فترة محدودة .

اما التلازم بين مفهومي العروبة والاسلام في الشعر القومي بل في سائر
فنون القول ومجالي التفكير العربي فهو امر طبيعي بل ضروري في كثير من الاحيان
وربما كان من افضل ما يوضح العلاقة الوثقى بينها في التاريخ قول محمد المبارك (١) :
« لئن كان الاسلام عقيدة عامة في الحياة ورسالة انسانية ذات مبادئ عامة فان العرب
كانوا هم اول من تلقاها وتبلغها ، وهم اول من وعّاها وتمثلها ونفذها . منهم خرج

(١) الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٠٥

صاحب الرسالة وبلغتهم نزل الكتاب ، وإياهم خاطب أول ما خاطب وإياهم كلف بالتبليغ أولاً ومنهم كان صحابة الرسول ﷺ الناقلون للإسلام والشارحون لمبادئه . ولهم كان الوعد أولاً بالنصر والتمكين في الأرض وارتفاع الذكر ، وهم الذين استلموا قيادته الفكرية وابعين مبلغين ، وقيادته السياسية حماة حاكمين ، وعن طريقه امتدت الشخصية العربية عبر الزمان والمكان وامتدت في العالم متغلغلة بين الشعوب والأقوام ثقافة وتفكيراً وسلوكاً وخلال العصور والأحقاب وهو الذي نقلهم - بعد أن وحد مفاهيمهم في الحياة في جميع نواحي الحياة وآفاقها - من افق القبيلة والصحراء إلى الصعيد الإنساني حيث أصبحوا حداة القافلة الإنسانية وأول من قدم النموذج العملي الأول لها . وبه أصبحوا نواة لعالم كبير يحيط بهم كالهالة » ومع أن الإسلام عم شعوباً وإنما كثيرة في الأرض فإنه لا يذكر إلا ذكرت الأمة العربية ، وقد أشار المفكر الهندي أبو الحسن الندوي (١) إلى « أن المسلم ينتظر إلى العالم العربي كمهد للإسلام ومشرق نوره ومعقل للإنسانية وموضع القيادة العالمية » وفي ذلك يقول الفيلسوف محمد إقبال (٢) :

أنا اعجمي الدن لكن خمرتي صنع الحجاز وروضها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

وإذا درسنا الأسباب العميقة لثورات القومية التي اندلعت في العالم العربي منذ قيام الحرب الأولى ضد المستعمرين تبين لنا الأثر الفعال للمشاعر الدينية ومدى معانقتها الحارة للعواطف القومية . كان للازهريين في ثورة مصر عام ١٩١٩ ولعلماء النجف في ثورة العراق الأولى ولسائر رجال الدين في ثورات فلسطين وليبيا واقطار المغرب العربي يد مباركة على الحركات الوطنية . ولم يكن الشعور الديني إلا رافداً كبيراً للمنازع الوطنية المتعاضمة باطراد في نفوس العرب الذين لم تستسغ شعوبهم

(١) ماذا خسر العالم باخطا المسلمين ٢٤٥ والمرجع السابق ١٦٠

(٢) انظر الايات في كتاب محمد المبارك : الامة العربية ، وقد عربها الصاوي

- واكثرهم من المسلمين - ان يتحكم فيها الغرب المسيحي (١) . وهذا الشعور لم يكن يختلف في جوهره عما كان عليه ابان الغزو الصليبي قبل قرون . ولقد كان الشعر خير مجلي لهذه الظاهرة .

فحين قامت ثورة العراق ضد الاحتلال البريطاني كان العامل الديني من اهم مقوماتها نظراً لأن الشعور القومي لم يكتمل نضجه حتى ذلك الحين لدى الشعب العراقي ، وقد كان كثير من زعماء الثورة من رجال الدين وعلى رأسهم قائدها الروحي الامام محمد تقي الشيرازي الذي كان لفتاواه باعلان الجهاد المقدس ضد الاجنبي المحتل وتجرم طاعته اثر كبير في إلهاب المشاعر الوطنية وإيقاد نار الثورة ، كما ان عدداً من شعراء تلك الثورة كانوا من رجال الدين والأدب ايضاً وكثير منهم من الشيعة القاطنين في الحلة والنجف الأشرف مثل محمد رضا الشيبلي ومحمد باقر الشيبلي وعبدالغني الخضري ومحمد مهدي البصير وعبدالحسين الأزري وعلي الشرقي وسواهم ، وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يقول (٢) :

كم نكبة تحطم الاسلام فيها والعرب
والانكليز أهلها فتش تجدهم السبب

وحين خرج محمد سعيد الجبوبي رائد الشعر العراقي الحديث من الضريح العلوي في النجف يريد قتال الانكليز ابان الحرب الأولى كان مدفوعاً بشعور ديني جارف . وقد ارسل اليه محمد القزويني هذين البيتين اللذين يؤكدان هذه الظاهرة لدى الشاعر المجاهد (٣) :

(١) ومما يؤكد اثر العامل الديني في هذا المجال ان المسيحيين بالمقابل وخاصة في لبنان لم يكونوا يشعرون متلا تجاه الفرنسيين الذين كانوا من الكاثوليك بهوة كبيرة لاشتراكهم معهم في العقيدة الدينية . كما كان شأن المسلمين مع الترك من قبل . لقد كان الكاتب المهجري وليم كاتسغليس في جملة الداعين بجرارة الى قبول انتداب فرنسا ويستغرب من السورين موقفهم تجاه من تعد ارقى الامم ، وهو يعلم ذلك بان اكثرهم من المحمديين وهي ليست على مذهبهم

(٢) انظر عبدالكريم الدجيلي : محاضرات في الشعر العراقي الحديث ٦٤ من مجموعة مخطوطة الشاعر

(٣) المصدر السابق ٣٣ من مجموعة مخطوطة ايضا

لنحني بني العرب ليوث الوري دين الهدى فينا قوي عزيز
لا بد ان نرحف في جحفل نبيد فيه جحفل الانكليز

والثمن تردد كثير من السوريين في الالتحاق بالثورة العربية الكبرى التي
نشبت ضد الحكم العثماني عام ١٩١٦ وذلك اشفاقاً منهم على نظام الخلافة واشهرار
السلاح في وجه اخوتهم المسلمين والترك لقد اجمعوا امرهم بعد ذلك وبادروا الي
قتال الفرنسيين . وقد تجلت هذه المشاعر الدينية ملتزمة مع العواطف القومية
بشكل بارز في اكثر ما قيل يومئذ من شعر وطني ، من ذلك ما
قاله خليل مردم بك (١) :

كم مسجد حرقوا وكم من راعع سالت دماؤهم به ضحضاحا
أضحى كتاب الله وهو ممزق أرجوا (٢) اليه أسنة وصفاحا
يا غيرة الله اغضبي لكتابه إن قومه لم يبدلوا الأرواحا

وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ كانت النفوس مفعمة بالشعور
القومي المتأجج ، ومع ذلك كان للشعور الديني اثره الكبير في رفق التيار الوطني
وتغذية حركة النضال القومي ضد المحتلين . ولهذا اختلط مفهوم الدين والوطن في
قصائد كثيرة . وهذا الشاعر محمد علي الحوماني يصدر عن ذلك الاتجاه بقوله (٣) :

مجد العروبة أقفرت عرصاته والضمحل حل به فاين أباته
الله للاسلام هدم صرحه والى الحضيض تساقطت شرفاته
ومن ذلك ايضاً ما قاله شوقي في قصيدته المشهورة دمشق (٤) :

الست دمشق للاسلام ظئراً ومرضعة الأبوة لا تعق
كما عبر من مصر احمد زكي ابو شادي عن هذا الجانب الديني

(١) ديوانه ١٥٧

(٢) أرجوا : خلطوا

(٣) ديوانه ٩

(٤) الشوقيات ٢ : ٨٨

تجاه الثورة فقال (١) :

ريعت لثكبة مجدك الأحلام وبككك باسم فخاره الاسلام
حرب الصليب رددتها في أمسهم شرفاً فعادوا ينقمون فهاموا

وقد استيقظت الحمية الدينية قوية في نفوس كثير من الشعراء عندما اخذ
الفاشيست من الطليان ينكلون باحرار العرب في طرابلس الغرب ، إذ ارتكب
المستعمرون هناك فظائع رهيبة تجاه المسلمين في تلك البقعة العربية وعذبوا بمساجدم
وكان ما ابده من ضروب التعصب الأعمى جديراً بان يستفز مشاعر العرب
والمسلمين بل البشر كافة ، وقد أثارت الأحداث المؤلمة عام ١٩٣١ التي انتهت بقتل
عمر المختار قرائح شعراء العرب على اختلاف ديارهم ، من أشهرها ما نظمه امير
الشعراء شوقي مستكراً شفق شيخ بلغ السبعين من السنين ولم تكن جريره
الا الذود عن وطنه وقد اشار شوقي الى فقد الاسلام له بقوله (٢) :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء
المسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاء

كما عبر احمد محرم عن تلك الغضبة التي شملت العرب والمسلمين على
السواء فقال (٣) :

ذعر (الحطيم) وراع (يثرب) عاصف
للموت ضج لهوله الحرمان
سهم أصاب المسلمين وجمال في كبد الهدى وحشاسة الأيمان
وارحمتا للمسلمين تفرقوا وتباعدوا في الارض بعدثوان

وهذه القصائد تذكرنا بحروب مماثلة جرت بين الطليان ايضاً وبين
العثمانيين فوق تلك الارض نفسها قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى وكيف تطوع

(١) ديوان الثورة ٨٨

(٢) الشوقيات ٣-١٧

(٣) الدكتور محمد حسين ، الاجتماعات الوطنية ١٢ ، ١٥٤ عن ديوان مخطوط الشاعر

٦ نذاك آلاف العرب الى جانب الترك لطرد الدخيل من طرابلس مما اثار قرائح الشعراء على نطاق واسع . ولا ريب ان ما نظمه الشعراء في رثاء المختار كان يستدعي هذا الاهتمام بالجانب الديني في شخصية الفقيه الكبير فهو رأس الاسرة السنوسية ذات النفوذ الروحي البارز والسكينة الدينية السامية ، وكان نضاله المستميت ضد الاستعمار نموذجاً لالتقاء العقيدة الدينية والقومية . والى ذلك اشار اكثر الذين رثوه من الشعراء .

والواقع ان الشعور الديني لم يتجل قويا في الشعر القومي الحديث الا من خلال ما نظمه الشعراء من قصائد حول احداث فلسطين منذ ان وضعت الحرب الأولى اوزارها . فقد تميزت القضية الفلسطينية بطابع قومي وديني معاً نظراً لوقوع احداثها في الأرض المقدسة مهد عيسى ، ومسرى محمد ، ومهبط سائر الرسل .

وبلاضافة الى العرب اهتم مسلمو الأرض قاطبة بما يجري حول المسجد الأقصى من مآس كان وقودها اخوانهم في الاسلام . ويعتبر انعقاد المؤتمر الاسلامي العام في القدس دليلاً على اهتمام مسلمي العالم بما يحدث في الديار المقدسة . ومن هذه الزاوية ايضاً نظر كثير من الشعراء العرب الى نضال الشعب في فلسطين على انه جهاد مقدس يقوم به المؤمنون دفاعاً عن عقيدتهم ومنافحة عن ارضهم الطاهرة ، ولذلك كان للعامل الديني اثره في الهاب المشاعر ضد الصهيونية ، وقد عبر الشاعر العراقي محمد علي اليعقوبي عن هذا الشعور مخاطباً زعماء المسلمين في مؤتمر بقوله (١) :

صونوا حمى الدين الحنيفي من	تلاعب الشرك وأيدي الغير
والبيت والأرض التي شرفت	بالمصطفى والطيبين الفرر
والمسجد الأقصى الذي قد سرى	منه لأعلى العرش خير البشر
فاغتنموها إنها فرصة	اتاحها للمسلمين القدر

(١) الفلسطينيات ١٦

ومن هذا القبيل ما قاله ابو الفضل الوليد :

قد أذلوا العربي المسلما إيهودي زنيم شرس
ضامه في المسجد الأقصى كما
ضام عيسى وسط بيت المقدس

ويقسم احمد محرم بمجرى الوحي : (١)

لا ومجرى الوحي من مقدسها لن تروها إيهود مطعما
كما نستشف هذه النظرة الاسلامية تجاه ارض فلسطين المقدسة لدى عمر
بهاء الأميري إذ يقول : (٢)

يا فلسطين يا تراث النبوة يا لسان المجد الأثيل النفوه
الأباة الكهنة تهتز ثأراً كلما معرج الرسول تأوه
أما محمد عبدالغني حسن فيشير الى تلك الرابطة الدينية التي تربط المصريين
بأخوتهم في فلسطين ويقول (٣) :

نحن في الهم أخوة جمعتنا فكرة حرة وقربي ودين
وهكذا حقق ذلك الالتقاء الرائع بين المشاعر الدينية والقومية بعد الحرب
العالمية الأولى انتصارات باهرة للحركات الثورية في البلاد العربية إذ استمر صوت
الدين عالياً في الشعر القومي يؤدي دوره الفعال في مقاومة الاستعمار ويرفد الشعور
القومي الجارف في نفوس العرب

(١) الدكتور محمد حسين ، لانجاهات الوطنية ٢ ، ٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

(٢) من ديوانه المخطوط

(٣) من نبع الحياة ٩٨

ولكن الروح الوطنية والمشاعر القومية اخذت تنمو باطراد على حساب الجامعة الاسلامية التي كان لها شأن كبير قبل الحرب العالمية الأولى وفي اثنائها . وذلك بفعل الثورات القومية المتوالية في العالم العربي التي ابتدأت حلقاتها بالثورة العربية الكبرى ثم ثورة مصر عام ١٩١٩ فثورة العراق والثورة السورية واخيراً ثورات فلسطين المتعددة . ففي مصر تحول الشعراء ومعهم الرأي العام عن فكرة تأييد تركي يترع فوق عرش في الآستانة الى الالتفاف حول الوطن المصري ودعم كيانه ، وزى مثالا لهذا التحول في احمد شوقي بعد نفيه الى الأندلس ، فهو يقول قبيل عودته الى وطنه معارضاً سينية البحري (١) :

وطني ، لو شغلت بالخلد عنه فازعتني اليه في الخلد نفسي
وما يكاد يحط اقدمه في بلده وتكتحل عيونه بمرآه بعد انتراب دام نحواً
من خمس سنين حتى اخذ لسانه يلهج بمحبة وطنه دون سواء (٢) :

أدير اليك قبل البيت وجهي
إذا فبت الشهادة والتابا
ولو اني دعيت لكنت ديني
عليه اقابل الحتم الجابا
وهكذا اخذ العنصر الديني بالتضاؤل في المجال القومي ليفسح المجال امام المشاعر الوطنية .

اما في العراق وفي الشام التي تضم سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن فقد اخذ الشعور القومي بالتعاظم منذ ان ثار اهل تلك المناطق على الخلافة العثمانية والنفوذ التركي . وكانت العروبة هي السمة البارزة لدى شعرائهم الذين عزفوا الاالحان القومية على وترين اثنين هما تحرر العرب ووحدتهم في حين اقتصر شعراء مصر

(١) الشوقيات ٢ : ٥٣

(٢) الشوقيات ١ : ٥٦

على المنصر الوطني والجامعة المصرية وحدهما اي على التحرر فحسب دون
اي شيء آخر .

وهذا الأمر جدير بان يستوقفنا ويقودنا الى اكتناحه وتبع آثاره في الشعر
فالواقع ان افراد مصر بالاحتلال البريطاني في وقت مبكر وقبل ان تبلى بثله سائر
اقطار الشرق العربي وضع المصريين في وضع معين جعل قضيتهم تختلف عن سائر
قضايا الشام والعراق التي بقيت خاضعة للحكم العثماني المباشر سنوات طويلة اخرى .
ثم نما هذا الحاجز ولم يعد المصريون بعد ذلك يتجاوبون مع قضية انفصال العرب عن
الترك وبالتالي لم يتحمسوا لثورتهم إبان الحرب بل استنكروها ايضا . ولم يته امر
هذا الافتراق إلا بعد ان وحدث الاحداث بينهما عندما شمل الاستعمار بلاد الشام
والعراق منذ انتهت الحرب الأولى ، ومنذ ذلك الحين اصبح العدو مشتركا وبدأت
الفكرة العربية تنمو على ضفاف النيل وتنطلق من مكانها ولذلك وجدنا مفهوم العروبة
يتلفح لدى أكثر الكتاب والشعراء في مصر بثوب إسلامي واضح المعالم ، كما ان
المفهوم القومي بدا غائماً فيما نظم من الشعر اول الأمر ، ومن مظاهر هذه الروح
القومية التي بعثت مجدداً في مصر وارتدت ذلك الطابع الاسلامي آيات لحافظ ابراهيم
في (تحية الشام) يقول فيها : (١)

(النيل) وهو الى (الأردن) في شغف

يهدي الي (بردى) أشواق ولهان

وفي (العراق) به وجد (بدجلته)

(وبالفرات) وتحنان (لسيحان)

فعلى الرغم من بروز الفكرة العربية في بيتي حافظ يستوقفنا ورود كلمة
سيحان فيها . وسيحان هذا أو سيحون نهر في آسيا الوسطى الروسيه يصب في بحر
آرال ، وقد ذكره الشاعر في عداد مناطق العرب نتيجة لفهمه الخالص للوحدة
العربية وعدم تمييزه بينها وبين الوحدة الاسلامية ، إلا اذا كانت القافية
اضطرت الي ذلك وهذا ما لا زججه لدى شاعر كبير مثل حافظ ابراهيم .

(٣) ديوانه - ١٣٩

وقد نظم محمود أبو الوفا قصيدة مطولة اسمها (اذاعة إسلامية) ذكر في تقديمه لها (١) انه راح يفكر في حال البلاد « العربية الإسلامية » وينتقل بخياله من تونس الى طرابلس الى جاوه الي حضرموت ثم الى العراق وأخيراً يعود الى مصر . وقد خص الشاعر كل بلد من هذه البلاد بابيات تحدث فيها عن شؤونها وشجونها ، ونحن نلاحظ ان جميع ما ذكره كان عربياً باستثناء جاوه ، وهذا شبيه بما وجدناه آنفاً لدى حافظ حين حشر سيحان في جملة البلاد العربية على صعيد واحد . وربما يرجع اقتصار أبي الوفا على ذكر جاوه المسماة دون ان يردفها بيران وتركيا والأفغان وسواها من الاقطار الإسلامية ، الى ما كانت تعانيه هذه الجزيرة وأخواتها من المناطق الأندونيسية آنذاك من وطأة الاستعمار الهولندي . ولكن الغريب ان يبلغ الشاعر هذه الأرض من الشرق الأقصى ولا يرد في اذاعته الإسلامية ذكر للشام او لسورية التي كانت تغلي كالبركان في ظل الحكم الفرنسي . ومع ذلك استأثرت بلاد العرب وقضاياهم باكبر اهتمام الشاعر في اذاعته الإسلامية

ولعل من ابرز ما يشير الى هذه الظاهرة قصيدة لشاعر مصري آخر هو محمود غنيم نظمها عام ١٩٣٥ اي في فترة متأخرة نسبياً ، ومع ذلك فان الفكرة العربية لم تبد جلية خلالها بل كانت متداخلة في الفكرة الإسلامية أيضاً (٢) :

ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا	رباه أدرك شعوب الضاد رباه
عهد الخلافة في البسفور قد درست	آثاره طيب الرحمن مشواه
اني لأعتبر الإسلام جامعة	للشرق لا محض دين سنه الله
سل المعالي عنا إننا عرب	شعارنا المجد يهوانا ونهواه

وتسير سائر الآيات على هذا النحو من الازدواج بين العروبة والاسلام . وكما هو جلي تبدو الجامعة الإسلامية اكثر بروزاً لدى الشاعر غنيم الذي يضطرب في فهمه للعروبة ويرى انها تعني الشرق والضاد والاسلام .

١ اشواق ١٠٧

٢ ديوانه ٧٨

وما أكثر ما نصادف في دواوين الشعراء من عناوين لقصائد أو عبارات في الآيات نفسها تشير الى عدم التمييز بين العروبة والاسلام ، وثمة مثال نوردته في قصيدة لشاعر مصري آخر هو علي الجندي نظمها بمناسبة وفاة فيصل الاول ، واطلق عليها اسم (ماتم العروبة والاسلام) وهي تصور إلى حد بعيد قوة الاتجاه الاسلامي وطنيانه على الفكرة القومية ، وإذا كان في العنوان ذكر للعروبة فليس في القصيدة كلها ذكر لها أو للعرب أو حتى للثورة العربية التي كان فيصل يظلمها الاول . وكل ما وجده الشاعر في الفقيد انه وريث هاشم وسليل سبط الرسول ، فهو يعزى عنه آل البيت دون ان يرى فيه أكثر من شخصية دينية فحسب ، في حين ان فيصل يعتبر رائد الزعماء العرب الذين فهموا القومية العربية بعيدة عن الاسلام ، واتجهوا الى فصل الدين عن الدولة على اساس قومي محض . وثمة قصيدة اخرى للشاعر نفسه يرثي فيها احمد زكي باشا ويجعل عنوانها (شيخ العروبة) ولكنها رغم هذا العنوان الستمد من لقب الفقيد لا تتكاد تشير الى العرب والعروبة إلا في بيتين من خمسين بيتاً . ولعل من اهم اسباب هذا التصور الديني المحض للسائل القومية عند الشاعر الجندي وعند محمود غنيم انها نشأة إسلامية وتخرجاً في كلية دار العلوم .

وكذلك يمكن ان تعتبر ارجوزة شوقي المطولة (دول العرب وعظماء الاسلام) التي نشرت في ديوان مستقل من ام الامثلة على اختلاط المفهومين العربي والاسلامي وتداخلها في اذهان الكثيرين من الشعراء ، وهذه الملازمة بين المفهومين التي تطلعننا في عنوان الارجوزة نفسه مردها في الواقع الى هذا التداخل الكبير بين التراث العربي والاسلامي وتاريخها بحيث يبلغان درجة التوحيد في كثير من الاحيان وإلى ذلك يشير شوقي حين يتحدث عن اللغة العربية ويعتبرها الاساس الأول في كيان العرب وصرح الاسلام ، كما تتجلى هذه الظاهرة في سائر اجزاء الارجوزة التي نظمها خلال اقامته في الأندلس منفياً ، ومن ذلك مثلاً قوله في اجماد ارشدين (١) :

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ٥٣

قد فتحوا قبرس للإمام بالسفن المزجاة كالفهام
فأصبح القاضي من البر اقرب وصار بحر الروم لجة العرب
وخفت كتائب الاسلام في البحر اعلاما على اعلام

ولا ريب في ان قوة العاطفة الدينية لدى امير الشعراء كانت الباعث الاول
على نظم الأرجوزة المطولة وكثير من قصائده ، ومن هنا برز الانجاء
الاسلامي في معظم شعره

على ان بروز هذا المنزع لدى شعراء عصر لأسباب تاريخية واجتماعية لا
يعني تلاشيه لدى شعراء الأقطار الأخرى العربية كالشام والعراق ، فتشابك تراث
العرب والسلمين ووحدة تاريخهم جعل الأمر ظاهرة عامة لدى الشعراء في كل
مكان . وهذا شاعر دمشق خليل مردم بك يعبر عن مدى هذا التلازم
بين المفهومين بشكل عفوي فيقول (١) :

كم ذا اجمجم داء كاد يقتلني والداء أقتله ما كان محتجبا
أعلم أنت من أبكى وأندبه فاني أندب الاسلام والعربا

والأمثلة على هذا التلازم تبلغ حداً من الكثرة بحيث تكفي الإشارة اليها
وأكثر ما يتجلى ذلك في القصائد التي نظمت في الرسول محمد عليه
السلام بمناسبة ذكرى مولده او هجرته او غزواته ونحو ذلك مما تطفح به
دواوين الشعراء .

على ان مفهوم العروبة اخذ يتسم على مرور الايام والأحداث بماتم خاصة
وإن لم يستقل عن مفهوم الاسلام في كثير من الأحيان ، وذلك بتأثير واقع العالم
العربي الذي اخذ ينفرد شيئاً بعد شيء عن كثير من قضايا سائر المسلمين في
الشرق . وبعد احمد محرم - وهو في رأس الشعراء الذين اتحد لديهم المفهوم العربي
الاسلامي - مثالا بارزاً لتحول انصار الجامعة الاسلامية الى الجامعة العربية ، برغم

(١) ديوانه ٢٤٣

عدم اتضاح الفكرة القومية لديه ايضاً ، فهو يقول إبان الحرب العالمية الثانية بتمه
بدأت المباحثات لتأسيس جامعة للدول العربية (١) :

أمم العروبة جاء يومك فاعلمي وإلى مكانك فانفضي وتقدمي
هذا زمان ليس يفهم اهله إلا حديث النار أو لغة الدم
أمم العروبة جد جدك فانظمي من عقدك المنشور ما لم ينظم

فالملاحظ ان الشاعر يعتبر شعوب الأقطار العربية أما شق تريد اليوم
ن نتحد ، قبل ان يرى فيها امة جزأتها الغير وانها تنزع إلى استعادة
سالف عهدها (٢) .

وكذلك بدأ هذا التحول إلى الاتجاه العربي لدى شوقي الذي « لم
يكن يذكر العروبة قبل الحرب الأولى إلا على هامش مدائحهم في الترك أو
في الرسول الكريم » (٣) .

ومما لا ريب فيه ان الروح القومية اخذت تسري سريعاً بعد ذلك في شعر
المصريين وثرهم بفضل وحدة القضية ووحدة الآمال والآلام والمصير بين الشعوب
العربية التي صهرتها الأحداث والفت بين قلوب ابنائها .. والحق ان احتضان بعض
المؤسسات الدينية في مصر كالأزهر وجمعية الاخوان المسلمين والشبان المسلمين
للدعوة العربية كان له تأثير بالغ في دفع الحركة القومية إلى الامام ، اذ التقى دعاة

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات لوطنية في الادب المعاصر ٢ : ١٥٧
عن ديوان مخلوط للشاعر

(٢) كان عبدالرحمن عزام اول امين عام لجامعة الدول العربية يفهم العروبة على
اساس ديني اسلامي وهذا واضح في كتابه « الرسالة الخالدة » فهو يجد العنصر الديني
والروحي في اقامة الاوطان ، بل ينتقد القومية والوطنية ويلتمس الدولة والعلاقات
الدولية في تعامل الأديان السماوية

(٣) الدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

الجامعة الإسلامية بدعاة العروبة على صعيد التحرر الكامل، ووجدوا في الوحدة العربية مرحلة كبيرة نحو الوحدة الإسلامية المنشودة (١) يضاف إلى ذلك مركز مصر العربي في صون الثقافة العربية والتراث الإسلامي على مر العصور، وكونها بؤرة النهضة الأدبية الحديثة، ومن هنا تتضح لنا أيضاً بعض أسباب اختلاط مفهوم العروبة والإسلام لدى كثير من شعراء مصر.

ولعل مؤتمر ادباء العرب الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٥٨ واقتصرت إجماعه على الأدب والقومية العربية. خير دليل على استمرار صفة التلازم بين المفهومين العربي والإسلامي الذي لم تنفصم عراه في نفوس بعض وفود العالم العربي من خلال ما القوه من كلمات وتعايقات وقصائد. وذلك على الرغم من أن الفكرة القومية قد تغلغلت في نفوس العرب وتجت في الشعر المعاصر إلى حد لا مثيل له من قبل.

وهكذا كان التلازم بين مفومي العروبة والإسلام قويا في الشعر القومي يستمد جذوره من طبيعة تاريخنا المديد الذي تداخل فيه تراث العروبة والإسلام تداخلا كبيراً لا انفصام له.

وعلى الرغم من سطوع هذه الحقيقة ثمة ظاهرة يمكن أن تعد منافية لها أخذت تتجلى قوية مع تبالي الأيام، تلك هي عزوف الشعراء المطارد عن أراز هذا التلازم أو التداخل وحرصهم الدائب على معالجة الشؤون القومية في قصائدهم بمعزل عن الاعتبارات الدينية، حتى أن هذا الحذر كان يؤول لدى بعضهم إلى تخرج فلا يدير كلمة الإسلام على لسانه وكأن ذلك يلصق به تهمة أو يضممه برجعية. ومرد ذلك في رأينا إلى أسباب كثيرة منها ضعف الاواصر بصورة عامة بين الدين وبين

(١) انظر تفصيلات هذه العلاقة لدى الدكتور اسحق موسى الحسين في كتابه «الاخوان لسفون» وقد جاء في مقال لعيسى البندك نشر في ملحق السياسة الاذني في نوفمبر ١٩٣٢: «لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم فهي ربيبة الدعوة المباركة للجامعة الإسلامية أو قل انها جزء لا يتجزأ منها، بل لا نكون مغالين إذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة المتيدة»

القومية في المجتمعات البشرية ، والحاح النظريات الاجتماعية الحديثة على استقلال كل من العنصرين عن الآخر وقيامه بنفسه ، ومنها ايضا ان كثيراً من الأقطار في الغرب فصل الدين عن الدولة ، ومنها اخيراً الاحساس الحاد لدي الشاعر العربي المعاصر بمرارة الذكريات التي خلفها التعصب الطائفي الذميم وبخاصة ما كان نتيجة التجربة القاسية ابان الحكم العثماني .

وغير خاف ما في هذا المنزع من اهدار لترات الاسلام العظيم وماله من اثر كبير في بناء كياننا القومي ، مقابل توهم او توجس من رواسب احداث موقوتة عابرة ، فلاسلام من الزاوية القومية تراث مشترك للعرب جميعاً بالاضافة الى كونه ديناً سماوياً . وهذا التمييز الدقيق لا بدله من ان يقوم في ذهن الشاعر العربي حتى يؤدي رسالته القومية كاملة .

واذا كان هذا الادراك متوقفاً ومألوفاً من قبل شاعر عربي يدين بالاسلام فهو مدعاة للتقدير تجاه عدد من الشعراء العرب الذين يدينون بالعميقة المسيحية ، وقد كان رشيد سليم الخوري (القروي) - شاعر القومية العربية الأول - رائد ذوي الادراك السليم والفهم القويم بفضل جرأته الأدبية وتحرره الفكري ومما قاله في هذا الصدد :

عش للعروبة هاتفاً	بحياتها ودوامها
أنظر الى آثارها	تنبك عن أيامها
هذا التراث يمت	معظمه الى إسلامها

ومن هذا القبيل قوله ايضا (١) :

أتجف اوراق العروبة في ربا	لبنان وهي نضيرة في (يدبل)
أزيد أعظم من ابي بكر ومن	عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

(١) ديوانه ٤٥١

أو قوله :

أنا العروبة لي في كل مملكة انجيل حب ولي قرآن إنعام
شملت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبي مثلي الأعلى وإسلامي

★ ★ ★

وبعد فقد اكتفيننا بتبع العامل الديني في الشعر القومي الحديث دون ان
نعني بالشعر الديني المحض الذي نجد نموذجا منه في « الايالة الاسلامية » لأحمد
محرم ، ففيها يؤرخ الشاعر لغزوات الرسول في قصيدة مطولة شبيهة بشعر الملاحم،
أو في علوية عبدالمطلب وفي عدد من أماديح الشعراء في الرسول عليه السلام ،
وكثير مما نظمته الشعراء الشيعة العراقيون في علي والحسين رضي الله عنها .

ومن حسن الحظ أن تحول الكثيرين من أنصار الجامعة الاسلامية إلى دعاة
متحمسين للعروبة جاء في الوقت الذي أخذت فيه الدعوات الاقليمية الضيقة تستشري
في نفوس فئات من المصريين والبنانيين وتنعكس في قصائد الشعراء .

ومن كل ما سبق ومن خلال رصدنا للاتجاه الاسلامي في الشعر القومي
الحديث نستطيع القول ان العاطفة الدينية كان لها منذ عصر الرسول المقام الأول في
نفوس الشعراء واستمر شأنها كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن
العشرين ، وحين بدأت بوادر الشعور القومي تتسرب إلى نفوس العرب نتيجة
لعوامل سياسية واجتماعية وتأثيرات فكرية خارجية انعكس كل ذلك في الشعر
وأخذت الفكرة العربية الشاملة أو الفكرة الوطنية المحلية تنافس الجامعة الاسلامية
الكبرى برغم ان كلتا الجامعتين العربية والاسلامية كانت في جوهرها حركة بعث
واحياء تهدف إلى استعادة الأجداد الماضية ، ولم شعث الشعوب المتآخية التي فرقها
الدهر ، ومزقتها الفير والأحداث . إلا أن الوحدة الاسلامية غدت مثلا أعلى ينشده
الشعراء وسائر الناس في غير أوانه . ولئن اشتدت الدعوة إليها في بعض الأحيان

فإنما حدث ذلك في أحوال طارئة لُجِمت عن استفزازات الغرب المسيحي . والواقع أن هذه الدعوة لم تفلح حتى في العبود للماضية في تكتيل ملايين المسلمين المنتشرين في أقطار متباعدة من آسية وأفريقية تفصل بينهم أراض شاسعة ، وثقافات مختلفة ، ولغات متعددة ، واتجاهات متباينة ، لقد استطاع الاسلام أن يوحد عقيدة عدد من الأمم ، ولكنه لم يستطع أن يقضي على قومياتها أو يوحدتها فبقيت فرساً وأراكاً وهنوداً وعرباً ...

ويمكننا أخيراً أن نخلص من خلال هذا الفصل إلى الأمور التالية :

١ — كانت البواعث الدينية غالبية على الشعر القومي حتى الحرب العالمية الأولى ، نتيجة ظروف تاريخية واجتماعية عميقة الجذور .

٢ — ازداد تمسك الشعراء بفكرة الجامعة الاسلامية برغم تداعي نظام الخلافة ، حرصاً على مجاهدة الغرب الذي كان ينظر إلى العرب والمسلمين بعين صليبية .

٣ — ظل الشعراء يترنمون بنعمة الخلافة ويتوقون إلى إعادتها برغم انهيارها ، يدفعهم إلى ذلك حنينهم إلى الأجداد السالفة في ظل خلفاء بني أمية اوبني العباس .

٤ — كان الشعراء الذين هاجموا المستعمر بعنف ، وبخاصة في مصر هم بالاجمال من الذين اعتنقوا العقيدة الاسلامية واستلهموا صراحة العرب وإبائهم .

٥ — كان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في الوقوف ضد النزعات الوطنية الضيقة وخاصة في مصر .

٦ — ظل العنصر الديني كسباً كبيراً للنضال القومي ، إذ أمده بنار جديدة ضد المستعمرين كان الشعر القومي يقتدر إلى مثلها في معركته ضد الأتراك

العثمانيين .

٧ — تحول أكثر شعراء الجامعة الاسلامية ودعاتها وبخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية إلى دعم الاتجاه العربي وذلك بالسعي لاعادة الخلافة الى العرب أول الأمر . ثم خطوا خطوة أخرى في الدعوة إلى رابطة العروبة باعتبار عدم التنافي بينها .

٨ — أخذت الروح القومية تنافس العامل الديني باطراد وتتمو على حساب الجامعة الاسلامية في الشعر المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى .

٩ — اختلاط الدين بالقومية كان أحياناً سلاحاً ذا حدين فهو من جهة زاد النضال القومي قوة ولكنه من جهة أخرى أوجد الحذر في نفوس المسيحيين من طغيان الأكرية المسلمة عليهم مما أفسح المجال لأحاييل المستعمر والتزوات الاقليمية المنحرفة .

١٠ — ظل عدد من الشعراء يحوكون قصائده القومية نسيجاً سدها الاسلام وحمته العروبة دون أن يستطيعوا التمييز الدقيق بينهما في شعرهم ، وذلك نتيجة لعمق جذور الاسلام في النفوس ، وتشابك تراث العرب والمسلمين .

الفصل الثاني

الرابطة الشرقية

١

لعل إطلاق كني الشرق والغرب كان يعني منذ القرون الوسطى شطري العالم القديم شطر آسية وأفريقية وشطر أوربة .

ويدو أن بوادر الرابطة الشرقية أخذت في البروز منذ الحرب الصليبية التي كانت في جوهرها استعماراً أوربياً تجلب بالدين، إذ أن الحماسة الدينية كانت الحافر الوحيد الذي استطاع آنذاك سوق الجحافل الجرارة إلى الشرق تحت لواء الكنيسة بحجة تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وهكذا ارتبطت تلك الحملات الغربية بالتعصب الديني في أذهان الشرقيين .

غير أن الروح الشرقية أخذت تستيقظ مجدداً في العصر الحديث وعلى نطاق شامل بشكل شعور غامض بالتعاطف بين بلاد متعددة ، وذلك كرد فعل للتوسع الاستعماري وغزو الشرق . وغداً أكثر أجزاء آسية وإفريقية فريسة في قبضة بضع دول أوربية . ومن ذلك يتضح ان هذه العاطفة المشتركة بين الشرقيين تكونت نتيجة ظروف بعينها وإزاء خطر مشترك طاريء ، فهي أبعد ما تكون عن قوة الرابطة الحقيقية التي نجدها في الدين أو في القومية أو الروابط الأخرى .

والواقع أنه منذ عصر التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر أخذت الهوة تتسع بين شطري العالم القديم حتى انقلب هذا الشعور إلى عداً متبادل بين الشرق والغرب . وقد دأب بعض المفكرين في أوربة على تعميق هذه الهوة ووضع فلسفات ونظريات تجعل هذين الشطرين على طرفي نقيض ، وكان من أشهرهم الشاعر الاستعماري (رديارد كبلنغ) الذي قل جملته المشهورة (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) ، بالإضافة إلى النظريات المعاصرة التي قامت على أساس من ازدراء شعوب الشرق وتبرير استعمار الغرب لها .

إن وثبة الغرب الحضارية قد هزت كيان الشرق وأيقظته من سباته ، فأخذ يتطلع مهوراً إلى التقدم المادي الرائع . وكان رد الفعل في بادئ الأمر لدى شعوب الشرق « ضرباً من الدهشة والذهول أمام لغز لا يحل وقفوا تجاهه على اختلاف قومياتهم موقف المستشعر بضغفه .. وكان التفكير يدور حول (أسباب تأخر الشرق) و (تقدم الغرب) في سلسلة من الموازنات والمقارنات في شتى نواحي الحياة » (١) وأكثر ما دبتجه الأقلام من مقالات وبحوث كان يجعل الشرق موطن الروح ومبعث النبوات ، والغرب موطن المادة ومصدر الثروات ؛ وقد دأب عدد من الكتاب العرب من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأمين الريحاني ومي زيادة وجبران خليل جبران ومخائيل نعيمة وعباس محمود العقاد على معالجة هذه الموضوعات واستجلاء المفارقات والمميزات في كل من الشرق والغرب ، وقد رأينا العقاد يستخف في فصوله بمدنية الغرب ويشيد بكون الشرق منبت الانبياء وإن الغرب ما زال عالمة على الشرق فيما يدين به وأنه يكفي ان أوربة لم تنبت نبياً . كما رأينا ميخائيل نعيمة الذي ينكر كل حد بين البلاد ولا يقبل مبدأ القومية وكيانات الشعوب ، يقيم بين الشرق والغرب حدوداً ، ويسم كلا منها بسماة مميزة بحيث يجعل منها عالين منفصلين ، ويعد الشرق قلب البشرية والغرب عقلها ؛ كما يرى ان الشرق بصير والغرب مبصر ، وإن الغرب يغرب والشرق يشرق (٢) .

(١) محمد المبارك : الامة العربية . ٥٠ .

(٢) انظر عبدالكريم الأشتر : الثر وفنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٧٢ ، ١٨٢ .

وعلى الرغم من أن هذا التفريق القاطع والتمييز المطلق بين المجتمعات البشرية ليس طبيعياً ولا يمكن قبوله جملة وبخاصة في عصر حطمت فيه المواصلات ومنجزات العلم الباهرة الفوارق والسدود بين الأقطار، إلا أن ذلك ينم عما استقر في نفوس العرب وسائر الشعوب حولهم من شعور حاد بشرقيتهم تحت وطأة رواسب الماضي والأحداث السياسية العنيفة التي عصفت بالشرق نتيجة الحروب الكبيرة والغزو الاستعماري الطاعني. وطبيعي أن يترك ذلك كله صدى في الشعر القومي والاجتماعي وأن يستشعر الشاعر العربي في هذا الخضم بشرقيته إلى جانب اعتداده بدينه وقوميته.

من ذلك ما عبر عنه أديب التقي في قصيدة اسمها (بين الشرق والغرب) نظمها على أثر زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١ ، وقد تجلت فيها نفحة إنسانية وادعة كأنما سرت إليها من روح الشاعر الهندي العظيم (١) :

حنانك عهد الشرق هل أنت راجع	بما ينبغي أم ليس تخاننا يقضى
أحرار أهل الغرب أموا بلادنا	ترونا كراما لا نسر لكم بغضا
تعالوا إلينا لا لفتح وغارة	لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضاً
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا	وتستمعوا للقلب عن كئيب بغضا
حملتم إلى الشرق الاسار وجئتم	تراضونه والشرق بالأسر لا يرضى

وتعتبر قصيدة (الشرق والغرب) للصافي النجفي — وقد نظمها في أواخر الحرب العالمية الثانية — من أجمل ما قيل في تصوير مادية الغرب وفلسفته وفيها يقول (٢) :

جئناك يا غرب بالأديان والحكم
وجئت للشرق باستعمارك النهم

(١) ديوانه ١٠٠٦ .

(٢) ألحان اللهيب ٨٣ .

ما الغرب إلا كيان لا فؤاد له يمينا كلالته بالغاز والفحم
زفيره من دخان نافث نقما وقلبه نابض بالنار والحلم

وكان حسن البحيري واضحاً وصريحاً حين أخذ يخاطب (كبلنغ)
الأديب الامبراطوري مباحياً إياه بحضارة الشرق ومشيراً إلى عبارته المأثورة التي
تقرر تحكّم الغرب القوي في الشرق الضعيف الى الأبد، وذلك في قصيدة له
عنوانها (الشرق) وفيها يقول (١) :

« رديارد » هذا الدهر سله من ابتي الهرمين سله من اعلى الايوان
الشرق شرق عزة ومهابة والغرب غرب خسة وهوانا
إنا أنزنا غربكم بضائننا أيام كنتم في الورى قطعانا

أما الصافي النجفي فقد استوحى عبارة (كبلنغ) وكأنه يرد بها عليه (٢) :

الشرق لا يلتقي بالغرب في زمن وهل ترى تلتقي الأنوار بالظلم

ومما زاد العاطفة الشرقية رسوخاً في نفوس الشعراء العرب يقينهم أن
أصل البلاء واحد شمل العرب المسلمين وسوام ، وأن دول أوربة اتفقت جميعاً على
اقتسام هذا الشطر الكبير من العالم واستثماره ارضاء لجشعها ، فكأن الغرب
أخطبوط هائل ليست أطرافه الممتدة نحو الشرق سوى انكثرتا وفرنسة وإيطاليا
واسبانيا وهولندة .

وقد برزت النزعة الشرقية بوضوح في الشعر القومي الحديث في أعقاب
الحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية وبعض الدول الغربية مثل حرب الروس
(١٨٧٨) ثم حرب اليونان (١٨٩٧) ثم حرب طرابلس ضد الطليان (١٩١١)

(١) ابتسام الضحى ٢٧ .

(٢) ألحان الهميب ٨١ .

وأخيراً حروب الباقان (١٩١٣) .

وكان نضال العرب والمسلمين عامة جزءاً من نضال الشرقيين ضد الغرب المستعمر . ومن هنا أصبح مفهوم الشرق رجراجا ، وكثر استعماله في الشعر والنثر والصحافة ، فتارة يقصد به الجامعة الاسلامية ، وتارة أخرى يراد به العالم العربي وأحيانا كان يشمل الشرق بأجمعه . أما الغرب فقد ارتبط في أذهان هذه الشعوب بالجنح والغزو والاستعمار منذ عهد الصليبيين وقد أشار على الجندي إلى ذلك حين قارن بين صلاح الدين بطل الشرق وبين ريتشارد قلب الأسد قائد الغرب بقوله (١) :

حامي القدس أين ريتشارد لا أين قضى (البيث) وانطوى حلفاؤه
فارس (الغرب) راعه فارس الشرق وبدري فضل الفقى أكفاؤه

ومن هنا أيضا كان التعميم في مدلول كلمة الشرق واطلاق الشعراء لعنايه يقابل حقيقة المعضلة المشتركة التي تتركز في الجشع الاستعماري ضد البلاد الآمنة . وقد أخذ الشعراء على عاتقهم أن يبشروا برسالتهم ويصبروا شعوبهم بما يحوكه الغرب ضدهم من ذلك مثلا ما نظمه مدروف الرصافي من أبيات أشار فيها إلى ضحك الحق تجاه ما يدعيه الغرب من رعاية لمبادئ العدالة والحرية والمساواة وشر البلية ما يضحك (٢) :

وكم قد سمنا سياسة الغرب تدعى بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منموا رقى الأسير وإنما أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرق
وقد نسج جميل الزهاوي أبياته من شعور الحذر والمقت تجاه الغرب
الكائد (٣) :

الغرب يلغاك من مكره بوجه طليق

(٢) ديوانه ١٥٠ ؛

(١) أغاريد البحر ٧٨

(٣) رباعيات الزهاوي ٨٠

يا شرق لا تأتمنه فالغرب غير صديق
وكذلك يحذر إلياس فنصل أمته من أحاييل الغرب الماكر (١):

أيادي العرب تسمى فاحذروها فقد تحذت أديم اللطف مكرأ
تصافحك ولكن عن رياء وتشعل من هشيم الخلف ججرا

ويصور الشيخ فؤاد الخطيب علاقة الشرق المغبون بالغرب العاتي
فيقول (٢):

أيها الشرق أنت في خدمة الغرب كما يخدم اليتيم الوصيا
فهو يتص من دمالك ما شاء وقد عز أن ترام رصيا

وقد دأب الشعراء على حث الشرق السادر النافل على النهوض وحضه
على الثورة ، وبخاصة في فترات الركود والاستسلام لمشيئة الأجنبي . وهذا ولي
الدين يكن من مصر يهيب بالشرق أن يثب فيقول (٣):

يا شرق ليج بك العداة هوى يا شرق أعراهم بك الطمع
أو يقول:

فلينهض الشرق أهل بجدته قد آن أن ينهضوا وأن يثبوا

وبهذه الروح يخاطب معطفي النلايين من لبنان أبناء الشرق وفيهم
قومه (٤):

بني الشرق طال النوم فيكم فأيقظوا رقاداً نشاوى غفلة وسبات

(١) السهام ٤١

(٢) ديوانه ٥٥

(٣) ديوانه ١٤

(٤) ديوانه ١٥٠

بني الغرب رقفا بالضعيف فقد كفى
دعوا الشرق يحيا وحده في اعتزله
بني الشرق ما يلقون من ضربات
فما ينتغي منكم لهي وهبات

وكذلك يحث شفيق جبيري من دمشق هذا الشرق على الوثوب ضد
ذئاب الغرب بقوله (١) :

يا شرق مالك لا تفيق وقد بدت منك المقاتل
والغرب قد نصب الجبا تل في الخارج والمداخل

كما يندد إلياس قنصل بخروج الشرق واستسلامه تجاه المستعمر
الغربي ويقول (٢) :

يا أيها الشرق التعيس إلى متى تلقى أمر الاضطهاد وتجنح
وإلى متى تشكو وما من راحم يرئي لدى الشكوى ومامن يسمع

لقد كان هذا الشرق نائما والغرب يعيث في أرجائه فسادا ، والشعراء
دائبون على قرع أسماعه برنين قوافيهم وناقوس قصائدهم .

والملاحظ أن صوت دعاة الرابطة الشرقية قد خفت خلال أعوام
الحرب العالمية الأولى وكاد هذا الشهور بالتعاطف يتجمد في العالم العربي نتيجة
ما حدث من تغيرات سياسية آنذاك . إذ تحالفت الدولة العثمانية مع المانية ، وتحالف
العرب (باستثناء المصريين) مع بريطانية وفرنسة ، وبذلك لم يعد الصراع خلال
تلك الحرب حاسما بين الشرق والغرب ، بل اتخذ طابعا آخر نتيجة ظهور مبدأ
القوميات في الشرق .

(١) المختار من الشعر في سورية ، لصبري الاشتهر ؛

(٢) على مذبج الوطنية ٦٢

ومن هنا نلاحظ أن أكثر القصائد التي نظمت في الثورة العربية الكبرى لا تلح على هذه الرابطة الشرقية، خلافاً لما كانت الحال عليه من قبل خلال الحروب التي على خاضتها الدولة العثمانية ضد دول الغرب .

أما في مصر فقد كانت المعضلة مستمرة وجنود الاحتلال ما زالوا يجثمون فوق البلاد ، ولهذا استمر شعراء مصر بالمقابل في حذرهم من الغرب المستعمروفي خشيتهم على الامبراطورية العثمانية هذه الدولة الاسلامية الشرقية الكبرى التي كانت بمثابة السد الذي يحول دون تدفق المستعمرين ، والصخرة التي تتحطم عليها مطالبهم . وقد ندد عدد من الشعراء وفيهم أحمد محرم بزعيم الثورة العربية الذي استسلم لأكثر دول الغرب جسماً فقال (١) :

نبئت ما زعم الشريف وقومه فسمعت ما لم تسمع الأذنان
خدعوه إذ ضاق السبيل بمكرهم ورموا بأمال إليه حسان
إذا الجلالة لامعدت بتأجه ملكاً سواك به السعيد الهاني

وحين تكشفت الحرب الكبرى عن نيات الحلفاء الغادرة انفجس الشرق العربي غاضباً ، وبرزت الروح الشرقية من جديد تعبر عن شعور المرارة بعد ما أبداه الشرق من سداجة وثقة تجاه الغرب الماكر ، ولم تكن ثورة ١٩١٩ في مصر إلا جزءاً من انتفاضة الشرق المتوثب ضد الغرب المستعمر . وقد عبر محمد الأسمر عن هذه الظاهرة وأشار إلى تقلبات الدهر على الشرق والغرب بقوله (٢) :

رجعنا كما كانوا وصاروا كما كنا كذلك الليالي لا تديم لها خدنا
ثم يخاطب سعد زغلول زعيم مصر وقائد ثورتها :

(١) الدكتور محمد حسن : الإنجازات الوطنية في الادب المعاصر ٢ : ١٩٦ عن ديوان مخطوط للشاعر .
(٢) تغريدات الصباح ٢٠

فتى الشرق إن الغرب أدلى بمخالب وناب ، فلا تهتز بينهما جينا

ووجد الشعراء في ثوره مصر ثورة الشرق ، كما وجدوا في سعد زغلول
زعيماً شرقياً استطاع بعزيمته أن يتصدى للغرب ، وفي ذلك يقول
حافظ ابراهيم (١) :

لك وقفة في الشرق تعرفها العلا ويحفها التكبير والتهليل
زلزلها في الغرب كل مكابر ليرى ويعلم ما حواه الغيل

وحين توفي سعد افتقده الشعراء العرب ورثوه بجرارة ، وهم لم يجدوا
فيه زعيماً مصرياً فحسب بل زعيماً للعرب والشرق ، وهذا حليم دهوس يناجيه
من لبنان بقوله (٢) :

زعيم الشرق وهو نداء حق لملك لم يقم في الشرق ند
وكذلك يناجيه محمد الفراتي من سورية بقوله (٣) :

للشرق يا زغلول ما شيدته عجزت بناء المجد عن تشييده

وتجلى هذه العاطفة الشرقية بشكل بارز أيضاً في الشعر الحديث تجاه
زعيم شرقي آخر هو مصطفى كمال أتاتورك الذي انتصر على اليونان إحدى الدول
الغربية المتحالفة ، وبهر انتصاره ذلك ، الشرق والغرب على السواء . وقد هاج
هذا الظفر المين قريحة الرصافي ، فأملت على قلبه قصيدة رفعها (إلى بطل الشرق
الأكبر) كما نعته في عنوانها ، وما قاله فيها (٤) :

نصرت على بني يونان نصراً أقام الغرب في هرج ومرج

(١) ديوانه ١ : ١٢ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٤ .

(٣) ديوانه ١٧٧ .

(٤) - ديوانه ٤٤ .

كما أشار إلياس فرحات إلى هذه الظاهرة الشرقية أيضاً في حركة
أتاتورك وانتفاخته في وجه الغرب ووجد ذلك بشيراً بانطلاق الشرق وتحرره (١):

أرى في العالم الشرقي فاراً جذوعَ الغرب تأكل والنصونا
سلوا عن حرها النازي (كالا) يخبركم بما لا تعلموننا

وشبيه بهذا الاستبشار والتهليل ما نجده في بائية أحمد شوقي بهذه المناسبة
وفيما نظمه عدد آخر من الشعراء .

وبنتيجة الشعور المعادي لدول الغرب الذي بلغ في نفوس العرب حداً
كبيراً ، تطورت النزعة الشرقية في النفوس وخرجت من نداءات التنبيه
والتحذير إلى مرحلة التهديد والوعيد ، وذلك بعد أن وعى المسلمون على أمرهم
جوهر قضايهم وعانوا بأنفسهم من مرارة العبودية ، وهذا مصطفى الفلايني يتصدى
للغرب محذراً إياه من غضبة الشرق المرتقبة فيقول (٢) :

أرى أن أهل الشرق قد ضاؤ ذرعهم بكم فاحذروا من داه الوثبات
أثرتم دفين الحقد في الشرق كله إلا فارقبوا من أسده الهجرات

وكذلك يشير أبو الأقبال الميعقودي إلى أن ساعة الخلاص قد اقتربت وينذر
الظالمين بويل شديد (٣) :

ولكم في العرب من باغ غشوم ولو ان العرب من أهل الكتاب
ولسوف الشرق يودي بالظلوم ويريه كيف يأتيه العذاب

وقد شبه الزهاوي في رباعياته بلاد الشرق بركان تقتلي في جوفه الحمم

(١) ديوانه ١٧١ .

(٢) النظرات السبع ١٢

(٣) ديوانه ١٥

ولا بد من أن تنفجر في وجه الغرب عاجلاً أو آجلاً (١) :

الشرق يشبه بركاناً به حمم أخف من أنه ياغرب ينفجر

وحين تفجرت الثورات القومية في أرجاء الشرق عامة وفي العالم العربي بوجه خاص بعد الحرب الأولى استبشر الشعراء بهذه الانتفاضات وأملوا من ورائها الخير للشعوب المستعمرة ، وقد عبر الزهاوي عن هذا الشعور بقوله (٢) :

قد ثار في الشرق الخلق واقترب الوعد الخق
ما كان النرب بذى ظن أن سوف يحاسبه الشرق

ولم تكد ثورة مصر تنطلق في أعقاب الحرب الأولى حتى تكاثرت شرر الانتفاضات في أنحاء الشرق العربي ، فقد قامت ثورة العراق اللاهبة ضد الاحتلال البريطاني في عام ١٩٢٠ ، وأخذت تتجلى على ألسنة شعراء العراق أعمق العواطف الوطنية متممة بصفات قومية ودينية وشرقية معاً ، ومما يثل تلك العاطفة الشرقية أبيات نخيري الهنداوي يقول فيها (٣) :

أيها الشرق هل فقدت الشروفاً فأضل الأقوم فيك الطريقاً
يتوا أمرم بليل وجاؤوك جميعاً يتلو فريق فريقاً
حاولوا لا أبلم ان يكون الشرق كالعبد مستضاماً رقيقاً

وثمة أبيات للرصافي في هذا الصدد يصور فيها براءة ، علاقة العراق

(١) رباعيات الزهاوي ١٢٦

(٢) رباعيات الزهاوي ١٣٨

(٣) رفاثيل بطي : الشعر المصري في العراق العربي ١٦٦

بالاستعمار من خلال نظراته الشاملة إلى الغرب والشرق . وذلك في قوله (١) :

إن هذا الشرق والغرب لمفيون وغابن
فترى الشرق تجاه الغرب يسعى سعي ماهن
وترى الغرب عليه ، واقفاً موقف خائن
فهو يمتص دماء الشرق في كل الأماكن
إن في الشرق تجاه الغرب نيراناً كوامن
وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقى الضرع غربي الملاين

وكما كانت العاطفة الدينية تسير أحياناً إلى جانب الشعور القومي ، كانت النزعة الشرقية أيضاً تبرز أحياناً أخرى من خلال تلك القصائد ، وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ نظم أمير الشعراء شوقي قصيدة قومية رائعة عبر فيها عن هذا الاعتزاز الشرقي تجاه الغرب حين أشاد ببني أمية قائلاً (٢) :

كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتمهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

ورأى محمد سعيد العامودي في انتفاضة السوريين ضد إحدى دول الغرب العاتية مفخرة للشرق إذ قال (٣) :

يا شام حسبك مفخراً في الشرق أن - بنيك قد نهضوا وقد أرضوك
اليوم أظهرت الفخار مجدداً لزعانف الغرب الألى جهلوك
اليوم يا حرية قد حق أن تأتي فأهل الشرق قد نشدوك

كما يخاطب محمد الشريقي الشرق كله من خلال مخاطبته لسورية الثائرة فيقول (٤) :

(١) ديوانه ٤٣٨

(٢) الشوقيات ٢ - ١٢٢

(٣) ديوان الثورة ٩٨

(٤) ديوان الثورة ٤٠

يا أيها الشرق إن الغرب مؤتمر والحق للسيف والمنلوب مهتضم
حرية الشعب أولى ما تقدسه وخير دين به الشرقي يعتصم

أما أحداث فلسطين فقد كانت انصع دليل على تأمر الغرب ضد شعوب الشرق . وقد حفل الشعر القومي الذي نظم فيها بواطن شتى قومية ودينية وشرقية وإنسانية معاً التقت جميعها على صعيد واحد تندد بالاستعمار الغربي ، وقد أشار الشاعر العراقي على البازي إلى الباعث الشرقي في تلك القضية بقوله (١) :

يا بني الشرق لقد عاثت بكم أمم الغرب وأنتم هجد

كما عبر محمد على اليعقوبي من العراق أيضاً عن تجاوب أقطار الشرق مع فلسطين ومشاركتها إياها في البلاء (٢) :

فمصر والصين وإيرانها وجاراتها والعراق الأغر
والمغرب الأقصى ومن حوله من دول للشرق أضحت عبر
إن أججت نار الوغى بيننا فإن زند الغرب يرمي بالشرر
ما أسلف الغرب عهداً ولا مواعداً للشرق إلا غدر

ومن كل ذلك يتضح مدى الانسجام الذي انعكست آثاره في الشعر الحديث . بين العاطفة الشرقية وبين الأماني القومية في كثير من الأحداث السياسية التي عرفها العرب خلال هذه الفترة من تاريخهم الحديث . لقد كانت العاطفة الشرقية قوة دافعة أخرى من بين القوى التحررية المتعددة انطلقت تجاهه الشر والعدوان والاستعمار ، ورافداً فعالاً كان له أثره البالغ في تعزيز الحركات الوطنية والشعور القومي في نفوس الشعوب العربية .

(١) الفلسطينيات ٤٨

(٢) الفلسطينيات ١٦

والسؤال الآن ، ماذا كان الشعراء المعاصرون يقصدون من معنى على وجه التحديد من وراء استعمالهم لفظة « الشرق » في قصائدهم وماذا كانت تعني هذه الكلمة في أذهانهم ؟

لقد سبق أن أشرنا إلى مدى الاضطراب في مفهوم (الشرق) لدى الشعراء والكتاب واختلافهم حوله اتساعاً وضيقاً ، وإطلاقاً وتقييداً . ونحن نتبين ثلاثة مدلولات رئيسية لهذه الكلمة من خلال ما بين أيدينا من الشعر المعاصر :

الأول : ورود كلمة الشرق مطلقة في الشعر بمدلولها الواسع للأمم الشرق قاطبة بحسب المصطلح الجغرافي الشامل .

والثاني : يريد به الشعراء الأمم الاسلامية وفي جملتها العرب .

والثالث : كانوا يريدون به الشرق العربي أو الشعوب العربية وحدها .

ولا ريب أن كل مدلول من هذه المدلولات يعكس تيارات سياسية واجتماعية كانت تمر بالشرق ، وتخلق ظروفاً وافكاراً تؤثر في نفوس العرب وتجلى آثارها في قصائد الشعراء .

وحين يطلق الشعراء لفظ الشرق بمعناه الأول فانهم يريدون به في الغالب جميع أقطار الشرق وشعوبه على اختلاف أديانهم وقومياتهم من عرب وترك وهنود وصينيين ، ومن مسلمين ونصارى وبوذيين ويهود وسوام .. وهذا المفهوم الشامل مطابق لواقع الرقعة الجغرافية الواسعة التي تشمل ما نعينه اليوم بالشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى .

وقد أشار الشعراء المعاصرون مراراً إلى كفاح هذه الأمم مقروناً بكفاح العرب ضد العدو المشترك في ذلك الشرق الكبير ، وكان انتصار اليابان على الروس عام ١٩٠٤ في نظر هؤلاء الشعراء ظفراً للشرق المبيض الجناح على الغرب العاتي ، ترك أثراً بالغاً في ضمير الشعوب المستضعفة ، وبعث في

نفوسها الثقة والآمال التي افتقدتها أمداً طويلاً . وكم من قصيدة هملت لهذا النصر المبين ووجدت فيه بشيراً بانتفاضة العرب والمسلمين . واعتبر حافظ إبراهيم سباقاً إلى التغيُّ بانتفاضة اليابان والاشادة بنهضتها ، كما نجد في ذلك قصائد متعددة لمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وأمين ناصر الدين وفؤاد الخطيب وغيرهم من الشعراء . وأكثر ما نظم في هذا الشأن كان قبل الحرب العالمية الأولى مما لا يدخل في نطاق بحثنا هذا ، كما كان طابعه بالأجمال الحث والاستنهاض .

ومع ذلك فإن الحرب العالمية الأولى تنتهي ونهضة اليابان ما تزال ملاء الأسماع وتعتبر المثل الأعلى عند عدد من الشعراء ، حتى إن أبا الفضل الوليد اعتبرها ربة الشرق الأقصى وتحدث عنها بزهو واعتداد وذلك في قصيدة له أسماها (المشرقية) قال فيها (١) :

ألا فرج لأهل الشرق يرجى	بنجدة ربة الشرق القصي
هي اليابان تطلع للمعالي	بطلع راية الشمس السني
فهب الشرق بعد خمول نهر	لصرخة ذلك الشعب النحي
وحار الغرب في نصر ميين	على الجيش اللهم العبقري

وواضح أن الشاعر يعتز بهذا النصر ويشيد به معتبراً إياه دعماً وسنداً لكفاح قومه ، وكأنه يرجو لهم مثله ضد الغرب ذلك العدو المشترك . ويبدو أن وثبة اليابان هزت الشرق وشعوبه وبقي صداها في نفوسهم عشرات السنين ، وهذا محمد شبيب العاملي من لبنان يضرب باليابان مثلاً للعرب ويحثهم على النهوض بقوله (٢) :

يا بني الشرق ويحكم كيف نبقي
أبد الدهر عرضة الشنان

(١) نفحات الصور ٣٢

(٢) ديوانه ٥٢

جدا الشرق ناهضاً لمراقي - المجد والسعي نهضة اليابان

بل إننا نجد هذا المثل الأعلى ما زال يتردد خلال الحرب العالمية الثانية
في ذهن الصافي النجفي (١) :

يا أمة العرب لا تنسوا رسالتكم فانكم قد خلقتُم قادة الأمم
وصيروا أمة اليابان قدوتكم في العلم والخلق والاقدام والعظم
لا تستيروا بنور الغرب فهو دجى مبطن بلصوص أو بسفك دم

فالصافي حين يدعو قومه إلى الاقتداء باليابان يعبر عن تلك النزعة الشرقية التي تقوم على الحذر تجاه كل ما هو غربي ، والتي وجدت ضالتها في النهضة اليابانية . ولا يخفى أن هذه القصائد التي أشادت بانتصارات اليابان وتقدمها الحضاري إنما كانت تعبر أيضاً عن ظاهرة نفسية في نفوس العرب الذين وجدوا في ذلك الموضوع ما يطرد عنهم شعور اليأس الذي ران عليهم زمناً طويلاً ، وما يكون بلسما لجراحهم ومتنفساً لرغبتهم في التحرر والنهوض ، بالإضافة إلى ما كانوا يجدونه في تصدي اليابان للغرب من ثأر لهم وانتقام لكرامتهم المهذرة . وقد تجدد هذا الشعور بالتعاطف نحو اليابان على أثر انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، حين قذف الغرب بعض جزرها بالقنابل الذرية فدمرها وأباد سكانها ، ووضع بذلك الدمار الرهيب حداً لتلك الحرب الضروس . واتسع هذا التعاطف حتى شمل العالم واتسم بطابع إنساني ألهم الشعر بأروع الاحساسات وأنبها .

وكان كفاح الهند المستميت في سبيل تحررها مثار اهتمام الشعراء العرب الذين وجدوا في نضالها ما يعزز نضالهم ضد العدو المشترك ، وقد وجد الاستعمار في تلك البلاد بقرة حلوباً أنشب فيها أظفاره واستترف خيراتها

(١) الحان اليب ٨٣

وسلبها كنوزها الدفينة . وهذا « إلباس قنصل » يلقي بنظره من العالم الجديد نحو هذا الشرق المكافح فيرى بلاد العرب والهند من معدن واحد تعاني الأهوال من الاحتلال الأجنبي ويجمع بينهما ابتلاؤها بمحنة واحدة (١) :

يا شرق جزأك الغريب فلم تعد إلا دويلات تذل وتخضع
فالشام تأتي أن تلتين وتثنى وحقوقها كادت هناك تضيع
والهند قائمة هناك بثورة فتصير كالأنكليزوتصدع

كما نرى الشاعر نفسه يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد في إحدى قصائده فيتحدث عن الثورة السورية وبطش فرنسة بدمشق وعن نضال فلسطين والارهاب الصهيوني وينتقل في القصيدة نفسها الى كفاح الهند وزعيمها الكبير بوحي من الشعور بوحدة القضية المشتركة (٢) :

وما (غاندي) الضعيف سوى نبي شبيه الأنبياء المرسلينا

فقد كان غاندي قبلة أنظار العرب يكتفون له من الاحترام والتقدير ما لا يقل عما يكنه له الهنود . ولذلك نرى الشاعر القروي يضعه أيضاً في مصاف الأنبياء ويرجو للعرب مثل وثبته بقومه (٣) :

من شط (بحر الفنج) زار غضغفر أشجى اسمعي من هديل حمام
صوت يردده مسيح الهند في دلهي لتسمع يا مسيح الشام

كما يشير القروي أيضاً إلى نضال غاندي السليبي حين قاوم الاحتلال مع شعبه بإعلان الصوم ومقاطعة بضائع المستعمر . ويتمنى على المسلمين في بلاد العرب أن يضايقوا المحتل بمثل ذلك (٤) :

(٢) علي مذبج الوطنية ٦٩

(٤) ديوانه ٣١٤

(١) علي مذبج الوطنية ٥٥

(٣) ديوانه ٣٧٥

لقد صام هندي فجع دولة فهل ضار علجاً صوم مليون مسلم
أهاب بالآلات الحديد فعملت مصانع كانت جنة المتعمم
وشل دواليب الرخاء بصرخة أدارت دواليب القضاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست جسوم البرايا القشيب المنمم

أما عمر يحيى الذي الذي ساقه اضطهاد الانكليز إلى الهند منفيًا فقد
ابتأس لما رآه في هذه البلاد من تأخر وجهل يعوقان نهضتها وتحررها من قبضة
المستعمر وهو يقول (١) :

أنا في الهند أرى الشرق وما في حناياه من الداء الدفين
ضاق صدر الشرق عن أبنائه وحوى من قادة الغرب مئين
ليس بدعا أن ترانا عندهم في زوايا دارنا مستعبدين
فلكم تضحك لما أن ترى بقرا ترعى وأقواماً تهون

فلم تكن نظرة الشاعر إلى تلك البلاد نظرة المتفرج العابر ، فقد عز عليه
أن يرى بلداً شرقياً كبيراً يمكن للمستعمر في أرضه ويبيع له خيراته . ومن
الملاحظ أيضاً أن الشاعر يتحدث عن العرب والهنود والشرقيين جميعاً بصيغة
التكلم على أنهم بمثابة أسرة واحدة مستعبدة ألحف الجرح بين قلوب أبنائها
فتماطفوا .

وقد سبقت الإشارة إلى اثر تعاليم جمال الدين الأفغاني في زيادة اهتمام العرب
والمسلمين بالروح الشرقية الشاملة من نحو قائلته المشهورة عن الهند : « لو كنتم
أتم مثات الملايين من الهنود ، وقد مسحكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم
ابحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجرتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم
أحراراً » ولا ريب أن مثل هذه الآراء للأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان

(١) البراءم ١١٨

ورشيد رضا وسواهم من اعلام الفكر والأدب الذين اولوا بلاد الشرق
عنايتهم في تعاليمهم ومؤلفاتهم ، كان لها صدى في الشعر الحديث استمر أمداً
غير قصير ، حتى إن الشاعر المهجري أبا الفضل الوليد استمد مضمون أبياته من
هذه العبارة الشعرية الطريفة للأفغاني وصاغ من وحيها قوله (١) :

فلو أن الهنود مشوا جميعاً إلى يوم أغر عرمرمي
لطاح الانكليز به وآلت ركائبه إلى شد المطي

وثمة قصيدة للرصافي يرمز فيها إلى الهند والعراق بالفيل والحمل ، كما يرمز
للمحتل الانكليزي عدوهما المشترك بالذئب فيقول (٢) :

إذا ما سمعت الحق في قول قائل تخيلت فيلا بالحديد مكيلا
فلوقام هذا الفيل واستجمع القوى لهز بها شم الجبال وقلقلا
لنا حمل وهو العراق نظنه غدامن وراء الفيل للذئب ما كلا
فان ينج هذا الفيل من قيد أسره نجونا وإلا أصبح الأمر معضلا

في خلال هذه الأبيات تتضح الآلام المشتركة التي آخت بين بلدين
سرفيين ، وربطت بينهما في مصير واحد ، والرصافي لا يرجو خلاصاً للعراق إلا
بعد تحرر الهند وهكذا كان .

وكانت هذه النظرة الشاملة إلى العرب وسائر الشرقيين رائد كثيرين
من الشعراء المعاصرين . فالشاعر القزوي لا يفرق بين زعماء الشرق الذين ثاروا
في وجه الغرب للمستعمر من أجل تحرير شعوبهم حين رجا للشام واحداً من مثلهم
يقود أمته في انتفاضتها كما ثارت الهند ومصر وتركيا والمغرب وذلك في قوله (٣) :

أين غندي وأين زغالول منا أين عبد الكريم أين كمال

(٢) ديوانه ٤٥٣ .

(١) نفحات الصور ٣٢

(٣) ديوانه ٣٣٩

وقد عبر إلياس فرحات من مهجره القصص عن استبشاره بانتفاضات أمم الشرق المتلاحقة في سبيل تحررها فقال (١) :

الشرق فتح ناظره فباله	مرأى ذئاب العرب في وثباتها
الصين ناهضة إلى أعدائها	والهند نافضة غبار سباتها
والريف مقتحم عباب عجاجة	كلف بوجه الشمس من ذراتها
والشام بعض الشام هب محاولا	فك القيود عظم حلقاتها

فظاهرة النضال واحدة بين أمم عديدة استشعرت وطأة الاحتلال فهبت تزدود عن حياضها .

وكأنما أدرك الشعراء أن تحرر الشرقيين من قبضة الأجنبي رهن بذلك النضال المشترك وأن آمالهم بالاستقلال لن تتحقق إلا إذا تخلصوا من ادواء التفرقة والتعصب. وقد أشار حافظ إبراهيم إلى أهمية هذا التسامح والوئام في قصيدة ألقاها في جامعة بيروت الأميركية عام ١٩١٩ وقال فيها (٢) :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده	عن مطمح الغرب فيه غير وسنان
لا فرق ما بين بوذي يعيش به	ومسلم ويهودي وتصرائي

وهذان البيتان نموذج لغلبة المفهوم الشرقي على جانب من الشعر القومي واشتغال هذا المفهوم على أديان الشرق المتعددة وقوميته المتباينة .

وهكذا عبر طرف من الشعر القومي المعاصر عن تلك العاطفة الشرقية الشاملة التي وسعت نضال أمم شتى ، قربت بينها الخير والأحداث ووحدت كفاحها مآسي الاستعمار . ولم يكن تجاوب الشعراء مع وثبات هذه الامم الشرقية

(١) ديوانه ٢٦٠

(٢) ديوانه ١٣٣

من قبيل فضول النظم والتحدث بشؤون دول غربية أو أجنبية ، فقد كانوا يعكسون في قصائدهم مشاعر العرب ، وتطلعهم الي جيرانهم بعين الأمل الكبير في أن يكلل ذلك الكفاح المرير بغار النصر ، لأن كل ظفر يحرزه أولئك كان يشد من أزر العرب ، ولم يكن تهليل الشعراء لتلك الانتفاضات التي كانت تنبعث من الشرق سوى تعبير خير مباشر عما في نفوس الأمة العربية من نزوع نحو التحرر المنشود .

٣

وإذا ما حاولنا اكتناه مفهوم الشرق في أذهان الشعراء المعاصرين من ناحية أخرى وجدنا أن اضطرابهم في اطلاق ذلك المفهوم يرجع في الواقع الى تضيق دلالته الواسعة الشاملة واقتصارهم فيها على الشرق الاسلامي في أغلب الأحيان ، وعلى الشرق العربي أحياناً أخرى ، وهذا الفهم المترجع كان يؤثر في المفهوم القومي ذاته لدى الشعراء ، ويصيب معنى العروبة في الشعر المعاصر بكثير من الغموض والاضطراب .

ونظراً لأن العاطفة الشرقية سبقت في ظهورها الروح القومية فقد طبعت في معظم الأحيان بالطابع الاسلامي وبخاصة في عهود قوة أنصار الجامعة الاسلامية ، وفي ظل الخلافة العثمانية ، ولعل أبرز ما يشير الي ذلك تاسيس (جمعية الرابطة الاسلامية) في مصر عام ١٩٢٢ وإصدارها مجلة الرابطة الشرقية التي كان من أركان تحريرها عدد من أعلام الاسلام مثل محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ، وأحمد زكي باشا الذي كان يلقب بشيخ العروبة والشيخ محمد نجيت شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد المحسن الكاظمي الشاعر العراقي (١) ، وأن فاتحة المجلة لم تكن تميز بين العرب والمسلمين والشرقيين وكان

(١) انظر محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٠٢

حديثها في العدد الأول عاماً يشمل طرابلس و تركيا وأفغانستان والصين ومصر
والهند والملايو ، دون أن يرد لليابان ذكر لأنها غير مسلمة .

وثمة دلائل كثيرة تفيد أن عدداً من الكتاب والشعراء يستعملون
(الشرق) بمعنى الاسلام ، من ذلك مثلاً مقاله أحمد شوقي مخاطباً السلطان
عبد الحميد (١) :

وضع الشرق في يديك بيديه وأتت من حملته الأقسام
وواضح أنه بالشرق هنا الشرق الاسلامي إذ أن معظم المسلمين يقطنون
في الشرق . وكذلك كان الشأن فيما نظمه أمير الشعراء بعد ذلك تحية
لاتتصار أتاتورك ، فالعركة الظافرة شبيهة بعركة بدر والانتصار فيها انتصار
للإسلام ، وأتاتورك في الترك كخالد في العرب ، ثم نقرأ في القصيدة نفسها
قوله أيضاً (٢) :

هزت (دمشق) بني (أيوب) فاتهبوا	يهنئون (بني حمدان) في (حلب)
ومسلمو الهند والهندوس في جذل	ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الإسلام في رحم	وشيجة وحوأها الشرق في نسب

فهذه البلاد على حد تعبير شوقي ممالك ضمها الإسلام في رحم حوأسها
الشرق في نسب ، والشاعر اذ يذكر الهندوس ، والأقباط فانمسا بفعل ذلك
مدفوعاً بمخاطفته الشرقية الشاملة من جهة ، وروح التسامح اللدني التي عرف بها
من جهة أخرى ، ولسنا نرى في بيت شوقي الأخير سوى تعبير عن معنى واحد
في كلام الشطرين فالترادف ظاهر بين الفاظها ويعنى لديه أن الشرق
هو الاسلام .

(١) الشوقيات ١ : ٢٨٤ ، والاقسام : الايمان جمع قسم

(٢) الشوقيات ١ : ٦٦

وتبلغ هذه المفاهيم حد الاضطراب والنموض في مثل قول شوقي أيضاً
وهو يحمي تركيا (١) :

فنحن إن بعدت دار وإن قربت جارن في الضاد أو في البيت والحرم
ناهيك بالسبب الشرقي من نسب وحذا سبب الاسلام من رحم

فمع أن البيت الثاني لا يخرج في معناه عن البيت الذي أوردناه آنفاً :

ممالك ضمها الاسلام في رحم وشيخة وخواها الشرق في نسب

فاننا نتساءل عما يريد شوقي حين يجعل العرب والترک جارين في الضاد ،
فهل يقصد اللغة العربية ، مع أنها أبرز ما يميز بين العرب والترک ، أو أنه يقصد
القرآن باعتباره كتاباً للمسلمين ، في حين أنه أورد ذكر الرابطة الدينية
في قوله « البيت والحرم » عدا أن العطف (بأو) يوحي بأن الشاعر يعني بالضاد
غير ما يعنيه بالبيت والحرم .

ويتجلى هذا الفهم المترجح لدلوات (العرب والشرقيين والمسلمين)
معاً في قول محمود غنيم (٢) :

أنى اتجهت إلى الاسلام في بلد تجده كالطير مقصوفاً جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها فأصبحت تتوارى في زواياه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن شكاً فرددت الأهرام شكواه
سل المعالي عنا اننا عرب شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هي العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والاسلام معناه

(١) الشوقيات ١ : ٢٦٨

(٢) ديوانه ٧٨٨

ويت القصيد عندنا ما جعل فيه العروبة لفظاً معناه الشرق والضاد والاسلام . والواقع أن تسرب مفهوم العروبة الى الشعر العربي الحديث ومزاحمته المفاهيم الأخرى التي من أهمها الرابطة الشرقية والجامعة الاسلامية هو الذي ولد اضطراب هذه المفاهيم واختلاط بعضها ببعض بسبب عدم تبلور كل منها في نفوس الشعراء .

هذا التصور الاسلامي المحض للعاطفة الشرقية يعتبر استمراراً للتصور الذي كان يغلب على الشعر القومي قبل الحرب الكبرى ، ولكن الأمر أخذ في التبدل خلال الأحداث والثورات القومية التي عرفها العالم العربي بعد تلك الحرب وإثر انهيار نظام الخلافة العثمانية واضمحلال فكرة الجامعة الاسلامية .

وإذا علمنا ان كثيراً من دعاة الجامعة الاسلامية تحولوا بعد الحرب الكبرى الى دعاة للجامعة العربية كما تبين لنا ذلك في الفصل السابق أدركنا مدى اختلاط هذه المفاهيم بعضها ببعض بحيث كانت العاطفة الشرقية تنسني في الشعر القومي العروبة حيناً والاسلام حيناً آخر ، وتعنيهما كليهما معاً في معظم الأحيان .

على أن مفهوم العروبة في الشعر الحديث أخذ يتسم بالوضوح شيئاً بعد شيء ويخرج من تلك الضبابية التي لفته بها مفهومات الشرق والاسلام . ولعل أحمد شوقي خير مثال على هذا التطور فيما نظمه من قصائد قومية منذ عام ١٩٢٥ ونشوب الثورة السورية . فقد قويت في نفس هذا الشاعر ولدى كثير من الشعراء منذ ذلك الحين منازع العروبة نتيجة العوامل السياسية والاجتماعية والذمكزية التي أثرت في المجتمع العربي ، إلا أن مفهوم الشرق والشرقيين ظل لاصقاً بشوقي وحافظ وعلى الجارم وسواهم من الشعراء بسبب طول عهدهم باستعماله وكثرة ترده على الألسن والصحف برغم حرصهم على الباس قصائدهم ثوب

العروبة . ومن بوادر هذا التحول الجديد عند أمير الشعراء قوله في
نسكة دمشق (١) :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان

كما يقول في مهرجان تكريمه عندما يبيع بامارة الشعر (٢) :
يا عكاظاً تألف الشرق فيه من فلسطينه الى بغداده
كلا أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

وأغلب الظن أن شوقي في كلا الحالين هنا يقصد بالشرق رابطة العروبة،
ومما يؤكد ذلك اقتران الشرق بالفصحى وكون القصيدة تدور حول دمشق
العربية ، والبيتان الأخيران يشيران بوضوح إلى تطور مفهوم الشرق عند شوقي
وسواء من الشعراء في هذه المرحلة من ازدياد الوعي القومي .

وقد طبعت العروبة مفهوم الشرق أيضاً في أبيات ألقاها حافظ إبراهيم
في هذه الفترة نفسها بمناسبة مهرجان تكريم شوقي أيضاً وذلك في قوله مخاطباً
أمير الشعراء (٣) :

فمن ربوع النيل واعطف بنظرة على ساكني النهرين واصدح وأبدع
وحي ذرا لبنان واجعل لتونس نصيباً من السلوى وقسم ووزع
فنبه عقولا طال عهد رقادها وافئدة شدت إليها بأنسع
فقد غمرتها محنة فوق محنة وأنت لها يا شاعر الشرق فادفع

فبالرغم من أن القصيدة اتخذت عنواناً لها (نهضة الشرق) فإن أبياتها

(١) الشوقيات ٢ : ١٢٥

(٢) الشوقيات ٢ : ٢٤٠

(٣) ديوانه ١ : ١١١

كأبيات شوقي في الرد عليها لا تشير إلى أي قطر شرقي غير بلاد العرب ، أو شعب غير عربي ، ومانت الشاعر لشوقي بأنه شاعر الشرق إلا من هذا القبيل أيضاً أي شاعر العرب أو من قبيل اطلاق الكل على الجزء .

والملاحظ هنا أن هذه الأبيات وما سبقها من أبيات شوقي تحمل روحاً واحدة ، وتعلو فيها نغمة العروبة الواضحة على نغمة الشرق الخافتة ، وتفسير ذلك بالنسبة إلى شاعرين عرفا بعدها عن تيار العروبة الصافي وانشغالهما بالتعبير عن العواطف الإسلامية أو الشرقية أو المحلية إنما يعني أنها وسواهما من الشعراء أخذوا يتأثرون ببلد القومي الجديد ويعكسونه جلياً في شعرهم . ولقد بدا جو تكريم شوقي مشحوناً بمشاعر العروبة ؛ فالوفود تمثل أقطار العرب وكان التقاؤها حدثاً قومياً ، كما كان بين الحضور عدد من زعماء الثورة السورية التي كان لها تأثير فعال في نفوس سائر العرب وصدى بعيد لدى معظم الشعراء .

ويمكن القول إن ردة فعل ظهرت على نطاق محدود تجاه العاطفة الشرقية الحفافة التي كان عدد من شعراء مصر يتغنون بها ، وثمة قصيدة للشاعر السوداني حسين المنصور يوجه فيها إلى أحمد شوقي نقداً لاذعاً بسبب زعمته الشرقية (١) :

قد عشت يا شوقي لساناً هادئاً	متخوفاً من لفظة الثوران
العرب تبغي شاعراً متمراً	يزجي القريض الناثر الوجداني
دع عنك ذكر الشرق واحفز يعرباً	واخصص بشعرك نأثر العربان
ماذا بهم العرب زلزال سري	في الهند أو في الصين واليابان
أو ليس في تلك البلاد شويعر	أو شاعر يبكي على الأوطان

(١) الشاطيء الصخري ١٥٠

والحق أننا لا نكاد نجد شاعراً آخر تصدى بمثل هذه الصراحة للتنديد بالعاطفة الشرقية باعتبارها زعة واسعة الشمول تبذل طاقة الشاعر في شؤون أقطار أخرى وتصرفه عن معالجة قضية بلده التي ينبغي أن تكون مبعث اهتمامه الأول. ولا ندري إذا كان الشاعر السوداني يخفي شيئاً من المراء الشخصي نحو أمير الشعراء وراء هذه الحملة، إلا أننا نرى في هذه الأبيات ما يتجاوب مع عواطف العرب الذين كانوا منذ أواخر العهد العثماني وفترة تأسيس الجمعيات العربية قبيل الحرب الأولى، يتطلعون إلى شعراء مصر البارزين ويأملون منهم عزف ألحان العروبة، حتى إن عدداً من أحرار العرب بادروا إلى لقاء شوقي حين زار بلاد الشام وحدثوه في هذا الشأن بمكنون نفوسهم وأنهم يتلهفون على قصائده الرائعة التي تذكى في نفوس العرب روح النضال ضد الاحتلال.

ولا ريب أن السبب في عدم تنديد الشعراء بالعاطفة الشرقية أو في عدم تعصبهم لها، أنها لم تكن رابطة بالمعنى الصحيح ولأنها من جهة أخرى دعوة واسعة للتعاطف لم تكن لتعارض مع الدعوات القومية الأخرى.

إن العاطفة الشرقية التي ظلت لدى شعراء مصر عاملة، وحتى فترة متأخرة نسبياً، متشحة بالاسلام كانت لدى أكثر شعراء الشام والعراق موسومة بطابع العروبة في أكثر الأحيان، وهذا محمد رضا الشبيبي أحد أدباء العراق يقول في قصيدة أسماها (الشرق الناهض) إثر زكبة دمشق بقذائف الفرنسيين عام ١٩٢٥ (١):

صلة الشرق بالماضي اسلمي لا تعودى منداً منقطما
جاهدي يا أمم الشرق الآلى قتلونا جاهديهم أجمما

(١) ديوان الثورة ٤٤

واذكرى ما فعل الغرب بمن هذبوه واصنعي ما صنعا
 وثب الريف من الغرب بهم فأثار الشرق والغرب مما
 وتمالى في العراقين صدى من بني الأطرش حتى أسمعنا
 مدن لو تركت لا تصلت جزأوها ليسودوا قطعنا

وغدا الشرق في ذهن حسن البحيري من شعراء فلسطين يعني العرب
 أيضاً، وذلك في قصيدة أطلق عليها اسم (الشرق) وقل فيها (١):

لا تستهن يا غرب إنا أمة كتب اسمها لندرا العلا عنواننا
 من شرقنا شمس الهداية أشرقت فأثارت الآباد والأزمانا
 فصل الفرات عن الذين تبوأوه - فقد وعى ما شنف الآذانا
 سلعتهم اليرموك سل بردي وسل نيل الكنانة أو سل الأوقيانا

ونحن نجد هذا الاتجاه - أي مطابقة الشرق للعرب - لدى بعض
 الذين مارسوا القضية العربية ومنهم عبد الرحمن الشهبندر أحد الزعماء
 الثائرين في سورية، فهو يحاول في مقال له أن يحدد معنى الشرق فيقول (٢):
 « ان المقصود به ليس هو مجد الحثيين والفراعنة والآشوريين والبابليين
 والفينيقيين ومن هذا حذوم وكلهم أمم قد خلت وزالت لغاتها فأصبحت حشو
 لفائف البردي. وليس المقصود مجد التبت وكوريا والصين فهذه أمم بعيدة
 عنا..» وهكذا ينتهي الكاتب إلى أن يقصر مدلول الشرق على بلاد العرب فحسب.
 وهذا الاتجاه لدى الشهبندر وأمثاله في فهمهم للشرق يقابل الفهم الاسلامي
 لدى مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا وشكيب أرسلان وأمثالهم.

أما المسيحيون العرب وبخاصة في الشام والمهجر الأمريكي فقد كانوا
 بحكم دينهم بعيدين عن أن يفهموا العاطفة الشرقية فهماً إسلامياً، ولذلك

(١) ابتسام الضحى ٢٧

(٢) مجلة الهلال نوفمبر ١٩٣٣

أسمت لديهم هذه العاطفة بالروح الشرقية العامة أو بالطابع القومي العربي .

وقد أدى تأسيس جامعة الدول العربية في مصر عام ١٩٤٤ الى دفع الشعور القومي بقوة الى الامام ، وبخاصة في هذا البلد العربي الكبير الذي كان بؤرة للاشعاع الفكري والاجتماعي والثقافي في العالم العربي ، ومصطرباً لأفكار وزعات ونزوات شتى كالجامعة الاسلامية والجامعة العربية والرابطة الشرقية ، والدعوة الفرعونية والنزعة الغربية .. وكان من نتائج ذلك أن ارتدت العاطفة الشرقية التي ما زالت جذورها حتى ذلك الحين ممتدة في نفوس الشعراء — كما كان شأن الجامعة الاسلامية أيضاً — رداء ناصعاً من العروبة لدى عدد من الشعراء تمثل لهم بعلي الجارم الذي كان في معظم شعره بعيداً عن هذه الروح القومية الجديدة ، ونستطيع أن نختار من قصيدته « الجامعة العربية » قوله (١) :

سنا الشرق من أي الفراديس تبسح	ومن أي آفاق النبوة تلح
صحا البرق وانجاب الكرى عن عيوننه	وليس لمن رام الكواكب مضجع
لقد كان حلاً أن نرى الشرق وحدة	ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا	لنا الشرق حد والعروبة موقع
تذوب حشاشات العواصم حسرة	إذا دميت من كف بغداد أصبع
ولو بردى أنت نلطب مياهه	لسالت بوادي النيل للنيل أدمع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة	لذلك ذرا الأهرام هذا التصدع
فيا زعماء الشرق والشرق أمة	على الدهر لا تفتى ولا تتضعضع
هنا علم الشرق الذي في يمينكم	ستغنوا له الأيام والدهر أجمع

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر لم يستطع أن يبعد عن لسانه لفظ الشرق

(١) ديوانه ١٣٣

الذي ألفه طويلاً ، فهو يردده ويترنم به في كل بيت تقريباً ، كما أن لفظي العرب والعروبة قلما يردان في القصيدة ، عدا استعمال الشاعر بعض العبارات الغامضة مثل اعتباره الشرق أمة في البيت الذي يسبق الأخير ، ومن المرجح أنه يريد به العرب . ومع ذلك فروح القصيدة تتم عن نزعة عريضة شديدة ، وتشير الى التأثير الفعال الذي بدأت تحدثه الأحداث القومية في نفوس الشعراء .

وهكذا تقلص مفهوم الشرق في هذه المرحلة المتأخرة من حياة الشعر الحديث ، وأخذ يعني العروبة في أكثر الأحيان ، ولم يكن ذلك التطور سوى انعكاس لاهتمام الشعراء المتزايد بمعالجة قضايا العرب نتيجة لتعاظم الشعور القومي . والواقع أن مفهوم الشرق في أذهان الشعراء والكتاب كان بين مد وجذر يلبس لكل حال لبوسها ، تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية ؛ ففي عهد ازدهار الجامعة الاسلامية كان يفيد الشرق الاسلامي ثم انحسر عن ذلك أيضاً ليطلق الشرق العربي .

ثم أخذ هذا المفهوم يكتسب وضوحاً ودقة في الأذهان ويعود الى ما وضع له بعد أن أخذت المفاهيم الأخرى التي كانت تختلط به تتسم بالتحديد وتستعمل فيما وضعت له أيضاً مثل الجامعة الاسلامية أو القومية العربية ، وبذلك نأى الشعراء بعض الشيء عن استعمال لفظ الشرق في شعرهم القومي ، وأصبح وروده يعني في الغالب مطابقتة للدول الجغرافية لامتداد الأقطار الشرقية التي تشمل الشرق الأقصى والأدنى والأوسط ، كما يعني أيضاً في الشعر الحديث بصورة عامة الجمع بين العرب وسواهم من القوميات الأخرى المناضلة في هذا الشرق الكبير .

علان أن العاطفة الشرقية لم تخف حدثها في الشعر العربي المعاصر عبر السنين برغم تبدل مفومها ضيقاً واتساعاً وطغيان الروح القومية عليه ،

ولعل السبب في ذلك يعود الى استمرار النظام الاستعماري الذي لم يجد الغرب عن فرضه بالقسر والاكراه على دول الشرق ؛ فقد ظل الشعراء ينددون بالغرب ودوله كلما ألقى الي قومهم بشرّ جديد . وكان هذا الالتقاء الفعال بين النزعة القومية والماطفة الشرقية - كما كانت الامرين هذه وبين الماطفة الدينية - كسباً كبيراً للحركات التحررية في العالم العربي . وكيف بقيت الهوة على اتساعها بين الشرق والغرب في الشعر العربي الحديث . وقد ظلت عبارة (كبلنغ) السائرة التي تقول « ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » حقيقة مؤسفة لم يعمل الغرب من جهته على تلافي أمرها ، وستبقى وصمة في جبين الغرب والانسانية كلها طالما بقي الغرب مصرّاً على جشعه تجاه الشعوب المستضعفة .

أما هذه الافكار التي كانت تتصاحب أو تتفارق في الشعر الحديث من عاطفة شرقية أو جامعة إسلامية أو نزعة عربية .. فقد كانت كل واحدة منها تعزز الأخرى ، ولم تكن تنافياً . وقد أفاد منها جميعاً الفكر العربي الحديث كما أفادت الحركات التحررية .. وكل ذلك وجد صدام الأيمن في الشعر الحديث .

إن الماطفة الشرقية في حقيقتها لم تكن رابطة قومية بالمعنى الصحيح ترتكز الى أسس سياسية أو اجتماعية أو فكرية متينة ، ولكنها دعوة واسعة للتعاطف لم تكن تتعارض مع الاتجاه القومي أو لتتنافى مع الوحدة الإسلامية والوحدة العربية . لقد كانت جميع هذه الدعوات والنزعات تلتقى معاً على صعيد التحرر القومي . ولعل أصدق تعبير عن كنه الرابطة الشرقية ما ورد في بيت أحمد شوقي إذ قال (١) :

وما الشرق إلا أسرة أو عشيرة تلم بنها عند كل مصاب

(١) الشوقيات ٣ - ٣١

ومن ذلك لمخلص الى القول إن الرابطة الشرقية في الشعر الحديث كانت رافداً كبيراً للتيار القومي يسايره أو يختلط به أو يجانبه ولكنه لم يكن في أي حال يعترض تدفقه .

وإذا ما نظرنا الى الموضوع من جهة أخرى نجد أن فكرة العروبة التي أطلت برأسها في الشعر العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم ازداد شأنها بعد الحرب العالمية الأولى ، كادت تضيق في زحمة دعوات أخرى أكثر شمولا واتساعا كالدعوة الى الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية .. ولكنها استطاعت بفضل جذورها العميقة الكامنة في النفوس أن تشق طريقها من خلال هذه العمرات شيئا فشيئا متساوقة مع اتساح المشاعر القومية في المجتمع العربي .

ولعل من أسباب قوة هذه العاطفة الشرقية في الشعر الحديث برغم افتقارها الى الأسس الواقعية التي تمكنها من أن تكون رابطة بالمعنى الصحيح تؤلف بين أمم شتى تسلط الغرب المستعمر على الشعوب الشرقية مما ولد في نفوسها شعوراً قوياً بالتعاطف الذي خلقته محنة الاستعمار المشتركة . لقد أصبح نضال العرب خاصة والمسلمين كافة جزءاً فعالاً من نضال الشرقيين ضد الغرب المغتصب . بل إن هذا الشعور بالتعاطف أخذ بالانساع نحو آفاق الانسانية الشاملة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وراح يشمل جميع الشعوب المغلوبة على أمرها في أية بقعة من الأرض ، إذ لم يعد الصراع العالمي مجرد صراع بين الشرق والغرب بل غدا نضالاً مريراً بين التحرر والاستعمار .

الفصل الثالث النزعات الوطنية الإقليمية

الفرعونية - الفيدقية - الآشورية

عندما انحلت عرى الرابطة الاسلامية في اعقاب الحرب الكبرى الأولى على أثر انقراط عقد الامبراطورية العثمانية وانهيار نظام الخلافة ، نشطت في الشرق العربي الدعوات القومية التي حاولت أن تملأ الفراغ وأخذت تقوم على دعائم جديدة بعيدة عن الأسس الدينية . وكانت دعوة القومية العربية أقوى هذه الدعوات ، اتخذت مظهرأ حاسماً لها في « الثورة العربية الكبرى » وشملت بلاد الشام والعراق منذ العهد الفيصلي .

وقد قوي الاتجاه في فترة النهوض القومي الى بحث الصفحات الرائعة من الماضي العريق ، وذلك باستيحاء أمجاد العرب أو أمجاد من سبقهم من فراغة وفينيقين وآشوريين وسوام ، وكانت قد ظهرت قبل ذلك الدعوة الطورانية في تركيا (١) وهي أسبق تلك الدعوات القومية ولكنها لم تلبث أن استحالت الى عصبية عنصرية ضيقة ، ثم انزلت الوطنية المصرية فيما يقارب هذا الاتجاه ، كما ظهرت بوادر من هذا القبيل في الساحل السوري وفي العراق . وكانت

(١) انظر حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب أرسلان في وصف هذه الحركة .

جميع هذه النزعات المتطرفة في تلك الأقطار تحاول أن تثبت لنفسها كياناً سابقاً على الإسلام بعد أن وجدت في تراثه قاسماً مشتركاً بينها جميعاً ليس بوسمه وحده أن يؤكّد ذواتها المستقلة ، أو يسم كل شعب فيها بمخصائص ومميزات ينفرد بها على الصعيد القومي .

أما الاستعمار الذي تنفس الصعداء بعد أن استطاع تفتيت الإمبراطورية العثمانية ، ورأى انهيار الجامعة الإسلامية باعتبارها كانت تضم كتلة كبرى لمجموعة من الشعوب المناهضة له ، فقد هاله انبثاق القومية العربية قوية في أعقاب الحرب الكبرى وهو الذي أسهم بنفسه في تحريضها ضد الدولة العثمانية ، فراح يعمل بدأب من جديد على تفتيتها ، وذلك بتشجيعه قيام القوميات الضيقة في كيان الأمة العربية ، وسعيه لايجاد كيانات صغيرة متعددة في قلب العالم العربي ، وخلق أوطان متميزة تتسم حدودها بالقداسة .

وكان أبعد هذه النزعات خطراً النزعة الفرعونية في مصر . وثمة دعوة مماثلة عرفها لبنان وكانت تدعو الى الفينيقية ، كما عرف العراق دعوة ثالثة كانت تنادي بالآشورية .

١

كانت مصر طيلة عهود مديدة تؤلف مع بلاد العرب وحدة سياسية ودينية وثقافية ، وتسم بالطابع العربي الأصيل الشامل ، كما كانت الحصن المنيع للثقافة العربية والتراث الإسلامي . إلا أنها تفردت خلال العصور الحديثة بأحداث معينة جعلتها تسير حيناً من الدهر في اتجاه خاص يتفق مع الظروف التي استجدت فيها آنذاك ، فقد استقلت عن السلطنة العثمانية على يد محمد علي دون سائر البلاد العربية ، ثم ابتليت بعد ذلك بالاستعمار قبل كثير من

البلدان العربية الأخرى . وتجلى هذا الافتراق في قضية مصر عن سائر قضايا العرب في الثورة العربية الكبرى التي قام بها عرب الحجاز والشام والعراق متحالفين مع انكلترا وفرنسا ضد الحكم التركي ؛ فقد استنكر كثير من المصريين ثورة العرب ضد الخلافة الاسلامية وبخاصة تحالفهم مع الدولة التي تحتل مصر وتذل شعبا .

ورسوخ في الازهان منذ ذلك الحين أن شؤون مصر تفترق عن شؤون بلاد العرب الأخرى وأن هدفها الأول يجب أن يتركز في إجلاء المستعمر واستخلاص (مصر للمصريين) ، ولما كانت الجامعة الدينية هي الآصرة البارزة التي كان يشعر بها المصريون تجاه اخوانهم العرب والمسلمين قبل انهيار الخلافة وبروز التيار القومي ، فقد انقلبت موجة الوطنية المتطرفة التي غمرت مصر بعد الحرب الكبرى الأولى الى رد فعل قوي تجاه الجامعة الاسلامية قوامه الانفصال والاستقلال عن تركيا وعن كل الأقطار التي كانت تابعة لها ، والتي كانت تشكل معها الامبراطورية العثمانية .

فقد بدا المصريون عقب انقراط عقد الدولة العثمانية وكأنهم يفتقدون ذاتهم تجاه الفراغ الذي حدث بانحلال نظام الخلافة فراحوا يتلمسون هذه الذات المتميزة في تاريخهم الغابر . وسرعان ما وجدوا في ماضيهم العريق السابق على الاسلام والمسيحية ما يشيع الزهو ويبعث على الثقة في النفوس ، « وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ - شعره ونثره - من أقوى الأدوات في استنهاض الأمم وبعث الأمل ومحاربة اليأس ورد الثقة الى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح » (١) وبانهيار الجامعة الاسلامية ، وفصل الدين عن شؤون الحكم من جهة ، وقيام الثورة العربية بدون اشتراك مصر فيها من جهة أخرى ، أصيبت الرابطة الدينية

(١) الدكتور محمد حنين : الاتجاهات الوطنية ١ : ٩٩

والرابطة العربية على السواء بنكسة في مصر واصبح المجال مفتوحاً أمام دعاة الاقليمية والاعراض عن الشرق العربي ، وغدت التربة صالحة لبذر بذور الفرعونية والقومية المصرية المتميزة والأفكار المسمومة التي اخذت تلقى في الأذهان بأن مصالح مصر تتعارض مع مصالح العرب .

ويمكن ان نرد بذور النزعة الفرعونية الى عهد الحملة الفرنسية على مصر منذ أن كشف شامبليون عن سر الهيروغليفية وحل طلاسم حجر رشيد . فقد بدت بوادر هذا الاتجاه في شعر محمود سامي البارودي إذ قال (١) :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمى مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بناء ان ردا صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يلبا صولة الدهر

ومما ساعد على تعاظم هذا الشعور في مصر نشاط الحفريات وظهور المكتشفات الأثرية الفرعونية واهتمام الصحف بها والتحدث عنها بكثير من الزهو والاعتداد ، وقد استبشر الشعراء بهذه المظاهر الجديدة وسرهم أن يروا ماضيهم الدفين يبعث أمام عيونهم من مراقده ، فراحوا يتغنون بمصيرتهم وأجدادهم بنشوة بالغة . ولم يكن هذا الشعور بدعاً لدى المصريين إذا عرفنا أن الاعجاب بحضارتهم تعداهم الى الأقسام الأخرى وبخاصة في بريطانية وفرنسة (٢) ، « فقد سحر بمصر أيضاً أقطاب شعراء الحركة الرومانتيكية أمثال

(١) ديوانه ١ : ١٤٩

(٢) ذكر الدكتور محمد رشاد رشدي في « المجلة » عدد فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان (مصر في الشعر الانكليزي) : « أنه كانت كل شحنة جديدة من الاثار تفتد الى لندن تثير اهتمام العامة والخاصة حتى باتت جميع المجلات الادبية والفنية بلا استثناء تقريباً تتنافس في أن تنشر آخر أنباء الاستكشافات المصرية ، وفي عقد الفصول الطوال عن الفن الفرعوني والدين والحياة العامة في مصر القديمة . لقد سحر الناس في انكثرتا بمضارة الفراغنة حتى أصبح الطابع الفرعوني في قطع الاثاث وأدوات الزينة شائعاً » .

شلمى وكيتس وبارون . . . وكان الحافظ باعثاً رومانتيكياً في أغلب الأحيان باعث زعة وحنين الى هذه الحضارة التي تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الأوروبية ، والى هذه البلاد التي احتفظت بآثار الماضي فبقيت فيها البقاع التي جاء ذكرها في الانجيل وما زال الناس يعيشون فيها على الحالة التي وصفتم بها التوراة ، واكثر من ذلك فانها البلاد التي شهدت مولد الرومان (١) .

لقد برزت الموضوعات الفرعونية في مصر في الصحف والمقالات والقصائد بشكل يكاد يكون مفاجئاً وطاقياً ، وسرعان ما استجاب الشعراء الى هذه الدواعي الباهرة في حياة مصر الحديثة الناهضة . وكان أحمد شوقي في طليعة هؤلاء الشعراء استجابة لهذا الاتجاه الجديد ، ومن طبيعة شوقي سرعة التجاوب مع مجتمعه وحرصه على تصوير زعاته ومشاعره . وقصيدته « كبار الحوادث في وادي النيل » التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ وهو شاب في السادسة والعشرين (٢) تعد البادرة الأولى لديه في إبراز الجانب الفرعوني من تاريخ مصر وتراثها ، وفيها اشادة برمسيس ومناجاة لسيزوستريس وإعظام لآمون وايزيس وأوزيريس وآيس (المجلد) . على أن شوقي لم يقتصر في مطولته هذه على الفخر بالفراغة وعبودهم بل جمع بين أعجابه وأعجاب العرب بعدم على صعيد واحد . ولا ريب في أن شعور الاعتزاز بماضي مصر على اختلاف عصورها وحضاراتها كان الباعث الاول في شعره .

(١) المرجع السابق ١١٢ وفيه أيضاً « أن كيتس يستثير الكثير من اوصافه في قصيدته الكبرى (هيبرين) من المبادئ والاثار الفرعونية التي رآها في لندن أو قرأ عنها في كتب الرحالة . ونجد باريون يكثر الى امدقائه فيقول : لاجل أن نثير خيال الشعراء ونستولي على اذهانهم يجب أن نتجه في الشعر الى الجنوب الى بلد مثل مصر) . ويتردد ذكر مصر في شعر شلمى في أكثر من مناسبة خلال قصيدته ، أوزيمندس : أي رأس رمسيس ، وقصيدته الإستراتيجية حتى إن الامر بلغ حد التنافس والتحدى بين عدد من الشعراء الانكليز في نظم مقطوعات من نوع البلاء Ballad عن النيل ، على نحو ما نجد لشلمى وكيتس ولي هنت . وقد زار مصر عدد كبير من الكتاب الفرنسيين والانكليز أمثال فلوبيير وناكري ومس هاريت مارتينو وكنجلاك ولورد لندي وغيرهم .

(٢) أنظر الشوقيات ١٧٠

الا أن اهتمام شوقي وعدد من شعراء مصر بالجانب الغابر من تاريخهم أخذ يزداد على أثر اشتداد النزعة الفرعونية لدى عدد من رجال السياسة والادب والتاريخ والصحافة ممن غلوا في ذلك الى حد قولهم بتميز مصر وشخصيتها ، وانكار الصلات الواشجة بينها وبين أخواتها العربيات (١) ، وما ساعد على استفحال هذه النعرة لزوء أنصار الجامعة الاسلامية بعد انهيار خلاقهم ، وخيبة أمل دعاة العروبة تجاه زعماء الثورة العربية الذين اسلموا قيادهم للانكليز عدو مصر اللدود .

وكان نشاط الحفريات ، وظهور المكتشفات الاثرية الهامة يندغدغ مشاعر كل مصري ويبعث في نفسه الزهو حتى ان « اكتشاف قبر قوت عنخ آمون أحدث دويماً كبيراً وكأنه نصر مبین ، وبلغ من انشغال الرأي العام بتوت عنخ آمون أن شوقي نظم فيه وحده في هذه المناسبة أربع قصائد اولها قصيدة « قوت عنخ آمون » نظمها على أثر اكتشاف المقبرة وهي أكثرها ذيوعا ، (٢) وقد استلها بقوله (٣) :

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الأولىنا

وكانت الثانية على أثر وفاة مكتشف القبر كارنارفون من آثار لسمة بعوضة قبل أن يتم كشفه وقد كثرت الاراجيف وقتذاك عما سموه لعنة الفراغة (٤)

(١) ورد في ملحق السياسة الادبي ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ قول محمد عبدالله علان ، فكرة الجامعة العربية في نظرنا أمنية خيالية لا تقوم على أية أسس أو تقديرات عملية . بل إن التعاقب بها ضار .. ومن الخطأ البين أن تنظم مصر في سلك البلاد العربية إذا تعلق الامر بالناحية القومية ، فالقومية المصرية قومية أميلة ولم تفقد خواس الوحدة والتجانس منذ ايام الفراغة .

(٢) أنظر الدكتور محمد حسين الانجاءات الوطنية ٣ : ١٠٠-١٤١

(٣) الشوقيات ١ : ٣١٣

(٤) محمد حسين ٢ : ١٤٢

في الموت ما أعيأ وفي أسبابه كل امرئ رهن بطي كتابه

أما الثالثة وهي «توت عنخ والبرلمان» فنظمها بمناسبة افتتاح أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ وقد بدأها بخطاب توت عنخ آمون قائلاً (١):

قم سابق الساعة واسبق وعدّها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمّها

وأما الرابعة «توت عنخ آمون وحضارة عصره» فطلمها (٢):

درجت على الكنز القرون وأتت على السدن السنون

وبرغم اهتمام شوقي البالغ بهذا الموضوع فهو بصورة عامة لم يبلغ حد التعارف الذي وجدناه لدى بعض الكتاب آنذاك؛ إذ ظل بعيداً عن التعصب الأعمى للفراعنة، ولا ريب في أن قوة عاطفته الإسلامية كانت خير عاصم له من التعصب والهوى، ولذلك نراه يعرض بفرعون وعصره فيقول (٣):

زمان الفرد يا فرعون ولي ودالت دولة التجبرينا

وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية فازلينا

كما يشيد بنظام الشورى ويعرض باستبداد الفرعنة بقوله (٤):

روح الزمان ونظمه وسبيله في الآخرين

ان الزمان وأهله فرغاً من الفرد اللعين

وهكذا يرى شوقي في الفرعونية نزعة رجعية لا تلائم روح العصر الحديث وحضارته. والواقع أن أكثر ما نظمه أمير الشعراء حول الفرعنة

(١) الشوقيات ٢ : ١٩٧

(٢) الشوقيات ٢ : ١١٦

(٣) الشوقيات ١ : ٣١٣

(٤) الشوقيات ٢ : ١٩٧

يتسم بالعبرة والموعظة واستخلاص المغزى من الماضي والتاريخ . وتبرز هذه الظاهرة لديه في قصائده المتعلقة بالتاريخ الفرعوني أو العربي على حد سواء فهو يقول مثلاً تجاه قصر الحمراء الأندلسي (١) :

وعظ البحري إيوان كسرى وشفقتي القصور من عبد شمس

ويصدر عن هذه الروح نفسها تجاه معبد أنس الوجود حيث يقول (٢) :

أين فرعون في المواكب تترى يركض المالكين كالخيل ركضاً
أين إيزيس تحتها النيل يجري حكمت فيه شاطئين وعرضاً

على أن شوقي ينساق مع روح تلك الفترة المتطرفة في بعض شعره فيشيد بحضارة مصر القديمة وآثارها ويزهي بها على الحضارات الأخرى ، ولا يفوته أن يبرز الروح الفرعونية حتى في صدد حديثه عن حضارة العرب في الأندلس فيقول مستوحياً قافية ابن زيدون (٣) :

وهذه الأرض من سهل ومن جبل قبل (القيصر) دناها فراعينا
ولم يضع حجراً بان على حجر في الأرض إلا على آثار بانينا

وحين يتحدث عن آثار مصر في قصيدته « أمها النيل » يقول مباحياً (٤) :

لا (الفرس) أوتوا مثله يوماً ولا بنداد في ظل الرشيد وجاق
كم موكب تتخيل الدنيا به يجلي كما تجلي النجوم وينسق

(١) الشوقيات ٥٧:٢

(٢) الشوقيات ٦٨:٢

(٣) الشوقيات ١٢٧:٢

(٤) الشوقيات ١٢٧:٢

تغنو لغزته الوجوه ووجهه للشمس في الآفاق عان مطرق
ومشى الملوك مصفدين خدودهم نعل لفرعون العليم وغرق
ملاوكة أعناقسه ليمينه بأبي فيضرب أو يمن فيعتق

وعلى هذا المنوال من روح الاستملاء ينسج شوقي أبياته ويفخر بأعجاد
الفراعة بما يقرب من خمسين بيتاً . ومع أنه لم يتحدث في هذه القصيدة عن
العرب والإسلام إلا بأبيات قليلة ، وأن ما قاله هنا يعتبر من أكثر قصائده تطرفاً
نحو الفرعونية ، فإن الطابع الذي يميزها يتفق مع سائر قصائده الأخرى أيضاً
في هذه النظرة الشاملة لتراث مصر وحضارتها واعتبار ذلك الماضي بوجيئه
الفرعوني والعربي وحدة متكاملة يؤلفان معاً تاريخ مصر وشخصيتها .

وقد تناول محمود عماد أيضاً موضوع ذلك الاكتشاف الأثري وذهب إلى
أبعد مما ذهب إليه شوقي بمرآحله حين اعتبر توت عنخ آمون جده ، بل إنه أضفى
عليه صفة النبوة لأن جسمه لم يدركه الفناء بفضل التحنيط (١) :

يا توت معذرة الحفيد لجده إن لم تكن منا حقرت حفيدا
لم يفن جسمك بعدد دنك أدهراً إن النبوة لا تروم مزيداً

وقد حشر الشاعر في هذه القصيدة أسماء فرعونية كثيرة مثل هاتور
وآمون وإيزيس وأوزيريس وسيتي ورمسيس وغيرهم .

وتعتبر قصيدة « مصر » لحافظ إبراهيم من أبرز ما قيل أيضاً في هذا
الاتجاه . وتحدثت مصر عن نفسها مفعم روح الزهو والاعتداد بنتيجة الشعور
الوطني الجارف الذي تدفق في أعقاب ثورة ١٩١٩ وعمق شعور مصر بشخصيتها

(١) ديوانه ٣:٣

وتبدو النزعة الفرعونية في هذه القصيدة ركناً هاماً من التفاخر بأجداد مصر التي
تحدث عن نفسها بقولها (١) :

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي أعجزت طوق صنعة المتحدي
هل فهمتم أسرار ما كان عندي من علوم مخبوءة طـسي بردي
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهر - وابلى البلى وأعجز ندي
أنا أم التشريع قد أخذ الرومان - عني الأصول في كل حد
ورصدت النجوم منذ أضاءت في سماء الدجى فأحكمت رصدي
وشدا (بنتؤور) فوق ربوعى قبل عهد اليونان أو عهد نجد

وإذا كان شوقي حريصاً على إيجاد التوازن بين عناصر الشخصية المصرية
حين يشيد بالفرعنة دون أن ينسى العرب أو المسلمين فإن حافظاً في هذه القصيدة
قصر افتخاره على الفرعنة وحدهم دون أن يشير بيت واحد إلى تراث العرب
الزاهي في مصر . وواضح أن فكرة الأسبقية والامتياز في حضارة مصر القديمة
حيث النقوش والحنيط والتشريع والفلك والشعر هي التي استولت على ذهن
حافظ وأملت عليه هذا الاتجاه في قصيدته ، إذ إن حضارة العرب جاءت متأخرة
في الزمن عن حضارة مصر القديمة وهذا ما جعل الشاعر يباهي بالشاعر الفرعوني
(بنتؤور) دون الشعراء العرب ومفكرهم . ومع ذلك فإن « حافظ » لم يكن
مولعاً كشوقي في طرق هذا الجانب القديم من تاريخ مصر والاكتثار من نظم
القصائد فيه . ومما يؤكد أن الباعث على مثل هذا النزوع الفرعوني لدى شعراء
مصر كان قبل كل شيء تأجيج العواطف الوطنية في نفوس المصريين وشعورهم
المتنامي بشخصيتهم تجاه المحتل المتحضر قول حافظ في القصيدة نفسها :

قبل أسطول (ناسن) كان أسطو لى سريعاً وطالعي غير نكد

وواضح أن الشاعر يحاول أن يبدد المحتلين الذين يتهبون بأسطولهم بأن
المصريين سبقوهم إلى ذلك قبل آلاف السنين .

ثم طاب لشعراء مصر العزف على هذه القيثارة الفرعونية بكثير من
الحماسة حتى كأنهم لم يعودوا يرون سواها . وهذا أحمد زكي أبو شادي يخاطب مصر
بقوله (١) :

يا قبلة (ايزيس) تر كع نحوها شكراً لمنصفها على الآباد
هل أنت إلا مجد (منف) تقمصت آياته بمنانك الوقاد

وهو حين يخاطب مصر ثانية يردد ما كانت تتداوله الصحف من أن
المصريين أحفاد الفراعنة (٢) :

رمسيس لم يدفن بأرضك روحه إلا ليأخذها تغير شريك
والتابعون من الفراعنة الألى أحيوك لم ينوا لغير بنيك

وقد سلك محمد الأسمر نفسه في جملة الداعين إلى خلق أدب محلي ،
متميز بالطابع المصري مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة
بالفداد (٣) وكان في طليعة المزهون بأجداد الفراعنة ، ومما قاله مفتخراً (٤) :

خلت من بني فرعون شم المنازل ولم تخل إلا من رجال بواسل
مضوا ومضت أيامهم غير أنهم لهم في المعالي كوكب غير زائل

(١) مصريات ٥٦

(٢) مصريات ٥٩

(٣) أنظر الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٣٧

(٤) تعريفات الصبايح ٢٦

ورثناهم أما العروش فقوضت وأما المواضي فهي دون الحمائل

وهو يترحم على تلك اليهود الغابرة بقوله (١) :

ألا رحم الله الزمان الذي مضى فالله من عصر ولله من عهد
بني فيه خوف الراسيات على الثرى فأعجب به بيني الرواسي بالأيدي

ويعصور لنا الأسمر تلك النشوة البالغة التي كان يشعر بها عدد من الكتاب
والشعراء تجاه الفراعنة فيترونها لذكرهم طربا فيقول (٢) :

لنا وطن للضيف بين رحابه قصور وللأعداء فيه قبور
تحيط به أبناء فرعون أنهم يسرون حيث المكرمات تشير
يحدثني التاريخ عنهم فأنتني وبني صلف من قوله وغرور

وكثير مما نظمها عباس محمود العقاد وبخاصة في سمد زغلول يسير في هذا
الاتجاه ؛ ففي إحدى قصائده التي نظمها على أثر نقل رفات سمد إلى ضريحه المقام
على النمط الفرعوني يقول (٣) :

الفراعين الألى أجليتهم لتمنوا لو أجازوك الطريق
أنت أضفيت على أوطانهم سعة وهي من الأسر تضيق
أنت أيقظت لهم تاريخهم وهو في نومته لا يستفيق
فضلك اللاحق أحياء فضلهم فاستوى منه طريف وعريق

(١) تغريدات الصباح ٢٧

(٢) تغريدات الصباح ٢٨

(٣) عابر سبيل ٥٨

وفي قصيدة أخرى للعقاد اسمها «تمثال رمسيس» اشادة بسطوة فرعون مصر وجحافله التي بلغت الشام وبابل ونيوى ، واعتداد بآمون وبتثؤور.. وشبيه بذلك ايضاً قصيدته المسماة « هيكل الكرنك » (١) فهو في أكثر هذه القصائد وأمثاله لم يكن ليشير إلى أية أجداد عربية على النحو الذي وجدناه لدى شوقي .

وبالرغم من أن الشاميين والعراقيين كانوا يجدون في سعد زغلول زعيماً للعرب ولا شرق لا زعيماً لمصر وحدها فإن العقاد في مراثيه المتعددة لزعيم مصر لم يشر إلى شيء من ذلك وإنما كان سعد في نظره حفيد الفراعنة فحسب . ففي قصيدته المطولة « ذكرى الأربعين » التي يصف فيها تشييع جثمان الزعيم الراحل يقول (٢) :

موكب رمسيس لم يظفر به وهو مولى الخلق من بيض وجون

إذ لم يذكره سعد إلا برمسيس . وكان بوسعة أن يقرنه أيضاً بأبطال عظام من التاريخ الاسلامي والعربي الحافل ، بل ان المتوقع من العقاد وغيره ممن نزلوا في سعد زغلول أن يذكرهم اسمه في بعض الأحيان بسعد آخر هو ابن أبي وقاص أحد كبار الصحابة ومن اعلام العرب والاسلام ، في حين وجدنا الكثيرين ممن تناولوا مصطفى كمال أتاتورك في شعرهم فطنوا الى هذا الأمر برغم تركية أتاتورك؛ فقد رأى فيه شوقي ملامح من ابن الوليد ونعمه بخالد الترك في قصيدته البائية ، كما خاطبه معروف الرصافي ناغماً إياه بسمي المصطفى ...

والواقع ان اقتطاعاً نفسياً بين عدد من شعراء مصر وبين اجداد العرب

(١) ديوانه ٢٦٨

(٢) ديوان العقاد ٢٨٧

كاد يحدث بسبب طغيان التيار الفرعوني في ارض الكنانة ، وهذا محمود عماد
يرحب في قصيدة له بالملك السابق فاروق فيشبهه بآمون مع ان اسمه من
اسم عمر بن الخطاب (١) :

آمون اشرق يوم عيد الوادي ام ذاك فاروق المنار الهادي ..

وحين تزوج فاروق ملك مصر اشاد بهذه المناسبة عدد كبير من الشعراء
واستبشروا بعدها خيرا لمصر ، ومنهم من جنح لخلق هالة من جو الفراعنة حول
ذلك الملك على نحو ما نظمه ابراهيم مأمون إذ قال (٢) :

مهرجان على المشارق موف	يحشد الدهر رائعا يتجمهر
خف في قدسه فراعنة الوا	دي نشاوى لخطا تدل وتفخر
وكان الوفود من « عين شمس »	ومن « الكرنك » الخلد تخطر
وكان الزفاف في طيبة المجد	وحشد الجموع حول « الأقصر »
فانظر النيل والمواخر فيه	تلق دنيا من الزمان تنشر
تلق عرش الجلال من آل خوفو	ضاحي الحشدين جند وعسكر
وتجد « إحمس » الجري بزجي	سفن المجد تستزيد وتكثر
انظر السفن في الوشائع ترى	ان فيها « تتمس » النيل يزأر

وهكذا نجد أن هذا التيار الجديد الطاغى قد غمر اكثر شعراء
مصر آنذاك فأقبلوا عليه يفترون من معينه بشغف ، ويصوغون من
مفاخره ونصبه القصائد المطولة بشيدون فيها بتلك العبود الغابرة بكثير
من الزهو والاعتداد .

(١) ديوانه ٣٥

(٢) اغتر (صحيفة دار العلوم) عدد خاص بالزفاف الملكي ، مارس ١٩٣٨ ص ٢١

ويبدو أن الفترة التي عاشتها مصر آنذاك جعلت أمون ورمسيس وخوفو وبتوور ورع وإيزيس أشد لصوقاً بنفوس عدد من الشعراء وأكثر استهواءً لمشاعرهم من ابن الوليد والمأمون والرشيد والتتني وصلاح الدين وابن خلدون .. ويبدو ان هذه النغمات الجديدة لدى شعراء مصر كانت صدى لانتشار تلك النزعة على ضفاف النيل تستمد العزة من ماضيه العريق .
ولسنا هنا بصدد الآراء المتطرفة التي كانت تصدر عن بعض الصحف والمحافل في أرض الكنانة وترغم أن وجود العرب في مصر لم يتعد كونه حقبة طارئة أضيفت الى سلسلة طويلة من حلقات التاريخ المصري ، « وان مصر تعرضت لغزوات الفاتحين من اجاش ويوفان وفرس ورومان وعرب وترك وإفرنج ولكنها احتفظت بشخصيتها المصرية ، وأنه مضي على مصر أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة منذ ما فقدت استقلالها ببتها حكم الفراعنة » (١) . أو كما يدعي آخر (٢) « أنه من الخطأ البين ان تنظم مصر في سلك البلاد العربية إذا تعلق الأمر بالناحية القومية ، انها ورثت الاسلام واللغة من شراتها ولكنها لم تكن عربية قط !! .. »

فالحق ان الشعراء في مصر نجوا بصورة عامة من هذه المزالق ولم يبلغوا هذا الحد من التطرف والأخذ بالنعرات الانطوائية ، إلا ان ظلا من تلك الآراء بدا في بعض ما نظموه من شعر على نحو ما نجده لدى محمد الأسمري او لدى أحمد زكي أبي شادي الذي يقول مخاطباً مصر (٣) :

الفرس والرومان والعرب اكتفوا لسمو دولتهم بأن عرفوك

(١) من محاضرة لمرفص باشا ، انظر انقنظ مارس ١٩٢٦ ، وانظر محمد حسين ،

الاجتماعات الوطنية ٢ ، ١٣٠

(٢) عبدالمثعب عنان ، انظر ملحق السياسة الادبي ١٤ أكتوبر ١٩٣٢

(٣) صريات ٥٩

فهو يسلك مع العرب مع الفرس والرومان وأنهم جميعاً غزوا مصر ، وكأني
بالشاعر يعتقد ضمناً أن العرب شيء والمصريين شيء آخر .

لقد كانت الدعوة الى خلق (أدب قومي مصري) تصادف هوى في
نفوس الكتاب والشعراء ، وهي تطالب بأن تقوم نهضة مصر على بعث المجد
الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث المجد اليوناني
واللاتيني (١) دون أن يتناول هذا الأدب المصري الجديد حياة الشرق العربي
أو البلاد الشقيقة المجاورة . وبلغ الامر بعضهم حد المطالبة بفصم عرا الجامعة
اللغوية والاعتماد على اللهجات المحلية لأن العربية سائرة الى الانقراض ولا تصلح
لغة للحياة ، كما آلت إليه حال اللاتينية ، وأن على كل قطر أن يقوى لهجته المحلية
لتكون لغته القومية كما صنعت فرنسا وإيطاليا وألمانيا ...

وقد كادت النزعة الفرعونية تبلغ لدى بعض الشعراء حد الالتزام بفضل
الجهود الدائبة التي بذلها عدد من الكتاب والصحفيين والمحاضرين والخطباء حتى
بلغت آثارها جواز الدولة الرسمي فيما بدا من مياثم فرعونية على منشآتها ونقودها
وطوابع بريدها ونصبها . إذ لم يكن يخلو ديوان شاعر من التفاخر بأبجد
الفراعنة وآثارهم . وقد أصدر أحمد زكي أبو شادي ديواناً خاصاً عام ١٩٣٤ اسمه
« وطن الفراعنة » ويقصد به مصر . اهداه « الى القومية المصرية وحماتها » وهو
يشتمل على بضع عشرة قصيدة تدور جميعها حول التاريخ المصري القديم
وتستمد مادتها منه باستثناء قصيدة واحدة من التاريخ العربي وصف فيها
قلعة صلاح الدين . وفي هذا الديوان إشادة بالغة بالأهرام وبناتها ، وابي
الهلول ووادي الملوك ومعبد حتاسو والكرنك الخ ... وبالإضافة الى ان
القصائد المذكورة تبدو عليها وطأة النظم ويبدو خيالها محدوداً ، فانها

(١) السياسة الاسبوعية ، ١٧ ديسمبر ، ١٩٢٧ ، والاعمال الوطنية ، ٢ ، ١٣٦

محشوة بالأسماء الفرعونية الغربية على اللغة العربية ، وهي في الواقع إحدى ثمار التأثير البالغ لتلك النعرة القومية المتطرفة ، ويحسن بنا ان نستمع الى رأي ابي شادي نفسه في ديوانه هذا حيث يقول (١) : « اجتهدت في اختيار مواضيع متنوعة مرتبطة بتاريخ مصر القديم وبجياتها الاجتماعية ، وبنهضتها الحديثة ، فمن حق الأدب القومي ان نحفل بالمواضيع القومية الصحيحة . ومما كانت عنايتنا بتاريخ العرب فان ابلغ حفاوتنا بالادب المصري من حق وطننا علينا ، فلا خير في قصر عناية الطالب المصري على بغداد ودمشق وقرطبة وطليطلة او في إغفاله وادي الملوك ومعبد حاتاسو وبقايا العظمة المدهشة لمصر القديمة »

وعلى هذا النحو بعثت روح مصر القديمة بوجهها الفرعوني في مختلف مظاهر النشاط المهاري والفني . ولم ينبج من هذا التيار شاعر سوري اقام في مصر هو خليل مطران الذي نظم في الموضوع عدة قصائد منها « نشيد عنخ آمون » وفيه يقول (٢) :

انا (فرعون) ، انا (توتانخون) صاحب التاجين من ابناء (را)

كما اشاد مطران ايضا بتمثال نهضة مصر وتغنى بالهرم في ابيات وقصائد اخرى .

وبوسعنا بعد ذلك ان نحكم على ضوء ما تقدم من شواهد في هذا المجال بقولنا ان النزعة الفرعونية لم تكن لتبلغ في قصائد الشعراء بصورة عامة حد التبشير المذهبي بالنعرة الانفصالية المتطرفة ، بل كانت لا تعدو حدود التفاخر بالماضي العريق في مرحلة من تكوين شخصية مصر القومية التي بهرتها المكتشفات

(١) ص ٧٠

(٢) ديوانه ١٦٦

الرائعة واعادت إليها ثقمتها بنفسها وثوت قدرتها على شق طريقها في الحياة .

على اننا لا نكاد نجد لدى شعراء مصر في مقابل ذلك — وإن كنا نجد لدى بعض كتابها (١) — تنديدا قويا بهذه النعرة الفرعونية المتطرفة نحو قطع الصلة بالعروبة ومحاولة تغيير وجه مصر الحقيقي . وثمة آيات قليلة نظمها الشاعر السوداني حسين المنصور في معرض تنديده باتجاه أحمد شوقي في قصائده الوطنية يقول فيها (٢) :

العرب تبغي شاعراً متممراً يزجي القريض الثائر الوجداني
أصبح مدحك فترة وثنية وإشادة بهياكل ومباني
ماتوت عنخ وغيره ، ودمائهم ان تبغها لم تبقي في شريان

والواقع أن التنديد بالنعرة الفرعونية لم يصدر عن شعراء مصر وإنما صدر عن شعراء الشام والعراق بالدرجة الأولى إذ أنهم أدركوا خطر تلك الدعوة المنحرفة التي كانت ترمي إلى إبعاد مصر عن شقيقتها ؛ فقد كانت أرض الكنانة معقد رجائهم وقبلة أمانهم ، وهذا معروف الرصافي يؤكد عروبة مصر بقوله (٣) :

إني أرى مصر والتاريخ يشهد لي تحيا بعرق بها من ضئضى* العرب
وليس فرعونها بمن يشط به بعد عن العرب العرباء في النسب

(١) كان محمد علي علوبة وعبد الرحمن عزام وعلي المناني في طليمة دعاة الجامعة العربية ومناوئي الدعوة الفرعونية . وقد التقوا في ذلك مع دعاة الجامعة الاسلامية أمثال محمد عبده ومحمد رشيد رضا وشكيت أرسلان وسواهم .

(٢) الشاطي، الصخري ١٥٠

(٣) انظر الايات في كتاب «معروف الرصافي» لمصطفى علي ص ١٢٩ ، ولم ترد في الديوان .

يتم للعرب ماضيها وحاضرها بنسبة غضة في المجد والحسب

وعندما استفحل أمر الدعوة الى « ضرورة خلق أدب قومي يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الاخرى الناطقة بالضاد معبراً عن نفسية المصريين وشعورهم ، تصدى الرصافي لأولئك الدعاة في قصيدة أسماها « التعصب الوطني للادب » وقال فيها (١) :

من جور مصر على العروبة أنها	تعمد التمصير في آدابها
من أين كانت مصر في أقباطها	كمواطن الأعراب في أعراها
أبت العروبة أن يفوق هزارها	صرد زقي في مصر زقي غرابها

وقد دأب شعراء الشام وخطباؤها وزعمائها على إثارة الموضوع كلما سنحت لهم الغرض ، من ذلك ما فعله شفيق جبري في قصيدته عندما زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ ، إذ أشار فيها الى انحراف عدد من رجال مصر عن العروبة وناشدهم التمسك بجمالها (٢) :

كيفان تضطرب العروبة فيها	حتى تجول على السنين مجالها
لو تشككي مصر أذى بشالها	بترت ربوع الغوطين شمالها
بالله بالقرآن باليت الذي	قذفت اليه جرم أبطالها
لا تقطعوا صلة العروبة بيننا	حتى ندل على اللغي إدلالها
ماذا بمصر وكلنا ظمىء الى	مصر يناجي أهلها ورجالها

وقد جدد شفيق جبري القول في عروبة مصر بعبارات أشد وطأة على

(١) ديوانه ١٧٢

(٢) مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق م ١٥٠٠ ج ٨ ، ص ٣٨٨

أثر زيارة حافظ إبراهيم لدمشق عام ١٩٢٩ فقال في حفلة تكريمه (١) :

إذا بكت جنبات النيل من ألم	بكت دمشق بدمع منه هتان
أواصر بيان العرب محكمة	النيل والشام في الآلام صنوان
أرى رجلا على لأهرام ديدنهم	حل الأواصر من طي وشيان
تنكبوا عن صميم العرب واعتصموا	بجبل رمسيس أهدانا بأحدان
لكن مصر وإن هشت وإن عبت	ركن العروبة للقاصي وللداني

وقد أزرى إيليا أبو ماضي ببناء الأهرام من حيث كان ذلك مبعث افتخار
لا حد له عند المصريين فقال (٢) :

بنى الأهرام (فرعون) فدامت لتخبر كيف كان الظالمونا

وهذه النظرة من أبي ماضي ربما كان مردها الى منزع الشاعر الانساني
ونفور من العنف والاستبداد والسخره ، وهي من ناحية اخرى تتماثل
ما كان يصدر عن إبراهيم عبد القادر المازني واحمد حسن الزيات وعدد من كتاب
مصر في هذا الصدد نحو آثار الفراعنة وما توحيه من جبروت .

والواقع ان هذه القصائد وامثالها لم تكن سوى رد فعل معتدل تجاه
بعض دعاة الفرعونية الذين تطرفوا في دعوتهم الى حد انكار كل صلة لمصر بالعروبة
حتى كادوا على حد قول احمد حسن الزيات « يجعلون المآذن مسلات ،
والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة » واعتقدوا ان
الرابطة المكانية او رابطة الأرض وحدها تكفي لايجاد صلة بين الشعوب .

(١) ذكرى الشاعر بن ١٩١

(٢) الجمائل ١٢٣

و كما كانت طائفة من الكتاب ترى ان مصر الحديثة اقرب الى مصر الفرعونية منها الى جاراتها العربيات ، كانت طائفة اخرى تعتقد ان مصر اقرب الى اليونان ، وكانت طائفة ثالثة تعتبرها ألصق بأوروبا ، وقد التقوا جميعاً في ابعاد الطابع العربي عن مصر (١) .

ومن الحق ان نقول إن الشعراء في مصر لم يبلغوا في نزعهم الفرعونية المدى الذي بلغه كتابها في تطرفهم ، ومعظمهم اشاد بها باعتبارها تراثاً وعصراً وحقبة من التاريخ لا على انها جنس او قومية ، وربما كانت طبيعة الشعر وقوابله وقوافيه من جهة ، وعمق جذور الثقافة العربية في نفوس الشعراء من جهة اخرى خير ما عصم الشعر في مصر من الانزلاق البعيد نحو تلك الآراء المتطرفة وجعله يتسم في معظم الأحيان بالمحافظة والاتزان ، ولا يفسح صدره للنعمرات المحلية والدعوات الغربية الا بصعوبة وبتقدير .

وكان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في حصر تيار الفرعونية وعدم استفحال امره في الشعر (٢) ، صحيح انهم لم يتصدوا للتنديد به كما كان متوقفاً منهم ، وذلك لأن الرياح لم تكن آنذاك تهب معهم ، الا انهم بنتيجة ازواجهم في هذه الفترة بعد ان فقدوا اخلاقهم ، ظلوا معصومين من الانحراف في هذا التيار الذي وجدوا فيه تعلقاً بوثنية عريقة تعار عقيدتهم الاسلامية السامية ، وكان من ابرزهم احمد محرم ومحمد عبد المطلب . وكذلك فان الذين تخرجوا في دار العلوم عصمتهم ثقافتهم العربية والاسلامية بصورة عامة من الانزلاق نحو الفرعونية المتطرفة ، ومن هؤلاء محمود غنيم وعلي الجندي وغيرها .

(١) الملاحظ أن الدعوة الى الفرعونية تبناها حزب الاحرار الدستوريين وعلي الاصح بعض أعضاء هذا الحزب وكانت جريدة السياسة منبراً لآرائهم .

(٢) كان لصحيفة المنار محمد رشيد رضا ورفاقه من حملة الفكرة الاسلامية أثر فعال في مناهضة العمات الانطوائية .

وقد وجدنا بين شعراء مصر من اتسم باعتدال نظرته الى ماضي مصر
وتاريخها فاعتز بالعرب والفرعنة على السواء دون ان يصدر في ذلك عن دعوة
مذهبية معينة ، وقد عبر على الجندي عن هذا الاتجاه في بعض ابياته
فقال (١) :

نحن جنود النيل ابناء الفدا ورجال الحرب أبطال الكفاح
من فراعين ومن عرب كرام يومئذ الناس إليهم بالسجود

وصدر عن الاتجاه نفسه على أحمد بكثير تفهم ووعي لمعضلة الازدواج
في تراث مصر الحضاري فقال على لسان أحد شخصوس مسرحياته (٢) :

أبوكم أبي يوم التفاحر يعرب وجدكم فرعون أضحي بكم جدي

وهكذا نرى عزوف عدد من الشعراء عن حدة الدعوات المذهبية
وتطرف النعرات الانفصالية وحرصهم على المؤاخاة بين هذين العنصرين العريقين
في تراث مصر العربي والفرعوني والتأليف بينها في وحدة متماسكة منسجمة.
ومما نلاحظه في هذا الصدد أن الكثيرين من الشعراء الذين افتتوا بالفرعونية
كانوا هم أنفسهم — شأن كثير من الكتاب أيضاً — في طبيعة المبشرين بالعروبة،
نذكر منهم أحمد شوقي وحافظ وأبا شادي . . مما يدل على الصفة العارضة
للدعوة الفرعونية التي ازدهرت على خفاف النيل في وقت من
الأوقات .

وجملة القول إن الشعر العربي في مصر ظل عربي اللسان والهوى ، وقد
علقت به بعض الشوائب الى حين ، ولكنه بفضل ما اتسم به من أصالة استطاع
أن يتخلص منها بعد ذلك ويسير قدماً في الاتجاه العربي السليم .

(١) ألحان الاصيل ٥ :

(٢) أنظر في المسرحية ٢ :

ان النزعة الفرعونية لم تكن النزعة الوحيدة من نوعها في العالم العربي بل كانت الى جانبها نزعات أخرى كاللدعوة الفينيقية التي قامت في لبنان والدعوة الآشورية في العراق . وقد ظهرت هذه الدعوات في فترات متقاربة بعد انتهاء الحرب الأولى ووقوع بلاد العرب في قبضة المستعمرين الذين شجعوا هذا الاتجاه الجديد وحرصوا على دعمه بستر من الابحاث العلمية والمكتشفات الاثرية أملا في تثبيت وحدة العرب عن طريق خلق كيانات منفصلة متميزة في الوطن العربي .

والواقع أن جميع هذه النزعات كانت من طبيعة واحدة تعبر عن اتجاه فكري واحد وتستلهم مقوماتها من معين واحد هو ذلك الماضي السحيق السابق لوجود الكيان العربي . ويؤيد ذلك ما كتبه محمد حسين هيكل بعنوان « حاضر لا ماضي له ، لا مستقبل له » (١) إذ قال إنه حين يدعو المصريين الى هذا الاتجاه انها يراه واجبا قومياً يجب أدائه في البلاد المختلفة بالدعوة الى مثله ، وأضاف قوله « .. إن تطبيق هذه الفكرة في بلاد الشرق العربي يؤدي الى نتيجة هي خير النتائج ، وبودي أن يصل أهل الشام حاضرهم بماضيهم منذ عهد الفينيقيين ، وإلى أن يصل أهل العراق حاضرهم بماضيهم الى عهد آشور وبابل . »

() انظر ملحق السياسة الاسبوعية ٢٩ سبتمبر ١٩٣٣

وكان منطلق هذه النزعة في الساحل السوري ذلك الشعار
 البراق « سورية لسوريين » كما كان منطلق الفرعونية في أرض الكنانة
 الشعار المماثل « مصر للمصريين » على أن السوريين في نظر دعاة الفينيقية
 وفيهم جماعة الحزب القومي الاجتماعي - انما هم أمة متميزة تعبر الأمة
 العربية وأنهم بالتالي ليسوا جزءاً منها ، لانهم كما يزعمون يرجعون
 بنسبهم الى السوريين القدماء ويعنون الفينيقيين . وكان طبعياً ان تستهوى
 الدعوة الفينيقية (١) بعض اللبنانيين بعد أن وجدت الظروف موالية لها
 في هذا البلد الصغير الذي كان عرضة لمجازر طائفية منذ مأساة ١٨٦٠ في
 ظل حكم عثماني فاسد كان قوامه التعصب والبؤس ، :ما سمح للمستعمرين بدس
 أنوفهم في شؤونه . وقد دأب الفرنسيون على بعث الماضي الفينيقي والحثي في بلاد
 الشام عن طريق كتابة تاريخ جديد لها والكشف عن آثارها الدينية أسوة بما
 فعله الانكليز في مصر (٢) . واستطاعت فرنسا أن تفقدوا ، مشاعر اللبنانيين عن طريق
 الطائفية المستحكمة بينهم باهمام الموارنة بأنهم ليسوا من العرب وإنما هم احفاد المردة
 القدماء وأن لبنان من أرومة فينيقية ، وأن القومية العربية فكرة إسلامية ترمي
 الى التسلط على المسيحيين .. (٣) حتى خيل الى بعض اللبنانيين أن العروبة دعوة
 رجعية قوامها العودة الى الصحراء ، وأن مصلحة لبنان هي في الاتجاه نحو الغرب
 الاوربي وقطع صلته بكل ما هو عربي . ونجم عن ذلك قيام منظمات آمن بعضها
 بالكيان اللبناني الخاص وشخصيته المتميزة ، وخشي عليه أن يذوب في كيانات
 اخري اكثر اتساعا كالكيان العربي أو الاسلامي كما آمن بعضها الآخر بالكيان
 السوري بشطريه الساحلي والداخلي لاحتوائه أمة متميزة .

(١) ذكر عبد الله نحاس في كتابه (الفينيقيون) أن فينيقية لفظ أطلقه اليونان على هذه
 البقعة الضيقة من ارض الكنعانيين الواقعة عند سفح جبال لبنان على ساحل البحر وهي التي
 كانت لسفنها مملكة البحار أوقاً من السنين قبل التاريخ الميلادي ، والفينيقيون خبط من
 الكنعانيين والآراميين

(٢) انظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٢٦

(٣) انظر الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ١٥٨

ففي المهجر الأميركي الشهلي تألفت جماعة من الادباء المغتربين أسمت نفسها (لجنة تحرير سورية ولبنان) وكان جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة ونسيب عريضة من أبرز أعضائها، وكان من مبادئها قيام حكومات محلية في سورية تحت رعاية فرنسة وحماتها (١) « وأصدرت هذه اللجنة لتأييد اتجاهها بحثاً تاريخياً يثبت أن السوريين هم من أصل سرياني فينيقي مع خليط يوناني وروماني وعربي » (٢) وقد رفعت اللجنة التي شكلها أولئك الأدباء مذكرة الى مؤتمر الصلح جاء فيها (٣) « أن السوريين ليسوا بعرب، واثنة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون الى استعمالها بدلا من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية ».

ومن أبرز مظاهر تلك النعرة أيضاً ما نجده في مقال نشره شكري غانم وهو في باريس تيراً فيه من العروبة كإبراً اللبنانيين من الأمة العربية وقال (٤) : « إننا معاشر السوريين أو اللبنانيين لسنا بعرب وإن تكلمنا بالعربية وانما نحن فينيقيون » وكان ذلك منه على أثر قيام أول حكومة عربية في الشام بعد جلاء العثمانيين . وقريب من ذلك ما كان يصدر عن أقلام كتاب آخرين ، فقد كانت العروبة غائمة عند جبران وضائفة في الشرقية ، ومن قوله (٥) « علينا أن نحافظ على صبغتنا السورية » ..

وإذا رحنا نتبع اصداء هذه الوطنية المحلية في الشعر بعد أن آلت في كثير من الأحيان الى نعرة انفصالية ضيقة لم نكد نجد أكثر من شذرات متفرقة . ومرد ذلك فيما يبدو الى غلبة طابع السياسة والجدل على هذه الآراء . ولنشوء

(١) انظر عبدالكريم الاشر : النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٥٣

(٢) انظر ذلك مفصلاً في المرجع السابق ١ : ١٥٠ - ١٥٧

(٣) انظر المرجع السابق نقلاً عن السائح عدد ٣ تموز ١٩١٩

(٤) انظر ديوان معروف الرصافي ، اذامش ١٧ :

(٥) الهلال سنة ١٩٣٤ عدد مارس ٥١٤

هذه الثمرات بصورة عامة في بلاد نائية عن الوطن العربي . ولعل معروف الرصافي الذي دأب على العمل السياسي في تلك الحقبة من حياته في طليعة المتربصين بما يملك حول القضية العربية ، ومن قبل سلق مؤتمر باريس الذي عقده لفيف من رجالات العرب قبيل الحرب الأولى بلسان حديد لاحتوائه عناصر لا يوثق بوطنيتها ولا اختياره العمل في عاصمة دولة أجنبية لا تخفى مطامعها في بلاد الشام على أحد . وقد تصدى من جديد لمقالة شكري غانم آفة الذكر - وكان هذا أحد أعضاء المؤتمر البارزين - بقصيدة أسماها (صبح الألماني) فند فيها دعواه كما نافع عن العهد الجديد في دمشق . وكان مما قاله معرضاً بأوائك المارقين من عربوهم (١) :

وهل حسبوا أن العروبة في الوري من العرّ حتى أنكروا ذلك العرا

ومن الملاحظ أن الدعوة الفينيقية بحكم طبيعتها المحلية - شأن الدعوة الفرعونية - انحصر أمرها في لبنان دون أن تقيم وزناً للروابط الواشجة بينها وبين سائر الأقطار العربية ، فلم تكن هذه الروابط في اعتقادها تعدو رابطة الجوار . أما الامة فليست مقوما قومياً بالضرورة . ومن هنا كان القوميون العرب يجدون في أمثال هذه الدعوات خطراً على كيانهم لأن أصحابها لا يمدون أنفسهم عرباً . وقد وجد خليل مردم بك في أمثال هذه الدعوات حرباً على العروبة ، ولا تختلف في جوهرها عن مؤامرة التريك التي حاول حزب الاتحاد والترقي التركي فرضها على العرب قبيل الحرب الأولى وإبانها . وفي ذلك يقول مخاطباً دمشق مشيداً برسوخ عربيتها تجاه كل هذه الأخطار :

وظللت خالصة العروبة حينما أخذت بنوك بمحنة التريك
وتطهرت أنساب من قطنوك من دعوى أخي السريان والفينيكي

(١) ديوانه ٤١٧ ، والعر : مرض الجرب يصيب الإبل

ولقد بلغ الأمر بخير الدين الزركلي حداً جعله يربط بين هذه النعرة وبين انخيانة في معرض تنديده بفرقة (القناسة) التي جندها الفرنسيون من بعض المرزقة في لبنان لقمع الحركات الوطنية فقال (١) :

قناسة الشؤم ماذا في كنائها	لبئس ما ادخرت في الزوع من باس
ما إن رأيت سلوكين قبلهم	هيجوا فهاجوا على آساد أخياس
دعاهم فقصوا داعي مواطنهم	وساقهم فمضوا مهراز نخاس
الله يعلم أنا كلما عرب	وإن أيتم فما في الأمر من باس
كونوا سلائل (فينيق) أو اتسبوا	إلى عناصر لم تخلق وأجناس

وهكذا نتبين من خلال أبيات مردم ثم الزركلي مبلغ الحساسية الشديدة لدى شعراء دمشق تجاه الدعوة الفينيقية ، كما لمسنا ذلك لديهم من قبل تجاه الدعوة الفرعونية . وهذا يعكس بوضوح مشاعر السوريين بصورة عامة تجاه كل نعرة لا تتفق والعروبة . يضاف الى ذلك أن لبنان كان في جميع العبود شطراً من سورية ، فكل ازدهار للطائفية أو الفينيقية فيه يعنى الابتعاد عن حظيرة العرب والتقاطع بين هذين التوعمين ، وفي ذلك أكبر خطر يهدم دعائم الوحدة العربية المنشودة التي كان السوريون في طلائع دعائها .

أما عوامل ظهور هذا التيار الوطني في لبنان الذي انقلب سريعاً الى نعرة هدامة وعدم تسربه الى سائر أجزاء الشام فهي أن سفوح جبال لبنان وسواحلها كانت موطن الفينيقيين قديماً ومنطلقهم نحو الغرب عبر البحار . والعامل الآخر نجم عن ضعف إيمان عدد من الموارنة اللبنانيين بالعروبة وشكوكهم في أن تكون قناعاً للجامعة الاسلامية التي لقي لبنان من جرائها الأمرين في العهد

(١) ديوان الثورة ١٠٨

المثاني . وهكذا كانت الفينيقية صنو الطائفية ترتكز إليها وتتسع باتساعها
وكان المهجر — وهو امتداد ثقافي وفكري واجتماعي للبنان — المواصل الآخر
لهذه التيارات التي انتقلت مع أبنائه الى العالم الجديد واستشرت فيه .

ويعد إيليا فرحات ورشيد سليم الخوري من شعراء المهجر في مقدمة
من زادوا عن الاتجاه القومي السليم ونددوا بتلك الآراء المنحرفة ؛ فقد ألمح
الشاعر القروي في مقدمة ديوانه الكبير الى خطر تلك النعرة الاقليمية الضيقة
فقال (١) : « يا فتيان العرب ، لقد كثرت بينكم قادة عمه يوقعون في قلوبكم أنكم
لستم عرباً فيضلونكم عن أنفسكم ، ويتمسفون بكم كل طامسء ؛ إن عربتكم
إن تيجاد فضل أقاليمكم ولكن أقامتكم تحسركم عز العروبة وأيدها
وغنمها » .

وفي موشح « تحية إلى الاندلس » لايلى فرحات غمزة خاطفة بدعاة
الفينيقية حيث يقول (٢) :

يا ابنة الزهراء يا أندلسية إن من اجدادك العرب بقية
لم تزل شاغخة الرأس أبية لم تفرقها مساع أجنبية
لم (تفريقها) دواع مذهبية

فهو يقرن الفينيقية مع المحاولات الاستعمارية ، ويرى فيها جميعاً خطراً
على العروبة . ونستنتج من قصيدة أخرى لفرحات أيضاً وجيباً « الى عرب سان
باولو ، أن عدداً من دعاة الفينيقية قد بلغوا المهجر ونشطوا في نفث موموم دعوتهم
هناك ، وها هو ذا يحذر من الخطر الماحق فيقول (٣) :

-
- (١) المقدمة ط ن
(٢) ديوانه ٢١٠
(٣) ديوانه ١٢٢

لي بلد البن اللذيذ شرابه
 سمعت بأن الارقم الصل زاركم
 وان جرائيم (التفينق) أوشكت
 حذار فهذا الداء صعب شفاؤه
 ويا من رأوا نور العروبة ساطعاً
 لينفت سماً بين شذقيه ناقعاً
 تمد إليكم في الظلام الاصابعا
 ولا تحوجوني أن أعد الباصعا

وتعتبر قصيدة « حيرام حيرام » لفرحات أقوى ما قاله شاعر عربي
 في التصدي للدعوة الفينيقية وتفنيدها بعد أن اشتد ساعد أنصارها في
 لبنان أملاً في اضعاف صفة القداسة على حدوده المصطنعة مع جيرانه العرب والتمديد
 لسلخه عن عروبه . ومن هذه الايات قوله (١) :

قوم لقد انكروا جهلاً أرومتهم
 لولا التعصب كانوا كلهم عرباً
 هذا التفينق للتفريق أوجده
 وكيف لا يحذر الباغي إذا اجتمعت
 فليعلم النفر الفناون أنهم
 ما كل من حملت أرض ذوى رحم
 مستمسكين يقوم ما لهم أثر
 فلتبناً العرب لم يعلق بها الوضر
 عات يفضنه بالوحدة الحذر
 تحت الينارق بدو العرب والحضر
 ضلوا السبيل الى العلياء فأنحدروا
 لبنان ينبت فيه الارز والجزر

والطريف في هذه القصيدة أن الشاعر نفسه يفتخر فيما يلي من
 أياتها بأعجاد الفينيقين على أنها جزء من التراث الكبير الذي آل الى لبنان
 ولكنه يربأ بهذه الاعجاد أن يستغلها ويدنسها أناس تحوم حول وطنيتهم الرب
 والشكوك :

إنا نضن بمجد السابقين الى
 الراكيين فحول الموج مزبدة
 نشر الحصاره يغشى صفوه الكدر
 أيام لم يك يعاوا ظهرها بشر

(١) ديوانه ٢٠٧

ما ذنبهم وهم الاحرار يكسبهم دعوى العبيد هو انا بعدما اندثر وا
 حيرام حيرام والايام عادلة لو كنت حياً لكنت اليوم تنتجر
 بمعنى الدعوي العالي وهي شاهدة إن الدعوي على اضلاعها حجر

وبالاجمال فقد رأى الشعراء وبخاصة في سورية أن الدعوة الفينيقية التي
 كانت تلقى التأييد من فرنسا خطر يهدد العرب ويزيدهم انقساماً .

ولهذا كان معظم ما مر بنا آنفاً من الأشعار حول هذا الموضوع
 ينسب بطابع السلبية والعنف الذي بدا في استنكار هذا الاتجاه الاقليمي
 الضيق والتصدي لدعاته .

على أنه لا بد من القول ان الساحل اللبناني كان محط هجرات
 عديدة منذ ما قبل التاريخ . وفي ذلك يقول الدكتور قسطنطين زريق (١) :
 «لقد تابعت بعدئذ هذه الموجات خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى وكان مهبها
 جميعاً — من فينيقية وسواها — الجزيرة العربية . وهذه حقيقة يجب ان نذكرها
 وتدبر معناها . ان تسرب العنصر العربي الى لبنان لم ينقطع منذ ما قبل الاسلام ،
 فقد زححت الى لبنان قبائل عربية معروفة كعاملمة في الجنوب وتيم الله بن ثعلبة
 في وادي التيم وتنوخ في الشهل . وقد جاء في كتاب البلدان ليعقوب بن ابي
 الهجور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن أهل اليمن »

وعلى ذلك لا مجال لوسم الفترة الفينيقية من تاريخ هذا البلد بأنها منافية
 في طبيعتها للعروبة وجعلها نزعة مقابلة لها متعارضة معها . كما لم يكن ثمة سبب
 منطقي يضيف على الحقبة الفرعونية من تاريخ مصر هذا الطابع المذهبي الذي

(١) الوعي القومي ١٠٢

ابتدعه بعض الباحثين او السياسيين عن قصد او دونما قصد ، فكلمتا الحقبين ذات تراث اصيل ومجد مؤثل انبتته هذه الأرض الطيبة وتوارثه اهلها العرب جيلا بعد جيل .

« والواقع ان الفينيقيين الذين كانوا اول المستوطنين لاساحل اللبناني ، حيث بنوا حضارة مزدهرة مؤسسة على التجارة البحرية ، زالوا وزالت معهم لغتهم وحضارتهم قبل العصر المسيحي . وقد خلقت خرافة الفينيقية لمواجهة الاتجاه نحو الوحدة العربية . ولكن لما كانت فكرة مصطنعة فانها سرعان ما تلاشت » (١)

وقد دأب عدد من الباحثين والأدباء على إبراز الشخصية اللبنانية أو الشخصية السورية بشكل متميز ومن أولئك انطون سعادة وسعيد عقل الذي يعتبر (٢) « أن شخصية لبنان من مجموعة أربع بؤر عقلية : من سيدون الموغلة في القدم ، والتي تعاصر موسى والفراعنة ، الى القدس حيث اشعاع يسوع ، فأطالكية حضارة اليونان والرومان ، حتى عهد دمشق ودخول العرب باب التاريخ . »

وكما كانت الحفريات تمد دعاة الفرعونية بنسج الحياة من حين الى آخر كذلك كان الشأن في لبنان وسورية ، إذ كان لمكتشفات رأس شمرة وسواها أثر بالغ في تعزيز النظرية القومية السورية ، وفي ذلك يقول زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي أنطون سعادة (٣) « ما يعنينا في هذا الموضوع من اكتشافات رأس شمرا هو القصائد والملاحم الرائعة التي تثبت بدون شك أن الشعر الكلاسيكي ابتدأ في سورية وعنه نقل الأفریق الذين

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ٥٧ ،

(٢) قدوس (المقدمة)

(٣) الصراع الفكري في الادب السوري ٨٢

تعاونوا هم والرومان على غمط سورية حقها في الابداع الفني وقيادة الفكر
الانساني .»

ويحاول سعادة وضع أسس أدب سوري جديد على غمط المحاولات
التي دعا إليها بعض المصريين فهيب بالشعراء أن يطلعوا على هذه الكنوز
الروحية الثمينة ليزدادوا يقيناً بحقيقة نظرهم الى أن يقول (١) : « الآن
أخطب أنا جميع شعراء سورية قائلاً تعالوا نأخذ بنظرة الى الحياة والكون والفن
نقدر على ضوئها أن نبعث حقيقتنا الجميلة العظيمة من مرقدتها . لقد تسج
عن هذه النظرات الجديدة في سورية مجرى حياة جديد لتيسارات النفس
السورية التي كانت مكبوتة ومحجوزة ، فهل يتنبه لهذه الحقيقة أدباء سورية
وخصوصاً شعراؤها ويبدون الدعوة .. »

وقد آتت هذه النداءات اكلها فظهرت بوادر الاستجابة لدى عدد ضئيل
من الأدباء الذين فرغوا الى تلك العبود الغائبة يستمدون من اساطيرها ادباً جديداً
متميزاً وفي مقدمتهم سعيد عقل الذي اصدر مسرحيتين في هذا المجال هما : « بنت
يفتاح » و « قدموس » . وقد بلغت منه نزعة الاستعلاء حداً جعلته يصف رسالة
لبنان بأنها « رسالة فذة تحولنا لبسنة العالم » (٢) .

ومع ذلك لم تبلغ النعرة الفينيقية لدى الشعراء في لبنان ما بلغته لدى
بعض ساستها وكتابها من التطرف . لقد تجرأ مثلاً شكري غانم وأمثاله على
القول بأنهم فينيقيون وليسوا بعرب ، وردد جماعة من قادة الحزب القومي
الاجتماعي أو الحزب القومي السوري كما كان يسمى نفسه في العديد من
صحفهم ومحافلهم بأن السوريين أمة متميزة وأن العروبة مرض نفسي شوه العقل

(١) الصراع الفكري في الادب السوري ٨٦

(٢) مقدمة قدموس ٢٢

السوري ودعوة رجعية مرادفة للبداءة والعودة للصحراء وأنها قناع يتستر به دعاة الطائفية الاسلامية ، وان الوحدة العربية ليست سوى هذيان من العروبيين ، (١) إلا أن الشعر كما كان شأنه في مصر أيضاً لم يفتح صدره لمثل هذه الآراء الهدامة .

ومما تجدر ملاحظته أن ما سبق من القصائد والمقطوعات يكاد يكون جل ما نظمته الشعراء بصدد هذا المذهب السياسي الذي لم يكن يتفق في دعواته والاتجاه العربي السائد . ولكن الاعتماد على الغابر الفينيقي وربط حاضر الأمة وشخصيتها به ، وجعل ذلك قومية متميزة أمر يختلف كثيراً عن النظرة إلى ذلك الغابر من حيث أنه تراث عريق فحسب يضاف الى سفر الأجداد الحافل الذي آل إلى العرب المعاصرين ، وعندئذ تغدو الفينيقية والفرعونية وسواهما كسباً للكيان العربي الراهن ورافداً قومياً عريقاً يسهم بصورة فعالة في توضيح معالم الشخصية العربية وتوكيد أصالتها .

وعلى هذا السبيل مضى أكثر ما نظمته الشعراء في ذلك الموضوع ، وهو على قلته لم يكن يعدو في غالب الأحيان نطاق التفاخر ، من ذلك ما نجده في قول إيليا أبي ماضي إذ يبرر هجرته وإخوانه من لبنان (٢):

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم ركبوا إلى العلياء كل سفين
ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا أم الثقافة مصدر التمدين

(١) انظر كتاب : المالكي - رجل وقضية ٨٧

(٢) الخمائل ١٠٥

فالأشادة بعظمة الفينيقيين كانت محور تفاخر الشعراء (١) وأكثر ما أنصب
 هذا التفاخر على أمرين : عظمة دواتهم البحرية وأسبقتهم الى ابتكار حروف
 الهجاء . وقد أشاد شكر الله الجربهاتين الصفتين البارزتين فقال (٢) :

من شعاع البدر والشمس كساء	وشطوط نسج السحر لها
يوم كانت من بني الدنيا عفاء	عمرت في سالف الدهر بنا
لا يزالون مع الفتح بلاء	في غزاة من بني فينيقيا
منشآت كن للمجد وطاء	روضوا البحر وشادوا فوقه
صانه التخليد في حرف الهجاء	خلفوا في كل أرض أترأ

ومما قاله الشاعر نفسه مشيداً بتلك الأبحاد السالفة ، قصيدته « على
 خرائب بيلس » وهي مدينة جبيل الفينيقية على الساحل اللبناني (٣) :

خالد في جلائل الآثار	أي شعب كشمعك الجبار
عابثا بالخطوب والأخطار	ضارباً في جوانب الأرض زهوا
هازئات بالموج والاعصار	ناشراً في بحارها منشآت
من حصون وشاده من ديار	أعجز الأرض كلها ما بناه

(١) أنظر تفاصيل تاريخ الفينيقيين ونورهم الحضاري في كتاب « فينيقية » للاستاذ
 فاك وقد ترجمته بنت بطوطة سنة ١٣٦٥ هـ وطبع بدمهور ، وأنظر أيضاً (الفينيقيون)
 لبداية يوسف نحاس ط جريدة الصير سنة ١٩٤٣ من ٩ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٩٤
 ففيه أنهم أول من أثبت أن إفريقية شبه جزيرة ، وقد أشار الى ذلك هيرودوت ،
 وأنهم عرفوا أميركا بعد أن أوغلوا في البحار ؛ كما عرفوا كروية الأرض والمد والجزر والفاك.
 كما ينسب اليهم اكتشاف الصبغة الأرجوانية وحجر المغناطيس واحتكار التجارة ، وممارسة
 النظام الديمقراطي في قرطاجة التي عرفت مجسماً للشيوخ ، وكان لها دستور انفردت به وأبدى
 أرضها إعجاب به .

(٢) الروافد ٤١

(٣) الروافد ١٥

وتأثيل للجمال أجادت تحت أجزائها يد الحفار
عرف الموج حسنها قترامي فوق أقدامها عديم القرار

ولا ريب أن أبياتاً كهذه لا تخرج عن تصوير روعة تلك الآثار الفينيقية التي لا تعدو نظرة الشاعر إليها الناحية الفنية، ويتابع الشاعر نفسه قوله في القصيدة نفسها :

أمة شرد الزمان بينها فذراهم على متون البحار
حدث الناس أيها الشط عمن حكوا في أعنة الأقدار
خبر الكون عن عظامم شتى كان ملء الأسماع والأبصار
إن أجدادنا وما أحرزوه كان بالجد من غنى وفخار
فانهجوا نهجهم وكونوا كباراً يرحب الكون للرجال الكبار

فالأبيات لا تخرج عن نطاق التفاخر على الرغم من اعتبارها اللبنانيين أحفاداً للفينيقين . وهذا النسب الذي أشار إليه الشاعر نسب معنوي والاشادة به أمر طبيعي بل أن التفريط به لا يعد طبيعياً . وهدف الشاعر من حث قومه واستنهاضهم واضح يذكرنا بطريقة شوقي في فرعونياته . ومع ذلك يعد شكر الله الجر في رأس الشعراء الذين اشبعت قريحتهم بالروح الفينيقية وتطرفوا في الاعتزاز بها .

وقد تنقّى عقل الجر بالعهد الفينيقي وزهي به في نشوة بالغة فقال (١) :

ألم نكن وعيون الشرق شاخصة شعباً على صفراء فاق الملايينا
الم نكن لبني الدنيا أساتذة حتى حروف الهجاء من صنع أيدينا

(١) انظر الابيات في جورج صيدح : أبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ١٩٤٤

ألم نكن وبحار الكون مسرحنا نلقي على أيها شئنا مراسينا
 أنا ثبتنا ثبات الأرز في جبل قد جاور الله في أعلى علينا
 وارى الزمان شعوباً في غياهبه وقصرت يده عن أن توارينا

والملاحظ ان الشاعر بالتزامه ضمير المتكلم في آياته جميعا يحرص على اعتبار نفسه من حفدة اولئك الفينقيين ، وهذه الروح روح الاعتداد والزهو بذلك الماضي الغابر تماثل ما وجدناه لدى عدد من شعراء مصر كحافظ إبراهيم في قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » ومحمد الأستر في عدد من قصائده ، فهناك بناء الأهرام وام التشريع ورصد النجوم وفن التحنيط ، وهنا سادة البحار واساتذة العالم ومبدعو حروف الهجاء ..

ولم يكن اطلاق اسم (النادي الفينيقي) على إحدى الحلقات الأدبية في المهجر البرازيلي إلا مظهر أ من روح الاعتداد والتفاخر عند عدد من اللبنانيين الذين كانوا يحرصون على توكيد شخصيتهم القومية في تلك البلاد النائية ويمجدون في مثل هذه المظاهر ما يرضي ذاتهم الطامحة . والنادي الفينيقي نفسه لم يكن لديه من الفينيقية سوى الاسم ، حتى إن النشيد الذي نظمه عقل الجر لهذا النادي لا يحمل من الفينيقية سوى العنوان فلغته مصرية ومعانيه عربية ، حتى إن الاعتزاز بالعروبة جاء في صلب هذا « النشيد الفينيقي » (١)

ايه اشبال الاسود اتم خير الامم
 فاقتفوا إثر الجدود واملأوا الدنيا عظم
 وابعثوا فينيقيا
 حسبكم نادي الادب وعكاظ المهجر

(١) انظر وديع ديب : الشعر العربي في المهجر الامريكى ٨٧

محييا مجد العرب من بطون الاعصر
ناشرا ما طويا

ويبلغ هذا الزهو أقصاه لدى رشدي المألوف الشاعر اللبناني في قصيدته
« بلادي » ومنها قوله (١) :

أهلت ذروة الدنيا غداة الصخند في صور
ويوم البحر للعالم - أغمار من النور
وجئنا الشمس بالنار

ولم تدري

ومنا كان طاليس وإن زور من بعد
وغنينا وهو ميروس - لم يحلم به مهد
وكان الجن في اليم

فلم نهرب

وعمدنا من المغرب - والتاريخ عطشان
وعلمناه ان يحلم - بالنة والقسري
فلا لوم على الام

إذا اذنب

بلادي واحة التاريخ - والتاريخ عطشان
بلادي موئل الناس إذا روع إنسان

(١) ديوانه اول الربيع ١٨ - ٢٣

فالشاعر يعني هذا النشيد على اجنحة الماضي البعيد مأخوذاً بشهوة
الذكريات الباهرة . إنه يزهي بأجداده الذين شهدوا مولد العصور وكان على يدهم
انبثاق الحضارة ، وبعد الفينيقين سابقين الى المعرفة ، عرفوا الفاسفة قبل ان
يعرفها الاغريق وابدعوا الملاحم قبل عهود اليونان برغم ما دأب عليه
الجاحدون في طمس هذه الحقيقة . كما شقوا عباب البحار منذ فجر التاريخ ونقلوا
تجارهم الى اوربا التي قبست من نورهم ثم عقتهم وججحت فضلمهم ، وتسير سائر
اجزاء النشيد على هذا النوال من الزهو بالابحار العابرة وعد المناقب الباهرة .
والملاحظ في هذه القصيدة وبعض القصائد التي تعزف على الوتر نفسه ان روح
الفخر والزهو مشوبة بالمرارة والاسى لهذا الزمن الفادح الذي تلقاه منجزات
النبوغ الفينيقي باستمرار حتى كادت تمحي معالمه في الازهان باستثناء نقر من
العارفين ، وهذا الاتجاه في حقيقته صدى لآراء وبحوث صدرت عن بعض اديباء
لبنان ومفكره (١) وكان بمثابة ثلثة تحز في نفوس المعتدين بالكيان اللبناني
الأصيل .

وثمة اخيراً قصيدة للشاعر البرازيلي (اولافويلاك) نظمها بالبرتغالية
واسماها « الفينيقيون » وقد عربها فوزي الملوفا . وهي لا تكاد تخرج عما سبق
ان وردناه لسائر الشعراء إلا بكثرة ما تضمنته من اسماء فينيقية خلال آياتها من
ذلك قوله (٢) :

لله صور وهي تسبح في الضيا والبحر يلعب وجهه البسام

(١) كتب سعيد عقل عدداً من المقالات ومقدمات مسرحياته في هذا الصدد ، ومنها مقدمته
لديوان الشاعر رشدي الملوفا آنف الذكر ، وانظر أيضاً ما ورد في كتاب (الصراع
الفكري في الادب السوري) وبخاصة تعليق مؤلفه أنطون سمادة على مكتشفات شيفر في
رأس شمرة التي دلت نقوشها على معرفة الاقدمين في هذه البقعة بفن الملاحم وغيره من
أوجه النشاط الانساني ارفيع .

(٢) انظر ديوان فوزي الملوفا ٣٣

سفن من الارز المتين يعدها مستعرضاً أحمالها (حيرام) (١)
سيروا (فلنخار) يبارك من جلوا والشوق خلف والرجاء أمام
من أرض صيداء ومن أنتردس وجيبل قد شدوا الجبال وقاموا
ليوسعوا سبل الحياة وينشروا علم الحضارة والشعوب نيام

وقصيدة (بيلاك) هذه تم عن طابع الحنين الذي ساد فئة من الشعراء
الغريبيين نحو حضارات الشرق القديمة وكان في حقيقته مظهراً من مظاهر النزوع
الرومانسي الذي رأينا مثيلاً له لدى عدد من الشعراء الذين أخذهم سحر الشرق
وعراقته في المعرفة ، فتغنوا به وناجوه بلهفة ، وشد بعضهم الرحال لزيارته والعيش
فترة بين ربوعه . وقد أشرنا من قبل الى ما كان من أمر شلبي وبارون
وكيتس ولي هنث وثاكري وفلوبير ولامارتين (٢) وسواهم من اقتنائهم
بمصر ولبنان .

وهكذا فان نزعة الاعجاب بالعبود السحيقة التي طفت حيناً من الدهر
على اللبنانيين وعلى سواهم من الاقوام الاخرى كانت الباعث الاول على نظم
هذه القصائد . وهذه النزعة إنما تم في الواقع عن تعطش كبير لكل
ما يغذي روح شعب خضع للاستبداد قروناً حتى كاد يفقد ثقته بنفسه .
ومثل ذلك الشعور مألوف ومنتظر لدى شعب ينزع الى النهوض ويبحث عن
بعض معالم شخصيته الضائعة في ثنايا ماض عريق منسي ، فهو يتمسك
بنيطة ونشوة بكل ما يرفد حاضره ويعينه على استعادة مكائنه بين
الامم .

(١) حيرام ملك فينيقي كبير عاصر سليمان ملك إسرائيل ، وذلك قبل الميلاد بنحو ألفي عام ،
وملغار ملك فينيقي آخر .
(٢) زار لامارتين لبنان ومكث في ربوعه حيناً .

على أن الشعر الحديث والمعاصر في سورية ولبنان لم يكن توافاً الى اقتحام هذا المجال الفينيقي بتلك الحماسة التي وجدناها لدى بعض الشعراء في مصر ، وما ذلك إلا لان الدعوة الفينيقية في الاصل لم تلق الرواج الذي لقيته الفرعونية في مصر . ولعل من أسباب ذلك ضآلة الآثار الفينيقية الماثلة أمام اللبنانيين خلافاً لما كان عليه الحال في مصر من قيام الاهرام وأبي الهول ووادي الملوك والكرنك وموميات الفراعنة ومعابدهم وسواها من مظاهر الجبروت ، ولهذا لم يتفعل الشعراء في لبنان بمعظمه الفينيقيين الا قليلا . لقد فخرنا بمناصيرهم الغابر وحق لهم ذلك لانه جزء من تراثهم الذي آل اليهم من تلك العهود السحيقة ، وبقيت الحماسة للفينيقيين ضمن حدود البهاة والاقتحار دون أن تؤول في الشعر الى دعوة مذهبية ، ولم يشأ شعراء لبنان بصورة عامة أن يتعلقوا بسراب بعيد والماء الزلال يترقق عند أقدامهم . بل ان ظاهرة التفاخر نفسها برزت على نطاق ضيق بحيث لم تجر الالفاظ الفينيقية على ألسن الشعراء في لبنان كما جرت نظائرهما الفرعونية على ألسن الشعراء في مصر . وربما كان مرد ذلك الى أن الصحافة اللبنانية لم تول المظاهر الفينيقية اهتماماً كبيراً ، خلافاً لما كان يحدث في مصر من نشر أبناء المكتشفات وصورها وتدييح المقالات المستفيضة في تأييد الدعوة الفرعونية أو في تفنيدها ، حتى ان ما مر بنا من ألفاظ فينيقية في قصيدة الشاعر البرازيلي (أولافويلاك) العربية عن البرتغالية لا نكاد نجد نظيراً لكثيره فيما نظمه الشعراء العرب انفسهم ، وهذا الامر يجعلنا نعتقد ان شعراء لبنان كانوا يجهلون دقائق ذلك الماضي الفينيقي وتفصيلاته بحيث كان بعض الشعراء الاجانب يفوقونهم في هذا المضمار .

والواقع ان النزوع الى ايجاد الفينيقيين النابرة كاد يقتصر على المهجريين من شعراء لبنان كما تدل الشواهد التي مرت بنا آنفاً . ولم تكن هذه الظاهرة على الأرجح إلا نتيجة لأزمة نفسية لا بد ان يمر بها المقرب فيما يبدو حين يطل تلك الأرض الغريبة النائية فيشعر وكأنه فقد ذاته في هذا الخضم

المضطرب من الأقوام المتباينة في ملابها ونحلها وألستها، ولذلك كان المهاجر يحرص على تأكيد هذه الذات، وبلورة شخصيته عن طريق مباحاته أو لئلا يكفر الغرباء بمرافقة أصله وإتباعه إلى شعب مجيد كان شأنه ناهياً منذ فجر التاريخ.

وجملة القول أن الدعوة إلى الفينيقية أو إلى الكيان السوري طفت إلى حين ولكنها لم تلبث أن انحسرت تاركة في الشعر صدى باهتاً خافتاً. وقد ظل الشعر في لبنان مضري الألفاظ عربي الروح بفضل تأصل العروبة في هذه البقعة التي انبثق منها فجر النهضة الأدبية الحديثة وغمرت أنوارها العالم العربي.

٣

ونأتي الآن إلى دعوة ثالثة أطلقت برأسها في العراق ولكنها ولدت هزيلة لم تلبث أن اضمحلت وماتت، تلك هي الدعوة الآشورية التي حاولت خلق قومية في العراق تقوم على صلة النسب مع الآشوريين والبابليين الذين كانت لهم حضارة عريقة في هذه البقاع قبل بضعة آلاف من السنين.

والواقع أن هذه الدعوة اقتصر على فئة ضئيلة من العراقيين ولم تكن تعدو نطاق بعض الأقليات من بقايا الآشوريين. وقد كان الاجنبي المحتل يقوم بدور فعال في دعمها وتحريضها كما كان شأنه في مصر ولبنان، وإلى ذلك أشار الشاعر القروي مهدداً لاحدى قصائده بقوله (١) « كانت انكثرا خلال حكمها للعراق تكرم الملك فيصل وتقيم له المهرجانات في لندن وتظاهر بصدائقه، في حين كانت باليد الأخرى تمد الآشوريين بالمال والعتاد ليثوروا على حكم الأسرة

(١) ديوانه ٣:٢٣

المهاشمية . من ذلك ما قام به (مار شمعون) الآشوري حين أعلن الثورة « ثم يورد قصيدته التي يقول فيها :

يدون للتسليم في (لندن) يدا ويخفون للتسليح في (نينوى) يدا
لأمر يلاقيك الفرنجي باسمها فزد حذراً ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الود وهو سقيمه كما تكسب الحمى الحدود توددا
وهز (لشاما نصر) سيفهاشم وكال (بر شمعون) كيلا ملبدا

وقد أشار عدد من شعراء العرب الى محاولة بقايا الآشوريين تغيير وجه العراق العربي وإقامة دولة آشورية بمساعدة المستعمر . وبما قاله عمر أبو ريشة في صدد تأييد غازي (١) :

ليس يطوى التاريخ صفحة مجد أنت معارثها بأسى مداد
يوم هزت آشور في وجهك الطلق - رماحاً رعافة الأحقاد

أما خير الدين الزركلي وهو في طبيعة الشعراء الذين عرفوا بنضج شعورهم القومي وأصالته فقد ضاق ذرعاً بالسياسة الجائرة التي كان يتبعها المستعمر في بلاد العرب من تقسيم وتجزئة ، ورأى في مثل هذه الدعوات الإقليمية ضغناً على إبالة فهو يتحدث عن حالة قومه والأسى يلاء قلبه (٢) :

تجهت النكوب لهم فباتوا أسارى في العراق وفي الشا
وقسمت البلاد بهم فراحوا ووحدهم تصير الى انجذام
أمنتسب لآشور وماض بنسبته الى إرم بن سام
ومنقطع تردد بين بين فحار فحاد عن طرق الزحام

(١) ديوانه ١٢٥

(٢) ديوانه ٤٩

وكانوا أمة سادت وشادت موحدة النبات والنامي
فت الجبل وانقسموا شعوباً فلا قربي ولا صلة اعتزام

على أن هذه الدعوة الآشورية التي اصطبغت بصبغة سياسية أكثر منها اجتماعية لم تؤثر كثيراً في مجرى التيارات الفكرية والأدبية في العراق ، إذ لم يشعر العراقيون بأية رابطة أو أسرة تشدهم إلى أجداد بابلين أو آشوريين لا يكادون يعرفون عنهم إلا اليسير مما تناثر في الكتب أو التناحف ، كما أن طبيعة العراق ومناخها وقلة الصخور فيها لم تساعد آثار تلك الأمم الغابرة على أن تعمر أحقاباً مديدة خلافاً لما كان عليه الحال في مصر . ومن جهة أخرى فإن ضعف الصحافة العراقية وقلة انتشارها آنذاك ، لم يتح لهذه الآراء أن تتخذ الصحف منبراً لها ، بالإضافة إلى أن قوة العقيدة الدينية لدى الشيعة وسائر المسلمين في العراق كانت درعا واقية لمثل هذه التيارات التي ترتبط بماض عربي بالوثنية .

ومن هنا ندرك ضآلة تسرب الآراء الإقليمية إلى أدب العراق ، إذ ما كان لأجداد بابل أو نينوى في نفوس الشعب مكانة بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، كما لم تستطع عظمة بختنصر ونبوخذ نصر وسميراميس أن تضارع عظمة المأمون والرشيد والجاحظ الذين ما زال ذكرهم يرن في أرجاء العراق وسائر العالم العربي .

والواقع أننا لا نكاد نجد في دواوين شعراء العراق أي صدى لدعوة إقليمية ضيقة ، بل إن الشعر في العراق لم يفتح صدره حتى للأخيرة بأجداد الماضي الغابر كما كان الشأن عليه في مصر ولبنان . فقد كان الزهاوي والرصافي والكاطمي والجواهري وبحر الملوم والمهنداوي والنبيني واليمقوبي وسائر الشعراء في العراق أبعد ما يكونون عن التجاوب مع تلك النزعات القومية الضيقة ، حتى إن ما نقله

الشعراء في موضوع البابليين والآشوريين على قلته لا يعدو نطاق التفاخر والاعتداد بالحضارات العريقة التي عرقها أرض الرافدين . من ذلك ما قاله علي الشرقي مناجياً مدينة بابل ومشيداً بحضارتها وعظمتها (١) :

بابل يا بلد السحر سلام	يا سرير المجد والمجد غلام
السرائيا لك (والبرج) لواء	والصفايا لك والبرج رغام
ولد الفن على عتبتها	حوله الطفلات عم ونظام
تصف الهيكل والأرض دمي	هيئة الهيكل والأرض ركام
هذه البنة في معجزها	(لخموراني) حلال وحرام
قد شجاني أسد في بابل	رابض ليس له عنق وهام
ضاع - لما ضيعت آثارنا -	مجدنا التالي وأجداد عظام
بابل ما أنا إلا حالم	بك يصيه انطباع وارتسام
نشأ الملك بواديك له	من جلال المثل العليا وسام
والفرات الرهو في أريافه	المعزات يراع وحسام
خاضه الاسكندر المنغور في	عزمه فاعتاقه الموت الزؤام
ورأي (كورش) فيه أمة	للعلا فيه عرام وغرام
وثوى (مردوخ) في فرضته	حانقاً يملأ جنبه احتدام
و (نبوخذ نصر) في شاطئه	زاحف يتبعه جيش لهام
ين (نيور) و (ركا) جيشه	وله في (أورشليم) قسام
والفرايون إذا حفرتهم	العلامات دروع وسهام

فالقصيدية على ندرة أمثالها لدى شعراء العراق من حيث اهتمامها بهذا الموضوع ، لا تمتاز بمقومات فنية تذكر عدا ضعف نسجها ، والشاعر

(١) عواطف وعواصف ١٣٢

يسرد فيها بعض آثار بابل ومعالمها ثم يعتر بتلك الانتصارات الغابرة التي حققها البابليون ضد قدماء الفرس والمصريين ، وهي من حيث اتجاهها لا تختلف عما انفلتت عليه مثيلاتها من مباحاة بالماضي الغابر . مع ضآلة ما يجهد الشاعر في وصفه من الآثار الماثلة التي لا تعدو لبنة قديمة وأسدأ أطاح الدهر برأسه .

أما ما عدا ذلك من الشعر الذي يجري على هذا النمط من الافتخار بالأبجد السابقة على العرب والاسلام فلا نكاد نجد نثاراً له تذكر لدى شعراء العراق انفسهم . وثمة قصيدة نظمها شاعر مهجري هو ابو الفضل الوليد اسمها (المراقية) وقال فيها (١) :

و (بابل) بعدها ام الفرات	لدجلة (نينوى) ام حصان
وقد جاءت بكل المعجزات	(فبابل) اي ملكة حوتها
وجنات تلوح معلقات	بأسوار تنوء بها الرواسي
بناه (بختنصر) بالظلمات	واملاك لهم ملك فخيم
شجي بالعظام والعظمت	واما (نينوى) فلها حديث
أشد من الموك على السداة	مليكتها (سميرة) ثم كانت

ومع أن الشاعر لا يزيد في أبياته هذه على ان يقف وقفة الفنان تجاه روائع الماضي كحدائق بابل المعلقة او دهاء سميراميس وجمالها ، فانه يؤكسد في القصيدة نفسها رسوخ العروبة في العراق برغم تعاقب الأمم على أرضه إذ يقول :

فكم دول توات ثم دالت وكم امم توارت بائدات

(١) نفعات الصور ٦٢

سوى عربية ثبتت لفضل وليس لغيرها فضل الثبات

وثمة آثار ادبية ظهرت في العراق واستوحت تاريخ الآشوريين والبابليين كأوبريت « بابلون » الشعرية (١) وهي شبيهة بقدموس ، وبنت يفتاح لسعد عقل وكسرحية شعرية أخرى اسمها (شمسو) واخيرة عنوانها « الأموار » (٢) . كما أكثر الأدباء في قصائدهم الغنائية واوبراتهم واقاصيصهم من معالجة موضوع سميراميس الأميرة الآشورية . إلا ان هذه الآثار ومثيلاتها المستوحاة من عهود الفراعنة والفينيقيين والتي ارتدت في الغالب الثوب الشعري والقصصي لم تكن تعدو الجو الأسطوري والخيالي فظلت بعيدة عن النطاق الواقعي للأمم . نشيئة الأثر في حياتها القومية .

ونحن نقع على آثار ادبية متعددة تحمل اسم (بابل) من ذلك مثلاً مجموعة مختارة من الشعر العراقي القديم والحديث اخرجها محمد علي اليعقوبي باسم « البابليات » . وثمة مجموعة شعرية أخرى تحمل اسم (البابليات » ايضاً لمحمد مهدي البصير وهي تحوي في جملتها شيئاً من شعره الي جانب بعض محفوظه . كما اطلق علي الخاقاني على كتابه الكبير اسم « البابليات » او شعراء الحلة ، وقد آثر جعفر الحلي ان يطلق على ديوانه الشعري عنوان « سحر بابل وسجع البلايل » الخ ... كل هذه الاسماء التي تشير الي بابل لا تعدو في الواقع الغلاف الذي ارتسمت حروفها عليه فوق ما ذكرنا من كتب ومجموعات شعرية ودواوين ، وليس وراءها ما يمت بأي صلة او اشارة الي البابليين ابعد من ذلك . ولا ريب ان صفة القدم واصالة الحضارة في العراق جعلت عدداً من الادباء يجدون في كلمة (بابل) رمزاً عريقاً لارض الرافدين .

(١) اسفاه الحيدري ، وبابلون أميرة بابلية تقع في حب أخيها

(٢) المسرحيتان لخالد الشواف

أما سورية فقد نجت تقريباً من وجود نزعات اقليمية مماثلة برغم محاولات المحتلين ، وقد انعكس هذا الصفاء في الشعر فكان ناصعاً في عروبه . ويعتبر المهدي الفيصلي في دمشق على قصره نموذجاً للحكم العربي السموح « فرئيس الدولة كان حجازياً ، ومدير العدل لبنانياً ، ومدير المالية لبنانياً متمصراً ، ومدير المعارف سورياً من حلب ، ومدير الشرطة فلسطينياً من نابلس ورئيس أركان الجيش عراقياً وهكذا... » (١) وقد اشار ساطع المصري (٢) الى ان سورية اعرق الاقطار العربية في الشعور بالقومية العربية واكثرها تجرداً عن النزعات الاقليمية ، فقد كانت تيار العروبة من القوة والصفاء بحيث لم يسمح لاية نعة منحرفة ان تطل برأسها وذلك برغم أن سورية كانت مسرحاً لحضارات الآراميين والحيثيين العربية ...



وإذا ما رصدنا مسار هذه النعرات الاقليمية المنحرفة من خلال الشعر الحديث ، نجد انها كانت ترتكز بالاجمال الى اهداف سياسية وقومية متطرفة بدأت أول الامر باتجاه وطني يرمي الى خلق كيانات جديدة مستقلة — شأن الفتى يشب عن الطوق ويمنح للعزلة والتميز عن جامعة الاسرة وتوكيد ذاته وشخصيته . وقد تجل ذلك في خشية لطفي السيد وسواه من المفكرين ان تذوب الشخصية المصرية في الدولة العثمانية ، وتخوف الكثيرين من مسيحي لبنان ان يطفى عليهم المسلمون في الشرق العربي وحرص بقايا الآشوريين في

(١) الامير مصطفى الشهابي : محاضرات في القومية العربية ١٢٢

(٢) آراء وأحداث في القومية العربية ١١

العراق على التميز عن العرب في دولة مستقلة خوفاً على كياناتهم من الانقراض .
إلا ان جميع هذه المخاوف تبددت مع نمو الوعي القومي السليم إثر تساؤل
النفوذ الاستعماري في بلاد العرب . وقد تنبه انصار هذه الدعوات بصورة
عامة الى اخطار القوميات الضيقة لانها تدعو الى الانفصال والتجزئة وانها قد
تجاسد وتتناحر مما يضعف كياناتها امام قوى الشر العاتية .

إن علاقة سكان مصر والشام والعراق بالفرعنة والفينيقيين والآشوريين
اصبحت واهية الى حد لم تعد تصلح معه ان تكن أساساً لبناء قومي وبخاصة
بعد ان تقطعت اسباب اللغة والعقيدة والمشاعر .

ولا ريب ان النجاح لم يحالف تلك الدعوات لانها قامت على العزلة
والانفصال ولانها لم تستند الى اساس واقعي من حياة الجماهير التي لم
تلتفت كثيراً الى ماضيها الموغل في القدم ، وبالتالي لم يكن بينها من يعتز بأسر حدود
ويختصر ، او بحيرام وملخار ، أو باختاتون وخوفو .

ومن حسن الحظ ان الشعر العربي الحديث قد ربا بنفسه ان يبدو بوقاً
لهذه الدعوات المذهبية الطارئة ، وحاكياً لتلك النعرات الانفصالية الضيقة
وهو في الواقع لم يكن يبدو حدود التفاخر بالابجاد السالفة التي
آتت الى العرب وازيفت حلقتها الى سلسلة تراثهم العريق . ولا خير
على الفن ان يتسم بخصائص مميزة في كل قطر او بيئة او مدينة بل ان
التنوع من مقومات الفن الرفيع ومن مستلزمات الابداع والاصالة . ومن
الضروري ان نجد طابعاً إقليمياً طريفاً لدى كل من شعراء لبنان او
العراق او المغرب او سواها من اقطار العرب على ان يكون هذا التنوع
وهذه الالوان ضمن إطار وحدة الطابع العربي الشامل الذي يسطر جناحيه
على فنوننا الادبية كلها .

الفصل الرابع

العاطفة الانسانية

١

من الظواهر البارزة في هذا العصر الحديث مناداة عدد من رجال الفكر والفن بالانسانية . ويبدو أن اهتمام العالم بما انتجه المعري وطاغور وتولستوي وبرتراند رسل وسوامن ممن كانت آثارهم مفعمة بالطابع الانساني الاصيل ، حث الكثيرين من الكتاب والشعراء على مجاراتهم في هذا المضمار أملا في إدراك شيء من تلك الشهرة العريضة .

وقد استهوت هذه النزعة الانسانية عدداً من الشعراء العرب المعاصرين فراحوا يعلنون أنهم يريدون أن يكونوا لكل جيل ولكل جنس . أما الشعر الوطني والقومي فقد ترفعوا عنه لانه في نظرهم شعر محدود بالزمان والمكان مشدود الى الأحداث العارضة والأرض الضيقة . والشاعر الانساني الرفيع عندهم من اعرض عن احداث عصره ، وتحلل من نطاق بيئته ، وتخطى حدود وطنه ، وتجاهل ما تمانيه امته . وقد خيل الى هؤلاء أن الأمر في غاية اليسر وأنه ليس على الواحد منهم إلا أن يختار في أن يكون شاعراً قومياً محدوداً أو شاعراً إنسانياً خالداً .

هذه الفكرة التي قد تخطر ببال الفنان ، وتداعب آماله ، تغاير طبيعة الفن الصحيح الذي لا يتقبل هذا التخطيط الصارم الذي يسبق الابداع الفني . وكل فنان يحاول استعجال صفة الشهرة والخلود دون أن تكون طبيعته ومواهبه مهيأة لذلك ، إنما يلاحق أطيايف شهرة زائفة ، وخلود موهوم ، شأن من يسعى وراء سراب براق .

حقاً إنهم لمساكين أولئك الذين بأنفسهم أن تتذوق من شعرهم رائحة وطنهم .

لقد كان أدبنا العربي القديم غنياً بالعناصر الانسانية ويكفي أن نضرب المثل بأبي العلاء المعري الذي كان شعره مشبعاً بتلك الروح برغم معالجته قضايا مجتمعه في الصميم .

ولعل هذه الايات لأبي الطيب المتنبى من خير ما قاله شاعر في تصوير العاطفة الانسانية على أنها زعة الى السلام وليست دعوة الى الاستسلام :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن تتعادي فيه وأن تغفاني
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

إنها إنسانية إيجابية بحق ، تستنكر التطاحن والتناحر والحروب ، ولكنها تأبى أن يكون الاستسلام والاذعان ثمناً لسلام زائف ، وإلا فلنوت أجدر بالمرء من عيش الذل والهوان .

والذي يهمنا هنا أن نستشف المشاعر الانسانية التي عانقت شعرنا القومي الحديث ، وكانت رافداً حياً له ، وأن نتلمس في بعض القصائد الانسانية شيئاً من عناصر الوطنية والقومية . أي إننا نحاول أن ندرس الجانب الانساني في الاتجاه القومي ، كما حاولنا من قبل دراسة الجانب الديني والتزعات الأخرى التي عايشت شعرنا القومي الحديث وكانت روافده .

ولكن ما حقيقة تلك الانسانية وكنها بعد ان كثر الحديث حولها ،
وتطلع الكثيرون نحوها ؟ . إنها زعة اصيلة في الانسان ونظرة شاملة نحو البشر
تلمح الى السموم بالنفس نحو المثل العليا وتطهيرها من شوائب الأثنية والنفعية ،
وتزيتها عن التعصب والتحزب . وهي عاطفة شاملة تضم البشر وتعتبرهم إخوة
وتشدهم الى أهداف سامية مشتركة ، وكأنهم أسرة كبرى تذوب بينها الفروق
العارضة والصفات المميزة ، ولا يقام معها كبير اعتبار لعرق أو لجنس أو لدين ،
ولا مفاضلة بين أسود وأبيض ، أو شرقي وغربي ، أو مسلم ومسيحي ، أو
عربي وهندي .

لقد صدر خير الدين الزركلي الشاعر القومي الكبير عن نفحة إنسانية
أصيلة بقوله في إحدى قصائده الوطنية (١) :

يكفر فينا معشر معشر أم	على الحق ، والانسان قد يتبصر
دع الناس لا تبغ الذين تهودوا	بشر ، ولا تبغ الذين تنصروا
عجبت لأمر الناس أبناء واحد	يفرقهم دين وجنس وعنصر

وكان هذه النفحة قبس من روح المعري وفنه الانساني الرفيع . وقد
سبق أن رأينا اتساع العاطفة الشرقية الى رحاب الانسانية في قصيدة لأديب التقي ،
نظلمها إثر زياره طاغور الشاعر الانساني الي دمشق وقال فيها (٢) :

أحرار أهل الغرب أموا بلادنا	ترونا كراماً لانسر لكم بغضا
تعالوا إلينا لا لفتح وغارة	لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضا
ولكن اترادوا حقائق شرقنا	وتستمعوا للقلب عن كذب نبضا

(١) ديوانه ٨٥

(٢) ديوانه ١٠١

ومن ذلك ما قاله عمر ابو ريشة في غمرة الأحداث التي كانت تحيق
بالعالم العربي (١) :

ليت شعري متى ينفض هذا الشرق من خادع الطيوف جفونه
ومتى ينشر الوئام جناحيه — مظلاً جباله وحزونه
ومتى تتمد العواصف في اليم ، وتجدو ربح السلام سفينه

فالشاعر هنا يتوق الى رؤية هذا الشرق قوياً سعيداً يسوده الوئام وتمحي
منه آثار الحزن ، وتتمد فيه عواصف الأحداث ، وحينئذ ينعم بالسلام المنشود . ولا
ريب ان شعراً كهذا كلام عذب تهفو إليه النفس وتطرب ، بل الأعدب منه لو ان
المتناحرين على المغنم اقتنعوا بدعوة الزركلي ، واستجاب المستعمرون لنداء التقي ،
وحققت الاقدار امانى ابي ريشة . ولكن انى لمثل هذا الشعر الوداع المترفق ان
يكون مجدياً في تحقيق رسالته تجاه وطن استحكت فيه الطائفية والتعصب ،
واستشرت علله وادواؤه ، وتكالت عليه قوى الشر والعدوان .

لقد خاض العرب معركة المصير ضد اعداء كثر في الداخل والخارج .
وكان عليهم ان يقاوموا الاستبداد ، ويناضلوا الاستعمار ، وكان على الشعراء وهم
رواد الحرية والوعي ان يقرعوا نواقيس الخطر ويشحذوا العزائم ويوقظوا النيام
ويبشروا بالخلاص . وكيف يستمع الطفلة في زحمة المعارك وغمرة الدماء وسليل
الحديد ، الى اصوات كهديل الحمام ، والحان كأنغام الناي ، ونداءات في
نعومة الحرير .

والواقع ان الشعراء ساروا في هذا الطريق السهل الممهد إذ تغنوا بتعاليم
الثورة الفرنسية واشادوا بجمادىء ولسون ، ووثقوا بوعود الملقاء ، وتفاءلوا

(١) ديوانه الاول ٢٠٦ - ٢١٦

بالخير ، وتوقعوا الانصاف ، حتى عيب عليهم إغراقهم في ذلك الى حد السذاجة ..
ولكنهم لدعوا بالبحر من خلال الرماد ، ولسموا بالافني من داخل القش ؛ فقد
كشفت لهم دولة الحرية والعدالة والمساواة عن انياب عصل في امرتها السم النافع ،
وبدت حليفة الامس وصديقة العرب ذئباً ضارياً في ثوب حمل وديع ، واكتوى
العرب بنار الغدر فأورثهم ذلك شعوراً حاداً بمرارة الخيبة عبر عنها الشعراء ، ولم
يجدوا مناصاً من إعلان النضال من جديد مع شعوبهم الثائرة .

ومن هنا كان لزاماً على النزعة الانسانية البحتة في غمرة هذا الصراع
الرهيب ان تحفض الصوت ، لتفسح المجال امام الشعر القومي المتحفز ليؤدي
رسالته الملحة في هذه المرحلة العصيبة من حياة العرب ، ولذلك قل ان نجد شعراً
يعزف على وتر الانسانية في خلال نضال العرب المرير ضد قوى الشر . إذ ان ذلك
الحال اقتضى من العرب ان يجندوا كل طاقاتهم بما في ذلك الادب شعره ونثره في
سبيل التحرر . ومن الطبيعي ان تقابل بالريب والحذر كل دعوة إنسانية يصدر
عنها شاعر ويتجاهل فيها واقع شعبه وظروف وطنه ، إذ ان التبشير بالسلام في
أوج احتدام المعركة مع العدو دعوة صريحة الى الاستسلام ، والمناداة بالصفح
والتسامح تجاه عدو غادر لا يرحم دعوة صريحة الى الذل والعبودية ، لان وضع
الندى في موضع السيف مضر ، على حد تعبير الشاعر العربي .

٢

وثمة ظاهرة غريبة عرفها الشعر الحديث بتأثير ظروف اجتماعية معينة ،
إذ ان العاطفة الانسانية الكامنة في نفس الشاعر العربي كانت تستيقظ في الساعات
التي يخيم فيها اليأس على العالم ويهدد البشر شبح الحروب ، لتتضفي على الشاعر
القومية نفحات فياضة من الانسانية الرحبية . ولذلك تلفح كثير من الشعر

القومي بثوب الانسانية الفمضاض . في إبان الحرب الكبرى الاولى يصدر الزهاوي
عن قوله في رباعياته (١) :

إن المدافع ترغو والحرب حرب ضروس
طارت هنالك ايد وارجل ورءوس
قد شبت الحرب ناراً عمت تزوع الاناما
يا نار كوفي علينا برداً وكوفي سلاما

ومن ذلك ما قاله إيليا أبو ماضي في تلك الحرب ايضاً (٢) :

بئس الوغى يجني الجنود حتوفهم في ساحها والفخر للتيجان
ما اقبح الانسان يقتل جاره ويقول هذى سنة العمران
لا حق إلا ما تؤيده الطي ما دام حب الظلم في الانسان
ما بالكم لا تفضبون لمجدكم غضبات ملطوم الجبين مهان

وكأن الشاعر إذ يستنكر ان يقتل المرء اخاه لا يجحد في الوقت نفسه
مفرأ من اتباع العنف مع اهله لاستخلاص الحقوق المقتصبة ، لأن ذلك في نظر
الشاعر شر لا بد منه . وهي ابيات شديدة الشبه بما اوردها للمتنبي في
بداية هذا الفصل .

وإبو ماضي يندد في قصيدة اخرى بتلك الحرب الطاحنة نفسها بقوله (٣) :

اعجب ما في بني التراب قتالمهم فوقه عليه
قد صيروا الارض كالكتاب وانحسروا ما بين دفتيه

(١) ص ١٣

(٢) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٨٩

(٣) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١١٨

فراقبوا ذمة الاخاء ولتنس احقادها الخصوم
لا تتبعوا سنة البقاء فانها سنة ظلم

ففي بيته الاخير استنكار لتطبيق مبدأ دارون الذي يقضي بأن البقاء
للاقوى ، على العلاقات بين البشر لان ذلك يعني فناء شعبه في جملة الشعوب المستضعفة
وهو الذي يرى (١) ؟

إن الانام على اختلاف لغاتهم وصفاتهم لو يذكرون قبيل

ومن ام ما نظمه ابو ماضي في غمرة تلك الحرب وتمثل فيه هذا المزج
الموفق بين الاتجاهين الانساني والقومي اللذين تماثقا في نفسه موشحه « متى
يذكر الوطن النوم » الذي يقول فيه (٢) :

ذكرت الحروب وويلاتها وما صنع السيف والمدفع
وكيف تجور على ذاتها شعوب لها الرتبة الارفع
وتخضب بالدم راياتها وكانت تدم الذي تصنع

كما يقتل الطير في الجنة ويقتنص الظبي في السبب
كذلك يجني على امتي بلا سبب وبلا موجب
فحتام تؤخذ بالقوة ويقتنص منها ولم تذب

ارى الليث يدفع عن غيضته بأنيابه وبأظفاره
ويجتمع النمل في قربته إذا خشي الغدر من جاره
ويخشى الهزار على وكنته فيدفع عنها بمنقاره

(١) المصدر السابق ٢٣٨

(٢) الجداول ٢٧

متى يذكر الوطن النوم كما تذكر العليز أوكارها

في هذا الموشح تنديد بقوى الشر وويلات الحروب . كما فيه انتقال بارع من ذلك الجو العام الى موضوع بلده لبنان الذي كان يلاقي الأمرين مع أخوته العرب (١) . ولعل أجمل ما في الموشح مقطعه الأخير بتشبيهاه الرائعة التي قصد الشاعر من ورائها الى حث أمته على النضال .

وثمة قصيدة أخرى أوحى بها الى محبوب الخوري الشرتوني مأساة لبنان أيضاً في غمرة تلك الحرب نفسها عندما شدد الأتراك الوطأة على العرب وشنقوا عدداً كبيراً من أحرارهم وهذه القصيدة التي نظم الشرتوني قوافيها في مهجره القصي تعزف ألحانها الشجية على ذلك الوتر الانساني السامي مستوحياً إياها من تلك الأحداث القومية الدامية فوق سفوح لبنان الخضر (٢) :

أرى الأرض وهج النار ملء جهاتها	طمان القنا فيها وصدم الفيالق
ملايين من أبنائها هبطوا الثرى	وما انفك يهوي لاحق إثر لاحق
فهل تجد الأنهار في الأرض مسجاً	وفي الأرض طوفان الدماء الدوافق
وهل تجد الأطيوار في الجو مسرحاً	وفي الجو أفواج النفوس الزواحق
عيال على أعشاشها معطمثة	تناولها صرف الزمان بطارق
يجرد من أحشائها مهجاتها	ويقذفها مذبوحة في الخنادق
فلا تقطعوا أغصانها وصخورها	فكم ظلمات من موجع متضايق
ولا تبسموا ثغراً لحرمة وردها	فحجرة ذاك الورد من دم عاشق

(١) ألهمت الجماعة في لبنان توفيق يوسف عواد قصة (الزغيف) ، وميخائيل نعيمة (مهرجان الموت) .
(٢) ديوانه ٦٣

هناك قبور والدين وحولها
 وثم قبور العاشقين وفوقها
 حنانك عرش الترك ملكاً ملقياً
 لئن تطلبوا أكبادنا وقلوبنا
 يجود اليتامى بالدموع الفوادق
 تسيل حشاشات الحسان العواتق
 على عربي القوم وطأة ساحق
 فلن تبلغوها عن طريق المشائق

لقد سرت في أوصال هذه القصيدة روح إنسانية عميقة أشبه شيء بروح
 المعري والحليم، وبخاصة في تصوير الموتى من ضحايا الحرب وكيف تفتقت
 وجوه الارض عن جثثهم نباتات وأغصاناً، واكتست أجساد الطير
 من لحومهم لحوماً، واستحالت حدود العاشقين من حرمتها القانية
 أزهاراً ووروداً.

ومن أمثلة اشتداد العاطفة الانسانية أثناء الحروب وفي أعقابها، وبسط
 جناحها الرحيبين على الشعر القومي قصيدة «أخي» (١) لخائيل نعيمة التي
 نظمها أيضاً عام ١٩١٧. وهي صورة نابضة بالحياة تمثل بصدق، نفسية هذا
 الشاعر المرهف الحس الذي اكتوى بنيران الحرب الكبرى، وعانى تجربتها
 القاسية بعد أن كتب عليه أن يخوض غمراتها بجنداً في الجيش الامريكى، مما زاد
 في صبغ عدد من قصصه وقصائده بصبغة إنسانية محبة:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله
 وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
 فلا تهزج لمن سادوا، ولا تشمت بمن دانا
 بل اركع صامتاً مثلى بقلب خاشع دامي
 لبنكي حظ موتانا

(١) همس الجفون: ١٠

أخي إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه
وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلانته
فلا تطلب إذا ما عدت للأوطان خلانا
لأن الجوع لم يترك لنا صجبا فنانجهم
سوى أشباح موتانا

أخي من نحن لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا إذا قمنا، ردانا الخزي والمار
لقد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتانا
فبات الرفش واتبعني ، لنحفر خندقاً آخر
نوارى فيه أحياننا

« نفس مرسل وموسيقا متصلة . فالقطوعة وحدة تمهد لخاتمها ، وفي هذا
ما يشبع النفس .. أخي ! فأنا إذن شريكه في الانسانية وأنا قريب منه وهو
قريب مني . الشهادة شعور أناني خسيس وما أحقرها شماتة تلك التي
نستشعرها لمن دان ، ما أحقر أن نشمت من جثة هامدة .. » (١) ، ما جدوى
الهرج والتهليل للظافر العاتي وأي نصر ذلك يعتلي إثره المرء جسد أخيه الذيح .
« ما أشبه المنصور بالمكسور » (٢)

« وشبه صوت النعي إذا قبس بصوت البشير في كل ناد »

أما الالم الانساني المشترك الذي لا يعرف وطناً ولا قومية ولا حدوداً فلقد
لف بشملته كل إنسان وكل ذي قلب وإحساس .

(١) محمد مندور : في الميزان الجديد ٥١

(٢) شطر من بيت للشاعر القروي في قصيدة نظمها إثر احتلال جيش الخلفاء بقيادة النبي
القدس أواخر الحرب العالمية الأولى .

وبلغ التعانق الجميل بين الشعوب الانساني والقومي في قصيدة الشاعر مداه حين يحدثنا عن ذلك الجندي العربي الذي عاد من ساحة القتال الى أهله منهوكاً فلم يجد من يرتقي في أحضانه لان الجوع الرهيب قد حصد قومه حصداً واقتلع أنفاسهم اقتلاعاً .

فالشاعر ناغم أشد النغمة على تلك الحرب الضروس وما جرته من ويلات على قومه فلم يبق ولم تذر ، وفي نفسه أيضاً ثورة مضطربة على الشرق العربي الخانع المستكين ، الشرق الذي لفه العار بشملته وهد الذل أركانه ، حتى لقد سخت الدنيا بأهله وساكنيه أولئك الاحياء الخائمين .. وما أجدرهم بأن يواروا في التراب وينبوا في الرموس (١) .

هو الجوع ، والعري ، والفقر ونخزي والذل والعار ، وهو الفلاح والكوخ والارض ، والمدفع ، والاموات والاحياء .. كلها معان متلاحقة متآخية أوحث بتلك الظلال الانسانية التي تلفت بها مأساة شعب لبنان واتحدت معها في صوفية عميقة .

ثم ارتدى الشعر القومي المعاصر حلة جديدة من العاطفة الانسانية حين لاح شبح الحرب مرة أخرى ولم يكد العالم ينسى ما عاناه من أهوال في الحرب الاولى . وقد عبر عدد من الشعراء في خلال تلك الحقبة الشاملة عن أنبل المواطنين وأحلى الاماني ، من ذلك ما يقوله محمد عبد الغني حسن (٢) :

(١) نكاد نلس هذه الروح الوطنية المزمجرة في كثير من نماذج الادب المغربي وهي ليست كائنة بالشعب ولكنها تغور غضباً على ضعفه فتذقه بالحلم على يقيق ، يقول جبران في العواصف ، المؤلفات الكاملة ٣ : ٤ ؛ (أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة) .

(٢) من نبيع الحياة ١٠٧

ملاؤوا البلاد عداوة وخصاما ما ضر لو ملاؤوا البلاد سلاما
الله لا يرضيه أن شعوبه يتبادلون على العداة سهاما

وحين أهل عام هجري جديد خلال تلك الحرب الاخيرة استقبله على
محمود طه بهذه العاطفة وقال (١) :

غن للهجرة عالماً بعد عام وادع للحق وبشر بالسلام
كن بشير الحب والنور الى مهج كلمي وأكباد دوامي

ثم يشير الى أيادي النبي محمد على البشرية بقوله :

زلزل العالم من أقطاره بقوى الروح على القوم الطغام
وبنى أول دنيا حرة برئت من كل ظلم واثام
تسع الناس على الوانهم لم تفرق بين آرى وسام
حاطم الاصنام هل منك يد تذر الظلم صريماً من حطام

وفي قصيدة « الصليب الاحمر » لعمر ابي ريشة تبرز ادواء البشر وطبائعهم
في السعي وراء الاحتراب والتفاني حيث يقول (٢) :

في كل متكأ وكل وسادة جرح يسيل ودمعة تتحدر
عيسى طلعت على الوجود وليس في آفاقه إلا الشقاء الاكدر
هزوا بوجهك فاتكات حراهم واستكبروا والله منهم اكبر

(١) زهر وخر

(٢) ديوانه ٢٤١

فالقصيدية برغم أنها تصور مأساة البشر وجراحهم في تلك الحرب
الطاحنة ، تتضمن تنديداً بقوى الشر العاتية التي تقض مضاجع الشعوب الآمنة
وفي جملتها أمة الشاعر . ونحن نجد هذه الظاهرة أشد بروزاً لدى أبي ريشة نفسه
في قصيدة أخرى إذ يقول (١) :

لم يزل شرّب النجيع سكارى يتبارون حوله عدوانا
ما ألانت قلوبهم أدمع الأيتام - أو هزّم أنين الخزانى
فضحايابهم تمور على الرمل - الدمى وتعتلي صلبانا
كلهم في وليمة البنى يخشى أن يرى جيف غيره ملأنا
قل لتلك الحمام البيض طيري فالخطايا تدفقت طوفانا

وقد انحسرت أمواج هذه الحرب عن نزعة إنسانية بارزة ظهرت جلية
في نتاج عدد من شعراء الجيل الجديد تحول حدود البحث دون تناولهم ..

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يرتفعون أحياناً بأحداث وطنهم الى مستوى
إنساني رفيع ويمزفون على هذا الوتر حين كانت أهوال الحروب والمجازر البشرية
تطفئ على أحداث قومهم وبلادهم ، وكأنهم في ذلك كانوا يتلفتون الى
العالم يواسونه في محنته التي لم تكن في جوهرها إلا صورة مكبرة لمحنة
أمتهم ووطنهم .

أما في أوقات السلم ، فلم يكن العرب ينعمون بالسلام إلا غراراً لأن
المستعمر كان يجثم فوق صدورهم والنضال من أجل إزاحته عن الوطن كان
مستمراً بلا هوادة ، ومع ذلك فقد يعثر الباحث على بعض الانفجارات الانسانية من
خلال ثورة البراكين وغبار المعارك ، على نحو ما قاله الكاظمي إبان الثورة
السورية (٢) :

(١) ديوانه ٧٣

(٢) ديوان الثورة ٣٧

الا قوتك يا إنسان - من هذا تقائله
 أليس أخاك من تردي وأختك من تنازله
 ألا عطف تماشده ألا عدل تسائله
 وفيم الانتداب إذا غلا بالفتك غائله
 يموت الطفل من جوع ويحيا فيه قاتله

وقد صدر أحمد شوقي عن شعور إنساني أصيل في نفسه حين انقض
 الطالبان على برقة الآمنة كالوحوش الضارية ثم شنقوا زعيمها عمر المختار وهو شيخ
 هدت جسمه السنون فقال من قصيدته الرائعة (١) :

يا ويحهم نصبوا مناراً من دم يوحى الى جيل الغد البغضاء
 ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مودة وإخاء
 جرح يصيح على المدى وضحية تلهس الحربة الحمرأء

وثمة قصيدتان لبديوي الجبل وخلييل مردم تحملان إسماً واحداً هو
 (شهيد إرنندا) تعتبران نموذجاً لتعانيق المشاعر القومية والانسانية ، فقد تطلع
 الشاعران الى بطولة شعب صغير يربض فوق جزيرته ويقاوم الاستعمار بلا
 هواة ، وهزها نضاله ، فتجاوبا معه بعد أن ألفت الجرح بينهما وبينه . ومما قاله
 مردم في بطولة ذلك الشاب الإيرلندي (٢) :

بنفسى أنت من هاد امام أنار لمدايح الأقوام فجراً
 ليهنك أن أهل الأرض إلب على أن يدركوا لذويك ثأراً
 كأنك من ذوي قرباي لما رثيتك باكياً نظماً ونثراً
 ولكني بكل فتى كريم أخى ثقة عزيز النفس مغرأ

(١) الشوقيات ٣ : ١٧

(٢) جريدة البرق عدد ١١٢٧ ، وانظر قصيدة بديوي الجبل في ديوانه ١٨٥

فقد وجد الشاعر في كفاح هذا الفتى وشعبه صورة حية لكفاح العرب وأخاً لهم في النضال المشترك ، وكانت أبياته تعبيراً عن التجاوب الانساني العميق بين أسرة الشعوب التي تؤلف بينهم رابطة الانسانية الشاملة .. وثمة قصائد أخرى من هذا القبيل عبر فيها أصحابها عن مشاركتهم بعض شعوب العالم في محنتها نشير من بينها الى قصيدة « الفتاة الحبشية » لاسكندر الخوري الينجالي (١) التي تصور انقراض قوي الطليان الناشئة على الحبشة الآمنة عام ١٩٣٥ ، وهذا التجاوب الانساني مرده أيضاً الى ابتلاء العرب والاحباش معاً بالعدوان الاستعماري .

وهذه أبيات لنسيب عريضة شاطب فيها ولأبنة الامريكي الجديد في نيويورك وهي تمثل الجانب الايجابي من الاتجاه القومي ، وتعزف لحنها على وتر الاخاء البشري (٢) :

يا بنت مجد الغرب في النلواء اني ابن التآم
يا جارتى قلب ودود ليس يرعب في خصام
يا جارتى لسنا على طرفى نقيض في المرامي
مجدي ومجدك واحد ما بين أمجاد الكرام
هو أن يسود الحق في دنيا المودة والسلام
هو أن يعيش الناس إخواناً على شرع الوثام
وأنا على عهد العروبة لن أزال الى الخيام
إن كنت بين الناطحات السحب أو بين الخيام

ومن هذا القبيل ما نظمه الرصافي في قصيدته يوم (سنغافورة) في الحرب الاخيرة (٣) وما نظمه على محمود طه وسواه من الشعراء إشادة ببطولة ستالنجراد (٤) ثم ما كان أخيراً من تجاوب شعراء العرب على نطاق واسع

(٢) ديوانه ٢٧٤

(٤) زهر وخمر ٦٣

(١) المنفود ٩٥

(٣) ديوانه ٤٧٣

تعداهم الى شعراء العالم وأدبائه ، مع أبناء (هيروشيا) التي حل بها دمار وهلاك
لم يعهدما البشر من قبل .

وقد حرص الشعراء على أن يتجاوبوا من حين الى آخر مع مشاعر
الشعوب الاخرى دون أن تربطهم بهم رابطة دين أو قومية أو جوار وإنما كانت
ال عاطفة الانسانية وحدها مبعث تجاوبهم هذا ، فقد ايقنوا أن المأساة لا تقتصر على
أمتهم فحسب بل تشمل سائر الامم بعد أن غدت البشرية المعذبة ضحية الظلم
والمدوان .

٣

والملاحظ أن أكثر ما تتجلى العاطفة الانسانية في الادب العربي المعاصر
لدى المهجرين بالدرجة الاولى ، حتى إن ذلك غدا من سمات هذا الادب
شعر ونثره . ولشدها كان يؤذي مشاعرهم أن يعتدي الانسان على أخيه الانسان
ويؤذيه ، وكانوا في ذلك متأثرين بعوامل شتى في طبيعتها تعاليم المسيحية
السمحة التي تبشر بالاخاء وتحض على التسامح ، ومنها نفورهم من الطائفية
ومآسئها والاستبداد وقسوته ، ويضاف الى تلك الاسباب اتساع افقهم الاجتماعي
في مهجرهم وتفتحهم للحياة الخافلة بأنماط من الاجناس والمثل والنحل ،
وعيشهم في بيئات جديدة تغاير ما عرفوه في الوطن الأم . ومن هذه البؤرة انطلقوا
يستنكرون العنف ويستفزعون الحروب ويدعون للهدنة وينادون بالسلام
كأراحوا يهدمون كل ما قد يباعد بين المرء وأخيه فنددوا بالطائفية
والاقليمية والعنصرية .

واعلم ادباء (الرابطة القلمية) في المهجر الشمالي ونخص منهم جبران
خليل جبران ومخائيل نعيمة في طليعة من بشروا بالفكرة الانسانية ورفعوا

لواها عالياً في الادب الحديث . فمن آراء جبران السائرة (١) : « الارض كلها وطني والعائلة البشرية عائلتي » وبجاريه نعيمة فيقول (٢) « ما هو العلم العربي ؟ إنه نقطة في بحر الانسانية والانسانية نقطة في بحر الكون » . ومن المرجح أن صدور مثل هذه الآراء عن علمين كبيرين من ادباء المهجر وركنين بارزين في الرابطة القلمية كان له صدى بعيد لدى سائر أعضائها وفي طليعتهم إيليا أبو ماضي . فقد خفت الصوت القومي لدى هذا الشاعر فيما نزل من قصائد بعد دخوله في عضوية تلك الرابطة وإن لم يذهب في شعره الى المدى الذي ذهب اليه جبران ونعيمة في نثرها . وهذا الانعطاف واضح في نتاجه منذ ذلك الحين في ديوانيه البارزين الجداول ثم الخائل .

إن المقيم في أرض الوطن يلفحه أتون المعركة ويرى بألم عينه لهيبتها يلتهم إخوة له ثم يعقد قوافيه من جذوتها ليس كمن يرقب الامر من بعيد ويخلو الى نفسه المطمئنة ويستقي من معين عقله وفيض ثقافته وفلسفته ، « وما راء كمن ستما . . ومن هنالم يعيش بعض المهجرين حقائق قومهم من جميع وجوهها .

ونحن نجد في المقدمة الضافية التي وضعها الشاعر القروي لديوانه الكبير إشارة الى هذه الظاهرة التي نبه أمرها في المهجر وردا غير مباشر عليها ، إذ أن جماعة « نصجوه بالانصراف عن الشعر الوطني الى الشعر الانساني ليصير شاعراً عالمياً ، فأجابه : « هب أصاب من قال إني كان في وسعي أن أصير شاعراً عالمياً فاني لست بأسف أنني أحبيت بلادي أكثر من نفسي ، وحاولت أن أن اقتدي مجدها بمجدي وخالودها بخالودي (٣) . .

(١) انظر دعمة وابتسامه ١٨٨ ، وانظر أيضاً مجموعة المؤلفات ٢ : ٢٢٧

(٢) انظر عبد الكريم الاشر : النثر وبنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٧٣ ، والعبارة من حديث شقهي لنعيمة .

(٣) انظر مقدمة الديوان صفحة زل .

لقد كان عدد من ادياء المهجر وتقاده يربؤون بالادب شعره وثره ان يعالج قضايا الوطن ويعيرون القروي وفرحات والوليد بتجاههم القومي في قصائدهم . وقد انبرى القروي في شطر من مقدمة ديوانه ومقدمة اعاصيره للدفاع عن مذهبه وتفنيدهم النزعة الانسانية المزعومة فقال (١) : « وما الشاعر الوطني الحمي في امة مستعبدة إلا الشاعر الانساني قبل اي شاعر سواه ، لان هذه المبادئ التي يسبح لها ويصلي في محرابها ويجاهد في سبيلها ليست معبودة وطنه فحسب بل معبودة الاوطان جميعا . وامرري اية قيمة واي سرور ، واي فآل يجد التبجحون بانسانيتهم المتخذرة في عالم لا حرية ولا حق ولا عدالة فيه » وقال (٢) : « إن صراخ سورية وعويلها يكاد يقض مضاجع النائمين في المريخ ، ودخان غيظها يوشك ان يعطس القبة الزرقاء بقبة سوداء ، افتريدون منا ان نجتريح المعجزات فنسهممكم همس الازهار وسط هذا الضجيج ونصور لكم الوان الشفق وراء هذا القمام ؟ .. وهبوكم لا تؤمنون بنير الارض ووطناً وغير الانسانية عشيرة ، افتعتقدون ان الارض قد صارت جنة والناس فيها ملائكة ينعمون ... إن الذي يفضح لحق هضم في الصين اولى به ان يناضل لدفع حيف نزل ببلاده .. إن الحرية هي الحياة بمعناها الشريف ، وهي اول حقوق الانسان فهل من شروط حكم للانسانية ان تنكروا الحياة على اقرب ابناء الانسانية اليكم ، افأتم اكلف بالسلام من مسيح السلام ، اما غضب فانها بالوسط على الصيارفة وباعة الحمام يطردهم من الهيكل غيرة على بيت آية ؟ » .

والحق ان هذه المقاطع من أقوى ما دافع به شاعر عن اتجاهه القومي وفند فيه تلك السلبية المتشحة بثوب الانسانية البراق .

على ان الشعر القومي ظل بصورة عامة معصوماً من هذه النزعة

(١) انظر مقدمة الديوان ص : ٧١

(٢) مقدمة الاعاصير ٤٧ - ٤٩

الانسانية السلبية ، كما ظل من الناحية المقابلة بعيداً عن النزعات الاقليمية المتطرفة « ولم تستطع الدعوة الى الأخوة البشرية على ما فيها من نعمة عذبة جذابة ، ولا المذهب الاشتراكي الحر على ما فيه من قواعد معقولة ومقبولة ، أن يطمسا معالم القومية الجنسية أو يذها بالفوارق اللغوية والثقافية . فالعالم لا يزال مقسوماً الى إنجليز وألمان وفرنسيين وطيلىان وعرب وأسبان وما الى ذلك من أقوام وشعوب » (١) ومن جهة أخرى فإن « القوميات لم تستطع مطلقاً أن تغلق الابواب على نفسها وتسد المنافذ على تحفز الانسان نحو الأفق الانساني ، كما لم تستطع التيارات العالمية سواء كانت أدياناً أم كانت مذاهب فلسفية أن تقضي على القوميات أو تمحو هذا التقسيم الذي قسم الله البشر على أساسه إذ جعلهم شعوباً وقبائل » (٢) . إن تطور البشرية وازدهارها يتان على أساس نمو وحدتها التي هي القوميات نمواً ذاتياً من جهة ونمواً على أساس تعاقبها وتوسيع الصعيد المشترك فيما بينها من جهة أخرى .

ويبدو أن سبب بروز هذه النزعة السلبية في الأدب الحديث حتى كادت تعزل دعائها عن كفاح شعوبهم ، ظهور بعض القوميات العدوانية المتناحرة في أوربة واعتمادها على العنصرية المتطرفة والقوة الناشئة في سبيل التوسع والاستعمار كما كان الشأن في النازية والفاشية ، في حين أن القومية المتفتحة المتآخية مع سائر القوميات نواة للانسانية المنشودة ، والقومية العربية لا يمكن أن تكون عدوانية لأنها نفسها كانت ضحية العدوان .

والشعر القومي الحديث لم يحمل في ثناياه أية بذور للقومية العدوانية أو العنصرية المغالية حتى في فترات انجرافه مع المذاهب الاقليمية الضيقة ، فهو في قوميته لم يكن ليتعارض مع الانسانية ، بل كان عوناً لها ومرحلة

(١) من مقالة للدكتور عبدالرحمن شهنندر ، الهلال ، نوفمبر ١٩٣٦

(٢) انظر محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٧

طبيعية في سبيل بلوغها . وثمة آيات لمخائيل خليل الله ويردي تعبر عن هذا التعاقب الجميل بين العروبة وبين الانسانية يقول فيها (١) :

نحن قوم زيد عيشاً كريماً ولكل الورى نود النعيا
فاذا ضمت العروبة أبناً بلادي نلنا المرام العظيما
ومتى وحد الاخاء بني الدنيا - اتبعنا صراطه المستقيما

وهذه هي العروبة الحقّة وكل قومية متفتحة ، إنها نواة للانسانية الشاملة المنشودة ، ليست عادية ولا مستعدية ، وليست متعالية ولا متعصبة . وإن التعاطف مع آلام البشر ، والتجاوب مع أحداث العالم ، صفات أسيّلة في القومية المتفتحة لأنها غصن نضير من دوحة البشرية . وليس أجدد من الأدب بأن يحمل هذه الروح الانسانية الايجابية لأن الفنان إنسان قبل كل شيء ، ولهذا فاننا نكبر عاطفة « حافظ إبراهيم » تجاه أهالي مسينا حين نكبوا بالزلزال ، كما نكبر ثورة « برناردشو » على وحشية قومه في دنشواي (٢) وتنديد « رومان رولان » بفظائع الانكليز في حرب البوير (٣) لأن ضمير الانسان هو الذي تكلم في هؤلاء قبل أن يكون الواحد منهم عربياً أو انكليزياً أو فرنسياً .

إن ظروف الوطن العربي وابتلاءه بالاستعمار هي التي حدثت من انطلاق شعرائه في أجواء العاطفة الانسانية الرحية ، وفرضت عليهم أن يقدموا عليها الرسالة القومية . وإن السنين الطويلة التي عاشها العرب في نضال دائم جعلت شعراءهم ينهمكون في تصوير مآسي بلادهم وحفزهم أبناء قومهم قبل كل شيء آخر . ومع ذلك فقد كانت رسالتهم هذه تسير في مرامها الرسالة الانسانية ، لأنها تدعو الى إقامة العدل واعلاء الحق ، ورد الكرامة لكل

(١) ديوانه ٢٢٤

(٢) انظر مقدمة « جزيرة جونبول الاخرى »

(٣) راجع مسرحية « سيأتي الغد »

مواطن في أرضه ، وإعادة الحرية الى وطن وهو جزء من الوجود الشامل والى
شعب هو عضو في أسرة الانسانية الكبرى .

من كل ذلك يتضح أن القومية المتفتحة والانسانية الحققة ليستا ضدتين
تقابل إحداهما الأخرى ، وان وجود إحداهما لا ينفي بالضرورة وجود الثانية ،
لأن القومية الايجابية ليست سوى خلية فعالة في جسم البشرية .

إن الشاعر شأنه شأن أي فنان ليس بوسعهم أن يفلت من وجدان
قومه وأن ينسلخ عن تراب وطنه . والقومية ليست جداراً يحجبه عن الانسانية
وإنها قيمة سامية يشرف من فوقها على آفاق الانسانية الرحبية ، وإن إنسانية
الأدب لا يمكن أن تعني إطلاقاً أن يتحلل الشاعر من أواصر الوطن ، ومن
وشائج الارض ، ومن وجدانية اللحم والدم والتاريخ والمجتمع « ويخطف من
يظن أنه ليس في وسع الأدب والسمو الى افق الانسانية إلا بالابتعاد عن
اللون المحلي أو القومي ، وربما كان العكس هو الصواب ، أي كثيراً
ما كان الادب أصدق إنسانية إذا كان أصدق قومية ، ذلك أن الابتعاد
المصطنع عن القضايا القومية والألوان المحلية يخرج الادب عن نزاهته وصدقه (١)
ومتى استطاع الشاعر أن يكون تعبيراً حياً عن تجارب أصيلة صادقة
ووجد فيه أي إنسان في أي مكان نفسه وحقيقته فقد اكتسب الصفة
الانسانية ، لان الفن الحق الاصيل لا وطن له وهو ملك لمن يتذوقه .
وعلى هذا الاساس تزعمنا إلياذة هوميروس والفي ليلة وليسلة وسيرة الايام
وعنترة ... على الرغم من بروز السمة القومية المحلية في هذه الآثار
الأدبية جميعاً .

وتعدد القوميات في الأسرة الانسانية يعني في الوقت نفسه تنوعها وتعدد

(١) الدكتور أجد الطراباسي : من محاضرة « الادب العربي بين الادب القومي والادب
الإنساني » ص ٨٣ نشرت في مجموعة دار الكتب الوطنية ببلج عام ١٩٥٢

الوانها تبعاً لاختلاف بيئاتها ومشاربها وظروف حياتها ، إذ لكل قومية طبائعا وامزجتها وعقليتها وميولها واتجاهاتها . وبكلمة واحدة لكل قومية ذاتيتها وشخصيتها . والاختلاف فيما بينها أشبه بالفوارق الذاتية بين أفراد الأسرة الواحدة . وربما كان هذا أبرز ما يميز الجماعات البشرية من سائر الاحياء . وتبعاً لذلك كان لكل قومية أدب متميز يعكس شخصيتها وطبيعتها ويصور مطالعها وآلامها ومنازعاها . وفي أدب العرب اليوم كما كان شأنه بالامس شعر يتسم بطابع ذاتي وخصائص مميزة . الا أنه في الوقت نفسه شأن كل أدب حي متطور لا يهمل السمات الانسانية العامة التي تلتقي على صعيدها سائر القوميات العاملة المتفتحة ، إنه أدب يموج بالحياة ويسهم في تنمية وإغناء النشاط الانساني الرفيع . وكما نجد في شعور كل فرد وجبين ذاتي وجماعي فله شعور كل جماعة أيضاً وجهان قومي وإنساني . والشعر خير ما ينبغي له أن يصور هذه المنازعة الأصلية في الذات وفي الجماعة على السواء .

إن النزعة الانسانية المصطنعة ربما أبعدت الانسان عن وطنه ، أما النزعة الانسانية الأصلية فهي التي تربطه بوطنه ربطاً لا انفصام له . (١) وعلى هذا فالدعوة الى الاستقلال والمطالبة بالحرية ومكافحة الاستبداد اهداف قدستها الشعوب وباركت من بشرها . وقد كان لها في الأغلب وجهان قومي وإنساني معاً . وإن من الاعمال الأدبية الحديثة التي استلهمت من وثبة القومية العربية ما يحمل في طياته بذور الخلود والانسانية ويمكنه ان يتعدى الحدود ليجد فيه كل شعب طريقه الى الحرية مرآة لنفسه . وإن أدبا كهذا ، دائم الاتصال بالقيم البشرية لا شك أنه جدير بالحياة . (٢) .

والشاعر بصورة عامة ، ونظراً لطبيعته المرهفة ونفسه الصافية نفور من

(١) انظر المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

التباغض والحصام يشمئز من الدماء والحروب ، ويتفطر قلبه أسي للبؤس والشقاء ، فهو تواق أبداً الى إدراك الأهداف السامية التي تحقق لأمته ولسائر البشر ، العدالة والرخاء والسلام .



وجلة القول لم ينبجس الشعور القومي العربي صافيا في الشعر الحديث أول الأمر . منذ ولادته في نفوس العرب صحبته منازع أخرى أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه ، بل استطاعت هذه المنازع في بعض الأحيان وتأثير ظروف وعوامل تاريخية واجتماعية أن تظفي على الحس القومي السليم وتتحرف به عن الطريق السوي .

وعلى الرغم من ان الشعور القومي العربي اتسم في بعض الأحيان بصراع مع المنازع الأخرى مثل الجامعة الاسلامية والروح الوطنية المحلية ، إلا انه افاد منها كثيراً في تطوره وازدهاره ؛ فقد عزز الشعور الديني في كثير من الأوقات شعور العرب بعروبهم ، وكذلك اكتسب هذا الشعور قوة بازدهار الوعي الوطني المحلي في بعض الأقطار العربية ، واتفقت أيضاً النزعة الشرقية ضد الغرب المستعمر في كثير من وجوهها مع الانبجاء القومي ، كما انسجمت النزعة الانسانية التي تدعو الى السلام وسعادة البشر وتحرير الانسان من اليهودية مع الأهداف القومية الأساسية .

كل هذه الاتجاهات كانت اشبه بروافد مختلفة الألوان والطعوم انصبت على تيار القومية العربية فأكسبته غناء ومضاء .

وكان طبيعياً ان يأخذ الاتجاه القومي طريقه السوي بعد ذلك وان تتضح معالم القومية العربية بتأثير الاحداث الجسام التي تعرض لها العرب في تاريخهم الحديث وكانت كالنار تطرد الخبث من الحديد . « واما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

وقد عكس الشعر العربي الحديث على صفحاته الرائقة بمجمل ذلك الصراع والتطور والانحراف وعبر عن مختلف المنازع التي لازمت الشعوب القومي خلال فترات معينة ، كما عبر عن تلك الشوائب التي علقت به حيناً من الدهر ثم انهمست عنه .

وربما كانت مراحل هذا الصراع الفكري اشد بروزاً في النثر الحديث ، لأن الشعر بحكم طبيعته يضيق بالجدل والصراع المذهبي ، ولهذا فان المضمون فيه - كما تبين لنا - لم يتسم بهذه الحدة التي عرفها النثر . والشعر اشبه بصفحة القمر الذي يعكس إلينا الأشعة اللاذعة المتوجهة معتدلة لطيفة ..

الباب الثاني

تَيَّارُ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

تمهيد	نشوء الفكرة القومية
الفصل الأول	وحدة الأصل
الفصل الثاني	اللغة العربية
الفصل الثالث	الماضي المشترك
الفصل الرابع	المطامح والآلام المشتركة
الفصل الخامس	الوحدة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

تمهيد

نشوء الفكرة القومية

ليس الارتباط بين أفراد القومية الواحدة ، إلا تعبيراً عن غريزة حفظ الذات الجماعية التي هي امتداد للتعبير عن غريزة الشعور بالأنانية في النطاق الذاتي للفرد .

وإذا كانت القومية بمفهومها البسيط تعني شعوراً مشتركاً بين جماعة من البشر بأن ثمة ما يجمعهم ويؤلف بينهم ليكونوا أمة واحدة متميزة عن سائر الأمم ، فإن القومية بهذا المعنى عريقة في وجودها لدى الأقسام منذ فجر التاريخ وقيام المجتمعات المتحضرة . فهي تتمثل في الهنود والصينيين والآشوريين واليونان وغيرهم من الأمم التي كانت ذات قومية متميزة ، بعضها باد ليندمج في قوميات أخرى وبعضها ما زال قائماً .

« فالقومية بهذا المعنى شيء موجود في التاريخ باستمرار . وقد يشتد الشعور بها فتكتسب قوة تجعلها فعالة في التاريخ حتى لتطغى على كل علاقة أخرى تجمع بين الانسان والانسان . وقد تضعف فتظهر عليها قوى أخرى تكون أكثر فعالية وشدة ، فيتوارى الشعور بالقومية لتحل محله روابط أخرى

ولكنه لا ينعقد بل يستكن في النفوس ويكن في ضمير الأمة ، (١)

ولقد كانت القومية العربية موجودة على هذا الشكل الباهت الغامض خلال عصور ما قبل الاسلام ، تغلبت عليها الرابطة القبلية فتوزع ولاء العرب نتيجة لذلك على عدد من شيوخ العشائر . وما يؤكد وجود تلك القومية آنذاك ، الوجدان المشترك المتمثل في الشعر الجاهلي والأمثال والأساطير والحج والمعتقدات والمعادن المشتركة وغيرها . وثمة مثل بارز على انطلاق المشاعر القومية من مكائنها في نفوس العرب حين قام الفرس بغزو بلادهم في معركة ذي قار ، فقد استيقظت المشاعر القومية لدى عدد من القبائل تجاه قومية أخرى عادية ، وكان ذلك إرهاباً بوحدة العرب في ظل الاسلام .

ثم انتشر الاسلام بين قبائل العرب فأخى بينها ووضع حداً لتناحرها وتنازها ، ووحدها في أمة تدين بالولاء لزعيم واحد من طيبتها ، وكان الفضل الأول في ذلك للعقيدة الجديدة التي اعتنقها العرب فألفت بينهم وتغلبت على كل رابطة سواها .

وما حدث بعد ذلك أن الاسلام انتشر بين الترك والفرس والهنود وغيرهم ، وكان أن تقلت هذه الأمم دين العرب ولكنها لم تقبل قوميتهم ، ولذلك حافظت على كيانها ، وكانت من أبرز عوامل الاضطراب في الدولة الاسلامية ، لأنها كانت تنزع باستمرار إلى الاستقلال بقوميتها في دولة ذات كيان متميز .

(١) انظر محمد منيب الرزاز في محاضرة له عن القومية ألقاها في الكويت .

وقد صور الأدب العربي القديم وبخاصة في العصور العباسية الصراع المرير بين العرب والفرس والدعوة الشعوية ، كما صور من جهة أخرى الصراع بين العرب والترك والنصرة الطورانية . وقد وجدنا بوادر الفكرة العربية لدى أبي تمام والمتنبي وغيرهما ، وكان دعبل الخزاعي وعبدالله ان المعتر من الشعراء الذين تصدوا بسليقتهم القومية السليمة للدخلاء والترك من مثل (وصيف ، وبنا ، وأشناس ، وبلغر) ونددوا بتسلطهم على الحكم في العصر العباسي .

ومن ذلك يتبين أن الدين حتى في أزمنه عصوره سواء أفي الشرق أم في الغرب لم يتمكن من التئب على المقيمات القومية للأمم ، وإن كان في الوقت نفسه عاملاً فعالاً في الكيان القوي المستقل لدى كل أمة . وقد بقي الاسلام - تبعاً لدوره العظيم في بث القومية العربية ومصاحبه إياها قروناً مديدة - مختلطاً لدى العرب بالمفهوم القومي حتى العصور الحديثة « حين تأثرت القومية العربية وسائر القوميات في الشرق بظهور القوميات الغربية وأفادت من تطورها وفلسفتها واهتمت بهديها ، ثم انصهر ذلك كله في الشعور القومي الأصيل النابع من ذات الأمة ، والذي اتخذ هذا المظهر العاتي البارز تجاه الاستعمار ، وشرعت تطرد الضباب من حولها وتخلع ثوب الغموض الذي كانت ترتديه قبل القرن التاسع عشر » (١) .

وقد انصهر التراث العريق الجوهرى بالتفكير الغربي الحديث ، وحدث تفاعل امتزج بشخصية الأمة وظروفها الراهنة ، وقولد شعور قومي متميز لا بالقديم ولا بالأوربي وكان أبرز مظهر لهذا الشعور القومي مطالبة العرب بأن تعود الخلافة إليهم بعد أن استأثر بها الترك قروناً ، كما تجلّى ذلك

(١) المرجع السابق .

فما كتبه عبدالرحمن الكواكبي ونجيب عزوري وسواهما . « ولم تعد القومية مجرد رد فعل انطوائي سلمي ينتهي الى الرجعية والتعصب ، ولا رد فعل مقلد ينتهي الى إنكار الذات ، وإنما استجالت الى رد فعل واع تجاه الاستعمار وما ينطوي عليه من استعباد وكبت للحريات واستغلال للخيرات وزرع للنغرات الطائفية والعنصرية والطبقية . وأصبحت القومية العربية عقيدة إيجابية خلاقة لكيان أمة جديدة حديثة تقوم على أسس وطيدة ودعائم ثابتة من الاستقلال والتحرر الاقتصادي . هي في نشأتها وظروف نموها تختلف عن القوميات الغربية التي غدت عدوانية توسعية لأنها ترعرعت في ظل النظام الاستعماري (١) » .

وكان طبيعياً أن يفتقر المفهوم القومي خلال فترة من حياة العرب الحديثة الى الدقة والتحديد والوضوح شأنه في ذلك شأن كل مفهوم اجتماعي ، وقد رأينا في الفصول السابقة مدى تصور الشعر الحديث ظاهرة اختلاط القومية العربية بالمقيدة الاسلامية والمحافظة الشرقية ثم بالنزعات الاقليمية الشائبة .

ومع أن الشعر القومي قد واكب نضال العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر فان الفكرة القومية لم تجد لنفسها مكاناً في الشعر الحديث إلا بصعوبة . فالمحافظة الوطنية في مصر كانت وحدها تطبع قصائد الشعراء منذ عهد البارودي وما قبله أيضاً ، دون أن تتسم تلك الوطنية بميم القومية العربية ، كما كانت المحافظة الدينية طابع كثير من الشعر الوطني في العالم العربي .

(١) انظر المرجع السابق

ولكن عدداً من شعراء العرب وبخاصة في لبنان استطاعوا أن يكونوا في أذهانهم مفهوماً سليماً للقومية العربية منذ ذلك الحين ، فكانوا رواد الاتجاه العربي . وقد أخذ شعور العرب بقوميتهم وعروبتهم يتميز ويقوى باطراد في أواخر العهد العثماني ، « وإن إلحاح عدد من الشعراء على لفظتي العرب والترك ، وإيرادها معاً وتوجيه الخطاب الى الفريقين على أنهما طرفان تهما قضية مشتركة لا أمة واحدة متماسكة قد انصهرت عناصرها في قومية واحدة ، إن هذا الإلحاح إن دل على شيء فعلى أن الفكرة العربية قد شقت طريقها الى الامام ، وعلى أن الانفصال النفسي كان قد وقع فعلاً بين الترك والعرب ، وعلى أن هذا الانفصال قد استقر فعلاً وبصورة لا شورية في نفوس الشعراء جميعاً سواء في ذلك من كان عربي الاتجاه أو عثمانيه » (١) من ذلك ما نراه مثلاً في قول أحمد محرم (٢) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعربا
أو قول شوقي (٣) :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يعث الموتى ويحييها
أو أمين ناصر الدين (٤) :

بني العرب والأتراك أين حمية يروع العدا منها الناظي المتسعر

(١) الدكتور أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٥١

(٢) ديوان ٢ : ٤

(٣) الشوقيات ١ : ٣٥٥

(٤) صدى الحاضر ٢٥

والواقع أن الفكرة القومية تمت بشكلها الواعي ومفهومها الحديث في أذهان مثقفي العرب الذين كانوا منتشرين في الآستانة وباريس والمهجر نتيجة احتكاكهم بالقوميات الأخرى واتساع آفاقهم . ولقد كانت هذه الفكرة كامنة في نفوسهم تغشها العاطفة الدينية المشتركة مع الترك ، إلا أن نموها السريع كان على شكل رد فعل تجاه القومية التركية المتطرفة (الطورانية) ؛ من ذلك ان احد غلاة الترك تعمد ان يردد على مسامع بعض العرب قصيدة تركية تم عن تلك الروح المتعالية فيها تمد صارخ للعرب ولرسولهم معاً ، وما زال الامير مصطفى الشهابي يذكر احد ابياتها وهو (١) :

جد مذ جنكيزخان عاقلدر بزم جد مز جد ااسينههم معادل لدر بزم

ومعناه :

جدنا نحن جنكيزخان العاقل وجدنا نحن معادل لجد الحسين

ومن هذا القبيل اقتراءات جريئة (إقدام) التركية على العرب وتصرفات الترك الشائنة ضدهم مما كان له اسوأ الاثر في نفوس العرب وكان في الوقت ذاته خير موقظ لقوميتهم الكامنة .

ومنذ ذلك الحين ، وبعد ان قامت الحرب الكبرى يدخل الشر القومي في طور جديد تزداد معه الفكرة العربية قوة واتضحاً نتيجة لازدياد الوعي القومي من جهة ولانحسار المفهوم الديني والعاطفة الشرقية ، ولخروجها

(١) انظر كتابه محاضرات في القومية العربية ، ٦

ظافرة بعد ذلك من حومة صراعها مع النزعات الاقليمية الضيقة من
جهة أخرى .

ولعل أول ما نلاحظه في هذا الشعر الذي قيل منذ قيام الحرب الكبرى
أن الفكرة العربية قد أفادت في نشأتها من الحركات القومية الأخرى التي
كانت تقوم من حين إلى آخر في الدولة العثمانية ، كحركات شعوب البلقان التي
كان لها صدى في نفوس العرب فضلا عن صدى سائر الحركات الأخرى
في أوروبه .. وقد دلت بعض قصائد الشعراء آنذاك على هذا التأثير ، من
ذلك قول إيليا أبي ماضي مخاطباً قومه (١) :

أبناء سوريا الفتاة تضافروا وخذوا مثالتكم عن البلقان
ما الترك أهل أن يسودوا فيكم أو تحكم الآساد بالبلقان (٢)

ولا يبعد أن تكون عبارة (سورية الفتاة) التي وردت في قوله من
مظاهر تأثر الشعراء بعبارة (تركية الفتاة) وهي اسم الحزب الذي
أسسه الترك وجاراهم فيه العرب بعد ذلك بتأسيس حزب آخر يحمل
اسم (العربية الفتاة) . ونجد هذا الاتجاه أيضا في قصيدة أخرى لأبي
ماضي يقول فيها (٣) :

أبناءؤكم ، لهفي على أبنائكم يلهو بهم أبناء جنكزخان
ثوروا عليهم واطبوا اسقلالكم وتشهوا بالصرب واليونان

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٣٥

(٢) الظلمان مفردا خليم وهو ذكر النعام .

(٣) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي ١٨٧

فهذا الفهم الصحيح للفكرة القومية عند أبي ماضي مرده إلى إدراك حقيقة الثورات القومية التي كانت تنشب في تلك الفترة ، مما جعله يجد أن قضية بلاده لا تختلف في جوهرها عن هذه القضايا القومية في شيء وليس مصادفة أن تنطلق البادرة التحررية الأولى قبل ذلك من البلقان نفسها حيث كان بعض الضباط العثمانيين من العرب والترك يعيشون في غمرة الشعور القومي الالهب ويتشبعون بروحه الثورية حتى آل بهم الأمر عام ١٩٠٨ إلى زحفهم الشهير على الآستانة وإكراههم السلطان على إعلان الدستور وإطلاق الحريات العامة .

ويشير أبو ماضي أيضاً إلى ظاهرة القوميات التي تعاضم شأنها في العالم ويعجب أن يرى العرب بعيدين عنها فيقول (١) :

أدركت غاياتها كل الشعوب نهض الصين وما زلنا نيام

وعلى هذا الصعيد القومي ينظر أبو ماضي إلى حكم الترك للعرب فيرى فيه تحكماً للأقلية في الأغلبية (٢) :

إلى كم يحصرون الحكم فيهم وكم ذا يبتغون بنا احتكاماً
ألسنا نحن أكثرهم رجلاً إذا عدوا وأرفعهم مقاماً

كما يقول (٣) :

متى كان جنكيز لقحطان سيداً فيمسى بنو هذا لذلك موالياً

(١) المرجع السابق ١٥٦

(٢) المرجع السابق ١١١

(٣) المرجع السابق ١٩٩

والملاحظ في البيت الأخير والذي قبله أن روح الاعتداد بالعروبة أخذت تشتد في الشعر العربي وتسم في هذه المرحلة من نشوئها بشيء من التعالي اقتضته غطرسة الترك . ومن جهة أخرى فإن الكثيرين من الشعراء العرب المسلمين لم يكونوا آنذاك يصدرون عن مثل هذه الآراء ، فقد كانت غالبيتهم ترى في ثورات البلقان حركات هدامة تهدف الى إضعاف الامبراطورية العثمانية وتشكل خطراً على دولة الخلافة وعلى الاسلام نفسه . بل إن عدداً كبيراً من العرب لم يكن آنذاك يستشعر خطراً من جراء تحكّم الترك به لأنهم كانوا في نظره مسلمين ، وليس من ضير في أن يرأس المسلمين مسلم وإن كان غير عربي .

إلا أن إعدام جمال باشا أحرار الشام إبان الحرب الكبرى كان نقطة تحول في مشاعر العرب القومية ، إذ فتح هذا العمل الطائش أعينهم على أن الدين وحده ليس بوسعه أن يؤلف بين عنصرى الامبراطورية المتداعية ، وأنه ليس ما يحول دون استقلال كل عنصر في دولة متميزة . وقد أدرك الشعراء مغزى هذا التنكيل وأشاروا الى أن ذلك يرجع أولاً وأخيراً الى نزعتهم القومية الخالصة وأن هذا الانتقام هو ذروة الصراع بين القوميتين الرئيسيتين في الدولة العثمانية . وهذا بشير يموت يعبر عن ذلك في صدد رثائه لعمر حمد أحد الشهداء الذين بطش بهم السفاح يومذاك (١) :

ذهبوا في حب أمّتهم شهداء الفضل والشيم
 ذنبهم في الدهر أهمهم عرب للترك لم تم

(١) ديوان عمر حمد ٨٦

ويرد الزهاوي القضية الى جوهرها القومي إذ يقول في قصيدته
« النائحة » (١) :

لممرك ليس الأمر ذنباً أصابه قصاص ، ولكن يعرب ومغول

كما يعبر عن الفكرة نفسها فيما بعد محمد المدفاني ذاكراً أولئك الشهداء (٢) :

وما وزرهم إلا إباء نفوسهم وأنهم عرب فيا حبذا الوزر

وقد ضرب (أتاتورك) بعد الحرب الأولى مثلاً صارخاً للعرب وسائر
شعوب الشرق في الانتفاضات القومية وبناء الدول على أساس قومي حديث ، وفي
ذلك يقول شكر الله الجبر معجباً بذلك البطل القومي (٣) :

ومن كان كالتازي فما ضل ناهج مناهجه أيان بالشعب ييما
فما أجل الاسلام بالشرق لومشى على خطوات (المصطفى) مترسما

كما صدر محمد الشريفي عن هذا الاتجاه بصورة أوضح في تأثره بالانتفاضة
القومية التركية والارانية فقال مخاطباً سعد زغلول (٤) :

إن العروبة يا زغلول قائدنا فاجبر كما جبر الأتراك والمعجم
وآمدديدك وصافح كل من نطقوا بالضاد يقبل عليك القوم كلهم

(١) رفائيل بطي : الشعر المصري في العراق ١٨

(٢) اللهب ٣٢

(٣) الروقة ٣١

(٤) ديوان الثورة ٤٠

والشاعر نفسه يوضح ما رمى اليه ويقول «جهر الترك بالجامعة التركية ...
وقد سالت الفرس هذا الطريق عينه في نهضتهم الجديدة» .

ثم انطلقت الفكرة القومية من صميم ظروف العرب وحياتهم وراحت
تنمو في نفوسهم باطراد على هذا الأساس الحديث الذي وجدته في بعض القوميات
التي عاصرتها وشابهتها في ظروف ولادتها ونشأتها والتي كانت بمثابة
الجداول التي تردها وترزيدها صقلا وجلاء . وقد عبر فوزي المملوف عن
هذه الرغبة الملحة التي كانت تمتلج في نفوس العرب وتحفزهم الى قوميتهم العتيده (١) :

فلتحي قومية كانت لنا نسباً يضم اشتاتنا ما فاتنا النسب
ومن يكون بلا قوم يدل بهم فلا يشرفه دين ولا لقب

كما أدرك حافظ ابراهيم في «عمريته» منذ نهاية الحرب الكبرى أن
تصدع القومية العربية كان السبب المبائر في انهيار مجد العرب بعد أن تحكمت فيهم
العناصر الأجنبية (٢) :

واها على دولة بالامس قد ملأت جوانب الشرق رشداً من أيديها
والله ما غالها قدماً وكاد لها واجتث دوحتها الا موالها
لوانها في صميم العرب قد بقيت لما نعماها على الايام ناعها

وهكذا استعرت المشاعر القومية في نفوس الشعراء على نطاق شامل ،
وأخذت فكره العروبة تشق طريقها بقوة في الشعر الحديث ، حتى غدت مبدأ

(١) ديوانه ٣٠

(٢) ديوانه ١ : ٧٧

يدين به الادباء وعقيدة يعتنونها وينافحون عنها .. من ذلك ما نجد في قصيدة تصدى بها الرصافي لشكري غاتم وبعض اللبنانيين الآخرين الذين لم يتورعوا عن اعلان تبرئهم من العرب والعروبة (١) :

وهل حسبوا ان العروبة في الوري من المر حتى انكروا ذلك المرا

بل غدت العروبة هدفاً مقدماً يستعذب الموت في سبيله كما قال ابو ريشة في صدد اشارته الي نضال بلاده (٢) :

هل ترى فوقها سوى كل حر يقحم الموت في سبيل العروبة

وكان اول ما خاضه الشعر الحديث الذي بشر بفكرة العروبة تلك المارك الجدلية على الصعيد الفكري والعاظمي ضد الطائفية الدينية المستعصية والنزعات الاقليمية المنحرفة . ومع ان معالم الطائفية والتعصب كانت اوضح في لبنان منها في سائر بلاد العرب نتيجة عوامل استعمارية ورواسب اجتماعية ، فمن الحق ان نقول ايضاً (كما سيتضح بالتفصيل في فصول قادمة) ان شعراء لبنان ونحس المسيحيين منهم والذين عاشوا في المهجر كانوا حارباً شديدة على هذا الانحراف القومي ، فقد اتخذوا من القومية العربية عقيدة لهم وراحوا يذمرون بها بجملة وايمان ، وفي ذلك يقول محبوب الخوري الشرتوني (٣) :

قلوا تحب العرب قلت احبهم يقضي الجوار على والارحام

(١) ديوانه ٤١١

(٢) ديوانه ١٦٠

(٣) ديوانه ٨٢

قالوا لقد بخلوا عليك اجبتهم اهلى وإن ضنوا علي كرام
قالوا البداوة، قلت اطهر عنصر صفت القلوب هناك والأجسام
ومحمد بطل البرية كلها هو للاعراب اجمعين إمام

فالشرفوني يمتاز بمحمد اعتراز المسابن به ويعده القائد الاول
للعرب كافة . كما يمتاز الشاعر القروي بعروبه حتى يباع حد
التقديس (١) :

اني على دين العروبة واقف قلمي على سبحاتها ولساني
إنجيلي الحب المقيم لأهلها والذود عن حرمتها فرقاني

ولا ريب ان غلبة روح الجدل والنطق على الفكرة القومية لدى شعراء
لبنان في اوائل عهدها واتسامها بطابع التحدي في بعض الأحيان يعود الى
وجود بؤر تنكّر العروبة كما تبين لنا ذلك في حديثنا عن النعرة
الاقليمية ، ولذلك قلنا " ان نجد هذا الطابع فيما نظمه سائر شعراء الاقطار
العربية . وهذه المرحلة من نشوء الفكرة القومية امر طبيعي في الشعر الحديث
شأن كل دعوة جديدة تحاول ان تشق طريقها الى الأذهان . ولنا في الدعوة
الاسلامية خير مثل على ذلك ناسه جلياً في سور القرآن المكية وفي خطاب
الرسول عليه السلام ومواقفه .

ومن اطرف ما سجله الشعر الحديث من مظاهر ازدهار الفكرة القومية
وتعاطف شأنها ، ان عدداً من الشعراء حاولوا ان يطبعوا الانبياء المرسلين بالطابع
القومي فضلاً عن رسالتهم الدينية والانسانية المقدسة . من ذلك مثلاً قول ابي
الفضل الوليد (٢) :

(١) ديوانه ٤٢١
(٢) الانفاس الملتهبة ١٣٢

كان الرسول حجازياً بمولده فحرف الشام لما زار غسانا
وكان عيسى شامياً فما وطئت رجلاه ارباض يونان ورومانا

وقد رأينا الشاعر القروي أيضاً ينظم قصيدة قومية يناجي فيها السيد
المسيح ويعتبره « السوري الأعظم » ، ثم يقول (١) :

أنت يا ابن الله سوري صميم أفناس يا ترى أم تنناسي

وبعد أن تخف وطأة التأثر والافتداء بالقوميات الاخرى ، وتتحسر موجات
الطائفية والاقليمية عن المجتمع العربي ، ويبدأ الشعر المعاصر بالتخلص من تلك
الظواهر السلبية ، يتجه الشعراء الى إبراز المقومات القومية بروح إيجابية بناءة
ويأخذون دورهم القيادي في الدعوة الى الفكرة القومية السليمة على أسس وطيدة
مستمدة من طبيعة أممهم العربية ومستوحاة من النظريات الاجتماعية والفاهيم
الفكرية الحديثه .

وهذه الاسس والمقومات التي حلم حولها الشعراء وجعلوا منها محور
مضمونهم الشعري تتركز في النواحي التالية :

وحدة الاصل العربي - وحدة اللغة العربية - الماضي المشترك - الآلام
والآمال المشتركة - الوحدة العربية .

وهذه ليست في جوهرها إلا العناصر الرئيسية للاتجاه القومي العربي
في الشعر الحديث .

(١) ديوانه : ٤٣٩

الفصل الأول

وحدة الأصل

العرب من أشد الأمم تمسكاً بالأنساب ورعاية لها ، وقد تجلت هذه الظاهرة بشكل بارز في أدبهم القديم وبخاصة في شعر الحماسة والفخر .

ويبدو أن تلك الظاهرة سرت إلى العرب المعاصرين فحاولوا بعثها بشكل جديد في أممهم باعتبارها إحدى الروابط القومية التي تشيع الثقة والاعتداد في نفوسهم وتوحي إليهم بأنهم أحفاد أولئك الأبطال الذين حملوا شعلة الحضارة قروناً مديدة وكانوا سادة العالم في اقرون الوسطى .

وربما كان الشعر في مقدمة الفنون استجابة لابرار رابطة النسب القومي والاعتزاز بوحدة الأصل وقد رأينا أن القصائد التي عكست ما ظهر في المجتمع العربي من نزعات قومية ضيقة كانت تركز في جوهرها على إيجاد رابطة قرابية وشيجة مع الفراعنة أو الفينيقيين أو سوامم عن اعتبرهم بعض الشعراء أجداداً لهم . والواقع أن طبيعة الاتجاهين واحدة سواء ما كان منها متملقاً بالانتساب إلى العرب أو بمن سبقهم من الأمم الغابرة .

ومن المسلم به عالياً أن النسب المادي الدموي (١) مع الشعوب القديمة

(١) بعد Gobineau في كتابه «ع م المساواة بين الاجناس البشرية» من أبرز دعاة النظرية العرقية التي أخذ بها الالمان وأماموا عنها النازية فيما بعد ، وقد ذكر بيير رونوفن « إن علماء الحياة برهنوا منذ زمن طويل على أن فكرة العرق إنما هي ضلال ، وأنه لا يوجد في أوروبا عرق نقي ، وبالتالي أن فكرة العرق في الحقل العلمي ليس لها قيمة » انظر كتابه « تاريخ القرن العشرين » ترجمة الدكتور نور الدين حاطوم ص ٢٩٧ .

والأجناس الأصلية لم يعد له اليوم وجود بين البشر نتيجة التمازج الكبير الذي تم بينهم على مر العصور . وعلى هذا ليس من أمة تستطيع اليوم أن تدعى لنفسها قرابة صافية مباشرة مع عرق من العروق أو شعب من الشعوب . وليس ذلك مما يضير الشعور القومي في شيء لأن النسب المعنوي كثيراً ما يفوق النسب المادي بين الجماعات . وقد رأينا الشعوب الناهضة تشيد كيانها وتبعث قوميتها بالاعتماد على الأواصر الثقافية والروحية والتاريخية .

ومع ذلك فإننا ما زلنا نرى عدداً ولو ضئيلاً من الشعراء المعاصرين ينجون نهج القدماء في الاعتماد على رابطة النسب الحقيقي من بينهم مثلاً الشاعر المصري محمد عبد المطلب الذي « كان عربي النشأة والمولد والبيئة متراً بنسبه هذا كل الاعتزاز وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة وقوادها وعلمائها ومؤلفيها » (١) وهو يرجع بنسبه الى جبينته وبتيه بها في شعره إذ يقول (٢) :

وأنا ابن الصيد من أنكرني	ينكر الليث إذا ما اتسبا
من أيين كرام ضربوا	فوق هاتيك المعالي قيبا
وكفاني من فخاري نسبة	جمعت في طرفيها العربا

وهذا علي الجندي ينسج أبياته على هذا المنوال ويزهى بنسبته العريقة (٣) :

بني الجزيرة تهفو نحوكم كبد	تهوى على الحضرة القيصوم والضالا
لست الغريب فلي قرى ولي نسب	إلى ربيعة ما حالت ولا حالا
إن كان كندة أعمامي أتيه بهم	فان لي في بني شيان أخوالا

وليس هذا التفاخر من باب المجاز لأن الشاعر نفسه يعلق على قصيدته مؤكداً أن آباءه كنديون وأجداده لأمه من بكر وائل من ربيعة . ومع أن شعراء آخرين منهم محمد العدناني في فلسطين وبعض الشيعة في العراق كانوا حريصين على عقد روابط مماثلة مع آل البيت أو مع سواهم من العرب

(١) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ٢ : ٣٠٦

(٢) المصدر السابق ٢ : ٣٠٨

(٣) أغاريد البحر ١٣٥

الأقدمين فإن هذه الظاهرة تبقى محدودة في الشعر الحديث لا تعدو النطاق الفردي، وهي بالتالي لا تصلح لأن تكون رابطة قومية اجتماعية تشمل العرب جميعاً. وكل إشارة في الشعر الحديث إلى الأجداد أو الأحفاد لا تعدو أن تكون رابطة معنوية برغم ظاهرها المادي كقول حافظ إبراهيم عن سورية ومصر (١):

أم اللغات غداة الفخر أمهما وإن سألت عن الآباء فالعرب

أو قول محمود غنيم (٢):

إن تسألوا عني إلى من أنتهي فإلى رعاة النوق والأغنام

وحين يقول محمد علي الحوماني مثلاً عن السوريين إنهم (٣):

عرب الأحساب والدهم يعرب والجسد قحطان

فهو يعني في الحقيقة نسباً جمعياً استدعته الروح القومية المتوثبة، وما جعل (يعرب) والداً و(قحطان) جداً إلا تعبير أريد به مدلوله الواسع والرابطة المعنوية؛ إذ أن يعرب وقحطان برغم الشك في ثبوت وجودهما التاريخي أصبحا في مخيلة الشعراء مجرد رمز للاتصال العربي العريق.

وشبيه بذلك ما قاله أبو ماضي وقد أشار إلى انتساب العرب إلى قحطان وما يقابل ذلك من انتساب الترك إلى جنكيزخان (٤):

ومن كان قحطان أباه فانه له الصدر دون العالمين أو القبر
وإن بني قحطان إذ جد جدهم لأعقاب من أن يستنم بهم حر

(١) ديوانه ١٤٨: ٢٦٨

(٢) ديوانه ٩٧

(٣) ديوانه ٢٨

(٤) زهير ميرزا: إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٩٩

أو قول الشاعر العراقي أحمد الهندي مستغنياً لفلسطين (١)

يا قحطان أين تلك الحمية أين آثار روحنا العربية

وكثيراً ما كان الشعراء يعتبرون أنفسهم ومواطنيهم أحفاداً ليعرب أو قحطان أو عدنان كما فعل خير الدين الزركلي حين عمد إلى استنهاض قومه لمقاومة دخول المستعمرين إلى بلاده باسم الوصاية والانتداب (٢) :

أسليل يعرب طال منك تريث حتام تلبث لاهياً حيرانا
إن كنت من عدنان فاسلك نهجه وإذا جبت فلست من عدنانا

ومن هذا القبيل ما نجده من شعر كثير نظمته الشعراء المعاصرون اعتزازاً برابطة النسب العربي ووحدة الأصل كقول الصافي النجفي (٣) :

أنا عربي وحسي بذنا جواباً يعظمه سائلي
فأبائي الصيد من هاشم وأخوالي الغر من عامل (٤)

وقول أبي الفضل الوليد مشيراً إلى القرابة بين أهل الشام والعراق (٥) :

الشام أخت للعراق وفيها نور العروبة للضليل الناشد
أهلها أبنا عم كلهم عرب بآداب لهم وعوائد

(١) الفلستينيات ٣١

(٢) ديوانه ٥٥

(٣) ألحان اللبيب ٢٩

(٤) عامل : جبل في لبنان أكثرية أهله من الشيعة ، وأصل الكلمة عاملة ، وهي قبيلة نزلت تلك المنطقة وسميت بهذا الاسم ، والنجفي شاعر شيعي المذهب من العراق .

(٥) نفحات الصور ٥٦

فالقراية في جميع هذه الايات اقرب الى ان تكون رابطة معنوية برغم ما يؤثره الشعراء من عبارات النسب الحقيقي ، وما يجرون عليه من إطلاق الألفاظ التي تشير الى قرابة الدم والتي تتردد في نطاق الأسرة الواحدة من نحو اعتبار قحطان أو عدنان أو يعرب جداً أو أباً للعرب وكون هؤلاء أحفادا أو أبناء لهم ، أو نحو اعتبار الشعوب العربية إخوة أو أشقاء أو أبناء عم .. الخ .

ويعد إلياس فرحات من أشد الشعراء حرصاً على استمرار وحدة الأصل في شبان الجيل الجديد من عرب المهجر الذين فشا فيهم داء التفرنج ، وأبرز ما قاله في هذا الموضوع قصيدة أمتاعاً « نحن عرب وأولادنا إفرنج » (١) :

لا تقولوا مالنا والعرب كي	تضربوهم	مثلاً يا شعراء
لأنهم أجدادنا بالرغم من	قائل إنا من العرب براء	
لأنهم أجدادنا إن شرفوا	أو دنوا فالدم لا يصبح ماء	
هههم الشوك فهل من وردة	تنكر الشوك لترضي الكبرياء	

ولا نعتقد أن الشاعر يعني بأن القرابة بين العرب المعاصرين وأجدادهم القدماء تقوم فعلاً على رابطة الدم ، فالرجح أنه أراد بذلك مجرد قوة ارتباط العرب بأسلافهم ، كما أن المثل الشائع الذي مفاده (أن الدم لا يصبح ماء) هو الذي أملى عليه هذا التعبير على الصعيد العربي الشامل .

وقد لقي المسيحيون العرب في بعض الظروف والبيئات شيئاً من الحرج بسبب اختلاط الاسلام بالعروبة في الأذهان ، وكان المستعمر يزيد الامر تعقيداً عن طريق بذور بذور الطائفية وإيهام المسيحيين في لبنان وبخاصة (الموارنة) بأنهم ليسوا من العرب ، وكان جيلاً أن تغلب المنازع القومية الأصيلة على هذه الأباطيل ، بل كان أجمل من ذلك أن نرى الشعراء

(١) ديوانه ١٩٧

المسيحيين أنفسهم في طبيعة المعتزبين بالعروبة وأوائل دعائها من أمثال رشيد
 سليم الخوري وإلياس فرحات وفارس الخوري والأخطل الصغير ونقولا فياض
 ومحبوب الشرتوني ووديع البستاني ونصرة سعيد وكثيرين غيرهم ، وفي ذلك يقول
 واحد منهم هو إسكندر الخوري البيتجالي الذي يملو بالرابعة الوطنية والقومية
 على كل رابطة سواها (١) :

قبل المسيح وأحمد كنا وما زلنا عرب
 كانت وما زالت لنا أوطاننا أمأ وأب
 لا دين يجمعنا سوى دين المحبة والنسب

كألم تمنع مسيحية شاعر كبير مثل رشيد سليم الخوري أو يرى في أعلام
 الاسلام خير ذخر للعرب والانتساب اليهم أشرف انتساب :

أزيد أعظم من أبي بكر ومن عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

ولا يخفى أن النساسنة مثلاً كانوا من القبائل العربية التي بقيت على
 نصرانيتها وعرفت بصدق عروبتها وأصالتها ، وان المسيحيين في لبنان وفي سواه
 كانوا بناة النهضة العربية ورواد الوعي القومي .

ومها يكن من امر وحدة الأصل العربي للعرب المعاصرين وسمتها المادية
 او المعنوية فقد حظيت من الشعراء باهتمام كبير كان عاملاً لا مندوحة عنه
 في بعث الشعور القومي الكامن في النفوس ، وفي إحكام اواصر القرى بسين
 الأحفاد والأجداد . وربما كان الشعر العربي - قديمه وحديثه - فريداً في هذا الامر
 الذي تجلّى من خلاله حرص العرب على النسب العربي ووحدة الأصل القومي .

(١) التفود ٦١

الفصل الثاني اللغة العربية

ورد في تاريخ ابن عساکر الحديث النبوي التالي الرسول محمد عليه السلام:
« يا ايها الناس إن الرب واحد ، والاب واحد ، ليست العربية بأحدكم
من أب ولا ام ، وإنما هي انسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

وهذا الرأي ينسجم مع النظرية الحديثة للقومية ، التي تجعل رابطة اللغة
في رأس مقومات الأمة . والواقع ان اثماً عديدة اعتنقت الاسلام وكانت العبيدة
الدينية قاسماً مشتركاً بينها جميعاً . ولكن الصفات المشتركة للامة العربية بقيت
مقصورة على البلاد التي تتكلم اللغة العربية ، في حين احتفظت سائر الامم الاسلامية
كالترك والفرس والهنود بقومياتها الخاصة ايضاً تبعاً لاحتفاظها بلغاتها .

واللغة وسيلة للتفاهم ، وثوق العلاقات الاجتماعية بين الافراد ، وتقرب بين
مفاهيمهم وانماط تفكيرهم ، وتحمل اليهم تراث الاجداد ، وتودع في نبراتها
سماتهم المميزة ووجدانهم الجماعي المشترك . وقد قدم لنا التاريخ امثلة كثيرة على
اندثار امم او انصهارها في امم اخرى نتيجة اندثار لغاتها او اقتباسها لغات اجنبية عنها .

وما من ريب في ان التعاطف بين التكلمين بلغة واحدة يزداد قوة وإحكاماً ولو كانوا امين مختلفتين . والاستمرار بذلكه يدرك هذه الحقيقة ويتصدى بلا هوادة لمحاربة اللغة القومية ساعياً بوسائل شتى الى فرض لغته على الامم المستضعفة ومحو كيانها تمهيداً لدمجها به وابتلاعها . والامة التي تستطيع الاحتفاظ بلغتها إنما تمسك بمفتاح شخصيتها . إن وحدة اللغة تقضي تقارب الميول وتشابه المنازع تبعاً لوحدة المشرب والثقافة ، لان اللغة في واقعها تجريد الأفكار . وكما قال احد علماء الاجتماع : ان التفكير هو التكلم سرّاً ، والتكلم هو التفكير جهرّاً ،

واللغة العربية فضلاً عن كونها اقوى الدعائم القومية عند العرب فهي ايضاً اقوى عناصر الثقافة العربية . كما تمتاز بأنها لغة عالمية منذ قرون ولغة حضارة إنسانية عريقة . ولقد كانت على الدوام موضع تقديس المسلمين كافة على اختلاف قومياتهم لانها لغة اختارها الله لدينه ونزل بها قرآنه وتكلم بها رسوله . وهي موضع عناية ودراسة الكثيرين في الهند والباكستان واندونيسية والافنان ، وبحروفها كتبت التركية وما تزال تكتب الفارسية والملايوية والاوردية (١) .

اما الجانب القومي المحض في لغة الضاد فيتجلى في كونها لغة العرب القومية وعماد شخصيتهم المتميزة ولسان أجدادهم القدماء منذ ما قبل الاسلام وحاملة تراثهم وناقلة تاريخهم ومعقل كيانهم ، ومن هنا كانت هي السمة الاولى التي تميز بها جميع العرب مسلمين ومسيحيين من سائر الامم . ومع ذلك فان الجانب الديني الاسلامي في لغة العرب لا يمكن ان يفصل عن الجانب القومي العربي لأن الرسول نفسه كان عربياً قبل ان يشر برسالاته ولان الاسلام كان دين العرب وهم الذين حملوه الى العالم بلسانهم ، كما ان القرآن كتابهم الاول وحسن لغتهم الامنع .

(١) انظر محمد المبارك : الامة العربية ٢٠٤

على أننا إذا استقرينا أكثر ما قيل من شعر حول اللغة العربية من الزاوية القومية بدا لنا ان سمات التفاخر باللسان الضادي وعظامته والتغني ببلاغته وفصاحته كانت غالبية على قصائد الشعراء وبخاصة لدى شعراء الرعيل الأول في عصر الانبعث من مثل شوقي وحافظ والرصافي ومصطفى صادق الرافعي وأبي الفضل الوليد . وقد عبر أمير الشعراء عن ذلك الجمال العلوي الذي خص الله به لغة الضاد فقال (١) :

إن الذي ملاء اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

كما كانت أرجوزة شوقي المطولة « دول العرب وعظاء الاسلام » مفعمة بروح الزهو والاعتداد تجاه ما امتازت به العربية من سمات الروعة والأصالة . فقد أشاد أمير الشعراء منذ أياتها الأولى باللسان العربي وأثره في إقامة حضارة العرب ، كما أشاد خلالها بفصاحة هذا اللسان وبأن الله اختاره لكتابه الكريم . وقد توسع شوقي في مفهوم اللغة العربية وأورده بمعنى تراث العرب وثقافتهم . ولكن لجوءه باستمرار الى حث العرب على الاعتراف من معينها بعبارات من النوع الطلبي الانشائي جعل أرجوزته تلك في بعض مقاطعها أقرب الى المواعظ الباردة منها الى الشعر القومي الحار .

وزى الشيخ عبد الحميد الرافعي يزدهي بعبقريه هذه اللغة ويتغنى بسحرها في نشوة بالغة (٢) :

(١) الشوقيات ١ : ١٢٥

(٢) انيس المقدسي : الانشاعات الادبية ١ : ٩٨

شئف بذكر مفاخر العربان سمي وأنشئ خاطري وجناني

أما أبو الفضل الوليد فقد كاد هيامه باللغة العربية يبلغ مرتبة الوجد (١):

ألا يا جذا لفة تصبت
إذا لفظت كألحان المشاني
فؤادي في الغدو وفي الرواح
وإن خطت كأزهار الأقاحي
بها كتبت صحائف خاللات
فما صرف الزمان لها بمأحي
طربت لسمعها طفلاً وإني
لتطربني وقلبي لا نفتاح

ويطول بنا الأمر لو رحنا نستقصي ما قيل في موضوع الاعتزاز بلغة العرب وبيانها المشرق، ويكفي أن نشير إلى أن هذه الظاهرة ليست في جوهرها إلا مظهراً بارزاً للاعتزاز بالعروبة نفسها باعتبار هذه اللغة أقوى أسسها وأهم مقوماتها. ومن العوامل التي ساعدت الشعراء على أن يولوا اللغة العربية اهتمامهم البالغ في هذه المرحلة من تكون الشخصية العربية طول صحبتهم لها وغوصهم على أسرارها وإدراكهم لمكونات جمالها فلا عجب أن يطربوا لسحر نبراتها وينتشوا بجرس ألفاظها لتغدو آخر الأمر جزءاً حياً من كياناتهم ووجودهم ورمزاً أصيلاً لتراثهم وثقافتهم، وموثلاً عذباً لأفكارهم ومشاعرهم.

٢

على أن الظروف السياسية والاجتماعية الحادة التي طرأت على العرب خلال الفترة المبكرة من نهضة مجتمعاتهم التحفز فرضت عليهم أن يخوضوا معركة اللغة القومية في غمار معركتهم الكبرى معركة دعم الكيان العربي

(١) ديوانه : الانفاس المهيبة ٨٣

وتوكيد ذاته وتقرير مصيره . فقد أمت بلغة العرب في هذه المرحلة من حياتهم الحديثة محن شديدة وأزمات حادة كانت خلالها عرضة لحملات ظالمة شنها عليها أعداؤها وأبناؤها على حد سواء . وكان أول عهدا بذلك في أرض الكنانة حيث كانت النهضة الفكرية والأدبية تزدهر على ضفاف النيل أيما ازدهار، وغدت مسألة الفصحى والعامية في جملة المسائل الكبرى التي كانت مشارب بحث وجدال . فمئذ أواخر القرن التاسع عشر (١) حورت الفصحى حرباً لا هوادة فيها في مصر حين اشتدت الدعوة - تحت ستار البحث والتيسير - الى استبدال العامية بها واتخاذ الحروف اللاتينية لنة للكتابة . وفي ذلك الحين نظم حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة التي نافح فيها عن العربية بجرارة فقال متحدثاً بلسانها (٢) :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي	وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتي	عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن أي به وعظمت
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله	وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	فهل سألوا الفواص عن صدقاتي
أرى لرجال الفرب عزاً ومنعة	وكم عز اقوام بعز لغات
أيطربكم من جانب الفرب ناعب	ينادي بوأدى في ربيع حياتي
واسمع للكتتاب في مصر ضجة	فاعلم ان الصائحين نعاتي

فمن الواضح ان شاعر النيل يقف طرفاً في تلك المعركة حين ينافح عن

(١) بدأت هذه الدعوة أواخر عام ١٨٨١ حين اقترحت مجلة المنتطب كتابة الملوم بلغة الحديث ودعت رجال الفكر الى بحث اقتراحها ومناقشته . ثم نشر عيسى اسكندر الملوفا عام ١٩٠٢ مقالا في الهلال عدد مارس أبان فيه عن جهوده في ضبط اللهجات العامية وتعميدها كما دعا الصحف الى استخدامها . وفي الوقت نفسه أصدر « ولور » الانكليزي كتاباً عن لغة القاهرة آثار عاصفة من الجدل ، ثم ترجمه زليم ولكوكس الإنجلي الى ما سماه اللغة المصرية عام ١٩٢٦ قاتار عاصفة جديدة ، ثم أثير الموضوع من جديد إثر استبدال أناتورك الحروف اللاتينية بالعربية ، وانتقلت البدوى الى المجمع القومي نفسه في مصر .

(٢) ديوانه ١ : ٢٤٣

الفصحى لغة التراث والقومية ، كما تعكس قصيدته في الوقت نفسه بعض التهم والآراء الهدامة التي نادى بها ادعياء التجديد .

ولكن الأمر بدأ أشد خطورة بعد ذلك حين تبنى الدعوة في مصر نفر من أدبائها بعد خمود ثورة ١٩١٩ الوطنية . فقد انحرف الشعار الوطني (مصر للمصريين) وآل الى زعنة فرعونية انطاوية متعالية تعرضت معها اللغة العربية الى حملة شعواء من قبل أبنائها ، وعلت أصوات تنادي « بضرورة خلق أدب قومي يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد (١) » وأن تغدو اللهجات المحلية لغة الأدب فتقوم على أنقاض العربية لغة مصرية وأخرى شامية وثالثة عراقية ... الخ على نحو ما آل اليه أمر اللاتينية حين تفتتت الى فرنسية وإيطالية وأسبانية ... وزعم بعضهم أن مصر « ورثت من غزاتها الجدد (يعني العرب) الاسلام واللغة ولكنها حافظت على خواصها القومية .. ، ومصر لم تكن عربية قط (٢) . »

وقد اتسم الدفاع عن العربية - باعتبارها أحد المقومات القومية الأساسية - بمظهر آخر في مصر حيث خاض الشعراء معركتها ضد التفرنج والتحلل بعد أن تفتتت بين بعض الشبان المصريين بتشجيع من المستعمر وأقلامه السومومة روح ازدراء للغة العربية ولكل ما هو عربي ، فراحوا يشيدون بافضلية لغات الغرب ويتباهون بنبراتها ويزعمون أن العربية الفصحى آيلة الى الاضمحلال ، وليس بوسعها أن تسير روح العصر وحضارته ، وأن الأجدد اتباع اللهجات العامية ودعمها لأنها لغة الحياة (٣) .

(١) من مقالة لحمد أمين حسونة في السياسة الاسبوعية ١٩ يوليو ١٩٣٠

(٢) من مقالة لحمد عبدالله عان في ملحق السياسة لإلدي ١٤ أكتوبر ١٩٣٢

(٣) انظر تفصيل ذلك في كتاب محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٣٥ ، وما كتبه سلامة موسى في أواخر كتابه (اليوم والغد) .

ويعتبر مصطفى صادق الرافعي في طليعة حماة العربية في نثره وشعره ومن
بعض ما قاله في هذا الموضوع قصيدته « اللغة العربية والشرق » ومنها :

أم يكيد لها من نسلها العقب	ولا تقيصة إلا ما جنى النسب
كانت لهم سببا في كل مكرمة	وهم لنكبتها من دهرها سبب
كان الزمان لنا واللسن جامعة	فقد غدونا له والأمر منقلب
إذا اللغات ازدهت يوما فقد ضمنت	للعرب أي فخار بينها الكتب

ثم يندد محمود غنيم بالذين بهرهم كل ما هو غربي وتنكروا لقوميتهم
ولغتهم فعادوا لآخرين ولا غربيين وذلك في قصيدة أسماها « قومي بين الشرق
والغرب » وقال فيها (١) :

أبناء عمي من نزار ويعرب	ليسوا بأعراب ولا أعجم
لا تأمنوا المستعمرين فكم لهم	حرب تقنع وجهها بسلام
حرب على لغة البلاد وعادها	ليست تشن بمدفع وحسام
لا أعرف العربي يلوي فكه	إن هم يوماً فكه بكلام
إن فاه تسمع لكنة ممقوتة	من فيه (سكسونية) الأتنام
لفظاً من الفصحى وآخر ناييا	كالقار بمزوجاً بكأس مدام
لن يستعيد العرب سالف مجدهم	ولسانهم غرض لكل سهام
إن يرفعوا ما انقض من بنيانهم	فالضاد أول حائط ودعام

والجديد في هذه الابيات التي نقلت على أثر استفحال موجة التحلل
والبيوعة بين الشبان في أعقاب الحرب الأولى ، أن الشاعر استطاع أن يدرك

(٢) ديوانه ٩٧ : ١٠١

حقيقة مرامي الحملة على اللغة العربية ، وأنها كانت جزءاً من أساليب الاستعمار
وحرهم المقننة ضد العرب ولقنهم .

وقد قارن على الجارم بين ماضي العربية الزاهر وما تعانیه في حاضرها من
كيد ثم حمل بشدة على هذه الزمرة اللثيمة فقال (١) :

وعانت العجمة الخقاء نائرة على ابنة البيد في جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخى إحن مضمخ بدماء العرب مختضب

ومن الواضح أن سبب هذا الدفاع الحار عن اللغة العربية من قبل الشعراء
والكتاب لا يقتصر على كونها لغة القرآن ووسيلة نقل التراث التليد فحسب ،
بل يتعدى ذلك إلى كونها أقوى رابطة تشد العرب بعضهم إلى بعض ، وتجمل منهم
أمة قوية تتبوأ مكانها على وجه الأرض ، فالتحول عنها إلى لغة أخرى أو
استبدال اللغات العامية بها كان يعني في حقيقة الأمر فقد أقوى الأواصر
الواشجة ، وبالتالي انهيار المجتمع العربي أو انصهاره في مجتمع آخر ، أو تفتته إلى
مجتمعات عديدة تتباين لهجاتها العامية مع الزمن حتى تنفك — مع بأهلها آخر الأمر
أواصر النسب .

ولعل هذه النبرة على اللغة العربية التي تجلت لدى شعراء مصر بالدرجة
الأولى كانت من أهم الأسباب التي حفزت لذلك القطر عروبه من النزعات
المتطفلة ، ولم يكن يضارع هذه القصائد حرارة وغيره على العربية إلا ما دبحته
أقلام كبار من أمثال مصطفى صادق الرافعي ومي زيادة وأحمد حسن الزيات
ومصطفى الباني المنفلوطي واسعاف النشاشيبي وسواهم في هذا المقمار . وكان
مصر قد عوضت بذلك عن بطئها - خلال فترة من تاريخها الحديث - في
المضمار القومي ، فهي منذ القدم ملاذ الفصحى . « ولما كانت وحدها تمتاز عن بلاد

(١) ديوانه ٣ : ٥٥

العرب الاخرى في أواخر العهد العثماني يكون اللغة العربية فيها اللغة الرسمية ، في حين كانت التركية هي اللغة الرسمية حتى في الولايات العربية فبعد كان العرب يتطلعون الى مصر ويطبقونها على هذه النعمة وبيجلون انفصالها عن الدولة العثمانية الذي اكسب اللغة العربية ما تستحقه من المكانة ، وقد ظلت بعد الحرب الأولى في نظر العرب كعبة الفصحى ومحجّة الفكر والادب في العالم العربي (١) .

٣

ولعل أبرز معركة حقيقية في الشرق العربي خاضتها اللغة العربية على أساس كونها في مقدمة مقومات القومية العربية ، ثباتها أمام محاولات التتريك التي قام بها حكام الآستانة قيل الحرب الكبرى وأثناءها . وكان التعرض للعربية في مقدمة الاسباب التي دفعت بالكثيرين من نهاء العرب المواليين للعثمانيين الى أن ينفضوا من حولهم . ومن أشهر هؤلاء الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية والشيخ عبد الحميد الرافعي الذي يقول مفتخراً بلغته وإشراق بيانها ومعرضاً بمن يكيدون لها (٢) :

لغة بفضل جمالها وجلالها	شهدت شواهد محكم القرآن
قل للآلى جملوا مكاتها وقد	كادوا لها في السر والاعلان
عاديتم ما تجهلون ولم يعب	قدر الورود كراهة الجعلان
والله يأبى أن تذلل فبشروا	من رام ذلتها بكل هوان

وقد صح ما تنبأ به الشاعر فكان الهوان نصيب الترك الذين راموا إذلال العربية لان الله يأبى أن تذلل . ومن الملاحظ أن في هذه الايات غيرة شديدة على

(١) انظر ساطع الحصري في آراء واحاديث في القومية العربية ١٣ - ١٤

(٢) أنيس المقدسي ؛ الاتجاهات الادبية ١ : ٩٨

اللغة العربية صدرت عن بواث دينية وقومية معاً وهذا طبيعي لانها لغة
العرب ولسان القرآن. وهذه البواث نفسها هي التي أملت على أمين ناصر الدين قوله (١):

نحن الألى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الإلهام

حين تصدى للرد على اقترارات جريدة (إقدام) التركية التي كان دأبها
التنديد بالعرب ولغتهم. وفي ذلك يقول أيضاً أبو الفضل الوليد معترفاً بلغة العروبة
والاسلام (٢):

كفاهما أنها الله اصطفاها لقرآن تبلج كالصباح

وقد عبر فؤاد الخطيب عن محنة الامة العربية يومذاك مستكسراً سياسة
التبريك الجائرة (٣):

جاروا على لغة القرآن فانصدعت له القلوب وضح البيت والحرم
فالقديس باكية والشام شاكية وفي الحجاز يسكاد الركن ينحطام

بهذا المنظار الديني المقدس نظر عدد من الشعراء العرب وبخاصة في المراحل
الاولى من تطور الشعور القومي الى اللغة العربية حين تعرضت لكيد الترك. وقد
اعتبروا الدفاع عنها دفاعاً عن الاسلام أيضاً، ولم تكن مناصرتهم للغة العرب إلا
مناصرة اقومية في الوقت نفسه. ويمكن القول إن هذه الظاهرة أي المنافحة عن
اللغة العربية تمد جديدة في الشعر القومي أملتها سياسة الاتحاديين العنصرية الخرقاء.

٤

على أن لغة العرب لم تلبث أن تعرضت في بلاد الشام نفسها زمن الاحتلال

(١) الإلهام - ٩

(٢) الانفاس الملهبة ٨٣

(٣) ديوانه ٢٥

لمعاصرة هدامة أخرى وبخاصة في لبنان منبت الشدياق واليازجين وآل البستاني وزيدان وسوام ممن تفاقوا في خدمة العربية وآدابها، فمد أن انحسر الحكم العثماني عن بلاد الشام وأصبحت في قبضة المحتلين الجدد غدا لبنان مصدراً لأفكار غربية على يد فئة عاقبة من أبنائه، المقيمين منهم والمهاجرين. من ذلك ما أزعجته لجنة من أدباء المهجر (١) في بيان أصدرته « بأن السوريين ليسوا بعرب، واللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرتهم الفاتحون الى استعمالها بدلاً من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية » كما طلع آخر في الوقت نفسه (٢) بنعرة مماثلة زاعماً « أن السوريين واللبنانيين ليسوا بعرب وإن تكلموا بالعربية »، وفي بيروت ولبنان قام نفر من الشعوبيين يدعون الناس الى الطلب من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في سائر محاكمها ودوايرها (٣). وكاررد الفعل لدى الشعراء متوقفاً فراحوا ينددون الى جانب الكتاب والسياسيين بتلك النعرة المهدامة وينافحون عن الفصحى بجملة. وقد نظم خليل مردم بك قصيدة في هذا الشأن أسماها « واعريتنا » نذب فيها بلوعة وأسى لغة الأجداد، وعمد الى إنطاق اللغة بلسانها على نحو ما فعل حافظ إبراهيم من قبل في قصيدته المشهورة التي نافع فيها عن العربية الفصحى ومن ذلك قوله (٤) :

(١) نعتي بها لجنة تحرير سورية ولبنان التي تحدثنا عنها من قبل في صدد الدعوة الفييقية المحلية في لبنان، وقد أعانت هذه الآراء في مذكرة رسمية قدمتها الي مؤتمر الصالح. انظر عدد جريدة السائح النيويوركية تموز ١٩١٩، والدكتور الكفافي ١٣٠، والدكتور عبدالكريم الاشر: النشر وقنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٥٤

(٢) هو شكري غانم الذي سبق ذكره في صدد الدعوة الفييقية أيضاً، وهو مؤلف مسرحية « عترة » بالفرنسية. نشر مقالة في إحدى صحف باريس إبان العهد الاستقلالي الفيصلي في دمشق تبرأ فيها من العرب والعروبة، وقد نددت الاوساط الوطنية بنعريته وعقسوقه وفي جاتها معروف الزصافي في قصيدته « صبح الاماني » أي العهد الوطني الجديد، انظر ديوانه ص ٤١٧.

(٣) انظر ديوان قسطنطين الحمصي، الهامش ١٠٩

(٤) ديوانه ١٦٢

هجرنا من الكلم الصحاح سخافة
لم يتركوها بعد ذلك وشأنها
واهاً لآساد فنذ ثكتهم
صمدت لعادي الدهر أطول مدة
واستبدلوا بعراياها
بل أجهزوا كي يطفئوا وهاجها
قصرت بدى عن أن تذودناجها
لو لم يقدر فرعه أبراجها

الى أن يقول مشيداً بمكانة اللغة في البناء القومي :

واضرب بطرفك هل ترى من أمة
إلا واللغة المقام المجتبي
عقدت على هام الحجرة تاجها
جعلوا الى هام السرى معراجها

وكانت قصيدة قسطاكي الحمصي الحلبي التي أسماها « البدوية » ورد بها على شعوبي لبنان من أقوى ما نظم في ذلك الحين . وفيها يشيد بحاسن تلك « البدوية » التي آثر أن يسميها « ليل » . وقد سلك الى غايته سبيل الرمز فقال :

بالله يا نسيمات الرند والبان
وهل لثمن من (ليلي) مباسمها
الى البداوة منسوب منابتها
وثوبها يقبل الأزياء ما اختلفت
حروفها لعان لا تطاولها
ألفاظها درر ، تركيبها سور
غزيرة الفضل لم يمجده محاسنها
لها الفصاحة تعزى أينما وجدت
وفي البلاغة هل خود تضارعها
وبعض خدامها عبد الحميد ومن
من نجد جتن أم من روض غسان
إني عليها غيور أي غيران
وإن غيت فهل فخر كعدنان
وليس يخلقه تكرار أزمان
في حسنها بنت يونان ورومان
آياتها غرر ، في كل قرآن
إلا جهول بايجاز وتبيان
شهودها مثل قس أو كسحجان
وأصلها صاعد^{٣٧} يسمو لقحطان
تلاه من أصفهاني (١) وجرجاني

(١) اي عبد الحميد الكاتب وأبو الفرج الاصفهاني وعبد القادر الجرجاني

وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم رب النبي اليازجي (١) الكوكب الثاني
 بلابل الشعر غنتها بدائمه على عجائب أوزان وألحان
 ما ضرها أنها والحسن عابدها لها حواسد من أهل وجيران

ويعضي الشاعر على هذا النحو مشيداً بالفصحى حتى يوفي على غايته ، ثم يلتفت
 الى معاول الهدم في لبنان فيقول :

يا أهل لبنان ماذا العهد كان بكم يا أهل لبنان قد أصممت آذاني
 أنكرتم اليوم (ناصيفاً) وأسرته نبشتم قبر (شدياق) (٢) (وبستاني)

ثم يختم قصيدته بالتعبير عن ثقته بصمود العربية وبقائهما وعن إيمانه
 بعروبة لبنان الراسخة مطمئناً الي أن أولئك المارقين لا يثقلون وجهه الحقيقي :

قم يا أخا الود لا تفضب لما أمثوا فليس لبنان ذا بل بعض لبنان
 ليلاك آمنة ما دام من رهنوا عهدهم عندنا من خير أعوان

وجلى أن الشاعر الحلبي يباهي في أبياته بأصل العربية العريق ، ويتحدث
 عنها حديث الصب المستهام الذي يغار عليها ويزهي بسحر جمالها وعذب كلاهما ،
 فهو لا يستغرب بعد ذلك أن يكثر حسادها والكائدون لها . كما نستشف من
 خلال أبيات الفصيذة ظلالاً لبعض التهم والافتراءات التي كان يرددها آنذاك
 أعداء الفصحى ، والشاعر يدحضها ويعرب عن إيمانه الراسخ بأنها لغة حية
 متطورة تصلح أداة لتفاهم في كل زمان ، وأن كثر العصور لا يبلي جديتها
 ولا يذهب برونقها ؛ ألم تكن لغة حضارة الامويين والعباسيين وناقلة تراث
 اليونان في عهد المأمون وحاملة لواء العلم والمدنية في عهد الناصر بالاندلس . . ؟ .

(١) هو الشيخ ناصيف اليازجي أو ابنه ابراهيم وكلاهما لغوي كبير .
 (٢) احمد فارس الشدياق وبطرس البستاني وناصيف اليازجي من أعلام النهضة في لبنان .

والملاحظ أن نظم هذه القصيدة والقصيدة التي سبقتها لردم بك وأمثالهما كان في وقت واحد تقريباً وهو السنوات الأولى التي أعقبت الحرب الكبرى وبخاصة ما بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١ وهذه هي الفترة نفسها التي ظهرت خلالها تلك الآراء الهدامة تجاه العربية الفصحى في بعض أجزاء الشام وما يعد امتداداً فكرياً لها في المهجر . ويمكن أن تعد المطالبة بجعل الفرنسية اللغة الرسمية في لبنان وصدور بيان لجنة أدباء المهجر وعدهم العربية لغة دخيلة على سكان البلاد ، وظهور مقالة شكري غانم التي زعم فيها أن العربية لم تكن لغة السوريين وإنما اضطروهم الي استعمالها الفاتحون ، وماشاكل هذه الآراء ... مظاهر موجة واحدة طغت واستفجرت أمرها فترة من الزمن في مصر والشام ثم لم تلبث أن انحسرت بعد حين .

ومن جهة أخرى اتسمت المناقشة عن الفصحى بطابع آخر في بلاد الشام التي كانت تعد مصر رائدة شعوب العرب المكافحة نحو التحرر والنهوض . فقد هال السوريين استفحال النعرات التي ترمي الى سلخ أرض الكنانة عن عروبها ، وزحزحتها عن الفصحى ، وحز في نفوس أبنائها صدور ذلك الشاز من موئل الفصحى وملاذها . فقد انبرى عدد من الشعراء لمخاطبة أشقائهم في مصر بلهجة المعاتب المشفق . وهذا أحمد الشريقي يناجي سعد زغلول ويناشده الاعتصام بالفصحى ويقول (١) :

يا رمز مصر وحسب العرب جامعة	هذا اللسان وتاريخ به العظم
امدد يديك وصافح كل من نطقوا	بالضاد يقبل عليك القوم كلهم
يا مصر يا كعبة الفصحى وموئلا	لأنت للشام في آملها حرم

كما نافع شفيق جبري في قصيدته التي ألقاها تكريماً لحافظ إبراهيم

(١) ديوان الثورة . ٤٠

حين زار الشام عن تلك الروابط القومية المشتركة التي تتمثل في اللغة العربية وآدابها ، وتشد العرب بعضهم الى بعض ولو كانوا منتشرين في أقاصي الارض (١) :

تضمنت لغة لم يحس رونقها	زحف السنين بالأم وأشجان
لولا قوافل بوادي النيل ننشدها	في غوطة الشام أو في أرز لبنان
لقطعت بيننا الارحام واضطربت	بنا الوسوس في وصل وهجران
لكن مصر وان هشت وإن عبست	ركن العروبة للقاصي وللداني

ولم تلبث الاصوات الناشزة في مصر أن خفتت شأنها في لبنان ، وانحسرت موجة الاقليمية عن عروبة راسخة ، وكان صدور مجلة الرسالة مظهيراً لازدهار الاتجاه القومي في مصر ، وحين أهل عليها عالم جديد أشاد محمود غنيم بدورها في تقريب الافكار بين العرب فقال (٢) :

مشت مثل جان دارك بين العرب	تشد عراهم بأقوى سبب
تبشر بالضاد بين بنينا	وأكرم بجرمة هذا النسب
وما وحد الجمع مثل اللسان	ولا اتحد الجمع إلا غلب
إذا اتحد الفكر في معشر	تجمع من شمله ما انشعب
قد انتظمت أمم الضاد طراً	فكانت كعقد وكانوا كحب
فذا كاتب من أعالي الفرات	وذا من دمشق وذا من حلب

وقد وجد عرب المهجر في تلك البيئة الاعجمية التي قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وضماً مشابهاً لما كانت تعانیه ائمتهم القومية في الشرق ففاضلوا عنها بقوة وإيمان على الرغم من ضعف وسائلهم وقلة عددهم وقسوة ظروف الحياة

(١) ذكرى الشعراء ١٩١

(٢) ديوانه ٢٢٨

عليهم. وثمة أبيات لآلياس فرحات تنمى على النشء العربي الجديد في المهجر تفرّج به
وتحلله من روابط قوميته وهي تبض غيرة على العربية (١) :

وصلتنا بذويتنا لنة	لم تصلنا بيننا الظرفاء
كل حيوان حقير عالم	بلغاه وبنونا جهلاء
إن نقل قولاً فصيحاً بينهم	رددوه بلسان اليبغاء
ومضوا تمدجنا أعينهم	وعلى الثغر ابتسامات ازدراء
خالطوا المعجم فصاروا مثلهم	دأبهم للعرب إضمار العداء
نحن غرقى في خضم إنمنا	لغة الضاد سفين للنجاء

وكان في طليعة مظاهر حنين المهجرين الى أرض وطنهم شوق الى
العروبة يبرى أجسامهم ويحملهم شديدي الاحساس بغربتهم . فالشاعر
القروي لا تسليه تلك الجموع الغفيرة التي تضطرب حوله ولا المدن المحتشدة
بأهلها لانه لا يسمع منها أنغام لغته العذبة لغة الام والاهل والوطن ،
إنه يشكو تلك الحال في مقتربه (٢) :

حولي أعاجم يرطنون فما	للضاد عند لسانهم قدر
ناس ولكن لا أنيس بهم	ومدينة لكنها قفر

ومن الطبيعي أن يكون افتقاد المهجرين لغة الوطن في تلك البلاد
العربية من أقوى أسباب حرصهم على الابقاء عليها ، ولطفهم على سماع
نبراتها الشجية . ومن طريف ما قاله الشاعر القروي معبراً عن هـواه في حب
العربية ، تلك الايات في متفرنج عربي (٣) :

(١) ديوانه ١٩٧

(٢) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية ٢٥

(٣) الديوان ٣٩٠

أضحك ما يضحكي ، مستعجم يسبني بلفه يسبها
وحقها إن لم أكن أجبه ساحتة لأنني (١) أحبها

والظاهرة الحميدة أن صدى هذه الافكار الضارة كان خافتاً في الشعر ،
حتى إننا لم نعر على شاعر يدعو الى العامية كما لم تقع على قصيدة تسدد
بالفصحى . وكأن الشعر يعكس باستمرار ضمير الامة ومنازعتها الاصيلية
دون أن ينحرف في مضمونه مع النزوات الطارئة والمجادلات المصاحبة . وكل
ما صدر على الشعراء في تلك العمرة مناداتهم بالتجديد ودعوتهم الى تطوير اللغة
وضرورة ملاءمتها لروح العصر، وكان حافظ إبراهيم يساير هذا الاتجاه في
مثل قوله (٢) :

تغيرت الدنيا وقد كان أهلها يرون متون العيس أين مضجع
ونحن كما غنى الاوائل لم نزل نغني بأرماع وبيض وأدرع

ونظم بمد ذلك قصيدة استهلها بوصف القطار بدلا من وصف الراحلة
ظناً منه ان ذلك يجمله في عداد المجددين (٣) . ولقد كان خليل مطران أكثر
فهماً لرسالة التجديد واطلاعاً على المذاهب الادبية والاتجاهات الفكرية لدى الغرب
في قوله (٤) :

لن ترجع العربية الفصحى الى ما كان منها في الزمان الاقدم

(١) هذا لموقف من القروي أشبه شيء بما أورده أحد نقادنا القدماء عن ظاهرة اجتماع
التممة الفنية بالالم النفسي ، حين ذكر قصة عربي كان يستمع الى شاعر يهجووه ، فقد أخذته
النشوة لجودة القصيدة واستبد به الالم لوطأة معانيها على نفسه .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٩

(٣) انظر القصيدة في ديوانه ١ : ٢٨٣ ومطلعها :

صفحة البرق أو مضت في الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام

ما لم يعد ذلك الزمان وأهله والساد والاخلاق حتى جرحم
إن التجدد للسان حياته ومن الذي يحيه غير المقدم

كما حمل أحمد زكي أبو شادي لواء التجديد وصدق التعبير عن النفس في
أشعاره ثم في مجلته (أبو لو) إذ قال (١):

علام نهرتي لوفاء جيلي بلفظ أو بمعنى أو دليل
ولست أعيش في قرن تقضى ولا في غير ذا الوطن الجميل
فلفظي ما يصيغ بيان قومي وحسي حسهم أبداً زميلي

٥

أما كوف اللغة الضادية جامعة اللسان وأحد المقومات الرئيسية للشعور
القومي ، والرابطة الأساسية بين الشعوب العربية ، فقد عبر الشعراء عن
ذلك الجانب تعبيراً واعياً يفوق ما كان منهم تجاه المقومات الأخرى للقومية
العربية . ففي اعتقاد معروف الرصافي أن لغة الضادا كبر رابطة قومية بين
العرب (١) :

وتجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات

ونحن نستشف في ديوان شوقي « دول العرب وعظاء الاسلام » ،
تخطيطاً مبسطاً لعناصر القومية العربية؛ إذ وضع أمير الشعراء لغة العرب

(١) ديوانه ٣ : ٣١

(٢) ديوانه ٥٦٥

في رأس تلك العناصر فقال (١) :

رب لسان جمع الاقواما وكان كالجنس لهم قواما

وقد نجد في الشعر القومي عنصر اللغة مصاحباً عنصر العقيدة الاسلامية في بعض الاحيان وبخاصة لدى الجيل المتقدم من الشعراء من مثل شوقي وحافظ والرصافي والزهراوي والكاظمي . فها قاله معروف الرصافي (٢) :

إذا القوم عمهم أمور ثلاثة لسان وأوطان وبلد إيمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة بها قال انجيل كما قال قرآن

ويعود الرصافي الى ذكر عنصر العقيدة الدينية مقروناً بأصرة اللغة في قصيدته « بين تونس وبغداد » (٣) :

أتونس إن في بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب الى من خص منقطعهم بضاد
وما ضر ابعاد اذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد

ولكن أصرة اللغة في تكون الشعور القومي بدأت تستقل بنفسها في الشعر الحديث مع تتابع الايام لاسباب عديدة ، منها انهيار نظام الخلافة العثماني ، وتأثر الشعراء الشباب بالنظريات الاجتماعية ونظم الدول الاوروبية التي كانت جميعاً تتناول المسائل القومية في منأى عن الدين . وتبدو هذه الظاهرة الجديدة بطبيعة الحال لدى الشعراء المسيحيين الذين لا يستشعرون سوى العروبة ولغتها رابطة تجمعهم مع العرب المسلمين . وهذا حلیم دموس يشيد بدور اللغة في بناء كيان الامة فيقول (٤) :

(١) دول العرب وعظاء الاسلام

(٢) ديوانه ١٣١

(٣) ديوانه ١٣٠

(٤) الثالث والثاني ١ : ٤

وأتم يا بني قومي أناشدكم بمن به عز انجيل وقرآن

صونوا حمى اللغة الفصحى فليس لكم

من دونها وطن يملو له شان

وهو يرى بحق ان اللغة العربية هي الرابطة الكبرى التي تؤلف بين
المتكلمين بها على اختلاف عقائدهم (١) :

ستظل رابطة تؤلف بيننا في الرجاء لناطق بالضاد

كما يصدر عن ذلك أبو الفضل الوليد في مهجره (٢) :

ما بيننا نسب فيه لنا شرف وهذه اللغة الزهراء برهان

عيسى وأحمد في بلواهما اجتماعا والناطقون بحرف الضاد اخوان

وكان من أجمل ما قاله أنيس الخوري المقدسي من ربوع لبنان (٣) :

ان فرق الايمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد

قربت به الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فت في اليد

وبرشم عزوف فوزي المألوف عن الشعر القومي واثيره العيش في جو
رومانسي حلم فانه لم يكن معزولا عن شؤون الحياة والمجتمع في فنه الرفيع ،
ان لغة الضاد في اعتقاده أقوى أمصرة قومية تشد العرب بعضهم الى بعض (٤) :

فلتحي قومية كانت لنا نسباً يضم أشتاتنا ما فاتنا النسب

(١) المالك والثاني ١٣٢

(٢) الانقاس المهمة ٧٥

(٣) الاتحافات الادبية ١ : ١٠٢

(٤) دبواه ٣٠

تالله لا نرتقي إلا متى أتحدت تلك المآذن في الاوطان والقب
ولتستعد لغة الضاد التي دعيت أم اللغات شهاباً برده قشب
ان لم نكن كلنا في أصلنا عرباً فنحن تحت لواها كلنا عرب

كل هذه الايات والمطوعات تم عن ادراك قومي سليم واجلال لشأن
اللغة وأهميتها في احكام عرى الوحدة بين العرب على اختلاف عقائدهم .
وفي مقابل هذا الشعور القومي الفياض نجد قصائد كثيرة مماثله مما نظمه
سائر الشعراء العرب من المسلمين الذين حرصوا بدافع من تسامحهم الديني
على إبقاء اللغة عنصراً قومياً مستقلاً عن عنصر العقيدة الاسلامية في
المضمار القومي ، وهذا مصطفى النلايني يقول وقد عاش في بيئة لبنان ذات
الحساسية الطائفية (١) :

ما في الديار وإن لجوا سوى عرب من عهد آدم سل آثارهم تجب
إن فرقهم ديانات فقد جمعت أهواءهم لغة الأجداد في سبب
كما يرى بدوي الجبل الشاعر السوري في لسان الضاد الجامعة الكبرى
لشعوب العرب وخير عاصم لكيانهم القومي تجاه الدخلاء الفاسين (٢) :

كل الربوع ربوع العرب لي وطن ما بين مبتعد منها ومقرب
للضاد ترجع أنساب مفرقة فالضاد أفضل أم برة وأب
تفي العصور وتبقى الضاد خالدة شجى بخلق غريب الدار مقتصب

وتممة نشيد وطني ينسب الى فخري البارودي سار على كل لسان إبان
الاحتلال الفرنسي لسورية يشيد بجامعة الاسان بين العرب على اختلاف أماكنهم
وتمدد دياناتهم ، ومن مقاطعه :

(١) ديوانه ١٠٠

(٢) ديوانه ١١٣

فلا حد يمزقنا ولا دين يفرقنا
إسان الضاد يجمعنا بنفسان وعدنان

وحين قامت جامعة الدول العربية أشاد خليل مطران بفضل هذه اللغة في إقامة ذلك الصرح القومي ، وقال مخاطباً زعماء العرب (١) :

يا سادة العرب من صيابة نجب أوتوا الرياسات أو أرباب تيجان
تضمهم في سبيل الضاد جامعة كل بها لآخيه خير معوان

وهكذا عبر الشعراء بتأثير ظروف وبواعث معينة عن مدى تعلقهم بالعربية باعتبارها مظهرراً فنالاً للشخصية العربية . إلا أن الجانب السلبي كان يغلب بصورة عامة على ما مر بنا من أشعار حول هذا الموضوع سواء ما كان منه مباحاة بأصالتها وتغنياً بسحرها وإعجازها أو ما كان دفاعاً ومناضلة عن اللغة القومية ، أو ما كان أخيراً تنديداً وتقريعاً لرماتها والعاقين من أبنائها .

وهكذا يتضح لنا أن رابطة اللغة حظيت في الشعر الحديث بمكانة لا تدانيها رابطة أخرى على الصعيد القومي . لقد كانت في نظر الشعراء العلاج الفعال للعائفة المذهبية والتعصب الديني ، كما كانت الجامعة للشمل المبدد ، والطريق الطبيعي المؤدي الى وحدة العرب ، وأخيراً الدرع الواقية من النزعات المنحرفة والأفكار الضارة ومن شر كل معتد أثيم .

(١) ديونه ٤ : ٣٥٧

الفصل الثاني

الماضي المشترك

١

من طبيعة الأمم أنها في فترات نهوضها تلوذ بماضيها ، وتستوحي أجدادها السالفة ، وتعيش على نشوة ذكرياتها الغابرة ، والنهضة العربية الحديثة شأنها في ذلك شأن النهضة الأوربية قبلها كانت ترمى الى بعث الماضي العريق ، وإحياء التراث الغابر ، واستعادة الأجداد السالفة . وقد قيض للعرب ماض زاهر وحضارة راسخة الأصول بوأتمهم مكانة مرموقة بين الأمم في تاريخ البشرية . فحين يرجع المؤرخ القهقري عبر القرون السحيقة يمثل أمامه العرب أمة من أعرق الأمم وأقواها ؛ فقد أقاموا فيما بين النهرين حضارات غابرة أعقبتها عبر الزمن مدنيات زاهرة في اليمن والبتراء وتدمر والحيرة « وكان ظهور العرب في خلال هذه الفترات التاريخية الطويلة كالينابيع تظهر في بقاع الأرض وكأنهم يطلمون على الزمن من وراء حجب الغيب » (١) ثم كان لهم منذ ظهور الاسلام أجداد لم يعرف نظيرها عصر ولم يجتمع مثلها الأمة .

« إن موضع الفرد من أسرته ورهطه ودولته وأمته ، وموضعه في العالم إنما تحدده ظروف البيئة الزمنية التي وجد فيها . ولذا فإن القومية هي ذاكرة قبل كل شيء ، وبتعبير آخر إن التاريخ هو ذاكرة المجتمع ، حياتنا صيرورة

(١) محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٦٦

مستمره ، هي نهر له منبع ومصب ولا يمكن ان يستغني المصب عن النبع . كل شيء في الحياة هو تسلسل (١) .

ومنذ القدم عرف العربي بروحه المحافظة ، وحرصه على الاحتفاظ بنسبه ، واعترازه بتواصله . ولقد أخذ العرب في هذا العصر يعيرون تاريخهم وماضيهم اهماً بالغاً ، فهم اليوم تواقون الى استعادة تلك العهود المشرقة وبعث الابداع الرائعة . « وليس التاريخ عند العرب ماضياً بعيداً ميتاً يستعيدونه عندما يشاؤون ، وينسونه عندما يريدون ، ويتدارسونه في مظانه عندما تدفعهم الحاجة الى حفظه وتذكره ، بل هو بينهم شديد القرب منهم بحيث يمكن أن يقال ان العرب يعيشون تاريخهم . وفي الحقيقة أنهم يذكرون أجدادهم ويحسونها كأنها جزء عضوي من وجودهم .. وكل عربي يعرف الكثير عن النبي محمد وعن عمر وعلي والحسين ومعاوية وخالد والرشيد وصلاح الدين وعنتره ...

ويرفد التاريخ العربي القديم تاريخ الحركات الشعبية الثورية ، وتاريخ النهضة القومية في الآداب والعلوم منذ مطلع القرن التاسع عشر . كما أصبح التاريخ المعاصر جزءاً من التاريخ القومي للعرب ، يعتزون به ويتأثرون بسير أبطاله (٢) .

وهكذا كان التاريخ العربي الحافل قاسماً مشتركاً بين العرب ، ألف بين مشاعرهم في شتى أقطارهم المتباعدة ؛ « فقد واجهوا دائماً مصيراً واحداً ، وأدوار الانحطاط والازدهار كانت تشملهم في فترات واحدة ، وكان الخليفة في أغلب الأدوار واحداً . وحين وقعت البلاد تحت الحكم العثماني وقعت جميعها دفعة واحدة ، وحين انحسر عنها لاقت جميعها المصير الواحد وأصبحت فريسة للاستعمار وعندما بدأت النهضة الحديثة في العالم العربي سارت في وقت واحد وفي اتجاه واحد ، وحين عزمت القومية العربية على التحرر والاستقلال هبت في وقت واحد (٣) .

ان نمو الشعور الذاتي وازدياد الوعي الفكري لدى العرب منذ أوائل

١ الدكتور عزة النس ، مجلة الآداب ، نيسان ١٩٦٠ ص ٢
٢ نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين : هذا العالم العربي ١٥
٣ محمد منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة ١٤٨

القرن العشرين كان لها الاثر الاول في انشطار الدولة العثمانية بعنصرها الرئيسيين الى قوميتين بارزتين . فقد اتضحت ملامح الشخصية العربية والشخصية التركية وأخذت كل منها تتميز عن الاخرى . وكان أبرز مظاهر هذا الشعور الذاتي المتنامي لدى العرب اعتزازهم بماضيهم وافتخارهم بتاريخهم . وكان ذلك سبباً في التأمل والتفكير في هذا الماضي وتمييز الصفحات الجيدة منه ، والتفتيش عن مواطن القوة وأسباب النجاح والتقدم في ثنائه . « وأصبح للعرب مصدران يستمدون منها القوة : أحدها خارجي يجدونه في نماذج الامم الاوربية ، وثانيها داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم . وكان هذا المصدر الثاني يتزايد قوة ويتسع أفقاً » (١) .

ولقد كان للأدب وللشعر بوجه خاص أثر فعال في ربط العرب بماضيهم وإحياء غابريهم . وهذه ظاهرة طبيعية في أدب كل أمة تجتاز مرحلة البعث . والشعراء في هذه المرحلة الحديثة من حياة العرب كانوا ذاكرة أممهم وضميرها الحي الخلاق ، صاغوا من قرائنهم تائيل لابطالهم في قصائدهم وأحلوا أمجادها سويداء قلوبهم ، حتى صار جهم لجدودهم وجراداً ، واكبارهم لغابريهم تقديساً ، ومن هنا كان ماضي أممهم الخافل بأعرق الاجاد ماثلاً على الدوام في نفوسهم ، حياً وهاجاً في قصائدهم . ولم يكن من الطبيعي لدى أمة تشق طريقها من جديد نحو حياة كريمة أن يهدر كتابها وشعراؤها تاريخ حقب مديدة حافلة بأروع الذكريات ، وأن يدودا في فترة النهوض تلك الطاقة الكامنة في النفوس شأن الشعورية ، بل الطبيعي أن تُبعث حية ماثلة تعيد الى النفوس اليانسة أو الشاكرة تقها ، وتعمر قلوب الاجيال الصاعدة ايماناً بمستقبلها .

إن كل بقطة قومية حقيقية لا يمكن ان تنطلق من الصفر . ولقد امتدت دوحة القومية العربية بجذورها بعيداً في الماضي التليد وكان لها من نتيجة رسالتها السامية وحضارتها الاصلية كيان راسخ متميز .

(١) انظر محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ٥٢

كل هذه العوامل التي اتسم بها ماضي العرب وحضارتهم وتراثهم كان لا بد لها من أن تؤثر في حاضرهم وفي حياتهم الراهنة وأن تتجلى قوية على أقلام كتّابهم وألسنة شعرائهم .

٢

إن الشاعر العربي الحديث بحكم فترة البعث القومي التي يعيشها وتبعاً لتثقافته الوثيقة الاتصال بتراث العرب وماضيهم كان أشد وعياً لعنصر التاريخ في المضمار القومي وأكثر لصوقاً به . ونحن نجد مثلاً في أبيات محمد الشرفي ما يشير إلى أهمية التاريخ العربي المشترك واعتباره إلى جانب اللغة المشتركة عاملاً أساسياً ومقوماً هاماً في تكوين الشعور القومي إذ يقول (١) :

يناطق الضاد إن جزت الشام غدا
عرج على مصر حيث المجد والكرم
وازل هناك باخوان غطارفة
ظلالهم مدها التاريخ والرحم
ثم يقول مخاطباً سعد زغلول :

يارمز مصر وحسب العرب جامعة
هذا اللسان وتاريخ به العظم

ولسنا نعتقد أن ورود لفظ (التاريخ) في بيتين متتالين على أنه عنصر القومية أمر عارض ساقته الصدفة ، إذ المرجح أن هذا الشاعر لم يكن - كما لم يكن سواه من الشعراء - في نجوة من التأثر بالنظريات الاجتماعية والابحاث القومية التي كانت وما زالت لها الخطوة في نفوس المثقفين ، وما يؤكد ذلك ورود عامل اللغة ثم عامل التاريخ معاً في البيت الأخير وهما في نظر الباحثين الاجتماعيين دعائماً هامتان من دعائم القومية .

وقد وعى الشعر الحديث زبدة التاريخ العربي الحافل واستوحى أروع

(١) ديوان الثورة : ٤٠

آياته من أمجاده السالفة التي رأى فيها حافظاً قوياً على النهوض . وكان شعراء العصر الحديث في هذه الفترة من النهوض القومي مشدودين بقوة الى أمجاد العرب الغابرة يشيدون بعظمتها ويتغنون بسجرها على نحو عاطفي محض لا يتمدى في كثير من الاحيان هذه المرحلة الى تمحيص ذلك الماضي والانطلاق منه نحو واقع عربي وطيد .

ويبدو أن هالة محبة الى النفوس ترسم حول ذكريات الأفراد والأمم كلها أوغلت في القدم ، وقد وجدت هذه الذكريات المتمثلة في ماضي العرب المحيد صدرأ فسيحاً في الشعر الحديث ، إذ تعنى الشعراء بالعهود السالفة ما طاب لهم التعني ، ونفخوا الحياة في السنين الخالية ، وبعثوا الحرارة في الغابر التليد . وبذلك أسهموا إسهاماً فعالاً في تكوين الوجدان الجماعي المشترك للامة العربية .

وكان ما نظمه الشعراء في هذه الفترة من العصر الحديث شعراً كثيراً في مقدمته ما قيل في عظمة العرب وأعلام تاريخهم ، وعلى رأسهم الرسول محمد عليه السلام ثم خلفاؤه الراشدون ومشاهير خلفاء بني أمية والعباس وكبار القواد والفاحين وعمامة الفكر والأدب .

ولا مرأ في أن أحمد شوقي يعد رائد الشعراء وسيد هذا الفن في الشعر الحديث ؛ فقد برع في استلهم الماضي التليد واستنطاق الأمجاد الغابرة على نحو لم يسبق له مثيل . وأبرز ما بطالعنا في هذا المجال مطولته الرائعة « كبار الحوادث في وادي النيل » . وقد نظمها في مستهل شبابه وقبل أن تغرب شمس القرن التاسع عشر . ولعل فترة إقامة شوقي طوال سني الحرب الأولى منفياً بالأندلس أخصب مرحلة في نظم قصائده التاريخية أو التي تستوحى ماضي العرب ، على قلة احتفاله بنظم الشعر آنئذ ، وذلك مثل أرجوزته المطولة « دول العرب وعظمة الاسلام » و « أندلسيته » التي يعارض فيها ابن زيدون ، وموشحه

« صقر قريش » والقصيدة السينية التي يعارض فيها البحري . لقد كان شوقي في محنة وكان وطنه في محنة أيضاً ، ومن طبيعة النفوس وكذلك الأمم أنها تهفو الي ماضيها وتلوذ بفارها لتستعين برصيد أمجادها على حاضرها بمشكلاته المستعصية . « التفت شاعرنا حوله في الأندلس فرأى أن أيام العرب والسلمين في تلك الديار أصبحت حلاماً من الأحلام ومرتماً للذكرى ، وآثاراً تبعث في النفس الأسى . وامتد الشاعر يبصره الى الشرق فرأى سباتاً ولهواً ييمئان اللوعة . أفلا يستطيع أن يخلد ذكرى البطولة العريسة ، ويعرض على الافئدة صوراً من مجد الأجداد عل فيها لهم الغزاء من الحاضر ، والأمل في المستقبل ؟ إن حنينه الى عزة العرب والمسلمين التي ذكرته بها آثارهم يدفعه الى أن ينقل لهم سير عظماهم » (١) وقد تناول في أرجوزته تلك أبرز رجالات العرب والاسلام فابتدأ بأبي بكر ثم انتقل الى عمر وأشاد بفتوحه ، ومضي بعدها الى عثمان وعلي حتى اذا بلغ خالد بن الوليد أشاد بطولته وانتصاره على الروم حتى أتمل أعمال (هانيبال) القائد القرطاجي وعبوره الألب بجيوشه . فهو يقول عنه (٢) :

فكان في السماوة الرئبالا لا تذكر الألب وهانيبالا
أقبل سيف الله يزجي خيله ويل هرقل منه ثم ويله

ويتنقل بعد ذلك الى عمرو بن العاص وفتحه لمصر وزوله بالفسطاط ، ثم الى معاوية وبعده الى عبد الرحمن الداخل الذي يكن له إعجاباً خاصاً فيخصه بموشحه « صقر قريش » . وما يزال كذلك حتى يتناول مجد العباسيين ويشيد بياس المنصور الى أن يبلغ مجد الفاطميين ويشيد بالمعز . وينتهي به الأمر عند حديثه

(١) أنظر ماهر حسن فهمي في كتابه شوقي وشعره الاسلامي ١٩٣

(٢) دول العرب وعظماها الاسلام ٦٩

عن الأيوبيين فيمجد بطولة صلاح الدين ويندد بالصليبيين الغزاة الذين جاءوا يهدمون ما أقامه العرب والمسلمون .

ولا يظن أحد أن شوقي في قصائده هذه إنما كان يعمد الى مجرد نظم الأحداث التاريخية وسردها ، فلا مير الشعراء إيمان كبير بجدوى التاريخ وفضله على الأمة وفي ذلك يقول (١) :

غال بالتاريخ واجمل صحفه من كتاب الله في الاجلال قابا

وهو حين نظم أرجوزته في الأندلس كانت نفسه مفعمة بهذه الروح فهو يستلها بقوله :

حتى اراد الله ان نظمتُ من سير الرجال ما استعظمت
علما بما يبعث في الاحداث غرائب الاعمال والاحداث

وفي « أندلسية » شوقي التي نسج أيتها وحاك قوافيها على منوال قصيدة ابن زيدون النونية زاه يتغنى بأبجاد العرب في الأندلس ويذكر للمتمدن بن عباد مترحماً على تلك العهود الخالية .

وعلى الرغم من احتفال أمير الشعراء بماضي الأمة ونظامه الكثير من الروائع في هذا الشأن فإن نظراته النابذة الى هذا الماضي كانت تتسم بروح الاعتاض والاعتبار أكثر مما تتسم بالطابع الاجتماعي والقومي ، فهو مفتون أبداً باستخلاص العبرة والمغزى من أحداث التاريخ وتجارب الماضي . كما أنه في سنيته التي يذكر فيها العرب الاجداد ويكي عز الامويين ويستنطق

(١) الشوقيات ٢ : ١٨

آثارهم في الانداس يحز في نفسه رحيل العرب وتخليهم خارجين من الفردوس
المفقود كموكب الدفن خرساً . ثم يستخلص من هذا الوقف عبرة بالغة
ويرجو أن يفيد العرب من ذلك الدرس القاسي ، ويهيب بهم أن يتلفتوا
الى ماضيهم الحافل بالتجارب ، والماضي كثر العظمت ؛ إنه يحتم قصيدته
بقوله (١) :

حسبهم هذه الطول عظات من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات الى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

وقد صدر حافظ إبراهيم في الفترة نفسها عن مثل هذا الاعتزاز بأحد
أعلام العرب والاسلام حين نظم عمريته الرائعة عام ١٩١٨ وهي تقرب من مائتي
بيت ، وقد ختمها أيضاً بقوله (٢) :

هذي مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللاعقاب أحكيها
لعل في أمة الاسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانها
وحسبها أن ترى ما كان من (عمر) حتى ينبه منها عين غافيا

فلماضي عند حافظ نبراس للحاضر وفي تجارب الاجداد خير ما يفيد
الاحفاد ، وما ابن الخطاب إلا نموذج رائع للحاكم العربي الذي تحرق
الجاهير شوقاً الى مثله .

وقد حدا محمد عبد المطلب حذو حافظ بعد أكثر من عام فألقى قصيدته

(١) الشوقيات ٢ : ٦١

(٢) ديوانه ١ : ٧٧

(العلوية) التي زادت على ثلاثمائة بيت وفيها إشادة باللغة بفجر الاسلام وبسجايها
الامام علي .

وكثيرة هي القصائد التي تناولت أعلام العرب الماضين على هذا النحو
ووجدت فيهم السمات التي ينشدها العرب ؛ من ذلك قصيدة « صقر قريش »
لخير الدين الزركلي ، و « وخالد بن الوليد » لعمر أبي ريشة . وكان اهتمام
جماهير العرب بأمر هذه القصائد مظهرأ من الحنين الى تلك النماذج البشرية الخالدة ؛
إذ ليس ما يهز الروح القومية مثل استعادة سير العظماء ، وكما يقول أنور
القطار (١) :

نشوة الذكريات أفلت في الانفس من نشوة ابنة العنقود
والبطولات شعلة الامل الساطع في ظلمة الليالي السود

والظاهرة البارزة في مثل هذه القصائد انها لم تكن تتغنى بالماضي لذاته ،
فكثيراً ما حرص الشاعر العربي في هذا الصدد على ربط الماضي بحاضر أمته وواقعها
بدافع من غيرته القومية كما فعل عمر أبو ريشة في قصيدته « محمد » التي جعلها
مقدمة للمحمة النبي ؛ فهو بعد أن يعث في نفوسنا نشوة الماضي العطار بحديثه عن
عظمة الرسول وعن غزواته يقول (٢) :

يا عروس الصحراء ما نبت الحجر د على غير راحة الصحراء
فأعيدي مجد العروبة واسقي من سناه محاجر النبراء
قد ترف الحياة بعد ذبول ويلين الزمان بعد جفاء

وشبيه بذلك أيضاً ما نجده في قصيدة لانور العطار عنوانها « جيش أسامة » ؛
ففيها يشيد بأول جيش عربي في الاسلام ، وببطولة قائده الشاب ثم يقول (٣) :

(٢) ديوانه ١١٢

(١) في ظلال الايام ١٠٠

(٣) في ظلال الايام ١٠٠

ثم دال الزمان من ناسه الفر - ففرت سيوفهم في الغمود
 واستكانت الى الورى فعلها
 صرخ الجرح بلواجع ثورى
 ارجعي يا مجادة الفاتح السم
 صدا الدهر من طويل المهجود
 وأهاب الأسي بعيني جودي
 عح ويا عزة الأبين عودي

وهكذا كان الماضي الزاهر في هاتين القصيدتين وفي سواهما من القصائد
 المشابهة سبيلاً مهدداً لمعالجة حاضر الأمة والثورة على واقعها، ومنطلقاً ركيناً للشاعر
 نحو الغاية المنشودة التي تتركز في بعث العرب من جديد.

ولم تكن المهرجانات الادبية التي جرى المعاصرون على إقامتها إحياءً لذكرى
 أعلام العرب كالكتني والبحثري والنزالي والمعري والبارودي والرصافي وشوقي وحافظ
 ومطران والكواكبي.. سوى مظاهرات شعرية قومية حافلة، تستلهم الماضي البعيد
 والقريب لتنفخ روح القوة في الحاضر وتبعث على الثقة بالمستقبل.

وثمة قصائد كثيرة لا تكاد تحصى نظمها الشعراء أيضاً إحياءً لذكرى
 الوقعات الحاسمة في تاريخ العرب، من ذلك ما نخبه في أرجوزة « دول العرب وعظما
 الاسلام » و « سقوط غرناطة » لأحمد شوقي، وفي « الاياداة الاسلامية »
 لاحمد محرم الذي يتغنى فيها بأبجداد العرب الأولى في ظلل الاسلام وفي
 مقدمتها غزوات الرسول عليه السلام، وكذلك في قصيدة « ثورة بدر »
 لمحمود حسن إسماعيل، و « يوم حطين » لعبد المحسن الكاظمي، و « طارق
 ابن زياد » لعلي محمود طه .. الخ.

ومن الجلي أن تناول مثل هذه الموضوعات المستمدة من تاريخ العرب
 لم يكن الغرض منه في أذهان الشعراء مجرد السرد والتسجيل، فكتب التاريخ
 المطولة تعني عن ذلك وتفوقه دقة وتفصيلاً.

ومع أن بعض الشعراء لم يربطوا في قصائدهم بين ما كان عليه العرب في
 ماضيهم وما هم عليه في حاضرهم فإن روح الاعتزاز كانت تطل باستمرار من

خلال قصائدهم ، وتم عن حين طاع الى اليهود الزاهية ، وشعور قومي فياض
تجاه الماضي المشرق . ونجد مصداقاً لهذا الرأي في قصيدة « الامة العربية »
لمعروف الرصافي يقول فيها (١) :

العرب أكبر أمة مشهورة	بفتوحها وعلومها وبيانها
فالجد مأثور بكل صراحة	عن قيسها أبدأ وعن قحطانها
وهم الالى خضعت لهم أمم الورى	من تركها طراً الى أسبانها
والروم قدزلت لهم عن ملكها	والفرس عما شيد من إيوانها

ومن هذا القبيل قول مصطفى الغلاييني مشيداً بأبائه العرب (٢) :

سل الركن عنهم والحطيم وزمرما	وأرض بني قحطان إن هي تنطق
وسائل بهم مصر المعالي وتونسا	وبغداد تصدقك الاحاديث جلق
وسل إن جهلت العرب أندلساً وما	أقاموا من الاجاد فيها وتمقوا

ولا نستطيع إلا أن نزهى مع أمين ناصر الدين في قوله (٣) :

كفي العرب فخراً أن منهم محمداً وأن له الشأو الذي ليس يلحق
وأن نهتز طرباً مع بدوى الجبل بنشوة الماضي التليد وصفحات تاريخنا
المجيد (٤) :

قف على اليرموك واخشع جائباً	وتيمم من صعيد القادسية
ها هنا مثوى الصناديد الالى	دوخوا الارض ببعض المشرفية
دوخوا الروم وثلوا عرشها	وطووا حمر البنود الفارسية
يا قبورا محيت واندرست	أنت نبراس الهدى والوطنية

(١) ديوانه ١٣٩

(٢) ديوانه ١٠٥

(٣) الالهام ٢٠٠

(٤) ديوانه ١٠٥

وتتمثل روح الاعتزاز بأجداد العرب السالفة قوية في قصيدة طويلة للشاعر
العراقي محمد حبيب البيدي ، وهو يستعرض من خلالها أبرز معالم السيادة العربية
بنشوة وزهو بالغين ، ومن ذلك قوله (١) :

ونحن أباة الضيم من عهد تبع	إذ الناس غربان ونحن نسورها
بدا النور من بطحاء مكة ساطعاً	وضاءت به من أرض يثرب دورها
فمزق إيواناً لكسرى مشيداً	وأخذ نيراناً شديداً زفيرها
وأجفل منه قيصر فوق عرشه	وذلت له بصرى ودكت قصورها
عبرنا لأفريقيا وهي منيعة	يعز على قوم سوانا عبورها
فقرطبة في الغرب تزهو نجومها	وفي الشرق بغداد تضيء بدورها
خلقنا بسيف العدل سيف حضارة	يشعشع حتى الآن في الكون نورها
سلوا أما سارت على ضوء رشدنا	ألم تك قبلا مظلمات عصورها

والشاعر إذ يفخر بقومه منذ عهد تبع في اليمن السعيدة وبانطلاقهم بعد
ذلك برسالتهم الى خارج الجزيرة وحملهم شعلة الحضارة الزاهرة قروناً ، لا يكتفي
بأن ينظر الى هذه الاجداد الغابرة نظرتة الى أحداث مضت وانقضت فحسب ،
فالماضي لديه وثيق الصلة بالحاضر العرب وهو تواق الى أن يعيد قومه سيرتهم الاولى
لذلك يقول بعد تلك الايات :

أما آن أن تحيا معالم مجدنا وتنشر موتانا وينفخ صورها

وكان كل ظفر يحققه العرب في صراعهم مع الطغيان والامستجار يجسد
التهليل والاستبشار لادى الشعراء الذين يرون فيه اقتراباً من أجداد العرب السالفة
وبعثاً لمكانتهم السامية . وهذا حبيب اسطفان يعكس لنا موجة التفاؤل التي
تملكت العرب باستعادة الماضي المجيد عندما قام الحكم العربي المستقل في دمشق
لاول مرة بعد تسلط تركي دام أربعة قرون (٢) :

(١) انيس المقدسي : الواطف القومية في الشعر الحديث ، نصوص مخطوطة ٢٤

(٢) انظر صبري الاشر : المختار ه

دمشق بها ذكرى أمية خلدت وبنداد ذكرى الرشيد مخلد
وفي القدس أنوار المسيح مضيئة تنار بها أقصى الشعوب وترشد
وأم القرى بيت الأعراب مكة لها الشرف المالي القديم الموطن
أقام لها التوحيد ديناً مشرفاً وأنت مجد العرب فيها محمد

أما خليل مردم بك فقد هزته تلك المناسبة القومية التي كانت ثمرة الثورة العربية الكبرى ، ووجد في دخول الجيش العربي الى دمشق صورة حية لفتوحات العربية السالفة ، فملأت نفسه اعتزازاً وأطلق على قصيدته اسم « الفتح العربي » وبما قاله فيها وقد أخذته نشوة الماضي وأسره (١) :

مالي أرى القوم بعد الحزن في طرب هل عاد سائف مجد العرب للعرب
عادت وشائح فخر بعد ما انصرفت عن بعضها عصراً موصولة النسب
ليبك داعي أمير المؤمنين على بذل النفوس وغالى الأهل والنسب
لله جيش أمين الله منتصراً بدني جيوش المدام من مورد العطب

فهذه الايات وما توجيهه في النفس من أجواء وتشيعه من ظلال لا تبدو لشاعرنا وهو يخاطب الملك فيصل بقدر ما تبدو وكأنها لشاعر عربي قديم يناجي خليفة المسلمين . ولا ريب أن الشاعر قصد الى النسج على منوال أبي تمام بعد أن ذكره الحاضر بالناظر فحن اليه وعانق روح الشاعر العباسي وإذا هو يتمثل فيصلا صنوا للمعتصم وتبدوله دمشق صورة لعمورية . وما أشبه الليلة بالبارحة .

ويعبّر أبو الفضل الوليد عن نشوته البالغة بسحر ماضي العرب وروعة أمجادهم فيقول (٢) :

أنا فتى عربي بين أضلعه تاريخ قوم هو الأنوار والسحب

(١) ديوانه ١٤٣

(٢) الانفاس المهيبة ٩١

قد رُحمته أحاديث الحمى طرباً
كما تفتى لهبات الصبأ القصب
نفسى تَلظت بحب العرب فاشتعلت
بها النفوس الى العلياء تصطبج

وكم ازدهى الشعراء المعاصرون بالخصال السامية التي تحلى بها أجدادهم
العرب كما فعل بشارة الخوري إذ قال (١) :

سائل العلياء عنا والزمانا هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا لم تزل تجري سعيراً في دمانا

وإذا ما استقرينا الأناشيد الوطنية التي سارت على أسنة الجماهير العربية
وألهبت فيهم الحماسة ، فاننا نجد التغيي بالماضي وسحره عنصراً فصلاً في
مضمونها . من ذلك مثلاً النشيد الذي نظمته خليل مردم وقد غدا النشيد
القومي في سورية . وما جاء في أحد مقاطعه قوله (٢) :

نفوس أباة وماض مجيد وروح الاضاحي رقيب عتيد
فنا الوليد ومنا الرشيد فلم لا نسود ولم لا نشيد

ومعظم الشعراء لم يكتفوا بالعبارة والحكمة من تاريخهم بل اتخذوا من
أحداثه ووقائمه حافزاً للنهوض وبعثوا على النضال ، وتاريخ العرب حافل ، فيه
حدة وفيه ثورة . وأبيات محمد رضا الشبيبي التي تندد باحتلال الحلفاء بلاد الشام
والرافق تصور بجلاء وعي العرب لماضيهم وتمردهم على واقعهم وذلك في قوله (٣) :

(١) المهوى والشباب ١٦٠

(٢) ديوانه ٢٦٩

(٣) ديوانه ٣٣

هجن طردن من الرجال كرائماً عريضة فكأنهن جيد
 خنا ذمام الفاتحين وعهدهم ما هكذا تستجب الاولاد
 انا بما نجني وهم فيما جنوا بش البنون ونعمت الاجداد
 ايني يذكرني الشهامة عنتر فينا ووالد عنتر شداد
 ويهزني عصر العراق تسوسه نخم وآل محرق وإيد

ويلوذ عمر يحيى بالاجداد الفطارفة يستمد منهم البأس لوطنه المقهور
 فيقول (١) :

أيها الناشد مجداً تالداً هل تمثيت على شط اللوار
 هل ذكرت النافقي النذب الذي هام بالعليا وغى واستطار
 عنعنات العرب لا تحفل بها فابن عبدالله للعرب شعار
 ما تعلمنا وهذا خالد رافع المجد بأن رضى الصغار

كما يمجّد الشاعر القروي في جهاد أحرار فلسطين صورة من بطولات
 العرب في فجر تاريخهم تبعث في نفسه الزهو حيث يقول (٢) :

فكل فتاة في فلسطين خولة وكل غلام في فلسطين عنتر

وقد أخذ يستقر في روع عدد من الشعراء أن في تذكر أجداد الماضي
 ما يعين على علاج واقع العرب المحزن ، وأن التاريخ وتجاربه خير ما ينير السبيل
 الى الحاضر والمستقبل . وهذا يمجّد الفراتي يقول في قصيدته « تلفت نحو
 ماضيك » (٣) :

(١) البراءة ١١٢

(٢) ديوانه ٣١٢

(٣) ديوانه ٢١٢

أطبق الجفن على الجفن ملياً وتفكر
وتلفت نحو ماضيك طويلاً وتذكر
فمسي أن تهتك الذكرى حجاب الظلمات
فترى ماضيك جذلان جميل النشوات
باسماً يرنو الى آمالك الفر العذاب

ولم يعد رتايخ العرب مجرد أحداث ووقائع يتغنى بها الشعراء فحسب ، بل أصبح رسالة يرفعون رايتها ويبدشرون بها بإيمان وإخلاص ويرون فيها قوة دافعة الى الامام تزيدهم ثقة وإيماناً ، وهذا محمود غنيم يعني على بعض العرب جهلهم بماضيهم وإعراضهم عنه ويرى ذلك من أسباب تأخرهم ، وأن الغربيين أنفسهم إنما أقاموا نهضتهم على أساس من ذلك الماضي العريق المشترك (١) :

استرشد الغرب بالماضي فأرشده	ونحن كان لنا ماضٍ نسيناه
إننا مشينا وراء الغرب نقبس من	ضياته فأصابتنا شظاياها
بالأسل خلف بحر الروم عن عرب	بالامس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
أين الرشيد وقد طاف الغمام به	فحين جاوز بغداداً تحدها
ماضٍ تعيش على أنقاضه أمم	وتستمد القوى من وحي ذكرها

ويبدو أن المعارك التي خاضها العرب ضد المستعمرين كانت تزيدهم وعياً لقضيتهم واعتداداً بماضيهم وثقة بمستقبلهم وبهذه الروح التوتبية نرى نطقاً آخر من الشعر التأم في الماضي والحاضر بصفوان وإباء نجدهما في قول إلياس قنصل (٢) :

(١) ديوانه ٧٨

(٢) السهام ٤١

أزضى بالهوان ونحن قوم
أرهبنا الحديد وقد بنينا
ملانا صفحة التاريخ فخراً
بجد السيف مجداً مشمخراً

وقد أصبح تاريخ العرب ماثلاً بروعته في واقع المجتمع العربي الحديث ،
وأخذ يؤثر تأثيراً فعالاً في حياتهم القومية ، حتى غدا الحديث عن بعث الأمة
العربية ديدن الشعراء . وقد عبر أجد الطرابلسي عن هذا الشعور المتفائل
بقوله (١) :

تلكم جزيرتكم يا عرب باسمه
سيروا إليها نعيد البعث ثانية
ترنو اليكم وتحنو أي تحنان
ونغلاء الارض من عدل وعمران
أليس منا الالى قادوا جحافلهم
وأخضعوا الارض من فرس ورومان

كما نرى الشاعر نفسه يعبر عن هذه الظاهرة أيضاً في قصيدة أخرى
عنوانها « أمة تبعث » (٢) . وقد بلغ إيمان بعض الشعراء وتفائلهم بازدهار
المجتمع العربي حداً جعلهم لا يشكون في استعادة المسكنة التي كان عليها أجدادهم ،
وهذا أحمد محرم يتحدث عن فلسطين بلهجة الواثق المطمئن (٣) :

يا آل يعرب من يرني خالداً
من شاء منكم فليكنه ولا يقل
يزجي الخميس ويستحث القنبا
والسيف ما فقد المضاء ولا نبنا
السرباق والزمان مجدداً

ونجد هذا الاتجاه أبرز ما يكون في القول القاطع الجازم لمحمد الفراتي
في قصيدته « أيها الاحفاد » (٤) :

(١) مجلة الرسالة ، السنة الثانية ص ٩٠٦

(٢) مجلة الرسالة ، السنة الرابعة ص ٢٥٠

(٣) ديوانه ٢١٠ - ٢١٨

(٤) ديوانه ١٨٢

يا دهر ما التاريخ غير رواية بالرغم منك فصولها ستعاد

وإذ يغدو تراث العرب مائلا في الازدهان حياً في النفوس الى هذا الحد الذي تجلّى في الشعر الحديث ، فان الشعور القومي يكتسب عمقاً ومضاء في معركة التحرر يحدوه في ذلك ذخراً لا ينضب وقوة دافعة من روح الماضي والايان بالمستقبل .

وهكذا كان الشعراء في هذه الفترة من النهوض القومي - فترة ما بين الحربين العالميتين - مشدودين بقوة الى أجداد العرب الغابرة يشيدون بعظمتها ويتغنون بسحرها في نشوة بالغة . وقد دأب الرعيل الاول منهم بوجه خاص على بعث ذلك الغابر التليد في نفوس جياهم القلق المتحفز الذي كان يجهد في تبين معالم شخصيته الغائمة .

٣

على أنه كان لتعلق الشعراء العرب بماضيهم في هذه المرحلة من حياتهم الحديثة وجه آخر هو نذب الابداد السالفة والترحم على الاجداد العظام وبكاء العهود النصرمة الزاهية . فقد جبههم الواقع المرير بسقرط أوطانهم فرائس بين مغالب المستعمرين ، وسرعان ما تبددت أحلامهم في بعث دولة عربية كبرى ، فانكفؤوا على أنفسهم يندبون حظهم العائر ويلوذون بماضيهم الجيد يعوضون به عن محنة أمتهم . وأكثر ما كان هذا الوجه الغاتم يتجلّى إبان النكبات او خلال الازمات أو فترات اليأس التي كانت تحميم على العرب إثر فضالهم العائر . وقد بدا ذلك مبكراً لدى عدد من شعراء مصر مثل أحمد محرم وسميح عبد المطلب وبخاصة إبان الحرب الاولى ، كما تجلّى هذا الشعور بعد ذلك

لدى شعراء الشام إثر انهيار الحكم الفيصلي وتدفق جحافل المستعمرين على البلاد حتى اصطبح في ذلك الحين بصبغة اليأس القائمة . وهذا ما ساعد على اشتداد أزر الحركة الرومانتيكية في الأدب الحديث خلال تلك الفترة ، تخليل مردم بك يعبر عن تلك الظاهرة من خلال مناجاته لطيف لمياء التي (١) :

تذكرت قومها أبناء يعرب إذ كانوا أعز ملوك الأرض سلطانا
سادوا الممالك من هند لأندلس محكين بها عدلاً وإحسانا
فرقرقت أدمعاً أضحى بصيبتها روض الأماني بعد الجذب فينانا

من كل ذلك يتبين لنا أن الاتجاه إلى الماضي العربي المشترك سواء أكان بالتغني بالأجداد السالفة أم بالبكاء عليها غداً مرحلة طبيعية في فترة اضطراب كيان العرب القومي ولقي تجاوباً وهوى في نفوس شعرائهم في ذلك الحين .

أما ظاهرة الفخر والاعتزاز - وكانت الغالبة - فقد اتسمت بطابع عاطفي وأخذت في استمرارها ثم عن سلبية لا طائل منها بعد مرحلة البعث ، إن لم تعد ضارة ، فهي لم تعد قادرة بمفردها على إقامة الكيان القومي الذي لا بد من وجود عناصر أخرى واقعية فيه . ولقد بلغ استمرار النزوع إلى الماضي لدى عدد من الشعراء مدى أصبح معه خطراً على الاتجاه القومي ذاته بعد أن أخذ يزيد عن حده وينقلب إلى ضده ؛ إذ أن استرسال الشعراء في تفاخرهم بالأجداد السالفة وتغنيهم التماذي بالأجداد الغالرة وبكاءهم المهود الزاهية إلى حد إهمالهم شؤون حاضرهم وواقع أممتهم ، كل ذلك جعلهم في شبه عزلة عن الحاضر وأحداثه . وربما كان ذلك منهم عن وعي أو غير وعي نتيجة هربهم إلى زوايا الذكريات الغابرة بأنسون بها ويتعززون عن واقع حياتهم وحيات أممتهم ، حتى غنسا الماضي لديهم غاية في ذاته ، في حين أنه لا يبدو في الأصل أن يكون عوناً للامة في نهوضها ، وحافزاً على تحررها .

إن المنصرين الذين اعتمد العرب عليهما في تكوين قوميتهن أي انصر
الداخلي المتمثل في التراث والتاريخ، والخارجي المتمثل في مفاهيم الغرب الحديثة
ونظرياتهم وتاريخ قوميتهن، هذان المنصران اللذان يتم أحدهما الآخر أخذاً
بديوان في كثير من الأحيان كتيارين متعارضين ينافي أحدهما الآخر. وقد
ال امر أحياناً إلى الغلو في الاعتماد على المصدر الخارجي بلغ حد الشمولية أو
الاقليمية، كما آل من جهة أخرى إلى غلو مماثل في الاعتماد على الخصائص الموروثة
بلغ حد الجمود.

أما الشعر القومي فقد كان في هذه الرحلة من حياة العرب يضيق بصورته عامة
بآراء المتطالعين إلى أنظمة المجتمعات الغربية في الحكم والحياة ويشفق من طغيانها على
مقومات العرب الأصيلة. وقد يكون لهذا الحذر تجاه الآراء الوافدة والفهومات
الغربية ما يعرره في مرحلة البعث والتكوين القومي. لقد كان من الطبيعي أن
يصدر تجاه ذلك رد فعل يستنكر إشراق الشعراء في النزوع إلى كهوف الماضي
وتعاميمهم عن واقع الحياة الراهن وأحداثها الماثلة. حتى لقد استترت بين رجال
الفكر والادب نيران معركة تجلت في كثير من الكتب والمقالات والبحوث
وبخاصة في المجال الاجتماعي. وإذا كان الأمر لم يبلغ تلك الحدة. في المجال القومي
حين كان الماضي القديم يد المشاعر الوطنية بنسج الثقة والايان فإن صدى ذلك
الجدال انتقل في بعض جوانبه إلى الشعر. ونحن نجد في عدد من القصائد مظهر أ
محدوداً لهذه المعركة على الصعيد القومي والفكري، ومن ذلك أن الشاعر فوزي
المعلوف أنشد في حفل أدبي أقيم بالبحر قصيدة مطلعها (١):

خل البداوة رغبها وحسامها والجاهلية نوقها وخيامها

وفيهما أنكر كل فضل لتقديم. ثم أنشد إلياس فرحات على المنبر نفسه قصيدة
عارضه فيها بهذه الايات وحامى فيها عن مبدأ الماضي المشترك أحد العناصر
الاساسية للقومية (٢):

(١) ديوانه ٣٩

(٢) ديوانه ٢٤٥

حي البداوة نوقها وخيامها
حيثك أشباح القديم وسلمت
قد تبلغ النفس الطموح أشدها
لولا الجذور المطمئنة في الثرى

والجاهلية رعبها وحسامها
فمن العدالة أن ترد سلامها
ويظل يذكرها الولاء فطامها
ما كانت الأغصان ترفع هامها

فالشاعر يأبى الانسلاخ من القديم والتبرؤ منه مها بيد ضئيل الشأن والأثر
لأنه الأصل . والأصل تتبعه الفروع ..

وربما كانت صيحة الرصافي أقوى ما قيل في هذا الشأن ، وذلك في قصيدته
« نحن والماضي » التي يكاد يدعو فيها الى قطع الصلة بالماضي والاهتمام بالمستقبل
وحده (١) :

أرى مستقبل الأيام أولى
فما بلغ المقاصد غير ساع
فوجه وجه عزمك نحو آت
وهل إن كان حاضرنا شقياً
تقدم أيها العربي شوطاً
وأسس في بنائك كل مجد
ففر العالمين ذوو خمول
وخير الناس ذو حسب قديم
فدعني والفخار بمجد قوم

بمطمح من يحاول أن يسودا
يردد في غند نظراً سديدا
ولا تلتفت الى الماخين جيذا
نسود بكون ماضينا سعيدا
فان أمامك العيش الرغيدا
طريف وازرك المجد التليدا
إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
أقام لنفسه حسبا جديدا
مضى الزمن القديم بهم حميدا

وهو يندد بجميرة العرب وجمودهم أو تلبهم بأطيايف الذكريات فيقول من
قصيدة أخرى (٢) :

ترام جميعاً بين حيران واجم وآخر يطري ماضياً من غفاره

(١) ديوانه ٣٤

(٢) ديوانه ٣٦

وكذلك يعبر محمد رضا الشيباني عن هذا الشعور المرير تجاه استنامة العرب
الى أمجادهم الغابرة فيقول (١) :

قلب يحز به الألم	عبس الزمان أو ابتسم
يا أمة من جهلها	تأبى مجارة الأمم
ذلت حديثاً أمة	أبدأً تفاخر بالقدم
وأحال منها رمة	طول التباهي بالرسم

وشبيه بذلك أيضاً ما يقوله حسن البحيري إذ ينكر على قومه تلك الغفلة،
والزمن يسير حديثاً بالأمم (٢) :

أين نحن اليوم من سير الزمن	أين منا نور عصر حاضر
نحن من ماضي الليالي في الدجن	تتغنى بحياة الغابر
شاقنا من عيشنا حلم الوسن	فغفونا عن عدو ساهر

ونجد مظهراً آخر لرد الفعل العنيف الذي أخذ يفتح عيون الشعراء على واقع
أمتهم العربي في قول محمود غنيم الذي طالما اعتر نفسه بالأجداد السالفة (٣) :

لا در در امرىء يطرى أوائله خراً ويطرق إن ساءلته ماهو

وفي قصيدة محمد عبد الغني حسن التي نظمها إثر قيام جامعة الدول
العربية (٤) :

يا شرق قد دام الزمان ولم يعد	لرء غر في غفار المولد
قل للمفاخر في الحياة بأصله	فيم افتخارك بالقديم الأبعد
ما قيمة الماضي الدفين ومجده	إن لم يقس بالحاضر المتولد
هذا زمان لا تقام كرامة	فيه لماض غائب لم يشهد

(٢) ابتسام الضحي ١١٧

(٤) من تبع الحياة ٥٧

(١) ديوانه ٩٤

(٣) ديوانه ٧٨

ومها يكن من أمر ، فإن رد فعل كهذا كان لا بد منه في سبيل تقويم انحراف بعض مقومات القومية العربية عن طريقها السوي وفي سبيل الحد من طغيان الماضي على الحاضر والذكريات على الواقع .

« وما ينبغي إدراكه أن أبرز سمات الثقافة الحية تأصلها بماضيها الإيجابي ، فحري بها أن تظل واعية لماضيها مستمدة من هذا الماضي القوي والإيمان ، ومنمية الإرث الذي يتناقله مجتمعنا جيلاً بعد جيل . على أن إيمانها هذا لا يؤدي بها إلى الانخداع لأن إيمانها بالعقل أشد وأقوى ... ولأن الثقافة الحية ثقافة متطلّمة إلى الأمام ، جواربة للأفاق مناصرة في ميادين العقل والروح لا تأخذ من الماضي إلا ما يوحى ويسند » (٢) .

وبحق ما رآه الدكتور عزة النص (٢) من أن « عبادة الأجداد وتقديس كل قديم والحفاظ على معالم القرون الأولى في ظهيرة العصور الحديثة كل ذلك قاد أمة الصين إلى الانهيار .. والواقع أن في كل حضارة أساساً خالدة وأخرى زائلة ، والمهم في بناء القومية تمييز العمدة الثابتة عن المظاهر المتغيرة . ولعل من خير ما نستوحي من الماضي تلك الطاقة المعنوية التي دفعت المصلحين إلى الإصلاح والمجددين إلى التجديد . من أبطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم لا أساليبهم في الطعان ، ومن علمائنا الأفاضل نستمد قدرتهم على البحث والغوص لا ما وصلوا إليه بالفعل ، من الماضين تبقى لنا حماسة نبيلة وهيجان خلاق » وقد قال مسوريس باريس (٣) « إن من واجبتنا بل من ضروريات حياتنا أن نحب أمواتنا ؛ فأية قوة تنبعث عنهم ؟ أيها الأموات كم أنتم أحياء ! »

وجدير بشعرائنا أن يجعلوا من تراثنا العريق وأبجادنا الغابرة ذخراً زكناً إليه ، وشعلة نهتدي بنورها وأساساً وطيداً نشيد فوقه مستقبلاً باسماء . ولن نرضى لهذا التراث وتلك الأبجاد أن تكون لنا قوقعة ندور في داخلها

(١) انظر قسطنطين زريق . مجلة الآداب ، نيسان ١٩٥٤

(٢) مجلة الآداب البيروتية ، عدد نيسان (أبريل) ١٩٦٠ ، ص ٢

(٣) انظر المرجع السابق .

وأن تغدو لدينا وزراً ننوء بأعبائه . زيد أن تكون قوميتنا رحيمة إيجابية تبنى خير الإنسانية وتسهم في تقدم المجتمع البشري ، ولن نكتفي بعد اليوم بأن يردد شعراؤنا أقوالهم المكرورة بأن أرضنا مهبط النبوات ومصدر الأديان ، أو يتهموا بأننا الجسر الذي يصل الشرق بالغرب وتعبير عليه حضارات الأمم .

إن استقراء الشعر القومي الحديث يسمح لنا بأن نلاحظ بصورة عامة أن ماضي العرب المشرق كان خير نبراس يعشون الى نوره في إبان كفاحهم ، ويسيرون بهديه في أحلك أيام نضالهم ، ولم يكن تعني الشعراء بجيش أسامة وأبي عبيدة أو بطولة خالد وطارق وصلاح الدين ، أو بوقعات بدر واليرموك والقادسية وخطين إلا انصكاساً لما استقر في نفوسهم من رغبات عارمة واماني طاغية أيام الاحتلال في ان يندو لامتهم جيش قوي يكون لهم درعاً حصينة تجاه الظالمين ، ومعركة فاصلة تنجلي عن طرد الغزاة المستعمرين . وهذا التاريخ المشترك هو الذي كان يمد الشعوب العربية بروح الثقة والإيمان والفاؤل التي عبر عنها الشعراء اقوى تعبير . ولم يكن ماضي الاجداد إلا الذاكرة الحية للعرب عاشت في نفوسهم خالدة ، وكانت في حقيقتها مظهرأ فعلا لمشاعرهم المتوثبة ، وركناً هاماً في بناء شخصيتهم القومية وإقامة مجتمع متقدم متحرر يضاهي ما كان عليه الاجداد من شأن نابه بين الأمم .

على ان الشعر المعاصر لم يتجه الى التاريخ الحديث بمثل القوة التي وجدناها في اتجاهه الى التاريخ القديم . ويبدو ان ذلك يعود الى سببين : الاول كون العرب يوشكون ان يجتازوا مرحلة البعث التي طال امرها عليهم ، والثاني ان هذا الماضي القريب ما زال يفتقر الى تلك الهالة من القداسة والتبجيل التي وجدناها حول تاريخ العرب القديم والتي لا بد ان ترسم حول كل تاريخ ، وتزداد اتساعاً كلما اوغل في القدم .

وإننا نجد الشعر العربي اليوم ينجح لابرز التاريخ القريب وتخليد أحداثه الحاسمة . وهذا التاريخ على قصر أمده وقرب العهد به ينطوي على عناصر الحياة

ويعكس وثبة العرب الرائعة ، من ذلك مثلاً لجوء أحمد زكي أبي شادي الى بحث إحدى المناسبات القومية الكبرى حين أعاد الى الأذهان ذكرى انتفاضة مشرقة خاضها المصريون ضد الإنكليز وانتصرواعليهم عام ١٨٠٧ في معركة رشيد ، وذلك في مطولته الشعرية التي أخرجها في كتاب مستقل حمل اسم «مفخرة رشيد» . ولسنا بصدد الحكم على مدى توفيق الشاعر في محاولته خلق الجو الملحمي أو مدى إحياء أبياته في محاولته تلك ، ولكننا نقول إنه ميدان جديد اقتحمه أبو شادي بتأثير ملح من الروح القومية التي غمرت الشعر الحديث بقوة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، ومن هذا القبيل كثير من قصائد الذكرى التي يعمد الى نظمها الشعراء من حين الى آخر في انتفاضات العرب الحديثة وفي أحداثهم القومية البارزة، من نحو ما قيل من شعر حماسي كثير في شهداء أيار وثورات مصر وسورية والعراق والجزائر وما تمخض عن ذلك من بطولات .

وبجمل القول إن تيار البعث الشامل قد استغرق نفوس العرب في العصر الحديث ، وكان الشعراء في طليعة من حمل رسالته وبشر به . وقد أخذ عنصر الزمان الخالد في هذا الوجود يطوي صفحات النضال العربي الحديث وينيها في كهوفه مضيئاً إياها بذلك الى السفر العربي العظيم ، وما نضال العرب في عصورهم الحديثة إلا رافد حي لذلك التاريخ الحافل ، شارك مشاركة فعالة في تكوين الشعور القومي المعاصر . ولقد وجد الشعراء في ذلك التاريخ الحديث مادة حية ذات أهمية بالغة في التعبير عن الوجدان العربي الراهن .

الفصل الرابع

المطامح والآلام المشتركة

إذا كان للماضي المشترك ذلك التأثير البالغ في حياة العرب القومية المعاصرة كما أوضحنا ذلك آنفاً من أقوال شعرائهم فمن الطبيعي أن يكون لحاضرهم وواقع حياتهم ووحدة مصيرهم تأثير فعال يسهم إلى حد كبير في صهر مشاعرهم القومية ويؤلف بين قلوبهم ويوحد أهدافهم . وليس هذا الحاضر في حقيقته إلا امتداداً لذلك الماضي ، وحلقة أخيرة من سلسلته الطويلة ، كما أن هذا الحاضر ليس إلا جزءاً من ذلك الماضي المتطاوّل الذي يمتد إليه بجذوره . وسيبقى هذا حال الزمان ما بقيت الحياة متطورة نامية متجددة ، وما دام قول شاعرنا قائماً :

إن هذا القديم كان جديداً وسيضحى هذا الجديد قديماً

ومن الطبيعي أن يكون الشاعر وأي فنان شديد الارتباط بواقعه وبمجتمعه وحياة أمته . ولهذا نجد الشعر الحديث يعبر بقوة وحرارة عن حياة العرب الحاضرة الحافلة بالأحداث لأن الشعراء أصبحوا يحميون واقع أمتهم ويعيشون تجربتها الحية ، وكان الأمر كما يقول أحد النقاد الفرنسيين « إن الآلام القديمة تضيء ، أما الحديثة فتصرخ » .

وقد مرت بالعرب في حياتهم الحديثة ظروف متشابهة من الآلام المشتركة

التي تتمثل في ابتلائهم بالاستبداد والاستعمار والجوع والفقر ، كما جمعهم
الأقدار حول أهداف مشتركة واحدة تتركز في نشدان العدالة الاجتماعية والرخاء
الاقتصادي والتحرر والديمقراطية والوحدة ...

وكل ما نطق به الشعراء حول ثورات العرب وانتفاضاتهم الحديثة في
مختلف أقطارهم ضد الاستبداد والاستعمار في سبيل التحرر ليس في حقيقته إلا
التعبير الرائع عن انصهار العرب في بوتقة قومية واحدة .

١

وليس كالألام والنوائب ما يضم الشمل المبدد ويلم الشعث المفرق . وقد
عبر الشعراء عن هذا العامل القومي بأسلوب مباشر فضلاً عما ذكرناه من تعبيرهم
عن حياة أمتهم وحاضرها المكافح . ولعل أولى درجات هذا التعبير ذلك التجاوب
العاطفي العميق الذي نلمسه قوياً فيما نظمه الشعراء من قصائد شاطروا فيها كل
شعب عربي منكوب آلامه وأحزانه وشاركوه في أمانيه وآماله . ومن أوائل ما
يطلع علينا من هذا الشعر أبيات حافظ المشهورة التي يقول فيها (١) :

إذا ألمت بوادي النيل نازلة بات لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا في ترى الأهرام ذو ألم أجابه في ذرا لبنات منتحب

وعندما شملت المصائب شعوب العرب ، وعمتها الآلام ، أصبح من الواضح
أن الشاعر العربي لم يعد يتغنى بمشاعر شعبه فحسب بل أخذ يغني مشاعر العرب
جميعاً . ويعتبر أحمد شوقي خير مثل على ذلك ، إذ ما كادت سحسب الحرب
الكبرى تنجاب عن العالم حتى تحول عن القصر والحدوي والسلطان والائرثوبادر
الى التعبير عن مصر والشعب ثم عن العرب أجمعين . ولم ينطق عن الروح الوطنية
لمصر وحدها بل خلق بقيارته في جو العالم العربي كله . . . فقبل هذه الحرب كان

(١) ديوانه ١ : ٢٦٨ وقد نظمها عام ١٩٠٨ .

يذكر العروبة على هامش مدائح في الترك أو في الرسول الكريم ، أما اليوم وفي هذه الحقبة فإنه يتغنى بالنزعات الوطنية والقومية الطارئة على هذه الشعوب . ويقف من العرب موقفه من مصر فهو يتغنى بأبجادهم الماضية ، وهو يتغنى بشورتهم الحاضرة ، وهو يحس إحساساً قوياً بأن مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد العربية أسرة واحدة « (١) وعلى هذا النحو أخذت ربة شعر شوقي تغني العرب أناشيد ودينتهم وحررياتهم ، وتصور لهم آمالهم في مستقبل هنيء ، « وكان له من القدرة في التعبير ما جعله يذم معاصريه في كل ناحية لمسها ، بل ما جعل العرب أنفسهم يعدون بعض قصائده كأنها مصاحفهم » (٢) وفي مقدمة ما نظمه في دمشق منذ عام ١٩٢٥ مصوراً مشاعر السوريين ضد الاستعمار الفرنسي قصيدته النونية التي مطلعها :

قم ناج جلتى وانشرسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان
وقصيدته القافية التي مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وفضلاً عن أن هذه القصائد تعد في ذاتها مظهرأ فعالاً للتجاوب مع آمال السوريين والامهم ، فإننا نجد في عدد من أبياتها ما يشير مباشرة وبوضوح الى عامل الألم المشترك الذي اعتبرناه من العناصر المكونة لقومية العرب الحديثة، فهو يقول (٣):

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في المجرح والآلام إخوان
كما يقول في قصيده أخرى (٤) :

بني البلد الشقيق عزاء جار أهاب بدمعه شجن فسالا
وما زلنا إذا دعت الرزايا كأرحم ما يكون البيت آلا

وربما كانت قصيدة شوقي التي نظمها بمناسبة تكريم العرب له عام ١٩٢٧ ومبايعته أميراً للشعراء ، في مقدمة قصائده التي تجلت فيها انازع الألم المشترك بين

(١) الدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

(٢) الصدر السابق ، انظر ١٥٩ - ١٦٠

(٣) الشوقيات ٢ : ١٢٣

(٤) الشوقيات ٢ : ٢٢٧

الشعوب العربية اهتماماً زائداً ، بل لا تكاد تضارعها في ذلك قصيدة أخرى ،
وفيها يقول (١) :

يا عكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينه الي بغداده
رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتني معزياً بماآفي وطني أو مهتماً بلسانه
كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان الغزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم قيود تتزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء كلنا مشفق على أوطانه

ولا ريب أن ذلك المهرجان الادبي كان مظهرة قومية رائعة وصورة حية
لنزوع العرب نحو الالفه والاتحاد ، وإرهاصاً لفكرة الجامعة العربية التي اشتدت
الدعوة اليها بعد عصر أمير الشعراء .

وتتجلى ظاهرة الام المشترك بين العرب لدى سائر الشعراء في مختلف
اقطارهم من ذلك أبيات لعبد المحسن الكاظمي يقول فيها (٢) :

أحن إذا قيل العراق وانحي وأشفق إن قيل الشام وأزفر
وأطرق إن قيل الحجاز على جوى وأعجب اما قيل مصر وأبهر
جميع بلاد العرب في القدر واحد إذا وزنوا البلدان يوماً وقدورا

على أن هذا التعاطف كان يشتد إبان الازمات والمحن التي تلم بالعرب من
حين الى حين . فعندما نكبت دمشق بقذائف الفرنسيين على أثر ثورة سورية
عام ١٩٢٥ تجلى حزن الشعراء على عاصمة الامويين وتعاطفهم معها في مأساتها الي مدي

(١) الشوقيات ٢ : ٢٤٠

(٢) ديوانه المجموعة الثانية ٢٥١

لم يبلغه في حدث آخر من قبل . ويكفي أن نشير الى أن فاتحة شعر شوقي في الاتجاه العربي انطلقت منذ ذلك الحين على النحو الذي سبق أن رأيناه . وهذا معروف الرصافي يعكس ما اعتلج في نفس العرب تجاه الفيحاء آنذاك من أسي فيقول (١):

إذا هي مدت في الدجنة صوتها	تميد له في الغوطتين غصون
وتلهب منه في القضاء شرارة	فتبصرها في الرافدين عيون
وتهبو له في ساحل النيل هبوة	أبو الهول منها واجد وحزين

وقد جمع محمود الجبوبي عناصر القومية من لغة ودين ومصاب مشترك على صعيد واحد في قوله (٢) :

سواء نحن في لغة ودين كما أنا سواء في المصاب

ونجد لدى محمد مهدي الجواهري تعاطفاً كبيراً مع آلام العرب الذين وحدت الجراح مشاعرهم فهو يقول مخاطباً أهل يافا في فلسطين (٣) :

ثقوا أنا توحدنا هموم	مشاركة ويجمعنا مصاب
تشع كريمة في كل طرف	عراقي ، طيوفكم العذاب
وسائلة دما في كل قلب	عراقي جروحكم الرغاب
يزكينا من الماضي تراث	وفي مستقبل جذل نصاب

وهذا عزيز فهمي يعبر من ارض الكنانة عن التعاطف الشديد بين العرب على اختلاف ديارهم فيقول (٤) :

(١) ديوانه ٤٥٤

(٢) ديوانه ٧٢

(٣) ديوانه ١٨٨

(٤) ديوانه ٧٦

ألسنا جميعاً أمة وحضارة
 إذا أنت شامي تنبه هاجع
 تفرقنا أرض ويجمعنا عهد
 بمصر وفي بغداد والتفتت نجد
 كأننا على وعد وقد أنجز الوعد
 غفونا جميعاً واتبهنها فجاءة

وهذا البيت الثاني لعزير فهمي يذكرنا بروح حافظ إبراهيم في بانيته
 «سورية ومصر» التي سبق أن أوردنا بعض آياتها في مستهل هذا الفصل .
 وقد حظي تعبير حافظ على بساطته بشهرة ذائعة وغدا محبباً الى الجمهور وأثيراً لدى
 الشعراء لأنه عبر بصدق عن عواطف الود والتآخي المتبادل في نفوس الشعوب
 العربية على اختلاف ديارها ، وعلى هذا المنوال نسج قول علي الجارم عن ظاهرة
 الأمل المشترك الذي صهر أمته حين قامت جامعة الدول العربية (١) :

تذوب حشاشات العواصم حسرة
 ولو صدعت في سفح لبنان صخرة
 إذا دميت من كف بغداد إصبع
 لك ذرا الأهرام هذا التصدع
 لسالت بوادي النيل للنيل أدمع
 ولو بردى أنت نخلط مياهه

والمعنى نفسه يكاد يمثل أماننا في قول محمد عبدالغني حسن (٢) :

إذا تغني بمصر بلبل غرد
 وإن شكت مصر من سوء ألم بها
 سمعت بالشام ألحان المغنينا
 سمعت من سروات القدس شاكينا
 قالوجد يشجيكم حيناً ويشجيننا
 بنا من الوجدان والآلام ما بكم

٢

أما عنصر الأمل المشترك فلا نستشفه إلا من خلال الآلام والآسي
 التي حلت بالشعوب العربية .

(٢) من نبع الحياة ٩٦

(١) ديوانه ٤ : ٤١

فالواقع أن الخطوب الجسام التي نزلت بالعرب منذ قيام الحرب العالمية الأولى عملت على ازدياد التقارب بينهم ، وأن الاستعمار الذي أصاب كرامتهم ومشاعرهم القومية بجرح بليغ قد ألف بينهم ولم شعئهم ووحيد آمالهم . وكان الشعراء قبل الناسة والزعماء ، لسان الشعوب ورسل التقارب والالفة والوحدة . وهذا محمد عبدالغني حسن يقول في ذلك أيضاً (١) :

قد وحدث بيننا الآلام موجعة وألفت بيننا الآمال والطلب
وجمعتنا الجراح الحمر دامية وللجراحات فيما بيننا نسب

ونجد هذه الظاهرة قوية لدى كثير من شعراء سورية الذين كانوا شديدي الإحساس بما يمر بالعرب من أحداث وما ينزل بهم من خطوب ، من ذلك قول أجد الطرابلسي مستبشراً بالغد المشرق بعد أن ابتلي العرب زمناً بالاستعمار (٢) :

وحدثنا مواجع القيد حيناً فارقبوا اليوم وحدة التحرر

كما نجد ما يضاهي هذا الاستبشار أيضاً في قول عمر أبي ريشة والاحتلال في أوج طغيانه (٣) :

هذه أمي وهذي مغانيها - تجر السواد في الاعياد
كلما لاح بارق في سماها أطفأته ريح الزمان العادي
جمعها هوج الليالي على الجبر ح كما تجمع الندامى شوادي
والرزاياكم قربت بين أشتا ت بداد وأمنيات بداد

وهذا الشاعر يمثل في قصائده المنفوان القومي والارادة التي لا تقهر ، فهو متفائل أبداً ينبط النور من الظلام والماء من الصخر واليسر من العسر .

(١) من نبع الحياة ٩١٥

(٢) مجلة الرسالة ، السنة السابعة ص ١٠٦

(٣) ديوانه ١١٢

وقد ازداد الشعراء ثقة وأملا بمستقبل أمتهم وتحررها خلال سني الحرب
 الاخيرة إذ بدأ للشعوب المستضعفة أن الاوان قد حان لتقطف ثمرات
 نضالها . وكانت سورية أول بلد عربي انتزع حريته من يرائن المستعمر
 إثر انجلاء غيوم الحرب القاتمة . ونجد أبا ريشة أيضاً يعبر عن تلك المنى
 العربية التي ذاق الشعب حلاوتها بعد لهفة شديدة وأيام مريرة ، وهو في أبياته
 قد بلغ حد مباركة الخطوب ، ويشير الى أنه لولا تلك الآلام لما تحققت
 هذه الآمال (١) :

لمت الآلام منا شملنا ونمت ما بيننا من سبب
 فاذا مصر أغاني جلق وإذا بغداد نجوى يثرب
 بورك الخطب فكم لف على سهمه أشتات شعب طيب

وفي أواخر أعوام الحرب الاخيرة حين أهل عام السلام على العالم العذب
 قال محمود غنيم أبياته المفعمة بالآمال والمنى (٢) :

يا أيها العام المثل تحية من خير سكان بخير بقاع
 أمل العروبة فيك أعرض جانباً من سوّدد تبكي عليه مضاع
 أمل تكاد تحس وقع ديبه بين القلوب منافذ الاسماع

وبمشيئة الله وإرادة الشعوب تحققت هذه الآمال وتقلص ظل الاستعمار
 البغيض عن قسم كبير من بلاد العرب التي أخذت القطر تلو القطر، تنعم بالتحرر .

والملاحظ أن هذا الاتجاه في الشعر القومي الذي ينزع الي تصور الآلام
 المشتركة وواقع الامة العربية حظي باهتمام الجيل الجديد من الشعراء ، إذ أن
 عنصر الشباب مشدود بقوة الى المجتمع ، يتجاوب مع واقع حياته ويتفاعل مع
 وجدان أمته . في حين كان الجيل الاسبق من أمثال شوقي وحافظ ومحرم

(٢) صرخة في واد ٣٥

(١) ديوانه ١٤٥

وعبدالمطلب والزهراوي والكاظمي والوليد والغلابيني وسواهم أكثر اهتماماً
 بالماضي المجيد والتاريخ العريق ، أو أنهم كانوا يتأرجحون بين هذين الاتجاهين .
 وهذا طبيعي في فترة تاريخية معينة من حياة العرب يعتمدون فيها على قوة البعث
 القومي وأصالته .. وهذا الاتجاه الذي أخذ الشعراء يصدرون عنه بصورة مطردة
 منذ السنين الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، والذي يقيم
 الشعور القومي على أساس الآلام والآمال المشتركة ووحدة الهدف والمصير أخذ
 يغلب على الشعر المعاصر تبعاً لعلبة الطابع الاجتماعي على الفنون بصورة عامة ،
 وتبعاً لانسجام هذا الاتجاه مع النظريات الحديثة في القومية التي تجعل للعناصر
 الواقعية مثل وحدة المصير والهدف المشترك ، المقام الأول في تكوين
 الشعور القومي .



من خلال ما تقدم من بحث عناصر القومية ومقوماتها في الشعر المعاصر ،
 نلاحظ أن الشعراء لم يقصدوا في معظم ما نظموا من قصائد ومقطوعات الى ذكر
 هذه العناصر بشكل مباشر ، ولم يكن هدفهم سردها أو حصرها أو توضيحها لان
 ذلك من شأن النثر ويتنافى مع طبيعة الشعر وضيق قوافيه وأوزانه . وأكثر ما
 مر بنا من الشواهد يدل على السمة العفوية التلقائية التي كان يصدر عنها الشعراء
 في التعبير عن تلك المقومات والعناصر التي تشكل الشعور القومي ، وهذا ما يفسر
 لنا قلة الأشعار التي عمد فيها اصحابها الى إبراز العناصر القومية مجتمعة في قصيدة
 أو مقطوعة واحدة . على أن أثر الدراسات الفكرية والبحوث الاجتماعية أخذ
 يبدو لدى عدد من الشعراء المعاصرين الذين تسلحوا بالثقافة والمعرفة بعد ان
 كان من سبقهم من شعراء الجيل الماضي يكتبون بمحاولة إتقان متون اللغة واستيعاب
 العاطفا وتنميق عبارتها .

وربما كان عباس محمود العقاد رائد الاتجاه الجديد ، وهو مع عزوفه عن
 معالجة الشعر القومي وبعده عن تيار العروبة بصورة عامة قد ترك

لنا في ديوانه « وحى الاربعة » قصيدة تعد فريدة بالنسبة الى موضوعنا وقد نظمها
في عيد الاستقلال السوري عام ١٩٣٠ ومنها قوله (١) :

إنا بنو وطن تقرب بينه	سيناء في قدسية وجلال
الشمس تجمع في المطالع بيننا	والارض في حرم الجوار العالي
ومعالم التاريخ في كتب وفي	عقب وفي نصب وفي اطلال
ولسان صدق في اللغات تألفت	فيه القلوب تألف الاقوال
شكواكم شكواى او سلواكم	سلواى او اشغالكم اشغالي
ومطالب الغازين في بيدائكم	كمطالبي ومآلكم كمآلي

فقد اتى الشاعر تقريبا على جميع مقومات القومية العربية حين يتحدث
عن اشتراك العرب في الارض والتاريخ والنصب والآثار واللغة والعوادف
والافكار والآلام والمصائب والامال والاهداف والمصير . ولا يبعد ان
يكون العقاد قد وضع تخايطا مسبقاً لافكاره وعرف ماذا ينبغي عليه قوله
قبل ان ينظم اياته هذه وكأني به في ذلك ، يقبل على نظم قصيدته بروح تماثل
اقباله على تدييح مقالاته .

كما تقع على ما يشبه ذلك في ابيات خليل مردم بك يقول فيها (٢) :

تأبى الاواصر من قربي ومن لغة	إلا الوفاق فكيف اليوم نختلف
إن المصائب والاحزان تجمعنا	والسعي والامل الفينان والهدف

فقد اتى الشاعر في هذين البيتين على معظم المقومات القومية بين العرب
حين ذكر اشتراك شعوبهم في صلات القرابة واللغة والآلام والطامسح
والاهداف ...

وإذا ما انتهينا الى هذه المرحلة من استجلاء مقومات القومية العربية
في الشعر الحديث نكون قد رصدنا عناصر المفهوم القومي لدى الشعراء .

(٢) ديوانه ١١٥

(١) ص ١٤٦

ومن الطبيعي أن يكون الجانب العاطفي من المفهوم القومي أكثر بروزاً من العنصر الذهني والواقعي في الشعر لأن الشعر لغة العاطفة والشعور . ونحن لا نكاد نجد في الشعر الحديث اهتماماً بسائر العناصر المكونة للقومية مثل المصالح المادية المشتركة ووحدة الأرض وغير ذلك مما ازور عنه بسبب طابعه العلمي المحض . كما ان الشعراء في تناولهم هذه المقومات استطاعوا ان يمزجوها بجماله انفعالهم وأصالة شعورهم فخرجت تنبض بالحياة ...

الفصل الخامس الوحدة العربية

١

كان الوطن العربي واحداً منذ عصر الراشدين ، حضرته دمشق أو بغداد أو القاهرة . فالتنبي مثلنا نشأ في الكوفة وقضى حياته متنقلاً بين حلب وأنطاكية ودمشق والقاهرة ، وابن خلدون عاش شطراً من حياته في المغرب وشطراً آخر في مصر .. وما عرف العرب التجزئة إلا في أحلك عهودهم . ولم تكن الدويلات المتنافرة في الماضي إلا نتيجة عوامل سياسية فرضها الزعماء والقواد دون أن يقيموا أي اعتبار لرغبات مجتمعاتهم آنذاك ومع هذا فقد كانت الحدود مصطنعة تتراوح بين مد وجزر بحسب ازدياد نفوذ الحكم أو ضعفه ، وما أسرع ما كانت تمحى بمجرد انهيار ذلك النفوذ . وحتى في العهد العثماني الذي دام نحواً من أربعة قرون كانت أقطار العرب وحدة متماسكة يتنقل بينها العربي كيفما شاء . أما ألفاظ أردني ولبناني وفلسطيني وسوري .. فلم تعرف إلا بعد الحرب العالمية الأولى حين فرض الاستعمار التجزئة على بلاد العرب وأقام بينها حدوداً مصطنعة (١) .

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية ألقاها في الكويت .

« لقد تمت بين سكان البلاد العربية عوامل الوحدة والانسجام بشكل لم يتم لأكثر بلاد العالم إذ لم تقتصر هذه الوحدة وذلك الترابط والانسجام على ناحية اللغة أو الأصل أو الجنس أو الثقافة أو المعتقدات ، بل اجتمع ذلك كله وتظاهرت هذه العوامل كلها لتكوين المجتمع العربي وجعله وحدة اجتماعية حية خصبة منتجة فعالة » (١)

إن القومية في جوهرها - رابطة تجمع أبناء الأمة الواحدة ، وهي تستلزم قيام دولة مستقلة متحررة ذات شخصية وسيادة تتألف فيها مختلف عناصرها وطوائفها وأديانها وطبقاتها وأقاليمها ... فالقومية بذلك سد قوي أمام العدوان الخارجي وسياس منيع ضد التفرق الداخلي والنزعات الوطنية الضيقة . وتعد الثورة العربية الكبرى التي قامت إبان الحرب الأولى أول تعبير عملي شامل عن هذه المنازع المضطربة في نفوس العرب ، فقد كانت في جوهرها ترمي إلى تحرير العرب وجمع شملهم في دولة كبيرة واحدة . ولم ينظر العرب آنذاك إلى هذا الهدف نظرتهم إلى وضع جديد ، وإنما كانوا يرون فيه إعادة للأمر إلى نصابه ، إذ من الطبيعي أن يتحد العرب لا أن يتفرقوا . ولكن هذا الحلم الكبير سرعان ما تبدد بلبجاء المستعمرين إلى احتلال البلاد وتجزئتها ودويلات عديدة منفصلة . وقد حز ذلك كثيراً في نفوس العرب وكان شعراؤهم خير مرآة تعكس لنا شعور المرارة والخيبة . ولعل شعراء الشام كانوا أشد إحساساً من سائر الشعراء العرب بوطأة هذا التقسيم الذي خطه الحلفاء سراً خلال الحرب العالمية الأولى . ويعد خير الدين الزركلي في مقدمة من ناضلوا في سبيل القضية العربية ، وناصحوا عن وحدتها ، من ذلك قوله حين تكشف نوايا الحلفاء تجاه بلاده (٢) :

فيم الونى وديار الشام تقسم أين العهود التي لم ترع والذمم
ما بال بغداد لم تنبس بها شفة وما لبيروت لم يخفق بها علم

وقد عبر أبو الفضل الوليد من وراء البحار عن شعور الأسى تجاه الوطن

الممزق بقوله : (٣)

(١) محمد المبارك ، الأمة العربية ١٨ .

(٢) ديوانه ١٥

(٣) فحخت السور ٦٣

قلبي تقسم و جداً من تقسمهم لكن حيي وحيد غير متقسم
 وكانت آيات خليل مردم من أصدق ما تجلى فيه شعور الاستنكار الذي
 شمل العرب آنذاك ، فهو يقول والأسى يلاً قلبه (١) :

فيم التقاطع والأرحام واشجبة	والدار جامعة والملقى أمم
الله في قطع أرحام وفصم عرى	عهدي بها وهي وثقى ليس تنفصم
ماذا عسى أنكرت من جلق حاب	بل ما عسى أهل لبنان يريهم
بلادنا ويد التقسيم تعلقها	كأنها رقعة يتناها جلم
أكل حاضرة دار للملكة	أبعاد ما بينهن الفتر والبصم

كما ندد إلياس قنصل من مهجره أيضاً بهذه الحدود التي خطها المستعمر في
 قلب الوطن العربي وأقام على أطرافها دويلات وحكومات (٢) :

دويلات تفرقها حدود	مزيفة أقيمت ثم قسرا
وتجمعها العروبة وهي روح	مقدسة بها الخلد استقرا

وحين انعقدت آمال العرب على فيصل بن الحسين بطل الثورة العربية ، في
 توحيد وطنهم الممزق ولم شعشهم المفرق أعرب شاعر العراق محمود الجبوبي
 عن تلك الأماني العذاب بقوله (٣) :

بشرت بالفوز قومي العرب مذعقدت	عليك يا فخرها آمالها العرب
فانهض لتوحيدها واجمع مواطنها	كما يضم بنيه التائهين أب
حقق كبار أمان أنت باعثها	الى اتحاد هو الآمال والأرب

(١) جريدة الف باء الدمشقية السنة الأولى . العدد ١٧٧ وانظر أيضاً ديوانه ١١٦

(٢) السهام ٤١

(٣) ديوانه ٧٠

إن النزوع نحو التكتل بين أفراد الشعب الذين يتكلمون لغة واحدة ويعيشون في أرض واحدة وتربطهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة ظاهرة طبيعية في حياة المجتمعات البشرية « وكما عرضت ظروف عاقت هذا الوضع الطبيعي وبدلته ظهرت دوافع نفسية وتيارات اجتماعية لارجاعه الى اصله . ولذلك فإن الأمم التي قسم شعبها وأرضها لسبب من الاسباب أو احتلت وغلبت على أمرها لا بد أن يدفعها دافع طبيعي الى الوحدة والتحرر والاستقلال » (١)

وقد كان وجدان الشعراء في هذا العصر نابغاً من هذه الحقيقة ؛ فقد أدركوا جيداً أن أزهى عهودهم في الماضي كانت إبان وحدتهم ولذلك كان شعورهم بالتجزئة قوياً حاداً .

وقد بدا جلياً في أعقاب تجزئة المستعمرين بلاد العرب أن الأمة لا ترضى عن التحرر ووحدة الشمل بديلاً . إلا أن الدعوة الى الوحدة الشاملة التي لم تفر في أي وقت على أسنة الكتاب والشعراء وبخاصة في الشام والعراق أخذت تبدو عاطفية عسيرة المنال ، وكان منطوق الأمور وتطورها يستدعي نظرة أكثر واقعية في ظل تلك الظروف والملابسات حتى لا ينفذ الأمر مجرد شعار أو نداء فحسب . وبهذا المنظار كان خليل مردم بك يواجه قضية قومه (٢) :

فكيف ترجي جمع (قيس ويعرب) وشملك يا هذا شئت مفرق
وكيف ترجي وحدة عربية ومن دون (راشيا) (٣) حدود ويرق

والواقع أن العرب بعد أن ابتلوا بالتجزئة إثر دخول المستعمرين بلادهم

(٢) ديوانه ٢٧٢

(١) محمد المبارك : الأمة العربية ٣٨

(٣) « راشيا قضاء سوري في الأصل سلخ عن سورية أيام الانتداب وألحق بالجمهورية اللبنانية » : الشاعر .

وأقسامها غدوا يتلفون على ضم ما انفرط من عقدهم ، فكان كل قطر يمن إلى
وصال جاره ، وكل شلو ممزق ينزع إلى التقرب من صنوه والاتحاد به ، لأن هذا
الاتحاد إن هو الا مرحلة في سبيل الوحدة الكبرى ، وخطوة نحو إقامة الوطن
العربي الكبير .

ويعبر بدوي الجبل عن هذه الرغبة الملحة في تلاقي الشقيقتين سوروية
ولبنان بعد أن حال دون ذلك الدخيل الأجنبي فيقول : (١)

لبنان والغوطة الخضراء ضمها ما شئت من أدب عال ومن نسب
ما في اتحادها تالله من عجب هذا الفراق لعمرى منتهى العجب

أما المهجريون الذين غادروا لبنان واستقروهم المقام في أمريكا فلم يكونوا
يترددون في اعتبار أنفسهم سوريين سواء في أحاديثهم أو في صحفهم أو خطبهم أو
أشعارهم ، وكان تأخيمهم في تلك الأرض النائية نموذجاً لوحدة القطرين .

ومن جهة أخرى كان ثمة تجاوب مماثل بين شعب الشام وشعب العراق
الذين رسم (سايكس وبيكو) الحدود بينها أيضاً على الورق ، ثم خطتها دولتنا
الاستعماري فوق رمال عربية كانت الرياح تعصف بها صباح مساء معلنة وحدة
القطرين وسائر أقطار العرب ، وقد عبر بدوي الجبل كذلك عن هذه
الحقيقة بقوله (٢) :

ليس بين العراق والشام حد هدم الله ما بنوا من حدود

كما ندد محمد مهدي الجواهري بعث الاستعمار في أرض الوطن وفصله
بين الشام والعراق ، في حين أن الطبيعة هي التي أجزت بينها الفرات العذب
وجعلتها ينهلان من منبع واحد (٣) :

(١) ديوانه ١٧٣

(٢) ديوانه ٣٩

(٣) ديوانه ٣ : ٨٥

ثقي دمشق فلا حد ولا سمّة ولا خطوط كعقب الطفل تبندع
تقصيك عن أرض بغداد ودجلتها أما الفرات فنبع بيننا شرع

وما الشام والعراق لدى أبي الفضل الوليد إلا أختان ربطت بينهما
آصرة العروبة (١) :

الشام أخت للعراق وفيها نور العروبة لاضليل الناشد
أهلوهما أبناء عم كلهم عرب بآداب لهم وعوائد

وكذلك يعبر محمد رضا الشبيبي عن شعوره وشعور كل عربي حين يقادر
بلده الى بلد عربي مجاور فيقول (٢) :

وما أنا في أرض الشام بمشتم ولا أنا في أرض العراق بمعرق
هما وطن فرد وقد فرقوها رمى الله بالثشتيت شمل المفرق

وبمثل هذا التجاوب كان الشعراء يعبرون عن عاطفة الأخوة بين المصريين
والعراقيين . وأكثر ما كان ذلك يحدث حين يتزاور أبناء الشعبين ويلتقون ،
إذ تنطلق مشاعر الاخوة الكامنة متدفقة نبيلة ، كما تجلي ذلك في أبيات لعزير فهمي
يعرب فيها عن حبه الدفين وحب المصريين جميعاً لآخوتهم في بلاد الرافدين (٣) ؛

أهلاً لقيناكم فما حنت ركا
إنا لتجمعنا بكم أقوى العرى
وزيدكم حباً إلينا أنسا
ويكاد من شوق إليكم يلتقي
بنداد إني قد رضيتك موطناً
بنا على ضجر الى أوطان
والامس أبقاها على الازمان
في الجرح والآلام مشتركان
لولا التخوم النيل والنهران
مصر وأنت اليوم لي ووطنان

(١) تمخات الصور ٥٦

(٢) ديوانه ٤٢

(٣) ديوانه ٢٩

وقد عزف شعراء مصر والسودان ألحان الاخاء بين شعبيهم ، ونادوا
بوحدة وادي النيل في كل مناسبة قومية . وهذا أمير الشعراء شوقي يرى أن
القطرين ليسا إلا عضوين لجسم واحد فهو يحذر من فصلها إذ يقول (١) :

احذروا من قسمة النيل فيا ضيعة الوادي إذا النيل انشطر

وكان محمد الاسمر متلهفاً على وحدة شعب وادي النيل وهو في ذلك
يعكس رغبات الملايين في مصر والسودان ، حتى انه خص السودان الشقيق بقسم
من ديوانه . ومن قصائده في هذا الصدد قوله (٢) :

نحن الشقيقان الوفاء يان على مر الزمن
ونحن مذكنا ، له إن لم نكن له فن
قلوبنا وحدها في السر منا والعلن

وهو يدعو بحرارة الى وحدة القطرين ويناجي أبناء وادي النيل بقوله (٣) :

جن ربي عن الشريك فما يج ري سوى ما يشاؤه ويريد
يا بني النيل (منبأ) و(مصبأ) وحدوه ، فديننا التوحيد

أما التجاوب بين الشام ومصر وحنين كل شعب فيها الى وصال الآخر
فقد كان قوياً وعميقاً عبر عنه شعراء القطرين منذ فجر النهضة الحديثة ، وتجلى في
قول حافظ ابراهيم قبل أكثر من خمسين عاماً إذ قال (٤) :

لمصر أم لربوع الشام تتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
هذي يدي عن بني مصر تصالحكم فصالحوها تصافح نفسها العرب

(١) الشوقيات ٢ : ٢٠٢

(٢) ديوانه ٢١٨

(٣) ديوانه ٢١٦

(٤) ديوانه ١ : ٢٦٨

وعندما زار لبنان شاعر النيل نفع أهله بتحية الاخوان الخالص في قصيدته
« تحية الشام » قال فيها (١) :

لي موطن في ربوع النيل أعظمه ولي هنا في حماكم موطن ثاني

وقد تملك الشعراء السوريين هوى لا حد له تجاه مصر إذ كان العرب
قاطبة وبخاصة السوريون يتطلعون الى أرض الكنانة ويحلونها محل الزعامة في قيادة
العرب وتحقيق أمانهم المنشودة في التحرر والاتحاد ، وهم لم ينسوا أنها كانت
ملجأ لاجراءهم وسائر احرار العرب في أيام محنتهم ، ومنبراً حراً لنشر آرائهم
التحررة والتبشير برسالتهم القومية . ولم يكذب يتخلف عن الاشادة بروابط
الاخوان بين البلدين شاعر عالج الشعر القومي . وكان في مقدمة الذين بشروا
بفجر الوحدة في أحلك الاوقات وابان الاحتلال الفرنسي خير الدين الزركلي
وشفيق جبري و خليل مردم ومحمد اليزم ومحمد الفراتي ومحمد الشريقي
وأحمد الطرابلسي وسواهم من الشعراء . وقد عبر شفيق جبري عن هذا
الشعور الفياض منذ أن ثارت مصر ثورتها الشاملة عام ١٩١٩ (٢) :

بين الكنانة والشام أوامر مشدودة كأواصر الارجام
ما هاج في ظل المقطم هائج إلا سرت أصدائه في الشام

و حين زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ تدفقت مشاعر شفيق جبري
بصدق وحرارة قل أن نجد لها نظيراً عند شاعر آخر (٣) :

تلك الاواصر لم تزل معقولة من عهد عمرو لم يحل عقابها
كبهفان تضطرب العروبة فيها حتى تجول على السنين مجالها

(١) ديوانه ١ : ١٣٤ (٢) صبري الاشبر : المختار ٤

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٥٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨ .

وإذا الشدائد بالكناية أهدت وثبت دمشق فقلعت وصلها
لو تشكي مصر أذى بشالها بترت ربوع الغوطين شمالها

ومما يدل على هذا الهوى العميق في نفس الشاعر نحو مصر أنه عاد إلى
تصوير عواطفه الملحة حين زار حافظ إبراهيم دمشق عام ١٩٢٩ فقال (١) :

إذا بكت جنات النيل من ألم بكت دمشق بدمع منه هتان
أواصر بيان العرب محكمة النيل والشام في الآلام صنوان

ونحن نقع على المشاعر نفسها لدى خليل مردم حتى كأن مصر عادة
يتلف الجميع على وصلها (٢) :

مصر العزيزة والشآم على الولا إلفان ضمها هوى وغرام
من عهد عمرو لم تحمل عزيمة في مصر إلا شاركتها الشام

وكذلك يرى محمد الفراتي أن مصر والشام أختان وكأنه يستنكر
انشطارهما فيقول (٣) :

أمة الشام والشآم قديماً أخت مصر المبارك العمور

وتعد قصيدة محمد الشريقي من أبرز ما قيل في وحدة الشعبين المصري
والسوري منذ بضع وثلاثين سنة ومن أياتها قوله (٤) :

أ إلى مصر أم إلى الشام تصبو والشقيقان واحد في وصله
وطن العرب خافه كل غات أغرق الفاتحين بحر رماله

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٩ ، ج ٦ ، ص ٣٧١

(٢) جريدة الف باء الدمشقية عدد ٥ آب ١٩٢٥ ، وانظر ديوانه ٢٥٩ .

(٣) ديوانه ١٩

(٤) ديوان الثورة ٩٢ .

مصر والشام فرعه الوارف الظل - وأهل القطرين من أشباله
 مصر والشام مشرقان لشمس ضاء منها الزمان في إقباله
 مصر والشام لن تموتا وإن جا ر علينا الدخيل يوم زاله
 مصر والشام مطلعان لفجر عربي غطى على آصاله
 نهضا يبعثان عصراً قديماً في جديد حاك على منواله
 مصر والشام دوختان لشعب صانه الله ، مد في أظلاله

كل هذه الشاعر الفياضة ، والتجاوب العميق تجاه مصر لم تكن
 في الحقيقة إلا إرهاباً بالتيار القومي الجارف الذي شمل الشعبين بعد ذلك وآل
 إلى وحدة القطرين كفاتحة مباركة لوحدة العرب الشاملة .

٣

على أن الوحدة الشاملة والدولة الكبرى كانت هدف العرب الأول
 وأمنيتهم الغالية ، وهي رغبة أصيلة في نفوسهم لم ترحزهم عنها فوائب الدهر
 ومكائد المستعمرين ، وقد تجلّى ذلك أشد ما يكون منهم إبّان الحرب
 الأولى ، في ثورتهم العربية الكبرى ، ثم في غضبتهم المضربة الشاملة على
 تجزئة بلادهم واستنكار إقامة الحدود بينهم كما تبين ذلك من خلال قصائد
 الشعراء ومقطوعاتهم . والحق أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن
 السوري واللبناني والمصري والجزائري والعراقي إلا كما يتحدثون عن
 الحلبي والبيروتي والاسكندرري والوهراني والموصلي . . . وكما قال حسن
 البجيرى (١) :

(١) ابتسام الضحى ٧١

لا يعرف العربي في الأحداث - بالمصري والسوري واللبناني
فالشرق تجمعهم العروبة عروة أدنت أفاصي مصر من بغداد

لقد كان اجتماع شمل العرب الممزق حلاً يداعب أخيلة الشعراء وهذا
ما جعل إلياس فرحات يقول (١) :

إن من الموت يحلو في سبيل الاتحاد

وعندما بلغ أرض البرازيل أول سفير لمصر بادر « شكر الله الجر » إليه
بسائله بلهفة المشوق المستهام وكأنه يرى فيه نفحة من بلاده وقومه (٢) :

كيف حال العراق بل كيف مصر كيف لبناننا وكيف الشام
أراها لدى صروف الليالي لم يزل دأب أهلها الانقسام
لو تطبيق الرجوع طرنا اشتياقا لبلاد هي المنى والمرام

فالشاعر بحنينه الطاغى الى وطنه يرى في بلاد العرب المتعددة وطناً
واحداً أو أعضاء في أسرة واحدة ، إنه يستفسر عنها الواحد بعد الآخر
ويأسى لتقاطعها .

وهكذا كانت تتجلى لهفة الشاعر العربي على رؤية بلاده متحدة ولو كان
في أفاصي الأرض .

وثمة تعبير جميل عن نزوع العرب الى الوحدة الشاملة لدى حلیم دموس
الذي وفق في تصوير عواطفه القومية من خلال تصويره لطبيعة بلاده
الساحرة حيث يقول (٣) :

(١) ديوانه ١٦٦

(٢) الروائد ١٢

(٣) الثالث والثاني ١٣٢

وتقارب الأرواح ليس يضيره
أثم رأيت الشمس وهي بعيدة
أنا كيف سرت أرى الأنام أحبتي
بردى كدجلة والفرات محبة
وأرى الرصافة في العراق وكرخها
والغولتين وكرم وادي زحلة
وحفيف هذا الأرز في لبنانه
بين الديار تباعد الأجساد
تهدي الشماع لأنجد ووهاد
والقوم قومي والبلاد بلادي
والنيل كالأردن طي فؤادي
كالصالحية مرقد العباد
كنخيل مصر في ظلال الوادي
كحفيف ذاك النخل في بغداد

ومع أن مضمون القصيدة لا يخرج في جوهره عما قصد إليه الشاعر في بيته الأول فانتنا نلذ لوقع هذه الأما كن من بلاد العرب على أسماعنا . وقد طاب للشاعر العزف على وتر الوحدة العربية والترنم بذكر بلدان العرب وبسحر طبيعتها بعد أن أضفى عليها من روحه وفنه ... وهذا الجانب الشعوري والعاطفي كان السمة البارزة للنزوع نحو الوحدة الشاملة لدى الشعراء العرب بصورة عامه . ونحن نجد هذه الروح أيضاً لدى الشاعر القروي الذي كان يعيش تجربة الوحدة العربية بجوارحه ، فهو يعبر عن تعلقه بها بما يشبه لهفة المتصوفة إذ يقول (١) :

هبوني عيداً يجعل العرب أمة
سلام على كفر يوحد بيننا
وسيروا بجثمانني على دين برم
وأهلاً وسهلاً بعده بجثمانم

وما أروع تصويره لوحدة مشاعر العرب برغم تجزئة بلادهم واختلاف ديارهم حين قال (٢) :

وما ضرنا ان لم يك العرب وحدة
أصابع كف المرء في العد خمسة
وقد وحدتنا في الجهاد المقاصد
ولكنها في مقبض السيف واحد

(١) ديوانه ٣١٥

(٢) ديوانه ٤٣٩

وقد رأى أجد الطرابلسي في وحدة الفضال والآلام المشتركة بشيراً
بالوحدة العربية المنشودة فراح يقول بلهجة الواثق المطمئن (١) :

وحدة العرب مزقت حجب الليل - وشعت ملء الفضاء النير
عرب نحن ما نذل لباغ مستبيح ولا ندين بشير
وحدتنا مواجع القيد حيناً فارقوا اليوم وحدة التحرير

والظاهرة التي يسجلها الشعر العربي باعتزاز أن سياسة الأمر الواقع
التي استمر المحتلون في تطبيقها على بلاد العرب وإصرارهم على تثبيت الحدود
بينهم لم تستطع أن تنال من نفوس أبناء الشعوب العربية ، فقد ظلوا على الدوام
يرون في تجزئة بلادهم تقطيعاً لأوصال أممهم . وقد تجلّى هذا الشعور - وياً على
ألسنة الشعراء ، من ذلك قول حسن البحيري (٢) :

لئن فرقنا أكف الخطوب دياراً تقاسمها المقسم
فإن لنا في طوايا القلوب لشملاً تأصل في كل دم

ولعل فيما قاله محمد مهدي الجواهري في الأبيات التالية نفحة صادقة
من الشعور القومي الفياض الذي يشعر به كل عربي يغادر بلده إلى بلد
آخر شقيق ، فهو يصور مشاعره إثر ارتحاله من العراق إلى فلسطين .
بقوله (٣) :

أقلّتي من الزوراء ربيع إلى يافا وحلق بي عقاب
وراح اللد منبسطة عليه من الزهرات يانعة خضاب

(١) مجلة الرسالة ، السنة السابعة ص ١٠٦٠ .

(٢) ابتسام الضحي ٦٢

(٣) ديوانه ١٨٨

وقلت وما أحيى سوى عتاب ولست بعارف لمن العتاب
 أحقاً بيننا اختلفت حدود وما اختلف الطريق ولا التراب
 ولا افرقت وجوه عن وجوه ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب
 لمن حم الوداع فضقت ذرعاً به واشتف مهجتي الذهب
 فمن أهلي الى أهلي رجوع ومن وطني الى وطني إياب

٤

أما الدولة العربية الموحدة فقد كانت مشيئة شعوب تؤمن بأنها أمة
 واحدة ومن حقها أن تعيش في وطن واحد . ويبدو أن صورة الدولة العربية
 الكبرى التي أقامها العرب في أوج ازدهارهم والتي امتدت من حدود الصين الى
 شاطئ الأطلسي لم تكن تبرح مخيلة الشعراء ، وقد انبثت هذه الفكرة قوية إبان
 الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها حين تفجر الشعور القومي في نفوس العرب .
 ولم تكن الثورة العربية الكبرى في الواقع إلا مظهراً فعالاً لهذه الرغبة الملحة .
 وهذا أبو الفضل الوليد يعبر عن تلك المشاعر التي استمدتها من علم الثورة آنذاك
 بقوله (١) :

لك الفتوح التي في العين آخرها وفي المحيط شهدت الموج يلتعالم
 من الحجاز الى أرض الشام الى أرض العراق لك الآفاق تبتم

كما عبر عبد المحسن الكاظمي عن هذه الاماني باقامة الوطن الكبير الذي
 يأمل العربي أن يتنقل في ربوعه أنى أراد (٢) :

(١) الاقناس الملهية ١٢٠

(٢) ديوانه : المجموعة الأولى ١٧٠

حبذا يوم يشتم المرقونا حبذا يوم يتهم المنجدونا
حبذا يوم يصبح العرب طرا في جميع البلاد متحدينا

وكان العرب منذ أوائل هذا القرن يرجون الخلاص من نير المماليك
ويطمحون إلى تأسيس دولة عربية تضم الاقطار التي كانت خاضعة لسلطة الآستانة.
وإذا كانت الظروف السياسية قد اقتضت أن يسمى العرب يومئذ إلى وحدة تضم
عدداً معيناً من أقطارهم فليس معنى ذلك أن الشعراء اعتبروا هذه المرحلة غاية
في ذاتها ، فهم لم يكونوا يريدون الوحدة الشاملة بديلاً ، وحدة تضم العرب
قاطبة وتستعيد أيام الامويين والعباسيين . وكان في طبيعة من تغنوا بهذا الامل أبو
الفضل الوليد أيضاً ، فقد عبر من مهجره القصي عن استبشار لا حد له باستعادة
عهد المأمون والرشد إثر نشوب الثورة العربية إبان الحرب العالمية الأولى في
قصيدة أسماها « الدولة العربية » (١) :

الله اكبر عادت دولة العرب بشرى لهارون والمأمون في الترب
دمشق حنت إلى بغداد واخطرت مصر التي هي دار العلم والأدب

وفي تسمية الشاعر نفسه إحدى قصائده القومية باسم « الاموية » دليل على
على إلحاح صورة تلك الدولة العربية التي شادها الاجداد ، على نفسه .

وفي قصيدة أخرى يعبر أبو الفضل أيضاً عن هذا الهوى العميق الذي
يكنه نحو العروبة ودولتها المنشودة التي ملكت عليه مشاعره فيقول (٢) :

نعم موطني لبنان لكن مولدي به عربي كالولي من السحب
فلا قوم إلا العرب لي وأنا لهم على البؤس والنعماء والسلم والحرب

(١) الانفاس الملبية ٨٥

(٢) الانفاس الملبية ٣

فأعظم وأكرم بالجماد ونسبة الى دولة تمتد في الشرق والغرب
وما هي إلا أمة عربية دماً ولساناً ليس تفصل بالتراب

وكان الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية في طليعة الداعين الى
توحيد شمل العرب في دولة واحدة مرهوبة الجانب ، حتى لقد انكر أن تقوم
هذه الدول الصغيرة على أشلاء الوطن الممزق بتدبير من المستعمر ، وبخاصة
بعد أن اتجه السبان في كل قطر الى تقديس هذه الحدود الموضوعية في صلب
الوطن العربي ، وقد أشار الى ذلك في قوله منذ أوائل عهده بالنضال (١) :

ولقد برئت اليك من وطنية ليست تتجاوز موطن الميلاد

وقل أن نجد لمشاعر إلياس فرحات نظيراً في تصويره الرائع لهذا الوطن
العربي الكبير الذي يخفق له فؤاده بقوة من وراء البحار (٢) :

أرى موطناً كالنسر يبدو خياله على الارض ثبتاً وهو في النيب طائر
جناحه مصر والعراق وسدره - الشام وبمجموع الجزيرة سائر
يدود جناحه عن الجسيم كله وتقدي جناحيه الضلوع الحرائر

وفي تشبيه دولة العرب المنشودة بالنسر وأقطارها بأعضائه تعبير رائع عن
وحدة العرب في وطنهم الكبير .. وكذلك نستمتع من المهجر الى منساجاة نسيب
عريضة شاعر الحنين وهو يصور مشاعره تجاه بلاد العرب التي انصهرت أجزاءها
في قلبه فخرجت على لسانه متآخية متآخية (٣) :

الأهل أهلي وأطلال الحمى وطني وساكنوا الربع أترابي وأقراني

(١) ديوانه ٦٤ .

(٢) ديوانه ١٣٢ .

(٣) ديوانه ٢٤٥ .

لاحد عندي إن جارت حدودهم الشام شامي ومصر أخت لبنان
وفي فلسطين أقداسي وعاطفتي في نجد، والقبة السمحاء إيماني
لي العروبة أمشي في مخارفيها من العراق الى ما بعد وهران

وثمة نشيد حماسي ينسب الي فخري البارودي طالما ترنم بنبراته الشبان
العرب، وانتشوا بألحان الوحدة العربية التي انسابت من مقاطعه، ومنه :

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن مصر الى يمن الى نجد قتلوان
فلا حد يمزقنا ولا دين يفرقنا
لسان الضناد يجمعنا بفسان وعدنان

فقد هزج الطلاب بهذه القوافي في مظاهراتهم اللاهبة ضد الفرنسيين في
سورية وسارت على لسان كل مناضل حتى غدت نشيداً جماهيرياً قومياً .

وفي خلال هذه الحرب الأخيرة يتعاضم الشعور القومي في النفوس ويتحفز
العرب لأخذ مكانهم اللائق بين الأمم من جديد، فقد راحوا يترقبون انتهاء
التطاحن الرهيب بين الدول الكبرى بلهفة، ويرقبون من وراء دخان المعارك
ذلك الفجر الجديد الذي أخذت ملامحه في الظهور. وتكون ولادة جامعة الدول
العربية في أواخر هذه الحرب أولى ثمرات الوعي العربي، إذ استبدر الشعراء
بهذا الحدث وطفقوا يتغنون به ويعتبرونه عيداً قومياً، وهذا أحمد محرم الذي
كان أحد شعراء الجامعة الاسلامية يبادر الى احتضان الجامعة ويقول :

أمم العروبة جاء يومك فاعلمي والى مكانك فانهضى وتقدمي
ضمي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحمي

انظر الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية عن ديوان مخطوط للشاعر ١٧٥ : ٢ .

أمم العروبة جد جدك فانظمي من عقدك المنثور ما لم ينظم
لك أن تسودي تحت رايتك التي خفقت لها الدنيا فسودي واسلمي

كاتفمر هذه المواطف القومية شاعراً مثل علي الجارم كان بعيداً عن تناول
مثل هذه الموضوعات في شعره فهل لتلك المناسبة القومية بقوله (١):

لقد كان حلماً أنزى الشرق وحدة ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا لنا الشرق حد والعروبة موقع

وبرغم أن العرب كانوا يتوقون إلى اتحاد أشد إحصاماً من جامعة تضم
دولهم فحسب ، فقد عم الابتهاج النفوس يوم توقيع الميثاق من قبل الدول يومذاك
ورأى فيه العرب خطوة نحو الوحدة المنشودة وقاتحة عهد جديد في حياة العرب ،
وقد انعكس ذلك كله جلياً في نفوس الشعراء وبدا في قصائدهم بأسمى معانيه .

وبما لا ريب فيه أن هذه الوحدة العربية التي طالما تفتى بها الشعر الحديث
والمعاصر وناق العرب إلى تحقيقها ، لم تكن رغبة شعب واحد في قطر من أقطار
الوطن العربي ، وهي ليست أيضاً رغبة آنية طارئة تنشط في يوم لتموت بعده ،
وإنما هي أمل كل عربي واع يسكن هذا الوطن من أقصاه إلى أقصاه . وكان
هذا الشعور يزداد عمقاً وقوة كلما لزداد الشعب إدراكاً لأهدافه ، وقرساً
بقضيته . وما تعبير الشعراء البليغ عن ترابط أجزاء البلاد العربية إلا مظهر
بارز لرغبة جماهير العرب الأصيلة وشعورهم المنطلق في النزوع نحو الوحدة الشاملة.
على أن هذا التجاوب لم يبلغ مداه إلا إثر نكبة فلسطين التي اكتوى العرب
بنارها في أعقاب الحرب العالمية الثانية فجرحت كرامتهم وهزت كياناتهم
وأنضجت وعيهم .

ومع أن العرب كانوا يرسفون في القيد ويصارعون الاستعمار فإن خوضهم

(١) ديوانه ٤ : ١١

معركة التحرر والمصير الضارية لم يكن ليصرفهم قط عن قضية توحيد أقطارهم بل إنهم وجدوا في وحدتهم ضامناً لاستقلالهم وتحررهم ، وقد رأينا الشعراء ينادون بهذا الهدف المزدوج : التحرر والوحدة وهم في أحلك ساعات صراع الأمة مع الاحتلال . حتى إذا ما انحسر الظنيان وتقلص ظله انطلقوا يبشرون بالوحدة الكبرى بإيمان لا حد له .

مما سبق يمكننا أن نخلص إلى القول إن سائر القوميات القومية الأخرى لتيار العروبة ، من وحدة في الأصل وفي اللغة ، واشترك في التاريخ والذكريات والآلام ، كانت في الواقع بمثابة روافد غزيرة للنزوع إلى الوحدة أمم العرب ومحور حياتهم القومية بعد تحررهم ، كما كانت الدعوة إليها والتبشير بها ديدن شعرائهم المعاصرين في شتى أوطانهم ومهاجرهم .



والآن يجدر بنا أن نتساءل أخيراً عن مدى قوة هذا الاتجاه العربي أو ضعفه في مختلف بلاد العرب وبالتالي لدى شعراء الاقطار العربية ، وهل تدفق تيار العروبة في جميع الامكنة والازمنة على صعيد واحد متماثل ؟

إنه من الطبيعي أن تتفاوت هذه المنازع العربية شدة وضمناً ، ووضوحاً وغموضاً ، تبعاً لاختلاف العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية بين الشعوب العربية نفسها ، فلواقع أن ثمة ظاهرة جلية تعرض للمتبع الباحث من خلال رصده لانطلاق تيار القومية العربية وتدفعه في الشعر العربي الحديث ، وبخاصة خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، وهي أن النزعة العربية على اختلاف مقوماتها تجلت أوضح ما تكون - كما دلت الشواهد آنفاً - في ربوع الشام وما بعد امتداداً لها في المهجر ثم في ارض الرافدين بصورة عامة ، فقد كان الشعراء في هذه

الربوع العربية يعزفون ألحانهم القومية على وترين اثنين معاً : التحرر الوطني والاستقلال من جهة والمصير العربي المشترك والوحدة العربية المنشودة من جهة أخرى .

ولكن الامر لم يكن يسير على هذا النسق في أرض الكنانة . ولو طرحنا جانباً النزعة الفرعونية التي طفت حيناً على أذهان المصريين ووسمت بعض مناحي حياتهم الفكرية والثقافية بدا لنا ان فكرة « مصر أولاً » أو « مصر للمصريين » قد استأثرت باهتمام الشعب المصري واستغرقت نشاطه ، كما أن دوحه العروبة لم تورق اوراقها المنشود على ضفاف النيل برغم جذورها العميقة الاصلية خلال قرون طويلة من تاريخ العرب الحافل وأجدادهم العريقة . ولعل من أسباب التخلف في الوعي العربي آنذاك يعود الى منافسة أفكار أخرى طارئة لفكرة العروبة ، يضاف الى ذلك انشغال مصر المبكر بتضييقها الاولي قضية التحرر الوطني ، فضلاً عن أن كيان مصر ظل سليماً لم يمس بتجزئة أو انقسام على الرغم من جثوم الاحتلال فوقه أمداً طويلاً . أما الامر في بلاد الشام مثلاً فقد كان مختلفاً إذ كادت هذه البلاد تخلو من الافكار الشائبة التي تركز الى فلسفة قومية خاصة ونعرة إقليمية متميزة كما أن تاريخها القريب افترق عن تاريخ مصر من حيث جثوم الحكم العثماني أمداً طويلاً فوقها وانحساره المبكر عن أرض الكنانة ، ثم اقتحام المستعمرين لبلاد الشام والعراق آخر الامر وتماديهم في تجزئتها وتفتيتها وسلخ بعض اقسامها عنها .

ومن هنا كان شعراء مصر يعكسون مشاعر شعبهم ويتجاوبون مع آماله بالتحرر والاستقلال فحسب دون ادراك واضح لوحدة المصير العربي فيما حولهم من شعوب العرب . وقد ظهرت بوادر هذا التجاوب أول الامر لدي بعض الشعراء

المصريين حين عدوا عرب الشام والعراق مجرد جيران ، أي لا تُجمع بينهم وبين
المصريين أكثر من رابطة الجوار والقرب المكاني شأن أي دولة اجنبية شرقية
متاخمة . وعلى ذلك لا تتضح لنا ملامح نضال العرب في مختلف ديارهم من دواوين
الشعراء المصريين إلا في احوال قليلة أو بمقدار ما يضمهم إطار الدين المشترك في
جملة ما يشمله من الشعوب الشرقية أو المسلمة . فالدعوة الى الوحدة العربية مثلا
ظلت أمداً غير قليل خافتة خامدة على ضفاف النيل ، ولم يكن يصدر الشعراء عن
شيء بارز منها الا في اعقاب ثورة ١٩١٩ اذا استثنينا رائعة حافظ ابراهيم التي
نظمها عام ١٩٠٨ والتي يقول فيها (١) :

إذا ألمت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب

فنحن لا نكاد نقع على قصائد نظمها المصريون قبل الحرب العالمية الاولى
تشارك الشاميين والعراقيين أساهم من وطأة الاستبداد العثماني ، كما ان إعدام
جمال باشا عشرات الزعماء العرب في ساحات دمشق وبيروت لم يحرك مشاعر أحد
في مصر ، برغم ما كان يتمتع به المصريون آنذاك من حرية في القول . وحين نشبت
الثورة العربية الكبرى في الحجاز وامتدت الى الشام والعراق لم يحدث لها صدى
في مصر ، أما القلائل الذين عرضوا لها بالذكر فقد انكروها ونددوا بزعيمها ،
وكان لهم بعض العذر في ذلك لانها تحالفت مع عدوتهم انكلترا . وعندما
اجتاحت جحافل المستعمرين سواحل الشام واقتحمت السبل نحو حضرة الامويين
على اشلاء المجاهدين الغزل بزعامة يوسف العظمة في ميسلون مر ذلك الحدث الجسيم
بنهاية المصريين وبشعرائهم بوجه خاص مرور العابر حتى لكأن شيئاً لم يقع وأن
شعباً لم يقهر وبلاداً لم تستعمر . أما القليل الذي قيل رثاء ليوسف العظمة فقد

(١) انظر القصيدة في ديوانه ١ : ٢٦٨

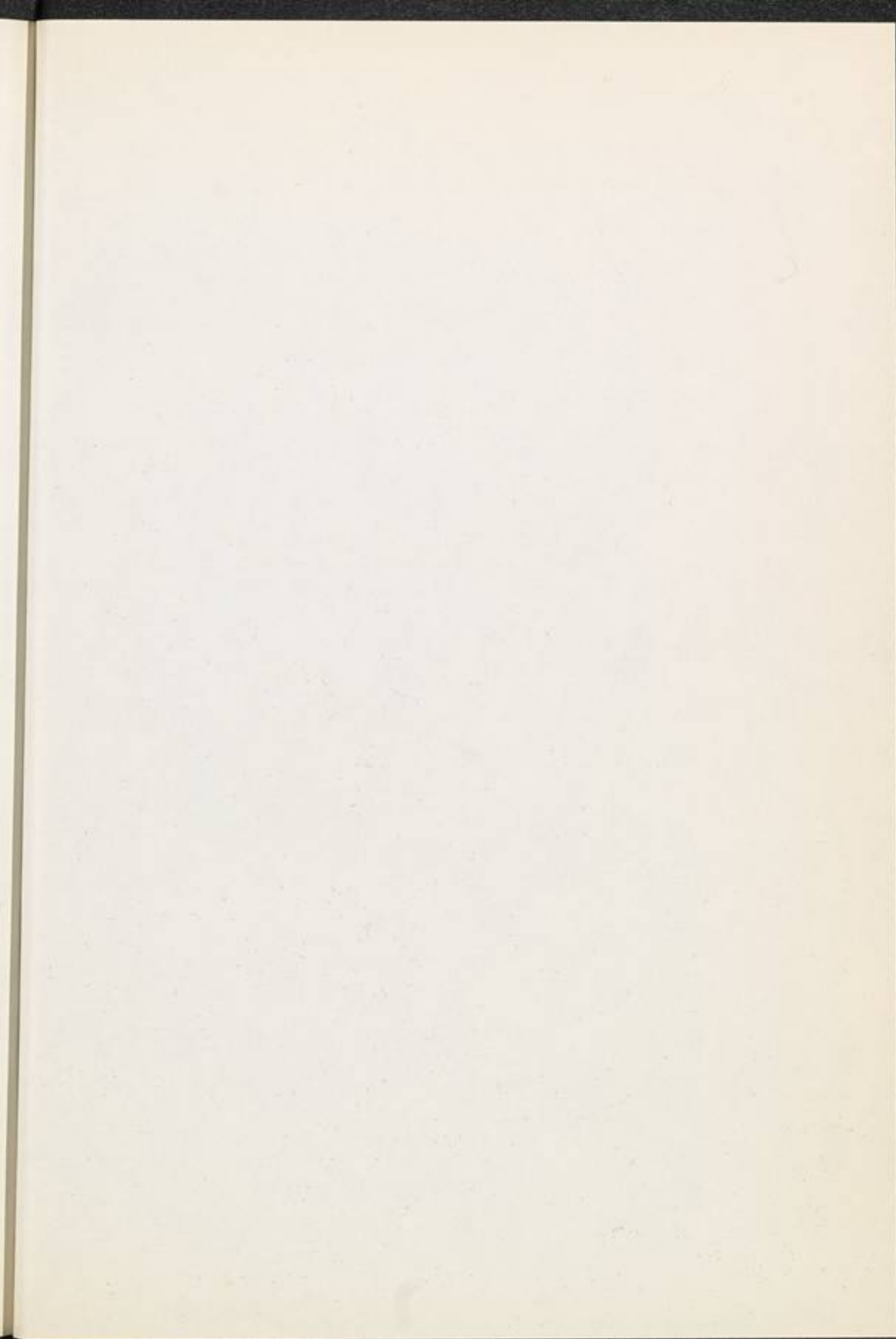
صدر بعد سنوات طويلة في ذكرى تلك الوقعة التاريخية . وشيبه بذلك ما كان يحتاج العراق من أحداث . في حين كان شعراء الشام والعراق شديدي الحساسية والتتبع لاحداث مصر . ولا شك اننا ندخل في حسابنا ضعف الصحافة العراقية والشامية مقابل انتشار الصحف المصرية في الشرق العربي حاملة معها صوراً متوالية للحياة السياسية والاجتماعية في وادي النيل .

على ان وقع الاحداث العربية اخذ يظهر قويا في نفس احمد شوقي وبخاصة منذ نشوب الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، فقد كان تجاوبه معها رائعا اثلج قلوب العرب يومذاك .

ومع ذلك بقي الغموض يلف كثيراً من المنازع العربية في مصر برغم صدقها وإخلاصها وانطلاق المشاعر القومية الاصيلة من مكائنها بعد ان طردت عنها الافكار الشائبة كما تطرد النار الخبث من الحديد ، فقد رأينا غلبة المفهوم الاسلامي حيناً او الشرقي حيناً آخر على المفهوم العربي واختلاطه به في أذهان الكثيرين من شعراء مصر . ومن مظاهر اضطراب التيار العربي على ضفاف النيل أيضاً اعتبار بعض المفكرين والادباء والشعراء ان العرب امم متعددة على نحو ما بدا لنا في شعر حافظ ابراهيم واحمد محرم ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم حتى إننا نجد هذا المفهوم قد ورد عام ١٩٤٤ في خطاب رئيس وزراء مصر في معرض تأسيس جامعة الدول العربية (١) ، بل في كثير من اقوال عبدالرحمن عزام اول امين عام للجامعة .

(١) انظر النص الرسمي لخطاب مصطفى النحاس رئيس وفد مصر في حفلة افتتاح اللجنة التحضيرية لبروتوكول الاسكندرية الذي مهد لقيام جامعة الدول العربية اذ قال : « يطيب لي أن أشيد بما يربط بين الامم العربية في مختلف البقاع من صلات أخوية .. »

على ان الحال اخذ في التبدل سريعاً خلال الاعوام الاخيرة إثر ازدياد الوعي القومي في نفوس العرب قاطبة بعد ان شحذها النضال . كما كان لانتشار الصحافة والاذاعة وتبادل الكتب والوفود فضل لا يحصى وبخاصة منذ بدء الحرب العالمية الثانية وتأسيس جامعة الدول العربية . لقد اخذ ظل الاستعمار البغيض ينحسر عن الشرق العربي ولاج للعرب فجر التحرر ، حتى اذا ما نعموا بالاستقلال بعد خوضهم معركة الاحتلال تلفتوا ينشدون التقارب بينهم في شتى الميادين في معركة أخرى هي معركة المصير المشترك والوحدة المنشودة .



الباب الثالث

مَوْضُوعَاتُ الشَّعْرِ الْقَوْمِيِّ

مناضلة الاستعمار	الفصل الاول
التنديد بالامتداد وفساد الحكم	الفصل الثاني
الاستنهاض والحض على الثورة	الفصل الثالث
التضامن والاخاء	الفصل الرابع
البطولة والفداء	الفصل الخامس

قالا بيا

لنحققا الحشا الزلزميه

الفصل الأول

مناضلة الاحتلال

قصة العرب مع المستعمرين ملحمة دامية تعاقبت أحداثها الرهيبة على أرضهم ولما تم فصولاً حتى هذا اليوم ، وطبيعي أن يجد موضوع الاستعمار الذي اقتنح حياة العرب قاطبة عشرات السنين صدها البالغ في الشعر الحديث ويندو من أبرز جوانب أدبنا القومي .

وعلى الرغم من أن العهد العثماني لا يختلف كثيراً فيما جره على العرب من شرور عن عهود الاستعمار والانتداب والوصاية ، فإن ثمة فارقاً أيديولوجياً بينها لا يمكن إغفاله . ففي حين كان الحكم العثماني يقوم على التسوية بين جميع القوميات التي تتألف منها الدولة وبخاصة العرب والترك الذين ينضون تحت راية واحدة هي الراية العثمانية ، كان الغزو الاستعماري يرتكز الى فلسفة غريبة تبرر سياسة العدوان وتحل اعتداء القوي على الضعيف وترغم لنفسها حق تمدن الشعوب المستضعفة ولو اقتضى الأمر اللجوء الى الحديد والنار .

والواقع أن نشوء بعض القوميات في الغرب وبخاصة لدى الدول الصناعية الكبرى يختلف اختلافاً جوهرياً عن نشوئها في الشرق . فما حدث أن تلك القوميات اندفعت خارج قارعتها بعد الانقلاب الصناعي باحثه عن أسواق لها في الشرق . ثم شعرت بعد ذلك بحاجة ماسة لوضع مذهب يبرر غايتها ووسائلها فكانت الرأسمالية

التي تمخض عنها النظام الاستعماري . لقد حمل عدد من القوميات الفريسة بذرة العدوان في ذاته حين جعل القوميه مذهباً اجتماعياً وأخلاقياً شاملاً للوجود لا يأتيه باطل ولا يتطرق اليه شك ، ولم يلبث أن أورث أصحابه صلفاً مستهجنأ وعصبية ذميمة ، وغدت تلك القوميات قوميات متعالية متباغضة ازلفت فيما بينها الى حروب طاحنة كانت جميعها في الوقت نفسه وبالاعلى حرية الشعوب الآمنة في الشرق . ولقد كان أقطار المغرب العربي الفريسة الأولى للمستعمرين دون سائر أجزاء الوطن ، وذلك بسبب قربها من أوروبا وبمدها في الوقت نفسه عن مراكز قوة الدولة العثمانية وعاصمتها . وكانت هذه الدولة على ضعفها وفساد حكمها الدرع المنيعه التي صانت البلاد العربية من كيد المستعمرين أمداً طويلا . ومع ذلك استطاع الانكليز بمساعدة حكام مصر أن ينفذوا الى أرض الكنانة إثر ثورة عرابي ، وراحوا بمدها يتطلعون الى العراق الغني بالنفط . وكانت فرنسا لا تخفي مطامعها في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر ، وتدعي أنها حامية الكاثوليك في لبنان . ثم وجد الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى فرصة لتحقيق أطماعهم المشتركة فاجتمعوا خلالها سراً واقسموا بينهم الشام والعراق ، ثم منحت بريطانيا فلسطين لليهود لتكون وطناً قومياً لهم . كل ذلك والعرب لا يدرون من الأمر شيئاً . ولم يقف المستعمرون عند هذا الحد بل راحوا يستولون استيلاء العرب من استبداد الترك واخذوا يشجعونهم على الانتفاض ضد الدولة العثمانية ويكيلون لهم أجزل الوعود في التحرر والسيادة .

١

ولم تكن نتيجة الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد الترك وتحالفت مع الحلفاء سوى خدعة استعمارية كبرى ذهب العرب ضحيتها بسبب « سذاجة زعمائهم وإيمانهم الصياني في تصريحات الساسة الغربيين وبياناتهم (١) » . وهكذا تسلسل

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ٢١٣

المستعمرون الى بلاد العرب من قلب ثورتهم الكبرى فأصبح الخلفاء السرفاء محتلين
والأصدقاء الخلف مستعمرين ، وكان جرح لكرامة العرب كبير عبر عنه شعراؤهم
أجلى تعبير ، وفي ذلك يقول خليل مردم ونار الحماسة تتأجج في قلبه (١) :

ما حررت من قيود الترك أنفسنا حتى نكون لغير الترك عبدانا
تأبى دماء زكيات لقد سفكت وأنفس بالحمى زایلن أبدانا
أن يستباح ذراع من مواطننا في سهل سيناء أو في حزن لبنانا

ويمكن القول إن شطراً كبيراً من الشعر القومي الذي قيل في هذا الصدد
إنما اتجه الى التنديد بأساليب الختل وأحاييل الوعود التي كانت أبرز ما ساس به
الاستعمار البلاد المستضعفة ، وقد غدا كل شاعر عربي آنذاك يحس في قرارة نفسه
بأنه وأمتة ضحية الخداع والتضليل . وسيتجلى لنا هذا الشعور المرير لدى كثير
من الشعراء ، من ذلك ما قاله محبوب الخوري الشرتوني في قصيدته « دمعة
على العرب » (٢) :

قالوا إذا ما الحرب أغمد سيفها للعرب من درك العثار قيام
فاذا بأضواء البروق كسواذب وإذا بمرسد السحاب جهام

وقد عبر أيضاً أمين ناصر الدين عن شعور الخيبة المرير الذي تملك العرب
في أعقاب تلك الحرب فقال (٣) :

ولما بشروا بالصلح قلنا لكل رزية نزلت زوال
وأملنا النجاة فما رجونا سوى أمر حقيقته خيال
وما نفع اليهود مسطرات إذا كانت تناقضها الفعال

وحين توفي الحسين بن علي زعيم الثورة العربية تجدد في مرثي الشعراء
الشعور المرير تجاه الغدر الاستعماري . وقد أشار خليل مطران الى ذلك ومن على
الخلفاء بمؤازرة العرب لهم حيث قال (٤) :

(١) ديوانه ١٤٩
(٢) ديوانه ٨٢
(٣) الالهام ٨٣
(٤) ديوانه ٩٢ : ٤

أين الذي سجلوه في رسائلهم ورددوه من الأيمان في الخطب
لولا معونة ذلك الحلف لانقلبوا دون الذي أملاه شر منقلب

ولم يختلف ما قيل في تمجيد فيصل بن الحسين أو في رثائه عن مثل هذا
التنديد بوعود المستعمرين وأحاييلهم . فالشاعر إلياس قنصل يناجيه من وراء البحار
ويشير الى قواطئ فرنسا والانكليز وإرسالهم (غورو) الى سورية لاحتلالها
والاطاحة بالحكم العربي فيها (١) :

نصت سياستهم على أن يغدورا وايت رغم خداعهم أن تغدرا
وأعنتهم فنسوا ولو ذكروا لما بعثوا الى الفيحاء ذلك الأعسرا

ومن أبرز القصائد التي قيلت في هذا الصدد مرثية الاخطل الصغير التي
أنشدها في ذكرى فيصل أيضاً وهي مفعمة بشعور الأسي (٢) :

حدثونا عن الحقوق فلما كبر النصر أحوجتنا التراجم
نفحتنا بها الحروب سلاما ورمانا بها السلام أداهم
بل إننا نلتمس لدى الشاعر نفسه بعد سنين أثراً آخر لهذا الجرح البليغ
الذي خلفه المستعمرون في قلوب العرب ، وذلك في قصيدته التي نظمها على
أثر استفحال الخطب في فلسطين وقد حيل بينه وبين القائما (٣) :

قل (لجونبول) إذا عاتبته سوف تدعونا ولكن لا ترانا
قد شفينا غلة في صدره وعطشنا فانظروا ماذا سقانا
يوم نادانا فلبينا النداء وتركنا نهية الدين وрана
ذنبنا والدهر في صرعته أن وفينا لآخي الود وخانا

وبرغم لهجة الاعتدال في هذه الايات فهي تشير الى أن العرب في ثورتهم
الكبرى وفي مخالفتهم الانكليز قد سلوا سيوفهم في وجه السلطان المسلم واتقضا على

(١) السهام ٥٤ ، ويريد بالأعسر « غورو » الذي أصيدت فزاعه في الحرب

(٢) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الادب العربي ٣٠٠

(٣) المهوى والشباب ١٥٦ . وكان الشاعر قد اعددها لينشدها في احتفال هيأته مدينة حمص

سنة ١٩٣٧ انتصاراً لفلسطين ولكن السلطات الفرنسية حالت دون ذلك .

دولة الخلافة ضارين برابطة الدين المشترك عرض الحائط في سبيل تحررهم فاذا هم يجزون جزاء سنار .

وكان أبو الفضل الوليد في إشارته الى هذا الامر شديداً على دول العرب كما كان شأنه في أكثر شعره ، وهو أيضاً يشيد بفضل العرب عليهم ويقول (١) :

قد حالفوه وظفروه بالعدا حتى استبد وكان أضرى آسد
فعلية لمنتهم ولعنة نسلهم ما دام أكذب واعد ومواعد

أما مباديء الرئيس الأمريكي (ولسون) التي ارتكزت على حق تقرير المصير الامم المستضعفة فقد حسب فيها العرب الذين أغرقهم طوفان الاستعمار منجاة لهم بعد أن طلعت عليهم بوجهها النبيل ، حتى إن عدداً غير قليل من الشعراء انتشوا بها فلم يترددوا في مدح أمريكا وسياستها ورئيسها وكان منهم عبد المحسن الكاظمي وإلياس فرحات ومسمود سماحة وغيرهم (٢) . وسرعان ما تبين للعرب أن ما بدا لهم ماء ليس إلا سرايا . ولذلك كان رد الفعل شديداً لدى الشعراء عبروا عنه بمرارة إثر تلقي شعوبهم تلك الضربة الجديدة من حيث لا يحتسبون ، وكان مما قاله خير الدين الزركلي (٣) :

وعود ولسن كم أضالت من فئة لأنت أشأم ما سيدت به الامم
أيدعون حقوقاً في مواطننا والين أقبح ما يطوى عليه فم

وكان طبعياً أن يكون شعور فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية أشد مرارة بعد أن صعب بنفسه مراحل انتصارات العرب في ثورتهم الى جانب الحلفاء ، فهو يشير الى مبادئ ولسن بسخرية حادة (٤) :

نسخ الوصايا العشر من الواحها وحوى (الكتاب) وزاحم التنزيلا

(١) نسخات الصور ٥٦

(٢) انظر ديوان الكاظمي المجموعة الأولى ٢٢٤ ، وديوان فرحات ١١٧

(٣) ديوانه ١٥ (٤) ديوانه ٥٤٤

واتى بأربع عشرة انتظمت معا
 مشت الشعوب الي الشعوب واكبرت
 وتوسمت فيه المسيح وأبصرت
 حتى إذا انكشف القناع تحققت
 ورأت (مسيلة) يساوم (أشعبا)
 وحيأ يرتل بكرة وأصيلا
 ما كان منه وهلات تهليلا
 في قوله التوراة والانجيلا
 أن السياسة لم تزل تضليلا
 سلب الممالك عرضها والطولا

ونجد صدى نكول الرئيس ولسن عن مبادئه واستجابته لهوى حلفائه في
 آيات معروف الرصافي يعبر فيها عن خيبة العراقيين وسائر العرب (١) :

رجل قد تنكب الحق قوسا
 قال حرية الانام هي الغاية
 فاشرب الوري إياه وظنوا
 ثم خابت ظنونهم فيه لما
 ومن البطل ظل يرمي السهاما
 لي في الوغى فغر الاناما
 أنهم سوف يبلغون المراما
 مر في الجس وخبلاً وجهاما

أما المصريون الذين طال أمد الاستعمار عليهم فقد قاموا بشورتهم عام
 ١٩١٩ بعد ما تبين لهم إصرار الانكليز على احتلال بلادهم وكانوا يعقدون
 على وعود ولسن آمالا عراضا، وهذا محمد عبد المطلب يخاطب الغربيين والثورة في
 بلاده على أشدها (٢) :

يا ناشري علم السلام ألم تروا
 ما العدل ما حرية الامم التي
 ما عهد ولسن أين ولسن هل درى
 للسلم في أرجاء مصر مجالا
 سارت رسائلكم بها أرسالا
 أنا بمصر نكابد الاهوالا

وكان من الطبيعي ان يفقد العرب بعد ذلك كل ما تبقى لهم من ثقة
 بالغرب منذ ذلك الحين . ولذلك نجد ان لهجة الشعراء اخذت تتسم بالحدة

(١) ديوانه ٤ : ٤٣٥

(٢) ديوانه ١٩٣

وتلوح بالتأثر لكرارة العرب المهذرة . ومما يدعو الى الاعتزاز أن الشعراء الذين حملوا لواء مكافحة المستعمرين جهدوا في أداء رسالتهم نحو أمتهم بليمان وإخلاص ، ولم يكتف بعضهم بتحذير الأمة من وعود الدخلاء ، بل أخذوا على عاتقهم تبصير الحكام بحقائق الأمور وتحذيرهم من الوقوع في أحابيل السياسة ، من ذلك مثلاً ما ذكره محمد الفراتي في ديوانه من أن الملك فيصل أصدر إرادة سنسية بتسليم دير الزور الى الانكليز . فأرسل اليه الشاعر يومذاك قصيده يقول فيها (١) :

لا تتخضع بأساليب ينمقها	منهم غوي يحاكي رسمها الخلسا
إين العهود وما منوا وما زعموا	كانت وعودا فأمسى جلبها انصرما
قالوا الشعوب لقد قمنا لتنقذها	من المهاوي فكانت بينهم قسما
بعض الطباع لها من جنسها مثل	لا تأمن الذئب أن يرعى لك الغنما

وكذلك يتجه الشاعر القروي الى فيصل بقصيدة مماثلة يحذره فيها من كيد المستعمرين وقد أزمع السفر الى عاصمة الانكليز لمفاوضتهم (٢) :

نصحتك لا تمدد الى أبرص يدأ	ولو أمطرت كفاه درأ منضدا
لأمر بلاقيك الفرنجي باسمها	فزد حذراً ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الجسم وهو سقيمه	كما تكسب الحمى الحدود تورددا
لئن وعدونا بالجلء عن الحمى	فقد ضربوا يوم القيامة موعدا

وقد عرف المصريون من أمر مراوغة انكلترا ما لا يعرفه سواهم من العرب إذ أنهم ما برحوا منذ عام ١٨٨٢ يتلقون الوعود الكاذبة بالجلء عن البلاد ، ولذلك نرى حافظ إبراهيم يصور ببراعة مكر الختلين ويحذر سعد زغلول من أحابيلهم حين أزمع السفر لمفاوضتهم ، على نحو ما خاطب به الفراتي والقروي الملك فيصل ، فهو يقول (٣) :

(٢) ديوانه ٣٤٢

(١) ديوانه ١٠١

(٣) ديوانه ١ : ١٠٢

لا تقرب (التامين) واحذر ورده معها بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفي مائه واختل فيه مذوَّب مصقول
كم وارديا (سعد) قبلك مائه قد عاد منه وفي الفؤاد غليل

وأشار شوقي الى أن سورية ومصر كانتا ضحية الاستعمار وأحاييله (١) :

وهل نلنا كلانا اليوم إلا عراقيب المواعد والطلا

وكما أن ثورة مصر عام ١٩١٩ كانت ترجع في أسبابها الى نكت الانكليز
عهدهم ونقضهم مواعيتهم ، كان الشأن في العراق إذ قامت ثورتهم الكبرى عام
١٩٢٠ بعدما تبين لهم عزم المحتلين على إدامة بقائهم في ربوع الرافدين
خلافاً لما كانوا قد أعلنوه على لسان قائدهم إبان الحرب . وفي ذلك يقول
جميل صدقي الزهاوي بحق (٢) :

ما كان قبلا لهذا الشعب من خطل حتى اطعأت ففرته المواعيد

وقد عبر محمد الهاشمي عن ضيق العراقيين والعرب جميعاً بسياسة الختل
والطل ، في قصيدة أسماها « قد سئمتنا الوعود » وقال فيها (٣) :

قد سئمتنا الوعود وهي خداع ومللنا الایعاد والتهديدا
وانجلى الشك وانتهى كل سر كان بالغش بابه مسدودا
أين تلك الآمال ما بلغوها يوم شدوا جيلا بها ممدودا

على أن الشعراء الذين دأبوا على فضح أساليب المستعمر وكشف أحاييله
عمدوا من ناحية أخرى الى التشهير بأساليب الختل والتضليل التي كان يصطنعها

(٢) الاوشال ٢٤٩

(١) الشوقيات ٢٢٧

(٣) عبرات الغرب ١١٧

الفرنسيون مع مسيحي الشام مثل ادعائهم أنهم حماة لهم من طغيان المسلمين . وكان كثير من مسيحي لبنان يقفون بفرنسة ثقة عمياء لأسباب دينية بحجة بعد أن عانوا الولايات في العهد العثماني من جراء التعصب وفساد الحكم ، وكان أن فطن من جهة أخرى معظم الشعراء الى حقيقة الوجه الاستعماري المستر وراء الصليب . وقد عبر أبو الفضل الوليد عن حقد دين على فرنسة التي أناخت باستعمارها على كثير من شعوب العرب فقال (١) :

هذي العداوة بيننا أبدية تسكينها يدعو الى التحريك
من عهد من اتخذوا الصليب شعارهم لانهب والتقتيل والتهتيك
حتى اجتياح المغرب الباكي على أبنائه من ميت ونهيك

وقد انبرى كثيرون من الشعراء المسيحيين في الشام والمهجر الى كشف زيف مزاعم المستعمرين الذين تسللوا من ورائها الى ربوع لبنان وسائر الشرق العربي ، ومن هؤلاء اسكندر الخوري البيتجالي الذي يقول (٢) :

أتوا باسم الصليب وهم براء من اسم لاطخوه مجرمينا
وما اتخذوا الصليب لهم شعاراً وما كانوا به مستنصرينا
هي الاطباع يا قومي دعهم إلى عمل أباه المرسلونا

ويمكن القول إن أكثر الشعراء الذين عاشوا في ظل الاستعمار أو عاصروه نسجوا أشعارهم من نسيج الشك وسوء الظن في كل مسلك يسلكه ، وكان لهذا الاتجاه اثره في السلبية الشديدة التي تسلم بها العرب في علاقتهم بالمتحلبين ، والحذر الدائم منهم . وليس بمستغرب بعد كل هذا التاريخ الحافل بالأكاذيب ، وبعد الذي عاناه العرب من سياسة المظل والسوف والحتل والخذاع أن يستقر سوء الظن في نفوس العرب تجاه كل ما يصدر عن المستعمر . فعندما نشبت

(٢) العقود ٨٢

(١) نجات الصور ٩١

الحرب العالمية الثانية « قال إلياس فرحات يتهم على الانكليز حين دعوا شباب
العرب الى التطوع معهم » (١) :

يحل السكسون في استعدادهم للوغى أن يأخذوا منا جنودا
طمئنتهم أننا من أمة تحفظ الود ولا تنسى اليهودا
كيف ننسأهم ونسى أنهم أخذوا النفط وأعطونا اليهودا

وإذا كان العرب قدعانوا كثيراً من جراء أفاعيل المستعمرين فقد اكسبهم
ذلك أيضاً الكثير من صفات الوعي والحذر والتبصر التي بدت جلية على السنة
شعرائهم ، في احتفاظهم بتفاؤلهم وثقتهم بالمستقبل الباسم . وقد عبر عن هذه
الروح قبيل الحرب الأخيرة الشاعر محمد مهدي الجواهري بقوله (٢) :

لئن تكن خدع ساءت عواقبها فكم أنارت طريقاً مظلاماً خدع
وبهذه الروح سار العرب قدماً وبخطا ثابتة نحو تحررهم المنشود .

٢

أما الخرافة التي أسهم الشعر الحديث في تبديدها من الأذهان فهي أن
المستعمرين استطاعوا أن يوهموا بعض السذج بما زعموه لأنفسهم من رقي يريدون
أن يجعلوه في الشرق المتخلف . وكانت مبادئ الثورة الفرنسية وكفاح الفرنسيين
مقياساً لدي بعض السوريين قاسوا به سياسة هذه الدولة الباغية ووثقوا بها ، والى
هؤلاء يشير أبو الفضل الوليد بقوله (٣) :

زعم الذين تعشقوك ضلالة أن الهدى والحق عند بنيك
نظروا الى أقلام كتاب وما نظروا الى أسياف جلاديك

(١) جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهجر ١٤٥

(٢) قنحات الصور ٩١

(٣) ديوانه ٨٥

كما يعبر أبو ماضي عن ظاهرة الأنسياق وراء ذلك السراب بقوله (١) :

أطربتنا الاقلام لما تفتت بالمساواة بيننا والاخاء
فسكرنا بها فلما صحونا ما وجدنا بها سوى أسماء

ويشير فؤاد الخطيب الي تنكر فرنسة لمبادئها التي كانت مناراً للشعوب فيقول (٢)

إن حطموا (البستيل) فيك تحجراً فسلي العروبة كم بنوا (بستيلا)

ويجرح الرصافي للسخرية بهذه المبادئ المزعومة وبرسالة التمدن التي ادعى
العرب حملها والعشير بها على غرار قول أديب اسحق الذي مر بنا في البواكير (٣) :

وكم قد سمعنا ساسة العرب تدعي بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الاسير وإنما أجازوا لهم أن يشمل الامم الرق

وعلى هذا الفرار أيضاً يندد بدوي الجبل بالمختلين (٤) :

أبعدون قتل شعب حلالا ويعدون قتل فرد حراما
عبثوا بالنظام جوراً وقالوا قد أتيناكم لنحیی النظاما

وربما كانت آيات العلامة مصطفى الغلاييني من أدق ما يصور طبائع
المستعمرين وأساليبهم في الختل والتضليل وتشدقهم بالمثل الانسانية ومبادئ الحرية
والمساواة والعدالة (٥) :

يقولون « إنسانية وتمدن وتحرير أقوام » وفي العنق الربق
ثما وعدهم إلا وعيد ولم يكن لهم في ميادين الوفا مرة سبق
خلفهم خلف ، ووعدهم بها وقولهم إفك ، وعهدهم خرق

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٢٠

(٢) ديوانه ٥٤٢ (٣) ديوان الرصافي ٤١٥

(٤) ديوانه ١٥٣ (٥) ديوانه ٦٦ .

وأما أنماط الاستعمار المتعددة التي دأب الأجنبي على تطبيقها في بلاد العرب فقد كانت واحدة في جوهرها لا تعدو إذلال الشعوب وسلب خيراتها ، ووأد حرياتهما . ونظراً لما تحلى به العرب من وعي تحاشي المحتلون وسم وجودهم في بلادهم بأنه احتلال أو استعمار ، فقد فـرزـعوا الى أسماء أخرى حسبها أخف وطأة ، من ذلك نظام الحماية الذي فرضوه على مصر ، ونظام الانتداب الذي ابتدعوه أثناء الحرب الأولى وفرضوه على بلاد الشام والعراق برغم أنف شعوبها ، مدعين أن مهمتهم توجيهية ولا تعدو أن تكون وصاية إلى أمد قصير ريثما يتمرس المواطنون بشؤون الحكم .

ومن يستقر دواوين الشعراء والمجموعات الشعرية التي صدرت في الشرق العربي بين الحربين العالميتين يلاحظ أن أكثر ما قيل في التنديد بهذه الأنماط المتعددة من النظام الاستعماري تكاد تتركز في سورية ، وذلك لأن الانكسار استطاعوا الى حد كبير أن يصفوا الرأي العام في مصر والعراق عن جوهر قضيته الى قضايا الانتخابات والبرلمانات والأحزاب والمفاوضات .. حيث انجرفت طائفة من الشعراء بتلك الموجة ، وظلت طائفة أخرى تهوم في عالمها الرومانسي الحالم بعيدة عن واقع أمتها المضطرب . وكان الحاكم الاجنبي في البلدين بمسك بزمام الامور من وراء ستار ، ويعتمد على أسرة حاكمة ونظام ملكي يضمن للمحتلين شيئاً من الاطمئنان الذي كانوا يطمحون اليه .

إلا أن سورية كانت أشبه بيركان تار لا ينكاد يهدأ حتى يقذف بحممه من جديد ، وذلك منذ أن وطئت أقدام (غورو) دمشق الفيحاء . وحينما تبادت فرنسا في غيها وبلغت الذروة في بطشها بقصفها دمشق بيران مدافعها عام ١٩٢٥ إثر نشوب الثورة السورية تفجرت قرائح الشعراء نقمة وغضباً على هذا الانتداب ودولته الباغية ، وهذا محمد الشربقي يتصدى للجهلين يومذاك بقوله (١) :

(١) ديوان الثورة ٤٠

رسل التمذّن ، والأجرام مثلبة
الصخر أ كثر عطفًا من قيادتكم
(ساراي) اذ كرتنا (تيمور) منتقها
وليس يصلح للأحكام مجثم
منه العيون ومنكم هذه اللحم
بل أنت والله أقى حين تنتقم

وفي هذه النكبة نفسها يقول خير الدين الزركلي ساخرًا برقي الغرب
الزرعوم (١) :

الظلم في عرفهم عدل ومرحمة
ماذا يعدون من فخر ، أفتكمهم
والامر بالباطل النبوذ تشريع
بالمطفلات يواريهن تقنيع

وبهزأ محمد الفراتي على هذا المنوال بمدينة الدولة المتدبة بعد ان هالته
مأساة دمشق فيقول (٢) :

هتكت حرارها نفت أحرارها
هذا تمدنك الحديث فهاته
لم تبق شبانًا هناك وشيا
من قلب باريس لنا مجلوبا

كما يتهم الشاعر القروي برسالة الغرب المزعومة في قوله (٣) :

زعموا الشأم بحاجة لمجدد
نعم المجدد مدفع ومسدس

وكان من أجل ما نظم في تصور فظائع الفرنسيين إبّان الثورة السورية
وفي التهمك بدولة الحرية المزعومة وانتدابها البغيض قصيدة لنسيب عريضة الشاعر
المهجري أسماها « موكب الجثث » ومما قاله فيها (٤) :

صليل سلاح وقرع طبول
وفوق النياق حماة القبيل
وجند قساة تسوق الحمول
تدلوا قتيلًا بجنب قتيل

(٢) ديوانه ١٤٦

(٤) ديوانه ٢٠٢

(١) ديوان الثورة ٢٨

(٣) ديوانه ١٩٨

دمشق انظري شهداء الفداء على التوق صرعي ولا من رداء
لقد فاز ساداتنا الاوصياء وداس حقوق الوري الاقوياء

فيا لاتنداب على قاصر
ونصر على أعزل بائر
ودعوى رقي بلا آخر

وفي الفترة نفسها كان محمد البرزج أحد شعراء دمشق يرى بعينيه جرائم
الفرنسيين فيقول متوعداً (١) :

أبناء (غلية) لا كان انتدابكم فقد أسال دماء العرب غدرا
لاترهقوا العرب، فالعرب الكرام لهم ان أزهقوا وثبة الضرغام غضباناً

وهكذا سقط قناع الانتداب واتسع نطاق الحملة عليه الى سائر العالم العربي
في لبنان وفلسطين والعراق ومصر .. وهذا مصطلفي الغلاييني يخاطب المستعمرين
من سفح لبنان بقوله (٢) :

لا تمدعونا بألفاظ إذا سمعت تحلو وان تختبرها مر معناها
فما (الحماية) إلا السهم يقصدنا وما (الوصاية) إلا النار نصلهاها

كباشيرووديع البستاني من ربوع فلسطين المقدسة الى هذه الحقيقة الصارخة
وهي أن الخلفاء هم الذين فرضوا أنفسهم وصاة أو متدينين أو حماة في بلاد العرب (٣) :

وأنكرنا وصايتهم علينا وقد جعلوا بوادرها اشتصاباً
ولم نقدهم في الامر فينا وقد حكموا وسموه انتداباً
ودسوا السهم في الدستور دساً فما ذقنا الطعام ولا التراباً

(٢) ديوانه ٧٥

(١) ديوان الثورة ٣٠
(٢) الفلستينيات ١٥٣

وكان الكاظمي والرسافي في مقدمة شعراء العراق الذين ناضلوا المستعمرين
بلا هوادة ونددوا باتدابهم في الشام والعراق . ويتساءل عبد المحسن الكاظمي عن
معنى هذا الانتداب بقوله (١) :

إذا انتداب أم اغتصاب عاد به حقنا هضبا
لا تلزمونا بكم فلسنا نرى لكم بينسنا لزوما
هل دام في الارض حكم شعب إذا أبي الشعب أن يدوما

أما الرسافي فقد حمل بجرأة على الانتداب وكمه أفواه الوطنيين في
العراق وقال (٢) :

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم أهل العراقين لا بدوا ولا حضرا
إن انتدابكم في قلب موطننا جرح نداويه لكن لم يزل غسبرا
لم يكفه أنه للحكم معتصب حتى غدا يقتل الآراء والفكرا

ولعل من أجل القصائد التي وفقت في تصوير اساليب المستعمر
وختله ودأبه على إدامة بقائه في بلاد العرب قصيدة الشاعر الدمشقي خليل مردم
ففيها يحكي قصة ذلك الدخيل الوقح بما يشبه اسلوب الرمز (٣) :

أني ضيفاً فأصبح رب بيت يحكم بالقطين وبالعيال
وممي نفسه قسراً وسيئاً عليّ مفوضاً في كل حال
ومنتدب عليّ برغم أنفي ولست بقاصر يوم الزوال
وباعد بين إخوان وأهل فلجوا في التقاطع والتقالي
وشاركني فكان الغرم حظي وخصص بالغبمة والنوال
ومن حب السلام حوى سلاحني ليكفيني ممارسة القتال

(٢) ديوانه ٣٢٤

(١) ديوان الثورة ٥٦

(٣) ديوانه ١٣٧

وحكم في عن الشكوى لكيلا
 وأخرجني فأخرجني فلما
 دعاني للتفام بعد أخذ
 فطوقني بأدهى من أفاعي
 وهش وبس مبتسها فيا من
 وواعدني الى أجل مسمى
 تقبلت القليل النزر منه
 وما خلت القليل يظل وعداً
 يسير بغية يوماً مقالي
 رأني بالنية لا أبالي
 ورد واختلاف واقتال
 وشد يدي على حد النصال
 رأي ذنباً تبسم للسخال
 يكون قضاؤه عهد انتقال
 وقلت : النقص مرقة الكمال
 يكدر بالتمل والطلال

٣

ويفضي بنا حديث الوصاية والحماية والانتداب الى ما استتبع ذلك من
 سياسة المعاهدات والاحلاف الجائرة التي كان المستعمرون حريصين على عقدها
 مع الحكومات التي ينصبونها . ولم يكن موقف الشعراء تجاه هذه القيود ليغايير
 موقفهم الثابت تجاه الاستعمار نفسه . إلا أن الامر في هذا المجال كان يتطلب
 وعياً وحصافة ونظراً ثاقباً ، إذ كثيراً ما استطاعت هذه المعاهدت تضليل الناس
 وإيهامهم بمدول المستعمر عن تسلطه . ويعتبر الشعراء بحق الطليعة الواعية للشعوب
 فقد تصدوا بلا هوادة لفضح أساليب الاحتلال وما كان يعمد إليه بدكاه من
 حين الى آخر من تمويه الحقائق على العرب في سبيل استمرار بقائه في أرضهم . وهذا
 على الجندي يشير الى كثرة تلك المعاهدات ونتائجها المؤلمة على وطنه مصر فيقول (١) :

في كل يوم لنا (معاهدة) نعود منها بصفقة الغبن

على أنه مما يلاحظ في العراق أن التنديد بالمعاهدات والاحلاف قد
 استأثر بجانب كبير من الشعر القومي . فقد كان المستعمر ناعم اللبس ولم يحاول إلا

(١) اغاريد السحر ٩٧

في ساعات اليأس أن يستفز مشاعر الشعب خلافاً لما كانت تتورط به فرنسة في سورية من طيش . وربما كان معروف الرصافي ومحمد مهدي الجواهري وجميل صدقي الزهاوي أبطال هذا الميدان ، ومن ذلك قصيدة للرصافي يقول فيها (١) :

خلقتم لنا من كل عهد مموه قيوداً بها استقلالنا يتقيد
إلى أن غداً الاستقلالنا ضحكة الوري به ساخر كل امرئ ومندد

وبسخريته اللاذعة يصور لنا الرصافي أيضاً واحدة من تلك المعاهدات التي كانت تحاول الايقاع بجزية الشعب ، وكان الشاعر في طبيعة من عارضوها تحت قبة البرلمان العراقي الذي كان عضواً فيه حيناً من الزمن (٢) :

نشرروا المعاهدة التي في طيها قيد بعض بأرجل الآمال
قد أبلعونا حبة استعبادنا لكن مموهة بالاستقلال
والعهد بين الانكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال

وتجلى في أبيات الزهاوي مشاعر الضيق بهذه الشرك المنصوبة (٣) :

الشعب بالقيد الثقيل مكبل حتى يكاد إذا تحرك يقعد
تلغى معاهدة وأخرى تعقد والشعب يستفتي لها ويهدد

أما الجواهري فكان بارعاً في تصوير حالة العرب المؤلمة مع المحتل الماكر في ظل مشاريعه ومعاهداته وذلك في قوله (٤) :

و « تصریح » يطله قوي كلوح الطين إذ يدحوه داح
و « حلف » أنت أدري من ذهول أعن جد يدبر أم مزاح
ولست نعارف أبداً حليفاً يهدده حليف باكتساح
« نطوف ما نطوف ثم ناوى إلى بيت » أقيم على اقتراح
يخرج ألف وجه من حديث ويخلق ألف معنى لاصطلاح

ولكن كل هذه الأنماط المتكررة من الاستعمار في بلاد العرب لم تكن

(١) ديوانه ٤٧١
(٢) ديوانه ٥١٢
(٣) الأوشال ١١١
(٤) ديوانه ١ : ١٨٣

تبلغ ما كان عليه الأمر في فلسطين من استعمار مركب جثم على صدر البلاد
 فزعزع كيانتها وهدأ أركانها ، وجعل أهلها يعانون الويلات . وقد حظيت أحداث
 فلسطين باهتمام متزايد على مر السنين من قبل العرب وشعرائهم بلغ أوجه في
 العالم العربي إثر النكبة بعد الحرب العالمية الثانية وكان الاستعمار في هذه الديار
 المقدسة رأس الأفعى وأصل البلاء . وهذا نسيب عريضة يشير من مهجره
 الى تواطؤ المحتلين الانكليز مع الدخلاء الصهيونيين في أشبع ما عرفته الانسانية من
 ظلم ، حيث يشير الى وعد الانكليز لليهود ووعودهم للعرب (١) :

ذبحتم فلسطين يا ويحنا أبحتم حماها لمسترزقه
 أكانت مواعيدهم حكمة وكانت مواعيدنا زندقه

وقد استطاع شاعر فلسطين ابراهيم طوقان أن يبرز هذا التواطؤ اللئيم
 بين الاستعمار والصهيونية ويكشف عن أخس أساليب هذين العدوين الماكرين في
 البطش بالعرب (٢) :

لنا خصمان ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص
 تواسوا بينهم فأتى وبالا وإذلالا لنا ذلك التواصي
 مناهج للابادة واضحات وبالخسنى تنفذ والرصاص

٤

أما الجشع الاستعماري الذي كان الدافع الحقيقي لاحتلال بلاد العرب
 وامتصاص خيراتها فقد فطن إليه بعض الشعراء وإن كان كثير منهم لم يعبره
 الاهتمام الذي يستحق لأن الشعراء كانوا يثارون بالشاهد العاطفية والمحسوسة
 أكثر من أي شيء آخر ، مثل المصادمات والقتل والمجرح والتدمير وما الى ذلك
 على نحو ما وجدنا من شعر كثير قيل إثر قذف الفرنسيين دمشق بالقنابل . وفي

(٢) ديوانه ١٧

(١) ديوانه ٢٦٠

طليعة من عنوا بباراز البؤس وابتزاز استعمرين أموال الوطن شاعر فلسطين
ابراهيم طوقان الذي قرع بشعره ناقوس الخطر تجاه أساليب اليهود في الاستيلاء
على أراضي العرب ، وما قاله يخاطب الانكليز (١) :

منذ احتلتم وشؤم العيش يرهقنا فقراً وجوراً وإتعاماً وإفساداً

ويعد الرصافي فارس هذا الميدان في العراق لاتصال موضوع الجشع
الاستعماري بموضوع البؤس الاجتماعي الذي برع في معالجته شاعر الرافدين . ففي
الآيات التالية يتصدى الاستعمار ويعمد الى تعرية زبائنه مما كانوا يحاولون به
لإيهام الشعوب من نحو قدرتهم على نشر الرخاء بينها وتحسين حالتها الاقتصادية المتخلفة ،
ويضرب لذلك مثلاً بارزاً فيما كانت تعانيه الهند من فقر وبؤس فيقول (٢) :

دع اللوم واسمع ما أقول فاني	قتلت طباع (التيمسيين) بالبحث
كأنهم والناس عث وصوفية	وهل يستقيم الصوف في طيه العث
زر الهند إن رمت العيان فكم ترى	على الأرض من غير هناك ومن شعث
وهم سلبوا أرض العراق سميتها	ولم يتركوا فيها مثلاً سوى العث

وقد نما محمد الفراتي هذا النحو في تصوير جشع المستعمرين فعرض مظاهره
في عدد من البلاد المستضعفة على مسامع الملك فيصل الذي كانت ثقته بالانكليز
تم عن سذاجة بالغة (٣) :

ماذا على أمة قامت تدافع عن	حق لها كان قبل اليوم مهتماً
رأت عدواً لدوداً ملحماً قرماً	مستقلاً طامعاً مستعمرأ نهماً
لا الهند تشبه لا السند تقنعه	أضحى لنصف بلاد الله ملتها
سل الفرات وسل بغداد ما فعلت	أيدي الطغاة بأهلها سل الهرما
سل الهند وسل الافغان سل عدناً	تحطك علماء، سل الاكراد والعجا

(٢) ديوانه ٤٧٠

(١) ديوانه ٨٥

(٣) ديوانه ٦٥

مصائب صوتها الانكيز على رؤوسهم تقذف الويلات والهمما
 فالارض لله لا للطامعين وإن داموا ستمسى بها أشلاؤهم ربما
 يرون أنفسهم فيها ملائكة مكرهين لذلك استعبدوا الانما

والحق أننا قدما نجد قصيدة كهذه وفق فيها صاحبها الى تصوير جشع
 الاستعمار على حقيقته هذا التصوير الشامل ، فهو الدود اللدود المالحم القرم
 المستقتل الطامع المستعمر النهم ، وهو الذي ابتاع بلاداً وأتماً وطنى على نصف
 السلم دون أن يشيع أو يقنع ، وهو أخيراً للمتغرس الصاف ، المتعالي على
 البشر لا يرى في إذلال الامم واستعباد الشعوب سوى حق طبيعي له .

وقريب من هذه الايات ما نجده لمحمد الاسمر في قصيدة له بصور فيها
 تكاليف الانكيز على ثروات وادي النيل إذ يقول (١) :

تشكو الجاعة بالوادي عشرته والاجني به يشكو من التخضم
 لو لم تكن رمأ في الناس ما ظفرت بنا عصائب للغربان والرخم
 حطت جياعاً فلما اتخمت نهضت كيا تغاير فما اسطاعت فلم تقم
 في الغداة بوادي النيل جائمة مقيمة أشبه الاشياء بالهرم

وواضح مدى توفيق الاسمر في تصوير جشع المحتالين وتشبههم بمصر حتى
 كأنهم شاركوا الهرم في لصوقهم بأرضها وعدم ترشحهم عنها .

وقد أدى تعدد دول الاستعمار وتزاحمها على امتصاص دماء الشعوب الى
 تبيان ظاهري في أساليب حكمها ، مما ولد في بعض الاذهان فكرة خاطئة
 كان من مظاهرها اغترار بعض العرب في بينات المهجر والشام وتمسدهم في
 أمور المفاضلة بين أنواع الاستعمار ، حتى خيل للسذج منهم أن الانكيز
 يفضلون الفرنسيين في هذا المضمار . إلا أن طائفة من الشعراء وبخاصة في المهجر

(١) ديوانه ٣٤

كالقروي وفرحات والوليد كانوا احراً على هذه الافكار السمومة على نحو ما حذر
منه القروي (١) :

لا تبدلوا (أسداً بديك) إنه إن كان ذا نجساً فهذا أنجس
لكليهما في الشرق واستعماره قلب كعوسجة وجلد أملس

فالشاعر يرى طبيعة الاستعمار واحدة مهما تكن الدولة التي تمثله . وقد عمد
محمود أبو الوفا الى تجسيد الاستعمار نفسه في هذه الصورة فقال (١) :

فلو صور الشيطان مرآة وجهه لما اختار الاسحنة استعمار

٥

وكما كانت لهجة العنف دأب الشعراء في مخاطبة المستعمرين كانت السخرية
المررة لدى من يجيدها منهم أكثر جدوى وتأثيراً في التنديد بهم ، والكشف عن
مخازيهم ، وكان حافظ والرصافي وطوقان في طليعة من أوتوا تلك الموهبة من
الشعراء ، وتعتبر قصيدة حافظ التي نظمها سرّاً إبّان ثورة ١٩١٩ في مصر من
أشهر هذه القصائد ، فقد ندد فيها بقوات الاحتلال التي تصدت بنيرانها لمظاهرة
سلمية قامت بها نساء القاهرة بسخرية لاذعة ، وبلغ من ذبوع أمرها أن وزعت
بالخفاء على الجماهير الثائرة ومنها قوله (٢) :

خرج الغواني محتججين وبت أرقب جمعينه
يمشون في كنف الوقار وقد أبّن شعورهنه

(٢) اشواق ١٠٤

(١) ديوانه ٣٠٢

(٣) ديوانه ٢ : ٨٧

وإذا بجيش مقبل ، والخيل مطلقة الاعنة
 وإذا الجنود سيوفها ، قد صوبت لتجورهنه
 وإذا المدافع والبنادق والصوارم والاسنة
 والخيل والفرسان قد ضربت نطالقا حولهنه
 والورد والريحان في ذلك النهار سلاحهنه
 فتعلاحن الجيشان ساعات نشيب لها الاجنة
 فتضعع النسوان والنسوان ليس لهن منة
 ثم انهزمن مشتتات الشمل نحو قصورهنه
 فلهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسرهنه

هذه القصيدة الساخرة التي لم يجرؤ صاحبها على نسبتها اليه إلا بعد مضي
 عشرة أعوام على نظمها (١) جمعت السهولة والتدفق في أسلوبها وإيقاع بحرهما
 الرافض بالإضافة الى هذه اللهجة الساخرة للبثوة في أبياتها . كان التهكم من
 طبيعة حافظ ومزاجه لجأ اليه في قصيدته بعدما رأى من أساليب القمع الرهيبة ،
 فتفجرت نفسه على الطغيان سخيرية مرة لاذعة . والقصيدة بعد ذلك ترتبط بحدث
 فريد في تاريخ مصر والشرق العربي إذ أن خروج النساء في مظاهرة الى الشارع
 لأول مرة في حياة العرب الحديثة نقطة تحول في انطلاق المرأة العربية نحو
 التحرر والنور بعد أن طال عليها الامد في عزلتها ...

أما ابراهيم طوقان شاعر فلسطين فيضحك بلاء شديقه من رسالة التمدن
 التي يزعم المستعمر حملها ، وشر البلية ما يضحك (٢) :

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة وختمنا لجندكم بالبسالة
 وعرفنا بكم صديقاً وفيّاً كيف ننسى ابتدابه واحتلاله
 وخجلنا من لطفكم يوم قلم وعد بلفور نافذ لا محالة

(٢) ديوانه ٧٦

(١) انظر مقدمة الديوان ص ٨ للاستاذ احمد امين

كل (أفضالكم) على الرأس واليد ن وليست في حاجة لدلالة
غير أن الطريق طالت علينا وعليكم فإننا والاطالة
أجلاء عن البلاد تريدون ن فنجلو أم محقنا والازالة

وقد أصاب طوقان المرمى في عبارته الساخرة التي انتزعها من صميم
تعبير الشاميين إذ قال « كل أفضالكم على الرأس والعين .. »

وتعد أخيراً قصيدة الرصافي المشهورة « الحرية في نظر المستعمرين » التي
ينسج فيها على هذا المنوال الساخر في رأس ما صور به الشعراء حقيقة الاستعمار
وأساليه في البلاد المحتلة ومنها قوله (١) :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
أما السياسة فتركوا أبداً وإلا تندموا
من شاء منك أن يعيد ش اليوم وهو مكرم
فليس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
وإذا ظلمتم فاضحكوا طرباً ولا تنظلموا
وإذا أهتمم فاشكروا وإذا لطمتم فابسموا
إن قيل هذا شهدكم مر فقولوا علقم
أو قيل إن نهاركم ليل فقولوا مظلم
أو قيل إن بلادكم يا قوم سوف تقسم
فتحمّدوا وتشكروا وترنحووا وترغوا

(١) ديوانه ٤٥٠

والحق إن الرصافي بهذه الايات قد بلغ ذروة الفن الرفيع في سخريته
اللاذعة وكان من مقومات قصيدته في ذلك انسياب عباراته سهلة متدفقة ، وبحره
المجزوء ، ثم جملة القصيرة المقتضبة التي تعتمد في الغالب على الأمر والنهي ، إلا أن
هذه البراعة في قلب المعاني والافكار الى مفاهيمها المعكوسة وإلباسها ثوباً من الجد
الظاهر هو الذي أكسبها بالدرجة الأولى تلك المنزلة الفنية .



وهكذا استغرق كفاح الاستعمار تجربة العرب السياسية وحياتهم
القومية الحديثة في شتى ديارهم . وقد أسهم الشعراء مع شعوبهم في تعريته
وإسقاط اقتعته قناعاً قناعاً . لقد عرضوه احتلالاً مسافراً ثم ابتدأاً موهماً ثم معاهدات
ثم أخلاقاً ، ومع ذلك لم يكن بوسعه أن يخدع العرب طويلاً ، وإن خدع
منهم الكثيرين ، فكانوا مطالباه وصرعاه . لقد كانت التجربة المريرة قصيرة العمر
ولكنها حافلة عميقة كثيرة العبر .

ومن محصلة ما سبق نخلص الى التنويه بالدور الفعال الذي قام به الشعراء
في المعركة الكبرى التي خاضها العرب ضد الاستعمار ، إذ أن الشعور بالظلم أول
مراحل التمرد والثورة ، وليس كرواد الفكر من بوسعه إيقاف العقول وتنبية
النيام وحث الهمم على النضال . وقد تجلت في قصائد الشعراء الأولى
انطباعات غدر المستعمرين وأحاييلهم في نفوس العرب ، ثم انتقلوا من مرحلة
الانفعال الى صعيد التبصير والتحذير وتفنيد أساليب الاحتلال وكشف
نواياه ، وفضح زيف مدنيته ومدى تسلطه وجشعه ، كما نددوا بزبانيته وحلوا على
قادته وكانوا في ذلك يؤثرون شدة المهجة في كثير من الاحيان ويجنحون للسخر
منها في بعض الأحيان الأخرى .

وقد أسهمت هذه القصائد والمقطوعات وأمثالها في تعميق الشعور بالخطر لدى الجماهير وتبصير العرب بما يحيق بهم من مكر وسوء ، كما ساعدت على تكوين الوجدان الجماعي العربي عن طريق تركيز الوعي السياسي والأفكار والمفاهيم الاجتماعية في بؤرة واحدة تتجمع فيها الطاقة الشعورية للأمة لتتسلط بعد ذلك بلا هوادة على المدو الماكر . ولا ريب أنه بفضل هذا الوعي السليم الذي عبرت عنه هذه الأشعار وسواها مما كتبه الكتاب من مقالات وما القاه الخطباء من خطاب غدا فجر التحرر مرتقباً وكانت العاقبة للعرب .

الفصل الثاني

التنديد بالاستبداد وفساد الحكم

منذ كان في الحياة خير وشر ونور وظلام كانت حرية وكانت عبودية. وحين أطلق عمر بن الخطاب صيحته المدوية « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » غدا في طليعة رواد التحرر وأعداء الاستبداد في أمة العرب .

وإذا كان الانسان بطبيعته نزوعاً الى التحرر نفوراً من الاستعباد فان رجل الفكر أو الفن لا غنى له عن نسفات الحرية ، لأنها جزء أصيل من شخصيته المتميزة وما ينبثق عنه من آثار رفيعة وأفكار نيرة . ولهذا كان الادباء والفكرون روادا لحرية النفس الانسانية وكرامتها لقوا في سبيل رسالتهم كل عنت وأذى . وكثيرون هم شهداؤها الذين سيقوا الى مذبحها وصلبوا على خشبتها .

وإن كان موضوع التنديد بالخونة والمستبدين والظلمة يعتبر ظاهرة جديدة في الشعر العربي الحديث فان شاعراً عربياً كبيراً هو أبو العلاء المعري كان بحق الرائد الاول في هذا الموضوع حين ندد في لزومياته بالطغيان والجور ، وبالفاستدين من الرؤساء والحكام ، وفتح بذلك باباً آخر من أبواب خلوده .

إن مبادئ المساواة والديموقراطية متأصلة في نفس العربي منذ القدم

ففسوة البيئة الصحراوية ، واضطرار جميع العرب الى الكفاح على قدم المساواة في سبيل العيش أدى الى انعدام الفروق الطبقة بينهم . وقد حافظ العرب بعد الاسلام على هذه الصفات التي غدت جزءاً من تقاليدهم فكانوا يتقنون الحكم والقواد والخلفاء ويخاطبونهم كما يخاطبون أفراداً عاديين من بينهم .

ولم تدخل على العرب مظاهر تجليل الحاكم وتقديسه الا في فترات الضعف حين تفشت لديهم عادات الدخيل من الفرس والروم وأخيراً من العثمانيين .

وما زال العربي الاصيل في هذا العصر يتسم بشيء من صفات الاجداد ويعتقد بصحة قولهم بأن « سيد القوم خادمهم » فهو يتسقط أخبار الحاكم ويحصى عليه سلوكه وتصرفاته ويؤاخذه على هفواته ولا يطبق انحرافه عن جادة العدل . ومن هنا كان مجتمعنا العربي في نضال مستمر مع حكامه . وقد تجلّى ذلك بأبرز مظاهره في الشعر الحديث . ويبدو أن شعراءنا في هذا العصر - وأكثرهم كانوا يسرون على النهج التقليدي - جنحوا الى حوك قصائدهم على غرار ما عرف به الاقدمون في عهدي بني أمية والعباسيين من صراحة وجرأة وزوع الى التحرر والمساواة وابعاء للضم واستنكار للظلم .

١

ولا ريب أن رائد أحرار الفكر ومناهضي الاستبداد في العصور العربية الحديثة هو عبدالرحمن الكواكبي الذي كان كتابه (طبائع الاستبداد) الصيحة المدوية التي زعزعت أركان الطغمان ، واللبننة الكبرى في صرح التحرر القومي .

وقد عرف العصر الحديث عدداً من الطغاة المستبدين في رأسهم السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ كان العرب في ظل حكمه الاسود يعيشون في محنة ، وقل من استطاع أن يجهر ضده برأى ، حتى بدا في ذلك الحين أن الشعب أشبه بالمستنقع الآسن أو الشاة الذي يح تعاقب عليه غاشم إثر غاشم ،

ويتداوله جزار بعد جزار ، وقد وفق ولي الدين يكن الذي كان في طليعة الثائرين
على الاستبداد الى تصوير حالة العرب آنذاك بقوله (١) :

صحا كل شعب واسترد حقوقه فياليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم وليس له فيمن تولوه خادم
يقلب من عهد لعهد على الاذى إذا زال عنه غاشم جد غاشم

ثم هبت نسائم الحرية على العرب ولكن الى حين ، في فترة إعلان الدستور ،
وغدا من العسير عليهم بعد ذلك أن يجيوا بدونها . إذ ما كاد الاتحاديون الترك
يتسلمون زمام الامر حتى استبدوا بالعرب وراحوا يعملون على تريكهم أو ابادتهم .
وكان اندلاع الحرب العالمية الاولى خير فرصة اهتبلها أولئك الطورانيون للبطش
بهم . فما كاد جمال باشا يصل الى الشام مطلق اليد في شؤونها حتى أخذ ينكل
بالاحرار ويفتك بأقرب أعوانه ، ثم ارتكب جريمته الشنعاء بتعليق عشرات من
زعماء العرب على أعواد المشانق في ساحات دمشق وبيروت ، وغدا في صبيحة ذلك
اليوم الطاغية الاول والسفاح الاكبر .

وقد أثار هذا العمل الاخرق حفائظ العرب وقيل في صدره شعر كثير
طوال أعوام مديدة بعده . وكانت تند من ثنايا العيون الدامعة ومن خلال القوافي
الواجدة أنات شجيرة تستنكر الظلم والجور والظلميين ، وهذا أمين
ناصر الدين يقول (٢) :

شعب يضام وغاشم لا يرحم ونوائب تفشى الوليد فيهم
ودم يطل على الثرى ومشانق بجبالها وصل القضاء المسبرم
أجمال لا والله لست بمسلم كذب الذي قد قال إنك مسلم
لم يبرح الاسلام يأمر أهله بالرقيق مذ بعث النبي الاعظم
وزت بك الاحقاد أفضع زوة فبطشت منتقماً ولم تك ترحم

(٢) الاطام ٥٧

(١) ديوانه ١٩

وقد أن نجد شاعراً عاش تلك الفترة أو ما بعدها دون أن يدلي بقوافيه في هذا الحدث ويندد بطغيان السفاح ، ويكفي أن نشير الى أن هذا الارهاب كان السبب المباشر الذي أشعل شرارة الثورة العربية الكبرى ضد الحكم التركي بعد أسابيع معدودات . وتعد قصيدة « النائحة » لجميل صدقي الزهاوي من أبرز ما قيل في رثاء الشهداء العرب والتنديد بجهل باشا وطيغانه .

٢

قد يكون موضوع الاستبداد والظلم والفساد الحكم الموضوع الاول الذي عرفه الشعر القومي الثائر في هذه الفترة من الحرب الاولى وقبل ابتلاء العرب بالاستعمار وإذا كان العرب قد عرفوا عدداً من المستبدين في تاريخهم الحديث فإن هؤلاء المستبدين لم يكن لهم في الواقع من سند سوى نفر من حولهم ينصرونهم في طغيانهم . ولم يكن استمرار حكمهم بسبب من قوتهم بقدر ما كان نتيجة ضعف شعوبهم وضآلة وعيها ، وكثيراً ما كانت الانتفاضات الشعبية تطيح بهم وتجعلهم أثراً بعد عين . إلا أن دخول الاستعمار على هذا النطاق الواسع الضاري الى سائر بلاد العرب في أعقاب ثورتهم الكبرى حمل في ثناياه الظلم والاضطهاد ، وغدا للاستبداد منذ ذلك الحين وجه جديد تجلّى في فساد جهاز الحكم كله دون أن يرتكز ذلك الى طغيان فرد واحد . ويبدو أن المحتلين عمدوا إمعاناً في المكر وتطبيقاً لبعض نصوص صك الانتداب أو المعاهدات الجائرة الى تنصيب بعض الحكام من العرب آملين من ورائهم أن يمكننا الأقدامهم في البلاد ويهدئوا من تأثرة الشعوب .

ويمكن اعتبار بعض أعضاء الأسرة الهاشمية التي حكمت الحجاز ثم سورية والعراق والأردن الركيزة الأولى التي اعتمد عليها الاستعمار البريطاني في الشرق العربي . ومع أن الشريف حسين قائد الثورة العربية كان يعد بطالا في نظر كثير من العرب أول الامر ، فإن غالبية المصريين وطائفة من

بلاد الشام نفسها نظروا إليه بمنظار آخر منذ أن ثار على الخلافة التركية ومخالف مع أعدائهم الانكليز، ثم أخذت هالة البطولة تنحسر من حوله بعد أن تكشفت للعرب مطامعه الشخصية. ولئن عز على كثير من العرب الذين تجلت مشاعرهم على أسنة شعرائهم أن يفجعوا بسياسة زعيمهم وآثروا التماس العذر له إن فئة أخرى من الشعراء صدعت بالحق دون أن تأخذها فيه لومة لائم. ومما لم يرق لهم آنذاك إصرار الحسين على استخلاص الخلافة لنفسه والعرب في أوج صراعمهم مع الاحتلال، وقد كان لا يتردد في كسب تأييد الانكليز لبلوغ هذه الغاية. وممن انبرى الى التنديد بمسلكه هذا شاعر دمشق خير الدين الزركلي بجرأته المعهودة (١) :

طال انقيادك للخصوم وأنت أدري ما انلخصوم
الانكليز وما أراك بأمرهم غير العليم
ما في جموعهم وإن حدبوا عليك سوى غريم
عجبا لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم

ومع أن عهد فيصل بن الحسين في الشام كان يعتبر ذهبياً بلغت في أثنائه المواطف القومية أوجها، فقد تكشفت سياسة ذلك الملك - الذي قدر له أن يعيش في ظروف عصيبة - عن بعض الأخطاء التي ما زال المؤرخون مختلفي الرأي تجاهاها سواء إبان ملكه في الشام أم في العراق بعد ذلك، ولكن فئات كثيرة من الشعب وفي جملتهم الشعراء كانوا فيما يبدو يشفقون من الاساءة الى ذلك الزعيم العربي ومن تشويه ذلك الرمز القومي. ولواقع ان قلائل هم الشعراء الذين استطاعوا التعرض لفيصل ولسياسته بالانتقاد ومنهم الشاعر محمد

(١) ديوانه ٧٢

الفراقي الذي أخذ في تحذيره بلهجة المنذر حين أشيع أنه يزعم تسليم مدينة دير الزور الى الانكليز (١). كما خاطبه في قصيدة أخرى بجرأة وصراحة عرف بها سكان تلك المدينة وما حولها من البادية، حيث قال (٢):

تكلفنا ما لا يطاق احتماله	فليس لنا عفوا على حمله صبر
لكالموت أن تغني علينا عاباة	مطالبهم فينا الخيانة والغدر
لئن قادنا شوق لربك حثه	عفاف واقدام فما قادنا الاسر
إذا أنت لم تنصف بعدك بيننا	تطير فيما بين أحقادنا الشر

فالفراقي في هذه الايات يعبر عن إرادة العرب الحرة ويأبى أن يساوم رجل على عرش له في سورية ويدفع ثمنه قطعة من وطنهم الغالي، أما التهديد والوعيد فلم يكن بوسع الشاعر أن يصدر عنها لولم يستمد اليأس من شعبه الواعي يومذاك. ومع أن خليل مردم بك في طليعة الشعراء الذين تغنوا بالعهد الفيصلي الوطني بدمشق بعد دحر فلول الترك منها فقد ساورته الريب فيمن ساورتهم تجاه مسلك الملك الهاشمي وسياسته إذ توجه بقصيدته « الى فيصل » قائلا (٣):

الى فيصل لا يثلم الله حده	قوارص قول دونها كل مخذم
إذا بلغته أخرج الهم صدره	وقبض وجه العابس المتجهم
أفصيل إن سلمت مقدار ذرة	مياسرة من حقنا لا نسلم
نفضنا يدينا منك لاعتن بباغض	وكنا بجل معك من كل محرم

وحين عوض فيصل عن عرشه في الشام عرشاً في العراق ظهر من أمره ما ظهر وتلقفه شعراء نابهون كان معروف الرصافي في رأسهم، وفي الرصافي جرأة وفي طبعه إباء. ومع اعترافنا بوجود خلاف شخصي بين الرصافي

(١) انظر ديوانه والهامش فيه ٦٥

(٢) ديوانه ٢٩

(٣) ديوانه ١٥٣

وفیصل زاد الهوة بينها اتساعاً فلا مندوحة عن القول إن الرصافي كان مسدفعاً
 أيضاً بنزوعه الاصيل الى التحرر؛ إذ لم يرق له هذا الحكم بعد ثورة عراقية
 شاملة جرت فيها الدماء أنهاراً وأزهقت الارواح آلافاً . لقد نظم قصيدة جريئة في ذلك
 الحين بعث بها الى جريدة (الاهرام) وقال فيها (١) :

لنا ملك وليس له رعايا	وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح	ومملكة وليس لها نقود
أيكفيننا من الدولات أنا	تعلق في الديار لنا البنود
وأنا بعد ذلك في افتقار	الى ما الاجنبي به يجود
كلاب للاجانب هم ولكن	على أبناء جلدتهم أسود

ولا ريب أن هذه الابهجة الحادة قد تبدو غريبة بالنسبة الى كثير مما عهدناه
 لدى الشعراء الذين تناضوا عن أخطاء فيصل وظلوا يعتبرونه بطل الثورة العربية
 الكبرى ورمزاً للوطنية . ولم يكن الشاعر العراقي محمد صالح بحر العلوم ليقل
 حدة عن الرصافي ، فهو من أشد من عرفهم العراق من الشعراء تصدياً لحكامه
 الطوائيت ، ومن ذلك قوله يخاطب الملك فيصل أيضاً في قصيدة سماها
 « العبودية والاعلال » (٢) :

أبأثواب الرعاة البالية	قد تعودت ارتداء السندس
أم على جانب بئر البادية	كنت تسقي عذب ماء التيمس
أنا قدمت الدماء الزاكية	فتأخرت بتساج الدنس

وإذا كان فيصل قد حرص على تحرير العرب ولجأ الى مداراة الانكليز

(١) الأهرام عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٢٢ . ولم أعر على قصيدته هذه في ديوانه .

(٢) ديوانه ١٢

في سبيل انتزاع ما يمكن انتزاعه من الحقوق ، فإن أخاه عبدالله بن الحسين أمير
الأردن ثم ملكها لم يظهر مثل ذلك الحرص على مصالح العرب في علاقته مع
بريطانيا ، فقد كان أكبر عون لتلك الدولة المستعمرة في بلاده . وربما كان
خير الدين الزركلي الذي اتصل به حيناً من الزمن وعرف من أمره ما عرف ،
في طبيعة من تجرؤوا عليه من الشعراء ؛ فهو يعبر عن خيبة آمال الأحرار فيه بعد
أن لاذوا به والتفوا حوله ومن بينهم الشاعر نفسه في أعقاب انهيار الحكم الفيصلي
في دمشق واضطهاد الفرنسيين له (١) :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله إن لم يحل وثاقه وعقاله
ظلموه فاستبقوا الى وكناته فسهوله محتلة وجباله
وطن تراحت الخطوب يابه وجفاه من عقدت بهم آماله

ثم يشير الزركلي في قصيدة أخرى الى مسلك عبدالله ومحاباته لليهود منذ
ذلك الحين فيقول مخاطباً أباه الحسين بعد أن ندد به (٢) :

هذا وليدك في (الرقيم) يعيث في أهل الرقيم
يجبو (يهوذا) ما حبوت وليس غيرك من ملوم
خسر وارضى (موسى) الكليم فتاب عن موسى الكليم
شر الممالك ما يساس سياسة البغي الوخيم
ما في العروش على الجهالة والغباء بمستقيم

ويشتد الزركلي على ذلك الحاكم الذي باع شعبه في سبيل كرسیه (٣) :

عجائب الأردن ما تنقضي تلحق أحرأها بأولأها
ما كان إلا عبد طاغوته من حسبوه (يعبد الله)

(١) ديوانه ٥٢

(٢) ديوانه ٧٢ وأصحاب الرقيم أهل الكهف وقيل كانوا في الأردن .

(٣) ديوانه ٤٨

ثم يحمل على مهزلة الاستقلال المزعوم الذي أتى به الأمير بلاده (١) :

عمان كانت أمس ، يلهفى على	آمال أمس ، الموئل المرتادا
لاذت بعد الله فاتقادت وما	حسبته لاذ بغيرها فاتقادا
حمل الصفاذ لها وقال تحجري	لورام تحجيراً رمى الأصفادا
من كان أقصى همه (شطارنجيه)	كانت (يبادقه) له أجنادا
ما كان الاستقلال ما آتاهم	من لندن بل كان الاستعبادا

والى جانب الزركلى كان شاعر الاردن عبدالله وهي التل أبرز من تصدى الامير وحكمه الرجعي حتى اتى في سبيل ذلك السجن والتشرد والاضطهاد فهو يشير الى ذلك العرش وتلك البطانة بقوله (٢) :

أرأيت كيف العرش حف بربه المسترزقون
فاتته معرفة الأمين فضل معرفة الخسؤون
والتاج أضيع ما يكون مؤيداً بمنافقين

وغدا التنديد بالملوك وفسادهم ديدن عدد من الشعراء الذين تحلوا بالاخلاص والجرأة . وقد ربط علامة العراق الشيخ محمد الحسين آل كاشف النطاء بين مآرب المستعمرين وتصرفات بعض ملوك العرب وكيف كانوا أداة طيعة في أيديهم لتفتيت وحدة شعوبهم فقال (٣) :

واستخدموا ملوكنا لضربنا ولا عجب
هم نصبوا عرشاً لهم في كل شعب فانشعب

كما عبر أديب التقى الشاعر دمشقى عن حنق العرب تجاه كثرة

(١) ديوانه ٦٣ ، وفي البيت الرابع إشارة الى براعة الملك عبد الله بلعبة الشطرنج

(٢) عشيات وادي اليابس ١٦

(٣) انظر عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ٦٤

العروش وفساد من فوقها بحيث أصبح لزاماً على الشعوب أن تناضل بلا هوادة في
جبهتين وتقاتل عدوين لدودين (١) :

في كل يوم لنا عرش تشيده على المطامع أيد أجنبيات
ماذا تفيد ملوك تحتها عرش جميعها بين أيدي القوم آلات
إني سئمت صدى الألقاب في بلد يكاد يعوزها ماء وأقوات

وهذا الوصف الذي يصور حالة العرب إثر الاحتلال وظهور المترجمين فيهم
على أشلاء بلادهم الممزقة يذكرنا بأبيات الشاعر العربي في تصوير ما آلت إليه
الاندلس من ضعف بالغ مما أضع ذلك الفردوس :

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضها كالهرميحي اتفاخاً صولة الاسد

ولعل قصيدة شاعر فلسطين عبدالكريم الكرمي في طليعة القصائد الجريئة
التي تصدت لملوك العرب قبل النكبة ونددت بتخاذلهم تجاه الصراع الدامي بين العرب
واليهود في الأراضي المقدسة ؛ فقد نظمها (أبو سلمى) إثر الاتفاقات المتلاحقة في
فلسطين وأكثر آياتها سار على الالسن :

أشتر على لهب القصيد شكوى العبيد الى العبيد
شكوى يرددها الزما ن غداً إلى أبد الايبس
ثم يلتفت الى الملوك ويسلقهم الواحد بعد الآخر بلسانه الحديد :

دكت عروش زينو ها بالسلاسل والوعود
إني لارسلها مجل جلة إلى الملك السعودي
وأبو طلال في ربا عمان يحلم بالحدود
أفعد فلست أخا العلا والمجد ، وانعم بالعمود
واحكم على الشطر نجلي س على الفيالق والجنود

عرج على اليمن السعيد د وليس باليمن السعيد

واذكر إماماً لا يزا ل يعيش في دنيا ثمود

ثم يخاطب ملك مصر (فاروق) الذي اصطنع مظاهر التقى وأرسل
لحيته ليضل بها شعبه :

دع سبحة التضليل واخ لمع عنك كاذبة البرود

أحسبت أن الملك بالتـ سييح يطلب والورود

إيه ملوك العرب لا كنتم ملوكا في الوجود

قوموا اسمعوا من كل نا حية يصيح دم الشهيد

قوموا انظروا الوطن الذي ح من الوريد إلى الوريد

وما من ريب في أن استفحال روح التمرد في النفوس وبلوغها لدى فئة
من الشعراء هذا الحد الخطير إيداناً بنهيار العروش الفاسدة وإطاحة الشعوب
بحكامها الطغاة .

ويمكن القول بعد ذلك إن المحتلين حرصوا على إظهار أنفسهم بظهر
يختلف عما كان عليه الترك أيام حكمهم للعرب ، من ذلك أنهم كانوا يطلقون
حرية القول بمقدار عن رغبة حيناً وعن رهبة في أكثر الأحيان ، وقد
عمدوا استكمالاً لهذه المظاهر إلى اصطناع طائفة من المترجمين وإقامتهم على
رأس حكومات ترتدي ثياب الوطنية والحرية والديمقراطية ليكونوا لهم عوناً في
تمكين استعمارهم ، وقناعاً يسترون بهم جرائمهم ، ولم يترددوا في إعلان
اللساتير وإقامة المجالس التمثيلية وإجراء الانتخابات النيابية إمعاناً منهم في
حبك مهزلة الحكم .

وكان على الأحرار ورجال الفكر وحمة القلم أن يبادروا إلى كشف

الزيف وإظهار الحق ، وأن يحاربوا أيضاً في جهنم ويقاوموا أعدوين لدودين
يساند أحدهما الآخر . وكانت حملة بعض الشعراء على الأذناب وأعوان المستعمرين
ضارية . ويجدر بنا أن نحاول رصد المدى الذي بلغه الشعراء في تجرئهم على
الحكام في أقطار الشرق العربي ، وبخاصة في مصر والعراق حيث كان يسود
النظام الملكي وتستتر أحاييل المستعمر وراء فئة من الحكام المحليين ، بالإضافة إلى
كثرة عدد الشعراء في هذين القطرين مما يساعد على استجلاء هذا العنصر في
الاتجاه القومي السائد .

ونحن نجد لدى حافظ إبراهيم قصيدة رائعة ندد فيها بالاستعمار والاستبداد
على السواء ، ولكن متى كان ذلك ؟ الواقع أنه بعد أن أُحيل إلى المعاش ، وغدا
بمنأى عن أسر الوظيفة ، ولم يبق لديه ما يخشى عليه ، فهو إذ يخاطب
الانكليز بقوله (١) :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرام

لا يلبث أن يقول في رئيس الوزراء يومذاك (اسماعيل صدقي) والفيظ
الذي ظل كظلمة في نفسه أمداً طويلاً يتفجر صواعق على الطاغية :

ودعا عليك الله في محرابه والشيخ والقسيس والخاخام
لاممّ أحي ضميره ليذوقها غصصاً وتنفس نفسه الآلام

على أن أكثر ما نظمه الشعراء في هذا الموضوع لم يكن من اليسير أن
يجري على هذا النوال . وقد مر بنا أن التنديد بعبد الحميد أو بجمال باشا وسواهما
من الطغاة لم يكن من الممكن صدوره عن النفوس إلا في منأى عن يد الظلم .
ومن الطبيعي أن تغلي نفوس الشعراء وسائر حملة الاقلام كالمراجل دون أن تستطيع

(١) ديوانه ٢ : ١٠٥

التعبير بحرية عما يختلج في أعماقها من مشاعر النقمة والغضب ، وقد كان التعميم في القول منفذاً تنطلق منه هذه المشاعر دون أن ترتد الى نغور أصحابها ، على نحو ما نجده للشاعر أحمد زكي أبي شادي بعد انقضاء فترة على خمود ثورة ١٩١٩ في مصر (١) :

أسنى على الناسين فرض وفائهم	يوم الوفاء لخدمة الأوطان
القاعدين على الأرائك ضلة	الغافلين الخاسري الوجدان
الومياء أجل في تقدزنا	من هذه الاشباح والأكفان

ويعتبر محمد الأسمر في مقدمة الشعراء الذين عنوا بمعالجة أمور الحكم في مصر ، وكان يتحلى بصراحة وجرأة في شعره ، فهو يصور تلك الحكومات التي كانت تحكم بمشيئة المحتلين خير تصوير إذ يقول (٢) :

وزارات يراح بها ويفدى	فقل للخالين بها رويدا
دمى خزف وألواح زجاج	وإن لاحت حدائد أو أشدا
إذا يد سانديها أغفلتها	تبدي أمرها فيما تبدي
هوت فاذا بها متحطيات	ولولبت من الفولاذ سردا
وكل سفينة نزلت يبحر	أطاعت موجه جزرا ومدا

فلاستعمار في رأي الأسمر هو الذي كان يمد الحكومات المصرية المتلاحقة بنسف الحياة ، فهي من دونه لا حول لها ولا قوة ، والشاعر نفسه يندد في قصيدة أخرى - نظمها قبل الحرب الاخيرة - بفوضى الحكم في مصر إذ يقول بلسان شعبه (٣) :

تروح وزارة وتجيء أخرى	ومصر تقلب النظرات حيرى
نشيم فلا ترى إلا بروقاً	كواذب ربما أمطرن جمرا

(١) مصريات ٢٣

(٢) ديوانه ٥٧

(٣) ديوانه ٤١

فيا وزراء مصر بكل عهد لقد مل الرواية شعب مصر

وإذا رحنا نلتمس الجرأة في انتقاد أنظمة الحكم الفاسدة لدى شعراء
العراق أدعشنا اهتمامهم الشديد بهذا الموضوع وإكثارهم من النظم فيه ، وكان
الروح الثائرة المتوردة لأسلافهم الخوارج قد تجمعت فيهم . وتجلت لنا هذه
الظاهرة خلال قصائد كثيرة لجليل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد صالح
بجر العلوم ومحمد مهدي الجواهري ومحمد باقر الشبيبي ومحمد رضا الشبيبي وخيري
الهنداوي وغيرهم من شعراء العراق . مما ينبئ عن مبلغ ما كان يعانيه العراق في
ظل حكامه البائدين . وبعد الرصافي بحق فارس هذا الميدان ، صدر عنه بفهم
عميق ، وكان كالطود الأثيم لا ينحني أمام الطغاة ولا تآين لآفة تجاه المفسدين قناة
وله من القصائد في هذا الشأن ما يعد وحده ثورة غانية على أجهزة الحكم
الغاشم في العراق (١) :

وإذا تسأل عما هو في بغداد كأن
فهو حكم مشرق في الضرع غربي الملاين
وطني الاسم لكن إنكليزي الشناشن
عربي اعجمي معرب اللهجة راطن
فيه الابعاز من لندن بالأمر مكامن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نملك تحريك الساكين

وها هو ذا نفسه يصور إحدى تلك الحكومات التي كانت أشبه شيء
بمخضراء الدمن وضعت على وجبها قناعاً وطنياً أبي الرصافي إلا أن يهتكه عنها يظهر
حقيقة أمرها أمام الملا ، فهو يقول بأسلوبه اللادع المهود (٢) :

(٢) ديوانه ٤٥١

(١) ديوانه ٤٣٨

في الكرخ من بغداد مرت بنا	يوماً فتاة من ذوات الحجاب
تحتلب الناس بأوضاعها	وكل ما يصدر منها خلاب
قد وضعت تاجاً على رأسها	يلمع في الظاهر لمع الشهاب
قال جليسي يوم مرت بنا	من هذه الغادة ذات الحجاب
قلت له : تلك لأوطاننا	حكومة جاد بها الانتداب
تحسبها حسناء من زهبا	وما سوى (جنبول) تحت الثياب
ظاها فيها فيه لنا رحمة	والويل في باطنها والعذاب

وما نظن شاعراً عربياً آخر باع هذا المدي من التوفيق الذي بلنه الرصافي في وصف إحدى هذه الحكومات الصورية ، وهو شديد الحرص على الكشف عن الصلة الواشجة بين حكام العراق وبين المستعمرين بجرأة بالغة دون أن تأخذه في الحق لومة لائم . ونجده يسم وزارات العهد المبائد بالخيانة السافرة في أبيات أخرى منها قوله (١) :

إن الوزارة لا أباك عندنا	ثوب يفصل في معامل (لندنا)
لا يرتديه سوى امريء أضحى له	طبعاً وداود الانكليز وديدنا

وثمة قصيدة أخرى له أطلق عليها اسم « الوزارة المذنبه » التي جاءت لتحكم العراق بعد أحداث دامية وأزمة شديدة وهو يجري فيها على مألوف أسلوبه اللاذع في تصوير الوزراء الجدد تصويراً مفعماً بالسخرية المرة وفيها يقول (٢) :

أهل بغداد أفيقوا	من من كرى هذى الفرارة
إن ديك الدهر قد با	ض يغداد وزارة
حببت للوطني الـ	حجر أن يهجر داره

(٢) ديوانه ٤٦٦

(١) ديوانه ٤٦٦

فكان الحكم والمد	ل بها قط وفاره
كم وزير هو كالوز	ر على ظهر الوزراه
ووزير ملحق كالد	يل في عجز الجماره
أدركوا الحق فقدشذ	ت على الحق الاغاره
لا تسل عنه وزير ال	قوم واسأل مستشاره
فوزير القوم لا يع	مل من غير إشاره
وهو لا يملك أمراً	غير كرسي الوزراه
بأخذ الراتب إما	بلغ الشهر سراره
ثم لا يعرف من به	د خراب أم عماره

وقد بلغ الرصافي في هذه الصور مستوى فنياً رفيعاً يجيل للقارىء معها أن الشاعر لم يترك في هذا المجال زيادة لاستزيد. وبخاصة حين يقارن الوزارة ببيضة الديك إمعاناً في العجب من أمرها، ثم تشببه الحكم والعدل بالقط والفارة، وجعله الوزير التابع ذنباً للحجارة - إلى آخر ذلك من الصور والتشبيهات التي كانت تجعل كل بيت من أبيات القصيدة سهماً ينطلق إلى نفوس أوائسك الحكام فيصمى. « ومن الطبيعي أن يستقبل الرصافي هذا العهد بالسخط والتشاؤم ... إذ أن شاعراً من شعراء الحرية والوطنية كالرصافي إن كان يتطلع إلى انقلاب أو تغيير في الأوضاع فإن هذا الانقلاب ينبغي أن يهدف إلى استبدال الحرية بالعبودية، والاستقلال بالاحتلال، لا أن تنجو البلاد من احتلال لتقع بين برائن احتلال شر منه وعدو غريب لا تصله به وشيخة من وشائج العقيدة أو التاريخ » (١) ولذلك صدر عن مثل هذه الحماسة والحدة في مهاجمة الحكم البائد آنذاك.

(١) بدوي طبانة : معروف الرصافي ١٣٢

وإذا ما انتقلنا الى طائفة أخرى من شعراء العراق فاننا نعيش في أجواء
مماثلة لدى شاعر عرف بجرأته البالغة على الفساد والاقطاع وهو محمد صالح بجر
العلوم الذي بقرل وقد أقذع في بيته الأول (١) :

حكومة واطأها الانتداب	فأولدت عرش العراق البليد
وقام فيها منجل الانتخاب	يحصد رأس العربي الجيـد
فاختلقت مملسكة من تراب	فظن بعض أنها من حديد
وانتهت من يد الاغتصاب	ما تركت أذئاب (عبد الحميد)

أما محمد باقر الشبيبي أحد العاملين في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ فقد
كان حربياً على المستعمرين وأذئابهم ومن مشهور قوله (٢) :

قلوا استقلت في العراق حكومة	فمجبت إذ قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة رهبها	وحكومة فيها المشاور يعبد
المستشار هو الذي شرب الطلا	فعلام يا هذا الوزير تعربد

وفي بيته الأخير طرافة محيية مفادها أن ما يوعز به المستشار ينعكس
جلياً على الوزير ، فاذا ما شرب المستشار الحفرة وجد الوزير نفسه ملزماً
بأن يعربد .

وكما ندد الرصافي في قصائده السابقة بالاستعمار والاستبداد دون أن يرى
فارقاً جوهرياً بينها ، نسج محمد مهدي الجواهري قصائده على هذا المنوال في تعبيره
عن تجربة عرضت له حين أزمع السفر من العراق الى لبنان وحالت السلطات في
بينه وبين الزيارة (٣) :

خلت أني فررت من جو بغداد وطغيان جورها اللهب

(١) ديوانه ١٠٧

(٢) علي الخافقي : شعراء الفري

(٣) ديوانه ٢ : ١٩٠

ومن البغي والتمسف والذل فظيماً محكماً في الرقاب
خلت أنى نجوت من بطشة عات وخائن كذاب
ومن الزاحفين كاللود هوناً تحت رجلي مستعمر غلاب
افريقي الاحرار منا ومنكم بين سوط الدخيل والارهاب

وهكذا أبان الجواهري عن طبيعة الحكم الفاسد الذي كان في كل من
لبنان والعراق مما يعد دليلاً على تماثل الاوضاع الداخلية في ظل الاستعمار سواء
كان بريطانياً أم فرنسياً .

ولم يكن من المأمول أن تتغير الأمور تغيراً جوهرياً في ظل جيوش
الاحتلال في سائر بلاد العرب ففي الأردن ذلك البلد الصغير تصدى لنظام
الحكم عدد من الشعراء على قلوبهم من نحو ما نجده في أبيات لمصطفى وهي التل
تذكرنا بقصيدة « الوزارة المذبذبة » للرصافي التي مرت منا قبل صفحات قليلة
ومما قاله فيها (١) :

أما البلية فهي في تلك التي تدعى الوزارة
حشروا بها المختار والبغلين ثم ابن الحماره
والله لو يبعوا بسوق الخيل ما يبعوا بباره
يا شارين على الأذى والصابرين على المراره
حتام لا تتململون فلا يقال هم الحجاره
الناس من لو أرهقوا ، شنوا على الارهاق غاره
« العبد يقرع بالعصا والحمر تكفيه الاشاره »

فالشاعر الذي عاش حياة بوهيمية مضطربة كان يندفع نائراً على وضع
بلادته المؤسف ، ولا يتردد من أجل ذلك في أن يقذع في القول دون أن يحسب
حساباً لنفي أو لسجن .

(١) عرار : البدوي الملمم ٢٠٩ .

وما سبق من استعراض مواقف الشعراء تجاه حكاهم نلاحظ أن مصر لم تحظ بطائفة من الشعراء الذين عرفوا بالجرأة كما كان الشأن في العراق ، ولم يقيض لها شاعر من هذا الطراز الذي وجدناه في الرصافي . فقد ابتعدت طائفة من الشعراء عن مثل هذه الموضوعات كما كان الشأن في أكثر شعراء مدرسة (أبولو) كما أن شوقي وحافظ وسواهما كانوا يؤثرون الاعتدال في أكثر مواقفهم ولم يصدروا عن مثل ذلك الالتزام في الرأي والحدة في القول على النحو الذي وجدناه لدى شعراء العراق بصورة عامة .

٤

وأما البرلمانات السورية والانتخابات التمثيلية المزيفة التي كان المفوضون السامون أو المعتمدون الأجانب حريصين على إقامتها ، وإلهاء الشعب بما يجري فيها من مهاترات ، فقد لقيت نقداً لا ذعاً من الشعراء كان جزءاً من حملتهم الشاملة على أجهزة الحكم الفاسدة ومظاهر السيادة الكاذبة . وعندما تمخضت مسداورات الانكيز ومؤامراتهم عن إقامة أول برلمان في مصر عام ١٩٣٤ انبرى نفر من الشعراء لإعلان سخطهم على يوم افتتاحه والتسديد بأعضائه . وكان في مقدمتهم أحمد محرم الذي يمكن اعتباره من معارضي الحكم القائم آنذاك بزعامة سعد زغلول ، ومما قاله يومئذ (١) :

يقولون نواب ودار نيابة	وملك ودستور من الحق واضح
وحكام عدل شائع ووزارة	هي الشعب أو روح من الشعب صالح
وساوس أقوام مهاذير ما لهم	من الرأي هاد أو من الاب ناصح
أسائل نفسي وهي ولهي من الأسى	أرائك ملك ما أرى أم مذابح

ومن أشد ما نظمه محمد الأسمر على النواب في مصر قوله في الأبيات التالية

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٩٦ عن ديوان مخطوط للشاعر .

يخاطبهم على نحو طريف وغريب معاً (١) :

حطموا الأغلال عن أمنكم وازأروا بالحق فيمن زأرا
لا تموتوا هرة محبوسة بل أسوداً غاضبات للشرى
واخلعوا الأرسان لستم حمراً واطرحوا النير فليستم بقرا

فهو فيما يبدو يحاول أن يهز بعنف ضباط أولئك النواب الذين لا يعرفون من اجتماعهم سوى رفع الأصبع وهز الرأس دون أن ينسوا بيت شفة ، وهو يعجب من قبولهم عن طيب خاطر تلك الأرسان والانيار شأنهم شأن الحجر أو البقر ... والشاعر مولع بهذا النمط من الصور التي تعتمد على تشبيه البشر بصفات من عالم الحيوان ، فبالإضافة إلى ذكره في المقطوعة السابقة الهرة المحبوسة والاسود الغاضبة والحجر والبقر ، ينحو هذا النحو أيضاً في قصيدة أخرى عنوانها « قبل الحكم وبعده » إذ يشبه فيها أولئك النواب أو الحكام بطائفة من الحيوانات ويشير إلى أنهم يملؤون الدنيا جمعجة ثم يصابون بعد أن يبلغوا قاعة المجلس باليكم (٢) :

ألما لبعض الناس أصبح (باقلا) وقد كان قبل اليوم (سجبان وائل)
أسمعنا زأر الاسود وينثنى فيفعل فعل الصاهلات الجوافل
أقلب طرفي حيث كنت فلا أرى سوى قنفذ أو ذئب ليل مخائل

ويصور عبدالكريم الدجيلي مدى ضعف النائب في برلمان العراق الذي وضعه في أعين الشعب رفع لانكليز له (٣) :

أيها النائب لا تح فل بمن قال وقيل
قد هز زناك حساما فوجدناك كليلا
وسبرناك عميلا فوجدناك أصيلا

(١) ديوانه ٣٧

(٢) ديوانه ١٢١ ؛ وبقول مضرب المثل بالعمي ؛ وسجبان من أفصح العرب في الجاهلية

(٣) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث عن ديوان له مخطوط ١١٧ .

أما أحمد الصافي النجفي فهو يعرض لنا بحوار رشيق مستزلة تلك المجالس
النبائية في نفوس الشعب فيقول (١) :

قال لي صاحبي هلم الى	الجلس فاليوم أعظم الجلسات
قلت بالامس زرتة وفؤادي	مفعم منه في أذى الذكريات
قال كرر له الرواح لتلقن	لث سلوى عن هذه الازمات
قلت هيهات لا أعود فحسي	رؤية الموت مرة في حياتي

والحق إن هذا التأفف من مهازل الحكم كان على كل لسان في الشرق
العربي ، فقد كانت الانتخابات في راس تلك المهازل ، تقيم البلاد وتقدمها اسم
تمخض بعد ذلك عن :

تمثيل ينحتها الانتداب وتعرض في قاعة المجلس
كما يقول محمد علي اليعقوبي (٢) . أو كما يقول ناجي القسطيني ساخر (٣) :

قلنا لكم ألف مرة الانتخابات حرة
ويشير أديب حلب قسطاكي الحمصي الى أولئك النسواب في سورية الذين
كانوا يتصدرون قاعة المجلس تحت حراب الفرنسيين فيقول (٤) :

نوابنا نواب كلهم	على لحي متخيمهم قضاوا
ثمة ميزانية ليس من	تصدىبقها بد أبوا أو رضوا

على أن آيات خليل مردم تبقى من أطرف ما وصفت به هيئة أولئك
النواب من الذلة والمسكنة وهم في طريقهم الى تسلّم مقاعدهم في قاعة المجلس (٥) :

-
- (١) الهواجس ١٣٢
(٢) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ١٨
(٣) ديوانه ١١٥
(٤) ديوانه ١١٥
(٥) ديوانه ٧٠

البرلمان وهل أتاك حديثه وحديث من فيه من النوم
 نقلوا اليه ناكسين رؤوسهم نقل الجبان لساحة الاعدام
 ملك الحياء عليهم أبصارهم فعيونهم بمواطني الأقدام
 عكفت زواياه على أصنامهم من لي براهيم للأصنام

أما شعراء المهجر الذين اتيح لهم في مغتربهم من حرية القول ما لم يتح
 لآخوانهم في مواطنهم من ائتماد وتمديد بأحوال البلاد السياسية فلا نجد لهم في
 هذا الموضوع إلا اليسير نظراً لطابعه المحلي ، على خلاف ما كان الامر لديهم تجاه
 الاستعمار ، وثمة آيات للشاعر القروي نظمها في مجلس نيابي اصطلعه الفرنسيون
 وزوروا فيه إرادة شعب لبنان يقول فيها (١) :

وطن تحيرت العبيد لذه وأذل منه رئيسه والمجلس
 جاد المفوض بالعليق فجمجموا وثنى عليهم بالشكيم فأسلسوا
 لا تسلقوهم باللام فانهم جلسوا وهل نجوا الكيلا يجلسوا
 في كل كرسي تسند نائب متكتف أعمى أصم أخرس

ومما يؤكد تجاوب جماهير الشعب مع أمثال هذه القصائد وأنها تنطق
 بلسانهم وتعبّر عن مكنون أنفسهم أن هذه الآيات ، وسواها للقروي ،
 كانت تصل في رسائل خصوصية لبعض أصدقائه في بيروت ، وهؤلاء
 يطبعونها سراً في نشرات ثم يدفعونها الى باعة الصحف لكي يبيعوها في غفلة
 من رجال الشرطة (٢) :

٥

على أن الوعي المتنامي في نفوس الشعراء وفهمهم القومي الصحيح
 المتزايد وبخاصة في أعقاب الثورات القومية التي قامت بها شعوبهم وأخضعها

(١) ديوانه ٣٠٥

(١) انظر جورج صيدح : أدبا وأدباؤنا في المهاجر ٣٤١

المستعمرون بعد ذلك ، جعلهم يركزون حملتهم بشدة على الطبقة الجديدة الحاكمة التي اصطنعها المستعمرون من أهل البلاد تمويهاً للحقائق وتجنباً لفضبة الشعوب . واستقر في النفوس بنتيجة ذلك أنه لولا الذين يمكنون للاستعمار في وطنهم ويكونون له عوناً على قومهم لكان بوسع الأمة أن تتجه بقوتها كاملة الى المختلئين وتتخلص منهم . وقد فطنت طائفة من أولئك الشعراء الى الصلة الوثقى بين المستبدين والمستعمرين ، والى التلازم بين فساد الحكم والاحتلال حتى كأنها طرفان في عصا أو وجهان لقطعة من النقود .

وهذا الشاعر القروي يشهر بخساسة الدور الذي قام به بعض المتزعمين في لبنان حين يسروا على جيوش فرنسا أمر احتلال بلادهم أثناء الحرب العالمية الاولى فراح يخاطبهم بقوله (١) :

ويا ناعمين بذل القيود ويا سادة في هوان العبيد
أمن أجل تقبيل رجل العميد ويري الذقون لفرط السجود
غدرتم بشعب وبعتم وطن

وحين اقتطع الفرنسيون جزءاً من سورية وهو لواء الاسكندرون وقدموة لقمة سائفة الى تركيا ، أعلن الشعب غضبته على الاحتلال ودولة الانتداب ، وقل من فطن يومذاك الى تهاون الزعماء في تلك القضية وتقصيرهم في كشف ما كان يدبر في الخفاء ، ومع هذا نرى شاعر العاصي عمر يحمي يتجه بشدة الى لوم هؤلاء الحكام (٢) :

بكوا فقد اللواء لنا رياء وهم طعنوا البلاد وضيعوه
أضاعوه لكي تبقى الكراسي فيالسم يضيعه ذووه
فصفق الرئيس ولا تعارض وإن ينطق ققل : لافض فوه

(١) ديوانه ٢٩٥

(٢) صبري الأشر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

وقد لمح علي الحندي هذا النحوا إذ وجد أن علة الشرق المزمنة حمق
سياسته وأنه لا لوم على الذئب إن وجد الرعاة أنفسهم لاهين عن أرضهم (١) :

زمانة الشرق حمق سياسته وأعيت الطب آفة الزمن
لا تلم الليث إن رأى إبلا رعاته غارقون في الوسن
فأعمل الناب في فرائسه أحق باللوم حارس الوطن

ومن هذا القبيل ما نظمه خيرى الهنداوي الشاعر العراقي حين ألقى
العلم في سوء حالة البلاد على الحكام الفاسدين قبل أن يلقيه على المختلين فقال
يخاطب الشعب (٢) :

ما الغرب أول ظالم لك بالذي يأتيه بل أبناؤك الظلام
قد أهملوك وأنت معقل عزم فاستهوتك بوطئه الاقدام
وكما قال عمر أبو ريشه :

لا يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم
ورأى عمر بهاء الاميري أن أصل الداء يكمن في هذه الطائفة المترعمة
وكأنه يدعوه الى محققها (٣) :

ضل شعب يسوسه غير كفء ويقود النفاقون زمامه
كيف تخميا البلاد والحكم فوضى ورءوس البلاد صرعى زعامه

ومع كل ما وجدناه من سوء الظن في قادة العرب السابقين ، فإن إيمان
الشعراء بالشعب كان وطيدياً ، فحين يزهي عمر أبو ريشة بأبجاد العرب يناجي خالد
بن الوليد بقوله (٤) :

قم تلفت تر الجنود كما نوا منسار الاباء والenfوان
ما تخلوا عن الجهاد ولكن قادهم كل خائن وجبان

(١) أغاريد السحر ٩٧ (٢) رقائق بطي : الأدب العربي في العراق ١٧٣

(٣) من : « رجال واشباه » ديوان مخطوط للشاعر (٤) ديوانه ٢٣١

فالخير في نظر الشاعر ما زال موجوداً في الآخرين كما كان في الأوائل .
 ولم يكن ثمة مفر أمام الأقلام الحرة من أن تشتد على هذه الطبقة الحاكمة
 الجديدة التي عمل المستعمر على خلقها ودعمها . فقد استفحل أمر الحكام الذين كانوا
 حرباً على قومهم وشؤماً على وطنهم ، وأخذ الجيل المتحفز يرى في مثل هؤلاء
 خطراً كبيراً على قضية البلاد ، وينسب إليهم كثيراً مما يحق بالوطن من نكبات ،
 وقد تجلّى هذا الشعور الحاد لدى فئة من الشعراء الشبان كان منهم وجيه البارودي
 الذي يعبر عما يمحس في صدور الشاميين من حقد على تلك الزمرة المتواطئة
 مع الأجنبي (١) :

يقولون هذا أمير البلاد	جميع العباد له خاضعون
أراه ومن حوله في النعيم	يروغ العدو وهم غافلون
تجموع البلاد وهم متخمون	ويبكي الفقير وهم يضحكون
هم الناكثون هم الخائنون	هم الآثمون هم المجرمون
وكل جرى أتى مخلصاً	يناضل حامت عليه الظنون

ولا ريب أن هذه الأبيات زفرة حرّى من نفوس الشبان الثائرين الذين
 كان يحز في نفوسهم أن تحتكر الوطنية طائفة من محترفي السياسة وتحرص على
 إبعاد كل مخلص وشريف عن دفة الحكم .

والحق أن الزعامة المخلصة والقيادة الحكيمة كانت في الشرق العربي أندر
 من الكبريت الأحمر ، حتى غدا كثير من المقالات والخطب يحرص على ذكر صفة
 الاخلاص الى جانب أسماء الساسة إمعاناً في تقييدهم . والى هذه الظاهرة النفسية
 في ظل الاحتلال يشير فؤاد الخطيب بقوله (٢) :

يقال زعيم ثم ينعت مخلصاً	فهل أصبح الاخلاص إحدى المعجائب
وهل ندرت تلك السجية أوعفت	فتذكر في التاريخ ضربة لازب

(٢) ديوانه ٦١٨

(١) بيني وبين العنوان ١٨

وهكذا بدا واضحاً للطليعة الواعية في بلاد العرب أن النكبات التي تحمل
بأمتهم لا يمكن أن تكون جميعاً من صنع الاستعمار بفردته . إذ كان لأعدائه دور
فعال في إنجاح خططهم وتنفيذ مآربهم ولذلك فطن أكثر من عرفنا من الشعراء
في اثناء البحث الى هذا الشر المزدوج .

٦

والواقع أن اتجاهها جديداً أخذ يظهر بصورة متنامية في الشعر الحديث في
فترة متأخرة نسبياً ، حين أخذت طائفة من الشعراء الشبان تتوجه بالوم الى
الشعب نفسه مصدر القوة ، وتخصر فيه بصراحة وجرأة تبعات فساد الحكم الذي
ضرب أطنابه في بلاد العرب طويلاً ، وكأن الشعراء يؤمنون بالقول المأثور « كما
تكونوا يولى عليكم » . ولعل من أسبق الشعراء الى هذا الاتجاه خليل مطران في
مطولاته (نيرون) ، ففي أبياتها تنديد غير مباشر بحكم الفرد وتقريع للشعب الذي
حمله الى سدة الحكم من ذلك قوله (١) :

ذلك الشعب الذي آتاه نصراً	هو بالسبة من نيرون أخرى
قرمة هم نصبوه عالياً	وجثوا بين يديه فاشمخرا
منحوه من قواهم ما به	صار طاغوتاً عليهم أو أضرا
إنما يطش ذو الأمر إذا	لم يخف بطش الألى ولوه أمرا
من يلم نيرون إنى لائم	أمة لو كهفته ارتد كهرا
كل قوم خالقو نيرونهم	قيصر قيل له أم قيل كسرى

فهذه الايات الرائعة لمطران تنطوي على روح ثورية متمردة ، وكأنها
تحض الشعب على الانتفاض على الطغاة لأنه هو الذي مكثهم منه حين رفعهم وهو
وحده القادر على الاطاحة بهم .

(١) ديوانه ٣ : ٥٠ القاهما في بيروت ١٩٢٤

غير أن الصراحة كانت طابع أكثر ما نظمته الشعراء في هذا الصدد ،
 إذ أخذوا يصدعون بالحق ويمنحون للأسلوب المباشر بعد أن لم يعد التلميح مجدياً .
 وأكثر هؤلاء الشعراء كانوا من الشبان الذين قيص لهم أن يعيشوا في غمرة
 الأحداث ويكونوا من طلائع الجيل العربي الثائر من نحو إبراهيم طوقان الذي
 يقول في هذا الصدد (١) :

فألى متى يا ابن البلاد وأنت تؤخذ بالسياسة
 وإلى متى زعماء قومك يخلدونك بالكياسة
 ولكم احطنا خائناً منهم بهالات القداسة
 ولكم اضاع حقوقنا الرجل الموكل بالحراسة
 والله ليس هناك إلا كل قناص الرئاسة

ويعبر عباس محمود العقاد عن هذه الحقيقة المؤلمة حين جعل نفسه أحد من
 تقع عليهم تبعات الحكم الفاسد وكأنه لمر بذلك لافراد الامة قاطبة (٢) :

وقد أسأمتنا رعاة تساق فأين الرعاة وأين الغنم
 فماذا أقول لهذا الجين وما عابه عائب أو وصم
 وماذا أقول لهذي اليمين وإني بها قد صنعت الصنم

وقد نحا أحمد زكي أبو شادي هذا النحو أيضاً إذ قال (٣) :

شكوت كما تشكون من زعمائنا وقد كثروا لكن مآثرهم قلت
 فبلاشكونا من تهاون أمة وهل هي خافت في المارك أم ملت
 أيتقد القواد والجند محجهم عن الحرب أم هذي موازيننا اختلت

(٢) عابر سبيل ٧٣

(١) ديونه ٥٧

(٣) فوق العباب ٦

وينتقد مسعود سماحة من مهجره القصى خضوع قومه لتلك الفئة الباغية
من الحكام ويشكر عليهم خنوعهم وذلك إثر زيارته للشام حيث قال (١) :

مشت القرون وكل شعب قد مشى معها وقومك واقفون ونوم
يعنون عن صغر لكل زعامة الموت تحت السوط منها أرحم
لم ترتفع كف لصفعة غاشم فيهم ولم ينطق بتهديد فم

وكذلك يلقي عمر بهاء الدين الاميري اللوم على الامة في أنها لم تأخذ على
أيدي حكامها ولهذا استبدوا بها (١) :

لا تلوموا غير كفاء وسد الامر إليه
لا أرى في الناس من بطو ي عن الغم يديه

ولعل عمر أبا ريشة الذي عرف بجرأته في الحق وفي مواجهته واقع الامة
من أبرز الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجاه ، وأبياته التالية في هذا الشأن من
أجل الشعر ، فهو يخاطب الشعب الذي يئن تحت وطأة الخيانة والتامر بعبارات
مريرة تلهب بروح الثورة (٣) :

يا شعب لا تشك الاذاة ولا تطل فيها نواحك
لو لم تكن يديك مجروحاً لضمدنا جراحك
أنت انتقيت رجال أمرك وارتقت بهم صلاحك
فاذا بهم يرخون فوق خسيس دنياهم وشاحك
أيسيل صدرك من جراحتهم وتمطيم سلاحك

وبهذه الروح استطاع الشعر أن يخوض المعركة ضد من باعوا أنفسهم

(١) ديوانه ٢٠

(٢) « في بلادي ديوان مخطوط للشاعر

(٣) ديوانه ٢٤٧

للأجنبي وأتبعوا شهواتهم . وليس ما مر بنا من أشعار في الواقع سوى نمط جديد
من الشعر فجرته المآسي التي عانها العرب في ظل حكامهم .



وما سبق يتبين لنا أن أكثر من عالجوا موضوع الاستبداد وفساد الحكم
من الشعراء كانوا في مصر والعراق والأردن ، وذلك تبعاً لوجود النظام الملكي في
هذه البلاد وما كان يستتبعه من بطانة فاسدة في الغالب ، إذ أن قصر مهمة حكم
البلاد وتصريف شؤونها على ملك واحد مدى الحياة وإبقاء هذا الحق في أسرته
الحاكمة كان يساعد على استفحال الفساد وسريانه بالتالي إلى سائر أجهزة الحكم .
بالإضافة إلى أن أكثر هؤلاء الملوك إنما جلسوا على عروش أقاليمهم المستعمر ،
وطبيعي أن يكونوا مدينين لهم بها ، وأن يدفعوا لهم الثمن من كرامتهم
وحرية شعبيهم .

ومن جهة أخرى فأننا نلاحظ قلة ما نظمه شعراء المهجر في هذا الموضوع
على الرغم من اهتمام طائفة كبيرة منهم بمعالجة الشعر القومي بصورة علمية . ولعل
ذلك يرجع إلى اعتمادهم عن العيش في غمرة الجو الداخلي ، وعن رائحة الفساد
فيه ، يضاف إلى هذا السبب قلة احتفال الصحف عادة بنشر أنباء الأحداث الحامية
وتفصيلاتها ، بالنسبة إلى ما كانت عليه من اهتمامها بالقضايا المباشرة ذات الطابع
الخارجي والتي تنطوي على أصداء عنيفة . ومن هنا كانت حملة المهجريين على
الاحتلال تستأثر بمعظم اهتمامهم .

والواقع أن أساليب الشعراء لم تكن تجري دائماً على النمط الذي رأيناه
فيما مر بنا من قصائد ومقطوعات ، ولا ريب أن كثيرين من الشعراء اضطروا إلى
التزام الصمت إيثراً لسلامتهم من بطش الطغاة وبخاصة في بعض الفترات الحرجة
كفترة الحرب العالمية الأولى التي عاش العرب خلالها في ظل الأحكام
العرفية سواء في مصر أو في العراق حتي « إن أحداً من الشعراء

(خارج الحجاز) لم يجرؤ على أن يندب أحرار العرب الذين شنقهم جمال باشا إلا بعد جلاء الترك عن بلادهم ، (١) وكثيرون هم الشعراء الذين كبحوا جماح قرائحهم في فترات أخرى .

ومع أن الشعراء ذوي الطابع الرومانسي الذين نبه شأنهم في السنوات العشر التي أعقبت الحرب الأولى عرفوا بعزوفهم عن تناول موضوعات اجتماعية وقومية محددة فانهم عبروا بشكل غير مباشر عن سخطهم على أحوال مجتمعاتهم ، وكثيراً ما كان هذا التعبير سلبياً ؛ فالرومانسي ذو النفس القلقة ينجح أبداً للفرار من واقعه ويهاجر بخياله الى أجواء جديدة يحلم بها ، فاما أن يلوذ بالطبيعة ينشد في رحابها العزاء وإما أن يسكن الى ماضي ينعم فيه بالسوان . وكم وجدنا من الشعراء من يجمع دون أن يفصح ويناجي عندلانيا أو غزالا يئنه ما بنفسه من سخط على السلطان واستنكار للجور . وقد كان الرومانسيون في الغرب « يشتدون في سخطهم واستنكارهم بممثلي السلطان في مجتمعاتهم من ملوك وقسس وحكام وقضاة . وطالما هاجموا الكنيسة الكاثوليكية في تدخلها الموق للحرية ، (٢) ومن قبل نادى روسو رائد الرومانسيين في كتاب العقد الاجتماعي بالارادة العامة ليقضي على سلطان الملك . كما عرف سائر الرومانسيين بعضهم للملوك والظلمة وكان هو جو يسميهم ضبماً وخنزير وغوراً . (٣)

والحرية في جميع مجالها - في المجتمع وفي السياسة وفي الفن - قوام الرومانسية ومن هنا لم يكن الشعراء والكتاب الذين صدروا عنها على وفق مع السلطات الحاكمة في مجتمعاتهم ، فقد كان ديدنهم السخط والنقمة أبداً . وما من من ريب في أنه كان لرواد الحركة الرومانسية الغربية وبخاصة أدباء الثورة

(١) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الادب العربي الحديث ، محاضرات مخطوطة

(٢) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ١٠٨

(٣) انظر المرجع السابق ١٠٩

الفرنسية تأثير في نزوع أدبنا الحديث نحو التحرر ، كما كان لرواد النهضة العربية مثل عبدالرحمن الكواكبي وأديب إسحق وجمال الدين الأفغاني تأثير مباشر وفعال في إيجاد هذا النزاع الثوري لدى شعرائنا الذاتيين . وكان ضغط الحكام على حرية الفكر والتعبير من أشد البواعث على اشتداد المنازع الرومانسية في أدبنا الحديث.

وثمة طائفة من الشعراء احتالت للامر فلجأت الى تنكير عواطفها وتمويه مقاصدها في اساليب غير مباشرة أقرب الى الرمز أو الطابع القصصي ، على نحو ما مر بنا في أبيات الشاعر خليل مطران المستمدة من مطبوعته « نبرون » ، إذ اختار القمص التاريخي أو الخيالي وسيلة لتبني الحرية والبطولة والتمرد على الظلم وإظهار قحة الاستبداد » (١)

كما نجد لجميل صدقي الزهاوي قصيدة مشابهة اسمها « ثورة في الجحيم » نظمها في استبداد الحكام وندد بهم خلالها تنديداً غير مباشر ، وهي أشبه بلحمة وبلغت أبياتها (٤٣٥) بيتاً . وقد أجرى على ألسنة الفلاسفة والشعراء والكتّاب الذين كانوا في الجحيم عبارات الثورة والتبرم والسخط تجاه ما يلقون من معاملة ..

على أن أكثر ما مر بنا خلال هذا الفصل من أشعار اتخذ التعبير المباشر وسيلة الى طرُق هذا الموضوع ، وكانت سمة الوضوح والصرحة بارزة فيه . ومع ذلك فإن شطراً كبيراً من تلك الأشعار تعتمد فيه أصحابه إغفال الاسماء والوقائع وجنحوا للتعميم وعدم الإشارة الى حدود الزمان والمكان والمناسبة أو إلقاء ضوء على الملابسات التي دعت الشاعر الى بث أفكاره في قصيدته . وربما كان ذلك منهم ابتعاداً عن سطحية الحياة اليومية وإيثاراً لشمول الفكرة ، وتجنباً لما يلحقه التخصيص في القصيدة من أذى بالشاعر .

(١) الدكتور محمد مندور : خليل مطران ٢٤

كل ذلك يشير الى أن الشاعر العربي لم يكن بوسعه دائماً أن يتكلم بملء
إرادته ويعبر بانطلاق عن كل ما يعين له . فقد كانت حرية الفكر في الشرق العربي
عرضة لمحن شتى في كل حين .

وجملة القول إن هذا الشعور الحاد الذي غمر جماهير العرب في شتى أقطارهم
تجاه الطغيان والاستبداد وفساد الحكم وسوء الإدارة ، وتجلى بقوة على أسنة
شعرائها لم يكن إلا إيذاناً بالانتفاضة الحاسمة في سبيل التحرر من الاستعمار رأس
الافعى ، وتطهير الوطن من رجسه وبقاياه من المرتزقة وأصنام السياسة وعبيد
الكرسي .

وكما أيقن الشعراء من انبثاق فجر التحرر من الاستعمار فقد آمنوا باقتراب
أجل الاستبداد وفوضى الحكم وتفاءلوا بالحرية والازدهار في أحلك عهود الظلام
وكانهم قد عبروا على لسان الجواهري عن الثقة بمستقبل العرب والاطمئنان اليه
حين قال (١) :

لا بد أن يثب الزمان وينثي حكم الطفلة مقلم الاظفار
والنصر أبداً للشعوب .

(١) ديوانه ١٢٠

الفصل الثالث

استنهاض الهمم والحض على الثورة

١

لعل من أبرز ظواهر الادب الحديث اتسامه بالواقعية والالتزام . فقد أخذ
الاديب العربي منذ انبثاق فجر النهضة الحديثة يحس بأن ثمة ما يربطه وأدبه بمجتمعه
القلق المتحفز ، وما زال هذا الاحساس يعمق ويقوى حتى آل آخر الامر الى
شعور واع في نفس الاديب بأن أدبه جزء من مجموع النشاط الفكري لمجتمعه ،
وأنة ليس بوسعه أن يكون بمعزل عما يحيق بقومه ويهدد كيان وطنه ، وبذلك
عدا الاديب مسؤولا تجاه أمته يبر عن نوازعها ، ويتجاوب مع أحداثها . ولم
يكن ازدهار الشعر القومي في هذا العصر إلا نتيجة لايمان الشعراء العرب برسالتهم
نحو أمتهم و يقينهم بأن لها عليهم حقا .

ومن هنا حمل كثير من الشعراء تبعات هذه الرسالة ، وكان إيقاظ
الغافلين وتنبيه النيام ، واستنهاض الهمم والحض على الثورة من أبرز موضوعات
الشعر القومي الحديث .

وإذا كان الشاعر العربي قد صدر في شعره عن هذا الاتجاه منذ العصر الجاهلي في استنفار قبيلته من أجل الحفاظ على شرفها والذود عن حياضها فإن الشاعر اليوم أخذ يؤثر السير في هذا الطريق من جديد ، وقد كان الشيخ إبراهيم اليازجي رائد الشعراء المعاصرين في قصائده المشهورة (١) التي كانت الصيحة المدوية في آذان العرب .

لكن الارهاب الحميدي من جهة وضعف الوعي القومي في نفوس شعراء القرن الماضي من جهة أخرى ، وسم كثيراً من الأشعار آنذاك بطابع التزلف والولاء .

وما إن هبت على العرب نemat الحرية إثر إعلان الدستور العثماني حتى عادت الثقة الى نفوسهم وبدوا وكأنهم وجدوا ذاتهم من جديد بعد أن افتقدوها قروناً .

إلا أن محاولة الترك الاستئثار بالحكم وأساليبهم الجائرة ، أثارت حفيظة أحرار العرب فأخذوا يعلنون على ألسنة فئة من كتابهم وشعرائهم تدميرهم وسخطهم ، ويهيبون بقومهم الى النهوض في سبيل انتزاع حقوقهم ، وصون لغتهم ووطنهم وقوميتهم .

وكانت مهمة الشعر شاقة ، لأن شرطاً كبيراً من العرب لم يكن آنذاك ليتقبل فكرة التصدي للترك بله الثورة عليهم ، إذ كانت الرابطة العثمانية ما تزال تلقي تأييدهم ، كما كانت الجامعة الاسلامية تحظى باحترام كبير . وغدا تبعاً لذلك من العسير استبدال الرابطة القومية بهذه المشاعر . يضاف الى ذلك عامل هام حال بين الشعراء وبين النظم في المضمار ، ذلك هو سطوة النظام الاستبدادي الذي كتب

(١) انظر « بواكير الشعر القومي » في مدخل هذا الكتاب

على اولئك الشعراء ان يعيشوا في ظله البغيض مع شعوبهم المقهورة . ومن هنا كان مجال القول رحيماً أمام شعراء المهجر الذين كانوا في نجوة من الاحكام العرفية التي اناخت بكلكلها على قومهم . بلاضافة الى الآفاق الجديدة المتحررة التي عاشوا في اجوائها في بيئتهم المتفتحة الجديدة . وكثير منهم كان في شعره ينطوي على الثورة والتمرد تجاه الحكم العثماني وأساليبه البالية . ومما قوى هذا الاتجاه لديهم كون الكثيرين منهم من المسيحيين الذين وجدوا في خضوع قومهم وبخاصة في لبنان لسلطة دولة تغايرهم في العقيدة وفي القومية أمراً شاذاً وغريباً لا يجوز السكوت عنه . وكان جورج عساف من رواد هذه الطائفة الثائرة وقد أطلق صرخته المدوية في قصيدة له يحض فيها على الثورة ويقول (١) :

جف المداد فكم أنادي أمة معصوبة العينين كالعيمان
هبوا فقد طالت ليالي بؤسكم والشمس مشرقة على الاكوان
لولا تخاذلكم لما بتم بلا عز ولا ملك ولا سلطان

وفي مقدمة الاصوات التي ارتفعت في المهاجر أيضاً صوت أبي الفضل الوليد وإيليا أبي ماضي وقد أكرما من القول في هذا الموضوع وكان الوليد عنيفاً في ثورته حين دعا الى امتشاق الحسام ضد الترك وانتزاع الحقوق منهم في انتفاضة قومية عاصفة (٢) :

هبوا بني أمة وصيحوا صيحة بصحو العراق لها وبصحو الشام
والله لا عدل ولا حرية حتى يجرد بيننا الصمصام
كونوا أسوداً فالذئاب عداتنا حتام أتم عندهم أغنام

(١) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ١٢٧
(٢) الأنفاس اللهبية ٣٨

وقفوا غزق بالسيوف حجابهم حثام ثعبد عندنا الأضنام
ما حرر الاقوام إلا ثورة فيها تعانقت الظبي والهمام

وأبو ماضي كان حديث عهد بالهجرة الى العالم الجديد وما يزال قلبه رهين
وطنه ، فهو يتشوف الامل من خلال الحرب الكبرى ، ويحث قومه على الانتفاض
في وجه الترك وقد عيل صبره (١) :

يا لقومي بلغ السيل الزبي واستطال البغي واستشرى الفساد
كتب السيف، اقرأوا ما كتبنا لا ينال المجد إلا بالجهاد

وقد أرادها أبو ماضي ثورة قومية حاسمة على غرار ثورات شعوب البلقان
التي لم يكن كثير من الترك والعرب يرون فيها سوى حركات هدامة وغير مشروعة.
وكان مما قاله آنئذ مناشداً قومه الثورة (٢) :

لو تعقلون عملتم خلاصكم من دولة القينات والخصيان
ثوروا عليهم واطلبوا الاستقلالكم وتشبهوا بالصرب واليونان

ومع أن معروف الرصافي كان من دعاة الجامعة الاسلامية الحريصين على
إدامة عرى الاخاء والمودة بين الترك والعرب ، والابقاء على الدولة العثمانية عزيزة
الجانب تجاه مطامع الغرب ، فهو لم يجد بداً من التحول عن موقفه الى التنديد بهم
وزرع بذور الثورة في نفوس العراقيين وسائر العرب ضدهم ، فقد نفى يديه
من عودة غلاة الترك من جماعة الاتحاديين عن مسلكتهم ، ولم يكن وحيداً في
هذا التحول وإنما شاركه فيه كثيرون من شعراء الشام والعراق ، منهم جميل

(١) زهير ميزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٥٦

(٢) المصدر السابق ١٩٣

صدقني انزهاوي وفؤاد الخطيب وعبد الرحمن الرافي وامين ناصر الدين وسواهم .
وكا كان الرصافي يمرض قومه ضد الطغيان الحميدي ويعمل على الاطاحة به تراه
يستأنف القول في أولئك المستبدين الجدد (١) :

كأنا لهم شاء فهم يجلبونا وكم مخضوا أوطاننا مخضه الزق
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على ضمير بلق

وانطلق في الشام صوت الشيخ عبد الحميد الرافي الذي انقلب على
الترك أيضاً فقال يحث قومه على النهوض ومستلماً عنفوان المتنبئ :

لا تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يل الأقوام أجناسها
هبوا بني العرب لإلام الكرى وقد دهى الآمال دهاسها

وكان ثمة شاعر شاب التزم في حياته وفي شعره النضال من أجل
تحرير قومه من البطش والاستبداد ذلك هو الشهيد عمر حمد ، ومما قاله مستنفرأ
قومه للجهاد (٢) :

بني العرب كم أدعو ولم ألق بينكم صدى لدعائي أو مجيئاً لتسالي
أنادي بني قومي الي المجد والملا وأدعوهم دهرى صباحي وآسالي
مضى ذلك العهد العزز وانقضى ولسنا نرى في عهدنا غير إذلال
خذوا بيد الأوطان يا خير فتية وردوا لها ما كان من مجدها الخالي

ومما قاله أيضاً في ديوانه الصغير (٢) :

يا عرب قام القائمون وما برحتم نائمينا
يا أيها العرب انتبهاها حسبكم تنغافلونا

(٢) ديوانه ٢٤

(١) ديوانه ٣٩٩

(٣) ديوانه ١٨

أشبهتم شعراءكم في كل واد هائمينا
لهفي على شعب له خضع الا كاسر صاغرينا
لهفي على أبناء من ساقوا الملوك مصفدينا

وهذه الأبيات تم عن روح المرارة التي كانت تملأ نفس الشاعر تجاه ما كان عليه قومه من ضعف وتقاعس وغفلة . ثم كانت القافلة الأولى من شهداء الحرية وفي جملتهم الشاعر نفسه ، وإذاهي مأساة أخرى تنزل بالقوم الى جانب أهوال الحرب ، ويصحو العرب جميعا على صيحة الجرح . ومنذ ذلك اليوم أي السادس من أيار (مايو) عام ١٩١٦ شملت الدعوة الى النهوض والحض على الثورة والثأر الجانب الأكبر من الشعر القومي .

والواقع أن كثيراً من هذا الشعر الثائر الذي كان يحض على الانتفاض في وجه الترك مبثوث في القصائد التي قيلت رثاء لأولئك الشهداء وتفجعاً عليهم، فقد نارت نائرة الشاعر القروي على قومه حين بلغت أبناء إعدام الأحرار فراح يقول بعد أن بكاهم (١) :

يا للجيانة بل يا للخيانة من	شعب حيال جبال الغاشم ارتعدا
يا شعب لبنان بات الصبر مفضحة	ألا نقاد الصبر أجره نفدا
هل علقوا عن بلاد الصين فاضطربت	وأنت لا قام (صنين) ولا قعدا
أين الحماسة يا لبنان قد بردت	كالثلج والدم يا لبنان قد جمدا

كما كان ارتداد الفعل لدى أمين ناصر الدين تجاه الفاجعة في قصيدته (جزار سورية) فهو يحض قومه على الثأر ويهيب بهم أن يثوروا في وجه الطغاة بقوله (٢) :

شعب يضام وغاشم لا يرحم ونواب تغشى الوليد فيهرم

(٢) الالهام ٥٧

(١) ديوانه ٢٧٥

ودم يطل على الثرى ومشائق بجبالها وصل القضاء المبرم
 هل بعد ذلك للتجلد موضع إن كان فيكم من يحس ويفهم
 والله لو ناب الذي قد نابكم بعض السوائم لا ننتت تنظلم
 هذي دماء بنيكم مسفوكه أفليس يجري في عروقكم دم
 فالشاعر نازحاً نفاق تفجرت نفسه غيظاً على تقاعس العرب تجاه الظلم حتى
 بلغ في مخاطبتهم هذا المدى .

وهكذا حمل الشعر القومي يومئذ بذور انتفاضة العرب في ثورتهم
 الكبرى عام ١٩١٦ .

٢

ولكن الحرب العالمية الأولى تكشفت عن خدعة كبرى كان العرب
 ضحيتها وما زالوا يعانون من جرائها حتى اليوم . وإذا وجدنا طائفة من الشعراء
 قد أغضت عما ارتكبه الترك من مظالم تجاه العرب خشية التصدع في صفوف
 المسلمين وإشفاقاً على الامبراطورية العثمانية من الانهيار فانهم منذ ذلك اليوم قد
 واجهوا عدواً أجنبياً جشماً يحتل أرضهم ويذل قومهم ، ويختلف عنهم في
 الدين والقومية واللغة والطبائع ، ولهذا قصدوا لمحاربتة والتنديد به
 بكل قواهم .

وبوقوع الشام والعراق في قبضة الحلفاء التأمّت قضايا البلاد العربية في
 قضية واحدة وغدا الشعراء لا يفرقون في قصائدهم بين مستعمر وآخر . وهذا
 معروف الرصافي ينبه قومه الى الخطر الجديد ويقول (١) :

(١) ديوانه ٣٦

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض
 لم تر أن الغرب أصلت سيفه
 فقد طال نوم القوم بين دياره
 عليهم وهم لاهون تحت غراره
 وقد أصبحوا في قبضة من أساره
 أما آن للساھين أن يأهبوا له

كذلك يتجه عبد المحسن الكاظمي وهو مقيم في مصر الى العرب جميعاً
 يستنهضهم لقتال المستعمر مها يكن وجهه واسمه (١) :

سيروا نذب عن الحمي وزد عنه السبدا
 نعمي حمي أوطاننا ونصونها غوراً ونجدنا
 سيروا قواصد للمني أو نبلغ الأوطان قصدا
 إن لم تكن تجدي الحياة بمزها فالوت أجدي

ومع أن خير الدين الزركلي كان ينعم وقومه بالاستقلال في سورية
 خلال فترة قصيرة بعد انتهاء الحرب الاولى والثورة العربية الكبرى ، فقد حز في
 نفسه أن يكون سائر الوطن العربي فريسة بين مخالب المحتلين فلم يهنأ بما هو فيه
 وراح يحث أهل العراق وابنان على طرد الفاسين ويعلن مسخطه على مشروعاتهم
 الآتمة بقوله (٢) :

فيم الوني وديار الشام تقسم اين العبود التي لم ترع والذمم
 ما بال بغداد لم تنبس بها شفة وما لبيروت لم يخفق بها علم
 ويأبى شفيق جبري على شعب العراق أن يكون دون مصر حمية بعد
 ثورتها على الاحتلال عام ١٩١٩ ، فيحفز همته على الكفاح ويحضه على الثورة
 قائلاً (٣) :

(١) ديوانه : المجموعة الاولى ٢٣٤

(٢) ديوانه ١٥

(٣) صبري الاشر : المختار من الشعر في سورية ٤

ما للعراق خوت عزائم أهله فاستسلموا لمشيئة الحكام
هلا أتاه حديث ثورة أمة في مصر قد أنفت من الاحجام
ثارت شعوب الارض بعد خضوعها ان الخضوع تقيصة الانام

ولكن العراق لم ينم وإنما كان يقظان يترب ، إذ لم تمض شهور حتى
اندلعت فيه ثورة شعبية عاصفة سنة ١٩٢٠ فانطلقت أصوات شعرائه تحض على
الجهاد ومنهم عبد الغني الخصري الذي قال مستنفرأ (١) :

الجهاد الجهاد أبناء قحطنا ن وأحفاد يعرب وإباد
حفزت وثبة العراق شعوباً ركنت للقيود والأصفاد

وقد أتىح لعبد المحسن الكاظمي آنذاك أن يندد بن يحتلون بلاده وهو
بعيد عن شعبه في مصر فقال يستنهض قومه (٢) :

أها السيف قولك اليوم فصل أرهم كيف يحكم الحاكمونا
أرهم فعلك الذي إن رأوه طأطأوا هامهم له مرغمينا

وكان محمد مهدي الجواهري الذي حمل لواء الشعر القومي في العراق
بعد قيام ثورته الأولى وقمها دائماً على حث قومه على الثورة من جديد ضد
الاستعمار الذي كان ينشر جذوره يوماً بعد يوم في البلاد ، ومما قاله في خلال
تلك الفترة - فترة اليأس - أبيات يعلن فيها سخطه على إخلاد قومه الى التخادل
ويستنهضهم للجهاد (٣) :

أقر على الضيم الشباب ولم يثر وأخلد لا يسدي النصيحة أشيب
كأن لم يكن في الرافدين مغامر وحتى كأن لم يبق فيه مجرب
أعقماً وأمات البلاد ولودة وإنك يا أم الفراتين أشيب

(١) رقائيل بطي . الشعر العصري في العراق النربي ١٢

(٢) ديوانه : المجموعة الاولى ١٦٣

(٣) ديوانه ١٤٥

كما صاح محمد صالح بحر العلوم بأبناء وطنه للذود عن استقلالهم والثورة
من جديد على أعدائهم (١) :

بني وطني هبوا لاسعاد أمة عليها رواق الانتداب غيم
بني وطني جدوا لاسعاد أمة مخلصها في حقها يتنعم

ولم يكن موقف شعراء الشام من قوات الاحتلال يختلف في جوهره
عن موقف شعراء العراق أو مصر لأنهم جميعاً يصدرون في تناجهم عن ضمير
أمتهم المحي وعن نزوعها نحو التحرر ، فكان الاستنهاض والحض على الجهاد
دأبهم منذ أن وطئت جحافل (غورو) أرض لبنان وسورية . من ذلك ما قاله
الشيخ مصطفى الغلاييني يومئذ (١) :

إلى النهوض إلى كسر القيود إلى رفع البنود إلى ما يطلب الشمم
هبوا فأمتمكم أمست على خطر جارت عليها الاعادي جور منتقم
وذمة العرب والايام شاهدة انصر من الوغي في السهل والظلم
حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل المعجم

والملاحظ أن الشاعر يستنفر قومه الى الجهاد لتحرير الوطن العربي
الكبير الذي استباحه المستعمرون دون أن يشير الى اجتياح غورو أرض
لبنان ، فالنظرة الشاملة رائده ، وبلاد العرب لديه وحدة من حيث قضيتها
ومصيرها ، وهي عنده أيضاً تواجه عدوا واحداً مهما تختلف أسماءه . وبرغم أن
بيروت غدت محتلة فالغلاييني لا يستنهض أهل لبنان وحدهم بل يستنهض العرب كافة لأن
لبنان أو ساحل سورية إنما هو عضو في جسد العرب .

ثم أمدت الثورة الكبرى التي اندلعت في سورية عام ١٩٢٥ الشعراء بوقودها فتأججت المشاعر القومية في النفوس . وكان على الشعراء أن يخوضوا المعركة بأشعارهم يذكرون بها الهمم ويحفزون العزائم . وعندما أصبحت دمشق طعماً لنيران الفرنسيين هب الشعر القومي كالليث زاده الجرح ضراوة يستنهض الشعب الى الجهاد . وغنث لتلك الظاهرة الادبية أبيات لعز الدين التنوخي يقول فيها (١) :

يا عرب حتام القرار على الاذى ودياركم قد غالها ما غالها
أو تيجنون على الفرنجة بعدما سامتكم إرهابها ونكالها
لستم لقحطان إذا لم تسأروا لبلادكم وتقتلوا قتالها

والملاحظ أن التنوخي شأنه شأن الغلاييني وكثير من الشعراء ، لم يبق في نطاق الاحداث المحلية بل تناولها على الصعيد القومي العام وراح يستنفر العرب كافة .

وفي الوقت نفسه كان المهجريون العرب يعيشون أحداث وطنهم بقلوبهم ويتلهفون على تحرره ، فقد دأب أبو الفضل الوليد وإيليا أبو ماضي ورشيد سليم الخوري وإلياس فرحات وسواهم على استنهض قومهم في كل مناسبة ، وكثيراً ما عمدوا الى استثارة حمية لبنان الذي كان ينهمك بجزازاته الطائفية وخلافاته السياسية ، ويفغل عن عدوه الحقيقي ، ومما قاله القروي في هذا الصدد مخاطباً (شبول الارز) (٢) :

أهيب بهم فلا ألقى سميماً كأثني الننادي والمنادى
شبول الارزبات الحلم عجزاً وبمض الصبر موت إن تمادى
فكونوا النار تحرق أوقدى في عيون البطل إن كنتم رمادا

وحين اقتطع المستعمر لواء اسكندرون من سورية في غفلة من أهلها

(٢) ديوانه ٣١٧

(١) ديوان الثورة ٧٣

ورؤسائها وسلمه الى تركيا ثار الشعراء في جملة من ثاروا آتئذ وكان الحض على استعادة الجزء السليب قوياً يومذاك ، ولكن انقضاء الامر بسرعة وبكتم ثم انهك السوريين وسائر الشعوب العربية بمكافحة الاحتلال كل في بلده جعل نطاق القول محدوداً حول هذا الحدث إذا قيس بسواه من الاحداث القومية الاخرى ، ولأيات عمر يحيى في اقتطاع ذلك اللواء العربي مغزى بعيد لانها قرعت يومئذ ناقوس الخطر ونهت النيام على ما يرادهم ، من ذلك قوله (١) !

أبعد الثورة الجراء يرضى بنونا أن يفارقهم بنوه
أفيقوا إن يضع فلسوف يأتي زمان فيه يتلوه أخوه

وكان هذا القول الذي حذر فيه الشاعر قومه كان نذيراً بما يجيئه المستعمر من شر للعرب تجسد في أبرز صورهِ في مأساة فلسطين بعد ذلك ..

على أنه ما من قضية عرفها العرب في عصرهم هذا وأثارت معاني الاستنهاض والحفز في الشعر الحديث مثل قضية فلسطين التي أثارت أحداثها اهتمام العرب جميعاً . وقد تجلّى ذلك بوضوح على السنة شعرائهم في مختلف ديارهم . وهذه الظاهرة الادبية تعكس بجلاء ، الوجدان اجماعى للعرب قاطبة في تجاوبهم المشترك تجاه ما يعانیه إخوانهم في تلك البقعة المقدسة

وتغدو أحداث فلسطين الدامية ملء دنيا العرب وشغلهم الشاغل ، وينظم فيها الشعراء ما ينظّمون ، ويكتب حولها الكتاب ما يكتبون ، غير أن طابع الاستنفار الشامل والروح العربية البارزة كان السمة الاولى التي عرف بها ذلك النتاج الادبي بصورة عامة . ويكفي أن نمثل لهذه الظاهرة الهامة بما نظمه شعراء

(١) صبري الاشر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

العراق في هذا الشأن فنشير الي ديوان حمل اسم (الفلسطينيين) وحوى
مختارات من قصائد اقتصرت على موضوع فلسطين وحده ، نذكر من بينهم محمود
الجبوي وعبدالغني الخضري وأحمد رضا الهندي وعلي الهاشمي وعبد المنعم الفرطوي
وعلي البازي وعلي الشرقي ومحمد باقر سماكة ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم ،
ومن ذلك مثلاً قول أحمد رضا الهندي (١) :

يا لقططان اين تلك الحميه	اين آثار روحنا العريسة
اين ذاك الحماس والشرف البا	ذخ مجداً لهاشم وأميه
اين عُرب الحجاز اَين العرا	ق ألا اَين الشهامة السوربه
اين عيسى المسيح يرأف بالننا	س واين المواقف الأحديه

فالشاعر يستثير حمية العرب ويستغث بجدهم الاوّل قحطان ، كما يفتقد
فيهم حماسة نبي هاشم وبي أمية ، ويرى أن واجب الذود عن فلسطين يشمل
شعوب العرب جميعاً في الحجاز والعراق والشام ، وفي كل أرض عربية ،
بل إنه يدعو ذلك الي الاستغاثة برأفة أتباع المسيح وحمية أشياع محمد وكأنه
يستنهض البشر كافة ويلوذ بعاطفتهم الانسانية على اختلاف عقائدهم
الدينية .

ويضم محمود الجبوي صوته الي تلك النداءات الحارة ، حاضاً قومه على
مساعدة المجاهدين في فلسطين بقوله (٢) :

لبوا نداء فلسطين فقد بعثت	صوت استغاثتها دون الوري لكم
هذي فلسطينكم هل تهدأون إذا	أمست برغم أنوف العرب تققسم
حمية العرب لا ترضى وعزتها	بأن يحل مكان السادة الخدم

(٢) الفلسطينيين ٦٢

(١) الفلسطينيين ٣١

ولم يكن نشر كثير من هذه القصائد في الجرائد اليومية والمجلات الدورية سوى تمبير آفي عن تلك الحمية الفائرة في نفوس العرب تجلت على السنة شعرائهم في نداءات شعرية صادقة على نحو ما نجد في قصيدة للشاعر الدمشقي أجد الطرابلسي يقول فيها على صفحات الرسالة المصرية (١) :

يا عرب هيا فانصروا موطننا للعرب هاج الحقد أفراده
 هناك شعب عربي المهوى يحاول الغاصب إنفاده
 يسوسة الخسف بأغلاله ويدعي بالنار إرشاده

فالشاعر يستنهض العرب ويحضهم على نصره شعب عربي شقيق ، وهو لا يعدد أسماء الشعوب العربية بما فيهم شعب فلسطين ، فالوطن فرد الأمة واحدة وجوهر الاستعمار والصهيونية واحد أيضاً أشار الشاعر إليه بكلمة الغاصب .
 وحين بلغت أحداث فلسطين أوج احتدامها نظم شاعر دمشق خليل مردم قصيدة على صفحات (القبس) الدمشقية عبر فيها باستجابته الآنية عن دوافع الاستنهاض مشوبة بروح مريرة من الخيبة والسخط والتفريع ومما قاله يومذاك (٢) :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت لو يستثار بها الموتى إذن ثاروا
 هنم على كل شعب من تخاذلكم شأن العبيد وباقي الناس أحرار
 إخوانكم في فلسطين تنالهم بالسوء والعسف أنياب وأظفار

وهكذا كان أكثر ما قيل في أحداث فلسطين متسماً بروح الاستنفار والاستنهاض وبث الحمية والقوة في النفوس ، كما أن ذلك الشعر لم يكن من جهة أخرى يخاطب فلسطين وحدها أو شعباً آخر بعينه ، وإنما كان يتجه الى الأمة العربية وشعوبها قاطبة .

أما مصر التي كانت أسبق بلاد الشرق العربي وقوعاً في قبضة المحتلين فقد عمد شعراؤها منذ أواخر القرن التاسع عشر الى التنديد بالمحتلين بلهجة

(١) السنة الثالثة ص ١٢٣٣ دمشق .

(٢) جريدة القبس الدمشقية العدد ١٤٢١ سنة ١٩٣٨ .

تشدت حيناً وتضعف حيناً آخر . وإذا حاولنا استقصاء ما نظموه قبيل ثورة ١٩١٩ التي كانت في حقيقتها امتداداً وبعثاً لثورة عرابي فاننا لا ننكاد نقع على الكثير من قصائد الحث والاستنهاض في التمهيد لتلك الانتفاضة الشعبية ، في حين أن شعراً غير قليل نظمه شعراء العرب في الشام والعراق قبيل الثورة العربية الكبرى والثورة السورية وثورات فلسطين في حث العرب على الجهاد واستنهاض همهم وعزائمهم . ومرد ذلك الى أسباب متعددة ، منها أن الافواه قد كتمت خلال سني الحرب الاولى وهي التي سبقت عام الثورة فلم يعد من يستطيع التعبير عن رأيه في ظل الادارة العرفية وسيف الارهاب المصات . كما أنه لم يقيض لمصر كما قيض للشام جالية أدبية كبيرة في أرض المهجر بوسع قرائحها أن تنطلق بما لم يكن في وسع شعراء الوطن أن يقولوه ، وكان أحمد شوقي في منفاه بعيداً عن الوطن وأحداثه حتى اندلاع ثورة عام ١٩١٩ . ومن هنا كان أكثر ما قيل من شعر في مصر آنذاك شعراً منفعلاً قبل أن يكون فاعلاً ، يتأثر أكثر مما يؤثر . وتعتبر قصائد محمد عبد المطالب مثلا التي يصف فيها فظائع الانكاز في أنحاء الريف المصري وقراء (١) وقصيدة حافظ إبراهيم النونية وبعض ما نظمه محمد الأسمري وسواه خير مثال على ذلك . وعلى هذا يمكن القول إن دور الشعراء المباشر في مصر كان ضئيلاً في التمهيد لثورتها، وأن تلك الانتفاضة كانت من صنع الشعب قبل كل شيء . وما قاله محمد الأسمري في غمرة الصراع بين الشعب المصري والاستعمار في أعقاب الحرب الأولى (٢) :

ففي الشرق إن الغرب أدلى بمخالبه وناب فلا تهتز بينهما جينا
خذوا حذركم إن الخطوب روايض وشيدوا لكم كنين إن هدمت ركنا

(١) انظر ديوانه من ١٩٣ و من ٢٨٣

(٢) تغريدات الصباح ٢٠

والواقع أن المحتلين في مصر استطاعوا بدهائمهم أن يصرفوا الشعب بعد ذلك الى حين عن جوهر قضيته وجعلوه يولي تناحر الزعماء والأحزاب اهتمامه الأول . وقد انعكس ذلك بجلاء في الأدب ونجم عنه ما يمكن أن يقارب الشعر السياسي الذي كان ينظم على هامش القضايا الوطنية الكبرى . ثم طغى التيار الرومانسي فانعزل كثير من الشعراء عن واقع أمتهم وآثروا معالجة الشعر الوجداني . وكانت مدرسة (أبولو) مظهراً لهذا التيار في مصر ، وبوفاة شوقي وحافظ وعبد المطلب حدث ما يشبه الفراغ في الشعر بصورة عامة وفي الشعر القومي والاجتماعي بوجه خاص ، فلم يستطع أحد من الشعراء بعدهم أن يتغنى بمشاعر قومه ويتجاوب مع آمالهم وآلامهم ويسدي إليهم الرأي والنصح بمثل ما كانوا عليه . وتبعاً لذلك قل شعر الاستنهاض والحض على الكفاح .

ومن العجب أن نرى عدداً من القصائد المفعمة بالثورة والنضال تصدر عن طائفة من الشعراء الذين عرفوا بانسباقهم مع التيار الرومانسي في مصر مثل محمود أبي الوفا في إحدى قصائده التي أسماها « الاسد السجين » (١) :

ألا يا ليت لست أقول صبرا فقد جربت هذا الصبر دهرًا
فلم ينفع وزاد العيش مرا ولكن إن قدرت وكنت حرا

خطم كل هاتيك القيود

ففي ثنايا هذه الأشطر القليلة تضطرب جمرات الثورة ويلتمع لهيب التمرد . وقد تلمع نداء أبي الوفا بثوب ضبابي رمزي في عنوان قصيدته وفي مناجاته اللبث ، ومن وراء ذلك كله يلوح شبح الارهاب وكبت الحرية في نفوس المصريين خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأخيرة ، وفي هذه الفترة وإبان انتفاضات الشعب المصري عام ١٩٣٥ طلع علينا حسن كامل الصيرفي بقصيدة تكاد تكون يتيمة في ديوانه قال فيها (٢) :

(٢) الشروق ٨٩

(١) أشواق ٥٦

تحرك من سباتك يا فتاها	وأرجع عزمها وأعد قواها
فقد طغت الخطوب على حماها	فواها للآبي إذا تلاها
تحرك يا أبي الضيم وانهض	خفقك في بلادك بات يرفض
وأبي جفون مسلوين تغمض	إذا ما الأسد ديس على حماها
بلادك لقمة في عين جائع	وحقك نهبة في كف طامع
وأنت مع المذلة جد قابع	فقم وأزح عن النيل السفاها
ولا تقل السوف يوف خصمي	ولا تقل المدافع فوق عزمي
فان النصر معقود لقوم	نفوسهم ترى الجلى هواها
تقدم بالأمانى الصفوفا	ولا تخف الصواعق والحتوفا
وأوجد من عزائمك السيوفا	وأشعل نارها وأثر لظاها

هذه القصيدة التي نظمها الصيرفي وأسمها « نشيد الثورة » والتي حالت السلطات دون نشرها يومئذ قل أن تضارعا قصيدة أخرى في بث جمرات الثورة والتمرد وشجذ الهمم والعزائم ، فالشاعر يريد بها ثورة عاصفة لا تبقي ولا تذر . والقصيدة بعد ذلك تعكس تطوراً كبيراً في مفهوم الشعر عند شاعر ذاتي رومانسي « بعد أن انطلقت نفسه من سجنها وأصبحت قادرة على أن تتفعل بما هو خارج عنها . ففي هذا النشيد تحس بجمرة الروح الثورية التي اشتعلت في ذلك العام في مصر واستطاعت أن تنفذ الى روح الشاعر (١) :

٣

وكثيراً ما كان شعر المناسبات طريقاً الى معالجة القضايا الأساسية للوطن وبخاصة ما يتصل منها بالتاريخ العربي الزاهر ، إذ يلجأ الشاعر

(١) الدكتور محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، الحلقة الثانية ١٢٧ .

في الغالب الى ربط ماضي العرب بحاضرهم والمقارنة بينها ، ثم بعمد الى استنفار الشعب للذود عن كرامته وحثه على إدراك مجد آبائه ، حتى إن الشاعر الحديث قد يتعمد أحياناً الاعتماد بمضمون أبياته عن أصل موضوعه في سبيل هذا الهدف. ونحن نجد هذه الظاهرة أبرز ما تكون في مناسبات دخول عام جديد أو حلول عيد أو مصادفة ذكرى قومية أو دينية ، ومن هذا القبيل ما يقوله أنور العطار في « ذكرى المولد » (١) :

يا صحابي ومعشري وقبيلي	آن أن تستفيق تلك الصوارم
فامنعوها غمودها وكراها	واستثيروا بها دفين العزائم
وانفضوا عنكم الرقاد وهبوا	لم تلن هذه الحياة لناثم
قد ضججنا من البكاء كأننا	قد سلبنا النواح هذى الجمائم

ويبدو أن الشاعر لم يشف كل ما في نفسه من حرقه على استكانة قومه قتره يعود بعد مناجاة الرسول وافتقاده مجد العرب الى إلهاب نيران الثورة في النفوس بقوله :

أوقدوها حمراء تلتهم الأف	ق فتشوي بها اللظى والسهائم
وامنحوها دماءكم تستزى	واميروها أرواحكم والجمائم
واملكوا الأرض أتم سادة الار	ض وأتم بنو الليوث الضراغم

وكثيرة امثال هذه الصيحات التي كانت تنطلق من حناجر الشعراء في كل حين ومناسبة، والتي تذكرنا في كثير من الاحيان بقصائد إبراهيم اليازجي الرائدة .

وهكذا كان جانب من الشعر القومي الحديث يشير بالرسالة القومية على درجات متفاوت بين الشدة واللين تبعاً للظروف السياسية التي كان يحيا في ظلها الشعراء وبجسب أمزجتهم ومدى تجاوبها مع الاحداث ، وكان

(١) ديوانه في ظلال الأيام ٩٤

من الشعر ما اقتصر على التنبيه والتحذير ، أو تعدى ذلك الى الحث والاستنهاض أو ما بلغ أخيراً حد التمرد والثورة .

وقد ظل موضوع استنفار العرب وحضهم على الثورة والنأر يحظى باهتمام أدباء الشرق العربي طوال العهد الاستعماري ، وهذه الظاهرة في الادب الحديث تشير الى ريادة الشعر للوجدان الجماعي في نفوس العرب وإسهامه في زرع بذور الوعي القومي والتمهيد للانتفاضات الشعبية في العالم العربي . ولئن اختلفت الآراء حول مدى تأثير الشعر في توجيه ضمير الامة وإثارة مشاعرها القومية ، فليس بوسع أحد أن ينكر الدور القيادي للادب في هذا المجال . ولا ريب أن المستوى الفني للقصيدة هو الذي يحدد مدى هذا التأثير ؛ إذ أن شعراً غير قليل مما نظم في موضوع الاستنهاض والاستنفار كان يعتمد على صيغ الامر والنهي والاسلوب المباشر مما يقربه أحياناً من الوعظ والارشاد ويفقده الكثير من الرواء .

الفصل الرابع

التضامن والإخاء

لم يكن الاجنبي يأمل في التمكين لجيوشه في بلاد العرب إلا عن طريق بذر الشقاق والتعصب في النفوس ، واتخاذ من مبدأ « فرق تسد » محوراً لسياسته في إضعاف عناصر الامة وتفتيت مقاومتها للاستعمار .

وقد طرأت على العرب في تاريخهم الحديث آفات الشقاق والخلاف والتعصب الاعمي في السياسة والدين . واذا كانت العصبية القبلية لدى العرب في الماضي والتطاحن على الحكم بعد ذلك في طليعة العوامل التي أطمعت فيهم الفرنج وأدت الي تصدع أركان الدولة العربية ، فإن التعصب الديني والتحزب السياسي كان لهما في تاريخ العرب الحديث أسوأ الاثر في سيرهم الحثيث نحو التحرر والاتحاد .

أما الشعر الحديث الذي أخذ يبدى اهتماماً متزايداً بأوضاع العرب القومية والاجتماعية فقد أخذ يعبر بقوة عن وجدانهم الجماعي ويعكس على صفحته الجميلة منازع نفوسهم ومناحي تفكيرهم حية نابضة .

وثمة عنصران في هذا الموضوع : الشقاق السياسي ، والتعصب الديني ،

ولهما يرتدان في الوقع الى جوهر واحد هو التفرقة التي كانت تنخر كالسوس في
كيان الامة وتفت في عضدها بلا هوادة ..

١

وإذا بادرنا الى استجلاء مظاهر الشقاق والخلاف في أمر السياسة وحول
شؤون الحكم من خلال الشعر الحديث الذي نظم في فترة ما بين الحربين
العالميتين بصورة خاصة وبدأنا مثلاً بتاريخ مصر في هذه الحقبة الحديثة
« نجد أنه يدعو الى الرثاء حقاً ؛ فلم يستطع المصريون في أحلك الاوقات أن
يتحدوا ، وظل بأسهم بينهم شديداً ، وظلوا في كل حال رحماء على الاعداء
متباغين بينهم . كانوا قبل الحرب الاولى شيعاً وكذلك ظلوا من بعدها . ولم
يتحدوا إلا عند بدء ثورة ١٩١٩ ولم يدم اتحادهم إلا قليلاً ، فلقد دب اليهم
الخلاف والشقاق قبل أن تنتهي الثورة (١) ، ولم يقر للشعب المصري قرار إلا
بعد جلاء المستعمر الذي استطاع أن يطيل أمد بقائه عن طريق نجاحه في إشاعة
الفرقة والشقاق في صفوف الامة .

وقد انبرى الشعر يقرع ناقوس الخطر ويعني على القوم خلفهم وتناحرهم
حتى كثرا القول في هذا الشأن . ومن ذلك مقاله خلال الحرب الاولى أحمد محرم (٢) :

أرى الناس في مصر شتى القلوب وإن جمعهم عوادي النوب
فكل له وجهة تستراد وكل له شأنه والأرب
وبعض يمد جبال الرجاء وبعض يرى اليأس حقاً وجب

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٦٣

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٠ عن ديوان مخطوط للشاعر .

لهم انقضت أعوام الحرب وعرفت مصر في أعقابها ثورة شاملة تُجلى فيها التضامن بأروع مظاهره وأسمائها في صفوف الشعب . ولكن الامر لم يلبث على هذا الحال طويلا حتى أخذ في التدهور ، إذ اتسمت الحياة الحزبية بعد تلك الثورة بحدة ومهارات مؤسفة بين قادتها . وقد انعكس ذلك الامر لدى طائفة من الشعراء فانساق في تيار الخلف والتنابد ، إلا أن سائر الشعراء لم يترددوا - تجاه الحالة السائدة في البلاد - في إعلان سخطهم واستنكارهم فيما نظموه من قصائد آنذاك . وفي مقدمتهم أحمد شوقي الذي دعا بجرارة الى نبذ التنافر والخصام وحث على التضامن والاخاء في عدد من قصائده . ومن مشهور ما قال آنئذ قصيدته التي نظمها في ذكرى مصطفى كامل وندد فيها بالتفرقة والتطاحن الحزبي (١) :

إلام الخلف بينكم إلاما	وهذى الضجة الكبرى علما
وفيم يكيد بعضكم لبعض	وتبدون العداوة والخصاما
شبيتم بينكم في القطر نارا	على محتمله كانت سلاما
وليننا الامر حزبا بعد حزب	فلم نك مصلحين ولا كراما
وسسنا الأمر حين خلا إلينا	بأهواء النفوس فما استقاما
تراميتم فقال الناس : قوم	إلى الخذلان أمرهم ترامي
وكانت مصر أول من أصبتم	فلم تحص الجراح ولا الكلاما

وما هذه الايات إلا زفرة صادقة انطلقت من قلب أمير الشعراء مفعمة بالاسى والمرارة لما كان عليه قومه ، وهي تنقل لنا صدى ذلك الجو المشحون بالكراهية والانقسام بين صفوف الامة وزعمائها على حد سواء . لقد كان في الدساتير والماهدات والانتخابات وما الى ذلك من الامور التي يحسن المستعمر

(١) الشوقيات ١ : ٢٦٢

الماكر طبعها وتقديماً مبعث خلافات واتقسامات كبيرة ، من ذلك أن الدستور الذي أمل فيه المصريون الخير لم يكن في حقيقته إلا سراباً ولم يصبوا من ورائه سوى الشر ، وقد فتح ثغرة في نفوسهم حين راحوا تجاهه بين مادح وقادح . كل ذلك انعكس في نفس شوقي فاتجه بالقول إلى قومه يتحدث عن أمر ذلك الدستور والأسى يملأ قلبه (١) :

لا تجعلوه هوى وخلفاً بينكم	ومجر دنيا للنفوس ومتجراً
قد كان وجه الرأي أن يبقى بدأ	وزى وراء جنودها إنكلترا
فاذا أتتنا بالصفوف كثيرة	جئنا بصف واحد لن يكسرا
حظ رجونا الخير من إقباله	عاش المفرق فيه حتى أدبرا

وقد كثر القول خلال تلك الفترة من حياة مصر السياسية حول الخصومات والاختلافات التي استفحل أمرها بين الزعماء حتى سرت عنيفة حادة إلى صفوف الأمة . ومن مظاهر هذا السخط الذي عم الشعب تجاه أحزاب مصر ومترجميها وما أورثوه إياه من شقاق قول محمد الاسمر (٢) :

خصام وصلح كل يوم وحالة	إلى عبث الاطفال واللهم أقرب
بني وطني إن البرية كلها	تجد وأحزاب الكنسنة تلعب

والواقع أن حدة الخلف كانت تخف حيناً لتشتد حيناً آخر ، ولكن حالة البلاد وأزمات الحكم وتناحر القادة على خميس المنعم ... كل ذلك كان يضرب أطنابه في مصر . ولذلك لم تكن معاني الشعراء لتتغير كثيراً في هذا المجال برغم تعاقب السنين . وكما وجدنا أبيات محرم وشوقي تعلن تبرمها بالفرقة

(١) الشوقيات ١ : ١٨١

(٢) ديوانه ٤١

والخصام أثناء الحرب الأولى أو بعدها نجد الشعراء فيما بعد ظلوا ينسجون على هذا المنوال حتى رأينا على الجندي مثلاً يقول في أواخر الحرب العالمية الثانية (١) :

وأحزاب تريد الحكم م لولا الحكم لم تكن
وأشياء مناقضة تثير عواطف الفتن
ومحتل يلاعبنا لعاب الموج للسفن

ومن خلال هذه الصيحات المفعمة بغيرة على الوطن وإشفاقاً على الأمة يمكن القول إن المستعمر قد أفلح الى حد كبير في بلوغ أهدافه بعد أن أشاع الانقسام في صفوف الأمة وجعلها تتلهى عن جوهر قضيتها بتوافه الامور وقشور الحكم . وهذا الشعور الساخط الذي تجلى بصورته الواعية على أسنة الكتاب والشعراء والذي كان أمره يتفاقم باطراد ، غدا في طليعة الاسباب التي أطاحت بالنظام الرجعي آخر الامر في مصر .

أما في العراق فلم يبلغ التطاحن والانقسام هذا المدى الذي بلغه في مصر بفضل التفاف الناس حول الملك فيصل أول الامر ثم حول ابنه غازي . ومن جهة أخرى فان ضعف الصحافة بصورة عامة و فقدان حرية التعبير في كثير من الاحيان جعل نطاق الخلاف محدوداً دون أن تذكى ناره الصحف والمنابر على نحو ما كان يحدث في مصر ، وبالتالي بقي صدى ذلك في الشعر ضئيلاً . والواقع أن هذا الاعتدال النسبي في الجو السياسي بصورة عامة كان يخفي وراءه ما هو أدهى وأمر ؛ إذ كتمت الافواه وأخذ المعارضون بالشدة ، والتقى المترعمون على صعيد المغنم . وبرغم ذلك كانت أرض الرافدين تميد بحكامها من حين الى آخر ، ثم ينقلب الناس شيعاً وأحزاباً وتعدو الأمة مشتتة الالهواء ، إذ حيناً

(١) أغاريد السحر ١٨٨ - ١٩٥ .

حل المستعمر حلت معه الفرقة والارزاء . وقد أشار جميل صدقي الزهاوي الى
تلك الحال فقال (١) :

وبل لمملكة قضى إهمالها من أهلها أن يفشل استقلالها
ولأمة بعد الوفاق تحالفت فقطعت لخلافها أوصالها
من كل عاصمة الرشيد وأهلها لم يبق إلا طيفها وخيالها

وكان الامر أكثر تعقيداً في فلسطين حيث الاستعمار المركب يعيث في
الارض فساداً ، وعدوان لدودان يتواطآن ، والعرب عن كل ذلك لاهون .
لقد عبر إبراهيم طوقان عن شعور مرير مفعم بالاسى تجاه تفتت طاقات الامة
وتلبي قادتها بالعرض الزائل وخسيس المنعم ، فهو بصدد رثائه موسى كاظم
الحسيني أحد زعماء فلسطين يلتفت الى شاطبة قومه بلهجة مفعمة بالغيرة
والاخلاص (٢) :

والله لا يرجي الخلاص وأمركم فوضى وشمل العاملين بمزق
أين الصفوف تنسقت فكأنما هي حائط دون الهوان وخندق
أين القلوب تألفت فتدافعت تفتى اللهب وكل قلب يخفق
أين الأكف تصافحت وتساجلت تبني وتصنع للخلاص وتنفق

فالشاعر يفقد التمام الشمل ويتوق الى وحدة الصفوف في كثير من
اللوعة والحسرة . وإنه لما يدمي القلب أن يرى شاعر مرهف الحس بلاده نهياً
مقسماً بين الاستعمار والصهونية وقومه سادرون في غيهم ماضون في تناحرهم .

وفي سورية ولبنان كانت الانقسامات تزداد استفحالاً في ظل الحكم

الفرنسي نتيجة ظروف طائفية معينة تطفئ في كثير من الأحيان على الخلافات السياسية . وقد ابتلي السوريون كسائر العرب في هذه الفترة على حياتهم القومية بداء التفرقة ، وانقسم حكامهم منذ انتهاء الحرب الاولى بين مدعن لانذار (غورو) باحتلال البلاد وعازم على القتال حتى النهاية . كما ذر الخلاف بعد ذلك قرنه في حياة البلاد السياسية واستحكم التعصب الاعمي بين الافراد والاحزاب وكانت الحال على ما وصفها خير الدين الزركلي بقوله (١) :

وما لاثنين حواك من وثام	ترى كلاً له أمل ومسي
تدورها الامور على التثام	وأحزاباً إن التأمّت فليست
فتفترق القلوب على خصام	وتجتمع الجسوم على تراض
ولكن الجميع بلا إمام	لكل جماعة فينا إمام

وأخذت صيحات الاسى والاستنكار تعم الوطن وتتجلى قوية على ألسنة كتابه وشعرائه ، وأكثر ما نظم في هذا الشأن كان مفعماً بروح المرارة على ما تردى فيه العرب من تحاذل وتفكك ، من نحو ما نظمه خليل مردم بك في قصيدته « لوجه الوحدة » (٢) :

لقد أضعنا تراث السالفين سوى	نار من الحقد والاضغان تضطرم
أكلها قام داع للوثام بنا	إذا بأسماعنا عن قبوله صمم
من مبلغ الخمس من قيس ومن يمن	أنا على كل أمر دق نختصم

ومن الطبيعي أن تكون نظرة شعراء المهجر الى هذا الامر منسمة بالشمول وألا يقتصروا في كثير من الاحيان على ما يعاينه قطر بعينه . فقد كانوا في تلك البلاد القصية شديدي الاحساس بحالة قومهم ، دائمي الترقب لما

(٢) ديوانه ١٦٦

(١) ديوانه ٢٩

يحدث في وطنهم . وكم كان يحز في أنفسهم أن تلهو أممهم عن عدوها ، وتنام
عن ثعالب الاحتلال في أرضها . وهذا إلياس قنصل يناجى قومه من وراء البحار
ويهيب بهم أن يتمسكوا بجمال الوحدة الوطنية (١) :

يا آل يعرب هل تنسون أنكم بالاتحاد بلغتم في العلا الأربا
لئن تفرقتم فالدهر يغلبكم ولا نجاح لمن بين الوري انغلبا

كما يصدر إلياس فرحات عن مثل هذه النظرة الشاملة نحو العسرب
فيسخط على ما كانوا عليه حين اعتبر الساسة والمترجمين أصل البلاء (٢) :

عليكم سلام الله يا آل يعرب متى ينتهي مسعاكم التنافر
لقد وحد العلم العبيد وأنتم قبائل تفني بعضها وعشار
أليس لكم يا قوم بعد محمد نبي لأصنام السياسة كاسر

وهكذا كان الشعراء ، وهم من الطلائع الواعية في الأمم ، رسل
الاتحاد والوئام ، كما كانوا في شعرهم حرباً على الشقاق والانقسام يدفعهم إلى
ذلك إيمان عميق برسالتهم السامية .

٢

وإذ ننتهي من استجلاء هذا الجانب من حياة العرب القومية الحديثة يجدر
بنا أن نحاول استجلاء أمر التصعب الديني ، والدعوة إلى التسامح والوئام بين
ممل الأمة وطوائفها ...

(٢) ديوانه ٣٢

(١) على مذبح الوطنية ٥

ان القول لم يكتر في الشرق حول التضامن والاخاء إلا عند ما استفحل خطر التفرقة والتعصب . وإذا كان الشعراء قد أولوا هذا الموضوع اهتماماً بائناً في هذا العصر ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة فإن شاعراً عربياً كبيراً هو أبو العلاء المعري كان رائدهم الى ذلك قبل نحو ألف من السنين ، وبدا في شعره حر الفكر رحيب النفس متسامحاً في عقيدته . وقد وضع في الميزان دين أحمد والمسيح ، وسلط نور العقل على الدين وجرده من قشوره ، كما فضح تجار العقائد ودعاة التفرقة .

وأبرز من فطن في عصرنا الى هذه العلة المزمنة وخطورها على الامة الشيخ محمد عبده رائد هذا الاتجاه في التفكير الشرقي الحديث ، ومن مشهور قوله في هذا الصدد يتناه السائران على ندرة قرضه للشعر :

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتقت عليه العاهم
ولكن ديناً قد أردت فلاحه أحاذر أن تقضي عليه العاهم

والحق إن آفة الشرق في عصوره الحديثة كانت في تعصب أبنائه واشتداد الخلف بين أهله ، والى ذلك يشير حافظ ابراهيم وكأنه يعتبر زوال هذا الداء الويل حاملاً بعيد المنال (١) :

متى أرى الشرق ادناه وأبعده عن مطعم الغرب فيه غير وسنا
لا فرق ما بين بوذي يعيش به ومسلم ويهودي ونصراني

وبدافع من هذا الشعور اشتدت دعوة الأقلام الحرة في العهد الاستعماري الى نبذ التعصب والخلاف الذين كانا يزدادان اشتعالاً بسبب

(١) ديوانه ١ : ١٢٤

تفشي الجهل من جهة وبتشجيع من المحتلين من جهة أخرى . ولم يكن الاستعمار في سبيل تثبيت أقدامه في البلاد بحيد عن بذر الشقاق والتعصب في النفوس بعد أن اتخذ من مبدأ « فرق تسد » محوراً لسياسته .

وكان من الطبيعي ألا يطمئن المسيحيون في بلاد العرب بصورة عامة الى كل نظام من شأنه أن يجعلهم أقلية ضئيلة في ظل دولة إسلامية كبرى بعد ما عانوه من أهوال التعصب الديني خلال عهود العثمانيين . ومن هنا كان كثير منهم ينظر بعين الريب الى فكرة الجامعة الاسلامية ، ويتلطف على إقامة دولة حديثة على أسس قومية تجمع بين أبنائها رابطة العروبة على اختلاف عقائدهم ، ويتفني فيها التعصب الطائفي وتسلط رجال الدين على الحكم .

وقد رأى بعض الشعراء بحق أن تفشي التعصب الطائفي بين العرب كان في طبيعة الأسباب التي اطعمت فيهم العدو ، ومما بادروا الى نظمه منذ وطئت اقدام المحتل أرض الشام والعراق قصيدة لمحبوب الخوري الشرتوني أسماها « دمة على العرب » وأشار فيها الى العلة التي كانت تنخر في كيانهم (١) :

يا أمة العرب استباحك معشر ما إن عليهم بل عليك سلام
لم تجن أسيفهم عليك وإنما العيسوية فيك والاسلام
هاتيك تبسط للفرنجية باعها هرباً وذاك جواره لإسلام

فالشرتوني وقد حز في نفسه ما كان عليه قومه ينحي باللائمة على عنصر الأمة معاً حين ارتقى أحدهما في أحضان الغرب ولاذ الثاني بالتعصب ضد إخوانه فكان كل فريق حرباً على الآخر .

والحق إن المسلمين والنصارى عاشوا معاً بسلام ووثام طوال العهد

العربية الجديدة « والاسلام نفسه فسح المجال للنصرانية لتعيش معه والى جنبه ،
 وحي مقدساتها ومعتقداتها وصان معابدها وجعل بينه وبينها صيداً مشتركاً يتلخص
 في اعتبارها ديناً سهوياً مصدره وحي إلهي ، وفي أن المسيح كلمة الله
 وروح منه . وأنه ولد من أم عذراء طاهرة بتول من غير أب ، وأن
 أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » (١) وما المسيحية والاسلام
 سوى موجتين روحيتين متلاحقتين ظهرتا في الشرق العربي ، والخطأ الفادح
 في العهد العثماني والعهد الاستعماري على السواء أن السلطات الحاكمة كانت
 تدأب على وضع الاسلام في مقابل المسيحية وتبرزهما في صورة خصمين
 متقابلين . وما فتئت دول الاحتلال منذ دخلت بلاد العرب تثير نيران الحقد
 والتعصب وتستفز النفوس بطيشها وحماتها . من ذلك ما صدر عن الجنرال
 غورو أحد زبانية الاستعمار بعد أن اقتحمت جيوشه سورية ولبنان ؛ فقد
 ألقى خطبة في بيروت تشدق فيها بالحملات الصليبية واعتبر نصره متمماً لها ،
 وكان الصلف والزهو يملآن نفسه والحقد والكرهية يسيلان من فمه . وقد
 أثارت هذه الخطبة مشاعر العرب وتصدى لصاحبها الشعراء والكتاب ، نذكر من
 بينهم الرصافي الذي نظم بهذه المناسبة قصيدة أسماها « مظاهر التعصب في عصر
 المدينة » وكان منها قوله (٢) :

ذكرت لنا الحرب الصليبية التي	بها اليوم قد تمت لقومك آمال
وتلك لعمري قرحة قد نكأتها	بما قلته فاهتاج بالشرق بلبال
فيا عجباً من أمة قدت جيشها	تشابه كرديناها والجنيرال
ولو أننا قلنا كما أنت قائل	لأنجي، علينا بالتعصب عدال

(١) محمد المبارك : الأمة العربية ٦٩

(٢) ديوانه ٤٣٣

وقد استغل المستعمرون الاحقاد الماضية التي كانت دفينه في النفوس
وبخاصة في لبنان منذ مذبحه الستين فبعثوها ذميمة وعملوا على إشعال فن طائفية
عمياء وتساخن رهيب بين عناصر الامة الواحدة ، وعمدوا في سبيل هذه
الغاية الى استقدام البعثات العلمية والدينية وبخاصة وفود المبشرين ، ثم تسخيرها
لمآرهم الاستعمارية إمعاناً منهم في تحدي مشاعر الطوائف الاخرى والكيد لها وفي
بث الاحقاد والضغائن في نفوس العرب .

ومن دواعي التقدير أن يكون عدد من الشعراء المسيحيين المنصفين قد
سموا بمنازعهم القومية وتصدوا لهذه السياسة الخطيرة ونددوا بها ، وفي مقدمتهم
الشاعر القروي وإلياس قنصل وخليل مطران والاختل الصغير ، ومن
هذا القبيل ما نظمه إلياس فرحات في قصيدته « أيها العرب » منسداً
بزيانية الغرب (١) :

غرست بنا التعصب من قديم	فأثر لوعة وأسى وضرا
بعث لنا الوفود فزقتنا	كما علمتها شطراً فشطرا
وفود ان تحمل بأرض قوم	تحيل عرا وفاق القوم مكرا
ولو دخلت جنان الخلد يوماً	لادخلت الخلاف بهن قسرا
ثياب البر والارشاد صارت	لجسم الشر والأحقاد سترا
خذوا بعثاتكم عنا فأنتم	بها من كل أهل الارض أحرى
ولا تدعوا الى الايمان شعباً	يرى الاكراه في الايمان كفرا

وشبيه بما كان في نفوس نفر من المسلمين العرب من تعصب ديني
في العهد العثماني كان أيضاً ما يماثل ذلك في نفوس بعض المسيحيين العرب الذين

وجدوا في الفرنسيين والانجليز حماة لهم وضماناً لحرية عقائدهم ، حتى بلغ الامر
بفئة منهم في لبنان مثلاً حد طلب الانتداب وتحييد الاحتلال فكانوا حرباً
على قومهم .

إلا أن الشعور القومي السليم لدى كثير من العرب - مسلمين ومسيحيين -
هو الذي نهض بكل قواه على السنة الشعراء والكتاب من أجل استئصال هذه
الشفافة . وبذلك حمل الشعر الحديث رسالته السامية بإيمان وراح يبشر بالاخاء
والتضامن ، معلناً حرباً لا هوادة فيها على التفرقة البغيضة والتعصب الذمير .

لقد كان هذا الشعور بوطأة التعصب حاداً في سورية ولبنان بحيث عدا
منى النفوس أن يهل على العرب عهد جديد بنعمون في ظلّه بالوثام والتسامح
والسلام . وكان عهد فيصل في أعقاب الحكم التركي عهداً ذهبياً رفل فيه الناس
بالتحرر السياسي والفكري والديني ، كما كان فيصل رائداً في الشعارات السائرة
التي كان يطلقها من خلال خطبه القومية الملتبته يومئذ من مثل قوله « الدين لله
والوطن للجميع » أو « نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » و « أن محمداً
لعربي قبل أن يكون مسلماً » (١) . فقد كان لهذه الاقوال صدى بعيد في قرائح
الشعراء تجلّى على ألسنتهم صافياً صادقاً على نحو قول اسكندر الخوري اليتسجالي
معتزاً برابطة العروبة التي وسعت مختلف النحل (٢) :

قبل المسيح وأحمد كنا وما زلنا عرب

وكان بطل الثورة العربية يومذاك معقد آمال العرب في بناء مجتمعهم الجديد
فلا غرو أن يتجه إليه فرحات كما يتجه العليل الى الآسي (٣) :

(١) انظر كتاب : فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله ١٧٥ و ١٨٤

(٢) العقود ٦٢ (٣) ديوانه ٧٣

طب بحمكتك الشام فانها كادت تموت بعله الاديان

وفي هذه الفترة من الحكم العربي المستقل طب للشعراء ان يعزفوا ألحانهم على أوتار التسامح والوطنية بعد عقود مديدة من التعصب والاستبداد والتبعية ، ومن ذلك ما نظمه حليم دموس (١) :

لك دين وله دين ولي آخر والكل دين محترم
فاحسبوا أدياننا واحدة واجملوا قبلتكم هذا العلم

وقد دأب أدباء المهجر في مغتربهم على التبشير بالتسامح والدعوة الي الاخاء برغم ما صدر عن بعضهم خلال فترات وظروف معينة من نزوات ونعرات تبين لهم بعدها أن ما أملوه في الاجني من خير لبلادهم وما ارتسم في أذهانهم حوله من هالة باهرة وألوان زاهية لم يكن في حقيقته إلا وهماً وسراباً . وتعد (الرابطة القلمية) موئل هذه الدعوة السامية حيث كان لقطبيها جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة أدب إنساني مفعم بالاخلاص والتبل ، وهل أثلج للصدر من قول جبران (٢) ، أنت أخي وأنا أحبك . أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح ، وزعماء هذا الدين أصابع متلاحقة في يد الالهية المشيرة إلى كمال النفس . أو قوله « أنا مسيحي ولي فخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله » (٣) وهل أصفى من نظرة (نعيمة) الى جوهر الاديان حين يعتبر (٤) « يسوع وموسى ومحمداً على السواء في العالم إلهاً واحداً وهو إله الجميع ليس مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً » . ولقد كان لمثل هذه الآراء الرائدة صدى بعيد في سائر كتاب الرابطة بل تعداه الى المهاجر كلها .

(١) ديوان حليم ٢٧٧

(٢) مجموعة المؤلفات ، دعة وابتسامة : ٢٣١

(٣) من مقالته (الى المسلمين من شاعر مسيحي) مجلة الفنون سنة ١٩١٣ العدد ٨

(٤) الآباء والبنون ٣٠

والحق إن شعراء المهجر ومنهم إيليا أبو ماضي وإلياس فرحات ورشيد
 سليم الخوري ومحبوب الشرتوني وأبو الفضل الوليد وجورج صيدح وغيرهم كانوا
 رواد هذا الاتجاه السامي في الشعر الحديث منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى .
 ولعل سبقهم الى ذلك يعود الى ما كانت عليه بيئتهم الاجتماعية المتفتحة من إكبار
 للحرية وإنكار للتعصب . ومن هذا القبيل ما نظمه أبو ماضي مخاطباً قومه (١) :

اتباع أحمد والسيح هوادة ما العهد أن يتنكر الأخوان
 الله رب الشرعتين وربكم فإلي متي في الدين تحتصان
 مها يكن من فارق فكلالكا ينمى الى قحطان أو غسان

ويعد إلياس فرحات بحق فارس هذا الميدان في المهجر غير مدافع . إذ
 أنه من الشعراء القلائل الذين التزموا في شعرهم بالدعوة الى التحرر القومي
 والتسامح الديني . ومما قاله في هذا الصدد مشفقاً على وقوع بلاده في براثن التعصب
 الطائفي (٢) :

يعز علينا أن نرى الشرق هاوياً إلي القمر ما بين ناب ومخلب
 تثير به الأديان هوج عواصف فيركب من أهوالها ثمر مركب
 سلام على قطر الشام بأسره سلام على أهليه من كل مذهب

وقد جعل فرحات دأبه التنديد بتلك الفئة الضالة التي استشرى التعصب
 في نفوسها ، فعنت آباءها العرب وتنكرت لاصولها حتى ارتمت في أحضان فرنسا
 ووجدت فيها أمماً حنوناً (٣) :

قتلتم أباكم وحرلتم إلي نعشه نظراً جاحدا
 وقلتم فرنسة أم حنون فلا بأس أن تقتل الوالدا

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٩١

(٢) ديوانه ١١١ (٣) ديوانه ١٢١

وقلم تحيى بشكى الوصي فتجعل هابطننا صاعدا
ولكنها أوقدت للتصعب بما كان من جمره خامدا

ومن جهة أخرى يمكن القول إن تدخل بعض رجال الدين في شؤون السياسة وتسلمتهم على الحكم بالإضافة الى ما عرفوا به من تزمّت ، كل ذلك كان له أسوأ الأثر في نفوس أحرار الفكر وأولي النزعة القومية المتحررة . ولهذا كانت الحملة عليهم شديدة سواء في الشعر أم في النثر وبخاصة في المهجر حيث امحى التعصب الديني وتسلمته على الحكم ، وفي ذلك يقول شكر الله الجبر (١) :

وطن تدعى المهائم فيه ۱۱ فضل دعوى القلائس الكذابه
إن شعبا قواده رؤساء اللد ين شعب لا شك ناح خرابه

ولهذا وجدنا إلياس فرحات يثير عليهم الحرب العوان بقوله (٢) :

لا يفهمون الدين إلا جبة وعمامة وتنطعما وهراء
ان ينحسر الوطن (اللواء) وأخته وسواهما فالأمر ليس ببلاء
أما إذا نقض الوضوء فنكبة تذرى الجبال وتغمر الأوداء

والواقع أن نار التعصب الطائفي في لبنان بلغت خلال بعض العهود إبان الانتداب حداً خطيراً ضج منه العقلاء واستنكره الكتاب والشعراء ؛ حتى بدا للجميع أن عودة الوثام والتسامح الى النفوس أمينة بعيدة المنال . وهذا نقولاً فياض ينطق بأنبيل الشاعر وأسمى المواطف من بلد استحكمت في أهله الطائفية الذميمة ، فهو يتطلع الى ذلك اليوم المنشود ويناجيه بقوله (٣) :

(١) الروافد ١٨

(٢) جورج صيدح : أدبا وأدباؤنا في المهاجر ٧٠

(٣) رفيف الاقحوان ١٠٣

يا فجر يوم إليه منتهى أملي	ونوره مالىء قلبي ووجداني
غداة يجمع داعي الحب شملكم	على تساييح إنجيل وقرآن
وفي القلوب وفي الآذان قاطبة	صوت المؤذن والناقوس سيان
غداة تمحي حزازات الصدور فلا	يثيرها الدين حربا بين إخوان
ولا يفضل مخلوق لمذهبه	من مسلم ويهودي ونصراني
هذا دمي ان تنادوني وذا قلبي	كلاهما عربي الأصل لبناني

٣

أما الظاهرة السامية التي تجلت في الشعر القومي في هذا المجال فهي أن ظلمات التعصب الذميمة والتفرقة والشقاق كانت تضمحل أو تتوارى إبان الأزمات الوطنية والمحن القومية التي تعصف بالبلاد . وكان اندلاع الثورات القومية في أنحاء الوطن العربي خير ما يبعث على التضامن والاتحاد ويشيع الألفة والوئام . ولعل أبرز ما اتسمت به ثورة ١٩١٩ التي قام بها المصريون ضد الاحتلال الانكليزي ذلك الالتفاف الرائع حول الوطن وحول زعيمه سعد زغلول . فقد صهرت تلك الثورة جميع عناصر الأمة بلهيب الوطنية فحل التسامح محل التعصب وطفى الشعور القومي على النعرات الطائفية وتعانق الصليب والهلال في معركة الكفاح بأسمى معاني الاخاء . وقد تجلّى هذا الشعور الفامر على ألسنة الشعراء الذين انتشوا بهذا المظهر الرائع في وحدة صفوف الأمة ، على نحو ما قاله محمد عبد المطلب آنذاك (١) :

(١) ديوانه ١٠٥

بنينا على آداب عيسى وأحمد	منازل عز دونهما يقع النسر
فحنن على الانجيل والذكرة	يؤيدها الانجيل بالحق والذكر
كلانا على دين به هو مؤمن	ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذامادعت مصر ابنها نهض ابنها	لنجدها سيان مرقس أو عمرو

ويعد أحمد شوقي في رأس من بشر بالتسامح ودعا الى نبذ التعصب والفرقة ، وقد أوتي براءة فائقة في تناول الأمور الدينية في شعره ، وكان حريصاً على كسب ثقة المسلمين والمسيحيين على السواء ، ولذلك زاه كثيراً ما يعزف ألحانه الشعرية على أوتار المحبة والوثام ونبذ التعصب والخصام . وهو في الأبيات التالية يزهي بذلك التضامن الرائع بين الطوائف الدينية في مصر ويقول (١) :

إنما نحن مسلمين وقبطا	أمة وحدت على الاجيال
سبق النيل بالابوة فينا	فهو أصل وآدم الجد تالي
والى الله من مشى بصليب	في يديه ومن مشى بهلال

وزاه يستعذب هذه النعمة في شعره كلما سنحت له فرص القول ، حتى إنه يسمو الى مستوى إنساني رفيع في بعض أبياته ، على نحو ما يتسم به رثاء بطرس غالي الذي كاد اغتياله يودي بوحدة الامة (٢) :

نعلي تعاليم المسيح لأجلهم	ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله	لو شاء ربك وحد الاقواما
هذى قبوركم وتلك قبورنا	متجاورين جماجماً وعظاما

(١) الشوقيات ١ : ٢٢٨

(٢) الشوقيات ٣ : ١٤٤

وهكذا دأب شوقي على التنديد بالتعصب في حضه المصريين على
الوئام ومناشدة مسلميهم وأقباطهم التعايش بسلام على الصعيد القومي .

ولقد ارتبط اسم سعد زغلول بالاتحاد والتضامن والاخاء . وأكثر
من توجه إليه بالقول من الشعراء في حياته أو بعد مماته ألح على هذا الامر ،
وفي ذلك خاطبه علي الجارم في أعقاب ثورته وشعبه على الانكياز بقوله (١) :

ألفت بين العنصرين وكنت للرحمن حزبا
نبذوا الشجار وأبدلوه لمصر إخلاصا وجبا
وسعى الهلال الى الصليب وأقبلا جنبا فجنبا

ومن هذا القبيل ما نظمه محمد الاسمر آنذاك مشيراً الى التفاف الشعب من
جميع عناصره حول هذا الزعيم المصري إذ قال (٢) :

أرى الشعب آلى أن تكون زعيمه وأعطى لك الميثاق دير ومسجد
وأنت الذي لا يعرف الشعب غيره وأنت الذي حياه عيسى وأحمد

ولم يكن اندلاع الثورة في سورية عام ١٩٢٥ مغايراً في تأثيره لما حدث
في مصر من تناس للأحقاد ونبذ للتعصب ، إذ أن حمم المستعمرين فوق
دمشق لم تكن لتمييز بين المسلم والمسيحي ، وقد لقي الجميع من كيد الطفلة
أهوالاً . والحق إن ائتلاف عنصرى الشعب في سورية كان خير عزاء للبلاد في
مخنتها القاسية إبان تلك الثورة لان هذه الظاهرة التي انبثقت قوية لدى الجماهير
آنذاك كانت كسباً كبيراً لدفع الوعي القومى الى الامام وتعميق جذوره

(١) الشوقيات ، ٤ : ٥٥

(١) ديوانه ٢ : ٨٣

في النفوس . وقد أشار الى ذلك خليل مردم في صدد رثائه دمشق
المنكوبة فقال (١) :

بلت دمشق بنها يوم محنتها فلم تجد غير من صحت عقائده
ترى الحنفي يوم الروح مبتدرا الى المسيحي في البلوى يساعده
الحمد لله أني في حمي وطني تحمي كنائسه فيه مساجده

ولم يقتصر هذا التجاوب مع وحدة الطوائف على شعراء دمشق أو سورية
يوماً بل رن صدها لدى كثير من شعراء العرب في مصر والعراق والمهجر .
وقد أشار شوقي في قصيدته النونية التي ناجى فيها دمشق إلى أهمية التقاء عناصر
الشعب على صعيد الثورة الوطنية فقال (٢) :

الملك أن تلاقوا في هوى وطني تفرقت فيه أجناس وأديان

إلا أن معروف الرصافي كان أكثر تفهماً لمعضلة الطائفية في الشام ولهذا
جاءت قصيدته التي نظمها إثر نكبة دمشق بقذائف الفرنسيين رائعة من حيث
روحها القومية ودعوتها الصادقة إلى التسامح والوئام فيما قاله فيها يومذاك (٣) :

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة لسان وأوطان وبالله إيمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة بها قال إنجيل كما قال قرآن
كتابان لم ينزلهما الله ربنا على رسوله إلا يسعد إنسان

(١) ديوان الثورة ١٢٤

(٢) الشوقيات ٢ : ١١٦

(٣) ديوان الثورة ٥٣ ، ديوان الرصافي ١٣١

فمن قام باسم الدين يدعو مفرقا فدعواه في أصل الديانة بهتان
 أنشقى بأمر الدين وهو سعادة إذن فاتباع الدين يا قوم خسران
 نتمكم إلى المجد المؤثل (تغلب) كما قد نتمكم للمكارم (غسان)

والحق إنه بنتيجة التجارب المريرة التي عاناها العرب وبلوا فيها أخطار
 الشقاق والتعصب السياسي والطائفي أخذ يقر في الاذهان أن الصراع مع المحتلين
 لم يكن مجدياً إلا حين تضافرت الجهود وتضافحت القلوب . وقد تجلّى هذا
 الاتجاه أوضح ما يكون في الشعر القومي الذي كان ينطق عن ضمير الامة
 ومشاعرها القومية ؛ فقد راح الشعراء يحضون على الوثائم ويدعون الى
 التسامح ويملئون قضية الوطن والتحرر على كل النعرات والحزازات . وهذا
 عباس محمود العقاد بأسى على ما فيه السوريون من صراع طائفي فيناجهم
 بقوله (١) :

ما في المدامع من شعار كنيسة يوم الحنين ولا شعار هلال
 أمنازعون على السماء وأرضكم نهب لكل منازع وموال
 من بلبك خذوا المثال لرأيكم يوم الخلاف وتلك خير مثال
 فيها لومسى والسيح وأحمد أثر ، وللوثن القديم البالي

بهذه الروح السمحة صدر الشعراء قاطبة وأخذوا يشيرون برسالة المحبة
 والسلام بين عناصر الامة وطوائفها برفق على نحو ما وجدناه لدى أمير الشعراء
 أحمد شوقي أو ما نجد في أبيات خير الدين الزركلي تتصوع من ثناياه نفضة
 إنسانية تذكرنا بروح أبي العلاء في لزومياته (١) :

يُكفر فينا معشر معشراً على الحق، والانسان قد يبصر
دع الناس لا تبغ الذين تهودوا بشر ولا تبغ الذين تنصروا
عجبت لأمر الناس أبناء واحد يفرقهم دين وجنس وعنصر

وقد رأى فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية أن العاطفة القومية تسع
الناس على اختلاف معتقداتهم فقال (١) :

إن العروبة لا يفرق بينها بعد التآلف قبلة أو هيكل
أيناهم ضيم وبين صفوفهم عيسى المخلص والنبي المرسل

كما تجلت هذه الروح السامية التي تتفهم جوهر الاديان بعمق في قول إلياس
قنصل واصماً بالمروق ومخالفة الدين نفسه كل من يفرق باسم الدين (٢) :

ولا الانجيل يأمر بالتقالى ولا القرآن بالبغيضاء أغرى
وعيسى عن تنافرنا تناءى وأحمد من تنازعنا تبرأ

وفي ذلك يقول أيضاً جورج صيدح الشاعر المهجري (٣) :

قل لمن دس في الصفوف شقاقاً بين طه وبين عيسى بن مريم
جحد الدين جاحد الوطن الغا لي سواء مقلنس أو معمم

وقد بشر حسن الحجيري من شعراء فلسطين بوحدة طوائف الامة ودعا
الى إبعاد المعتقدات الدينية عن المجال القومي ، أو بعبارة أدق نادى بانصهار معتققيها
من المذهبيين في بوتقة القومية فقال (٤) :

(٢) ديوانه ٣٧
(٤) ابتسام الضحى ٧١

(١) ديوانه ٢٨٦
(٣) النوافل ١٤٥

وإذا تنادينا لدفع كريمة
سرنا لها وهلالنا وصلينا
ما بيننا عند التنادي مسلم
فالشرق موطننا ونحن حماه
عن مهبط الانجيل والفرقان
في سيد الأعلام يمتقان
كلا وما في جمعنا نصراني
بنفوسنا ، والدين للديان

ومن هنا استنكر كل شاعر قومي بل كل مواطن حر تفاني الشعوب
فيها بينها واتخاذ الدين ذريعة لزيادة الشقاق وبث الاحقاد بين أبناء الوطن الواحد على
نحو ما نرى في قول خليل مردم (١) :

فيم التقاطع والارحام واشجة
الله في قطع أرحام وفصم عرى
قالوا وفي الدين بون ودون وحدتنا
والدار جامعة والملقى أمم
عهدي بها وهي وثقى ليس تنفصم
الى متى باسم هذا الدين تقنسم

٤

وبنتيجة تتبع جوانب وجدان الامة المشترك ورصد مشاعرها الجماعية
يمكن القول تبعاً لاطراد نمو الوعي القومي في النفوس إن حدة الصراع الطائفي
قد خفت وأخذت تسير نحو الثلاثي أمام نور الوعي القومي كما تطرد النار الخبث
من الحديد ، وجر السنين وتعاقب الايام بسط التسامح جناحيه على الامة واشتدت
أواصر الاخاء وازدادت المحبة والالفة . وكان ما فاضت به قرائح الشعراء في هذا
المجال يعبر عن أسمى المشاعر وأبل العواطف . فمن لبنان هذا البلد الصغير الذي
عانى من وطأة أدواء التفرقة والتعصب الطائفي ما لم يعاناه وطن كانت تنطلق

(١) جريدة ألب باه الدمشقية ، السنة الاولى ، العدد ١٧٧

نداءات الحبة والوثام ويتغنى الشعراء بالتسامح والسلام على نحو ما انطلق به نقولا فياض إذ قال (١) :

لي في هوى وطني كتاب خالد يبقى على المكتوب من أيامي
سجلت نصرانيتي في متنه ونشرت فوق سطوره إسلامي
وقال (٢) :

شمس العروبة في لبنان ما غربت يوماً ولا غاب عنها نورها القاني
الطائفية يا رباها مغفرة بلية الشرق هذى منذ أزمان

والجدير بالذكر أن الشاعر ألقى هذه الايات في مهرجان منظمة (الكتائب) وهي ذات طابع طائفي ، ولا تقيم في مبادئها كبير وزن للقومية العربية وهذا دليل على تغلغل الاتجاه القومي العربي الى أبعد مدى محمولا على أجنحة الوثام والسلام . وكذلك نجد شاعراً مسيحياً آخر أمي إلا أن يقتمن فرصة زيارة حافظ إبراهيم لربوع لبنان عام ١٩٢٩ ليحييه تلك التحية القومية الخالصة ، ويعبر من خلال ترحيبه به عن ذلك الفجر الجديد الذي أخذ يلوح في أفق الوطن العربي مبشراً بوحدة طوائفه وتحرره القومي ، وقد آثر لقصيدته عنواناً هو « وحدة إنجيل وقرآن » ، إنه (حلیم دموس) الذي قال (٣) :

دمشق يا جنة الدنيا وبهجتها إليك قلبي وفيه سر إيماني
وما رضيت بأن ألقاك زاهية بشاعر بل تجلى عندك اثنان
(محافظ) و(خليل) من إذا ذكرنا نادى بنو الضاد يا نعم الاميران
هما الشقيقان في أوطاننا وهما عنوان وحدة إنجيل وقرآن

وهذا أيضاً شاعر مسيحي هو اسكندر الخوري اليتيمسالي من الديار المقدسة في فلسطين أرض النبوات ومهد المسيح ومسرى محمد يعلن تمسكه بالعروبة ووحدة عناصر الامة بثقة وطيدة (٤) :

(٢) رفيف الاقحوان ١٣٣

(٤) العنقود ٦٢

(١) رفيف الاقحوان ١٠٣

(٣) الثالث والثاني ٢ : ٣٤٧

لا لن تنال من اتحاد المتين يد الفن
كلا ولن تصدع ما بينها هذى المحن

وذلك وديع البستاني يتغنى منتشياً بما كان من تماسك أهل فلسطين في
الأزمات ويقول (١) :

المسلمون مع النصارى كبروا ومهللون مع النصارى رجبوا
والمهد الاقصى اثنى وتعانقا وانظر فحولك بيت لحم ويثرب

ولعل تحول أحمد شوقي الى الاتجاه الوطني الصرف إثر عودته من منفاه
في الاندلس وهو شاعر الجامعة الاسلامية أبرز مثال على تدفق المشاعر القومية في
نفوس الامة وشعرائها ، وطغيانها على كل زعة أخرى قد تجد من انطلاق العرب
نحو تحررهم المنشود ، فما قاله يومئذ مناجياً وطنه (٢) :

أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فبت الشهادة والتابا
ولو أني دعيت لكنت ديني عليه أقابسل الحتم الحبابا
أو حين قال (٣) :

وجه الكنانة ليس يفضب ربكم أن تجملوه كوجهه معبوداً
فقد غدا الوطن في منزلة أسمى من البيت الحرام عند أمير الشعراء ، كما
غدت عبادة الوطن تضارع عبادة الله .

تم تملك هذا الهوى نفوس الشعراء حتى جعلوا العروبة دينهم والوطن
معبودهم ، وغدا الشاعر القروي أبرز هؤلاء إذ يقول (٤) :

إني على دين العروبة واقف قلبي على سبحاتها ولساني
إنجيلي الحب المقيم لأهلها والذود عن حرمتها فرقاني

(٢) الشوقيات ١ : ٦٨

(٤) ديوانه ٤٢١

(١) الفلسطينيات ١٨٦

(٣) الشوقيات ١ : ١٣١

وما كان أحلى قوله في التعبير عن هذه المنازع السامية حين نظم قصيدته
تجيداً لذكرى مولد محمد الرسول العربي وقال (١) :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر يتيه بآيات النبي العظيم
هبوني عيداً يجعل العرب أمة وسيروا بجثمانى على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعمه بجهم

وعلى هذا المنوال من اعتناق العقيدة الوطنية واتخاذها ديناً نسج سائر
الشعراء قصائدهم فقال إلياس فرحات (٢) :

أنا العربي خلقاً وانتساباً وإن أك لست بالعربي ديناً
ولوأوصى بكره العرب دين لكنت إماماً للملحدينا

حتى ان إلياس فنصل الذي أسمى ديوانه « على مذبح الوطنية » أثر أن
يفتحه بقوله :

إذا كان ديني عن تحرر موطني يعين فقد طلقت ديني وإيماني

وسرت هذه الروح السمحة التي بلغت لدى طائفة من شعراء المهجر أوج
سموها الى سائر الشعر الحديث وأصبحت تشكل ظاهرة بارزة من ظواهره ، وقد
زُهي بدوي الجبل بالدين الجديد الذي يجمع شمل المسلمين والمسيحيين على الصعيد
القومي فراح يدين به ويردد (٣) :

تنبه هذا الشرق حتى تصافحت قلانسهم محمودة والمعائم
ندين بدين الحب شيئاً وفتية وأنف الذي يهوى التفرق راغم
لقد ألفت ما بين عيسى وأحمد مغنم نلقاها معاً ومغارم

كما يقول بلهفة المتصوفة :

(٢) ديوانه ١٧١

(١) ديوانه ٣١٥

(٣) ديوانه ١٣٢

الدين دين الحب فهو عقيدتي ولو انه في الشرق قل دعاته
بيت العروبة قلبي ومحجتي لا(طوره) قصدى ولا(عرفاته)

وإذا كان كثير من الشعراء العرب مسلمين ومسيحيين قد آثروا البعد عن كل ما يشير الى المسيحية أو الاسلام إلا في معرض سلمي في غالب الاحيان ، فإن شاعراً مسيحياً كرشيد الخوري ذهب الى أبعد من ذلك وكأنه يضمن بسترته الاسلام أن يهدر في المجال القومي لمجرد تهذئة الخواطر وبجامله ذوي الحساسية المفرطة والنفوس المعقدة :

عش للعروبة هاتفاً بحياتها ودوامها
انظر الي آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت مع ظمه الى إسلامها

ويقول :

أنا العروبة لي في كل مملكة إنجيل حب ولى قرآن إنعام
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبي مثل الأعلى وإسلامي

فالشاعر يرى في الاسلام خير ذخير للعرب ولقوميتهم على اختلاف مللهم ونحلهم . وما من ريب في أن كثيرين من الشعراء لم يبلغوا هذا الشأوا في فهم العلاقة بين العروبة والاسلام فلم يكن بوسعهم دائماً التمييز بين الاسلام من حيث أنه دين من الاديان أو أنه تراث قومي للعرب أجمعين .

وهكذا رسخت العقيدة القومية في النفوس وناقست في منزلتها العقيدة الدينية بل طغت عليها وغشتها برداء التسامح والاخاء .

ومن الملاحظ أخيراً أن شعراء المهجر - كما انضخ لنا من أشعار صيدح والقروي وفرحات وأبي ماضي وقتصل والشرقوني وسواهم - قد أولوا عناية بالغة موضوع التضامن والوئام بين عناصر الامة العربية ، وهذا أمر طبيعي نتوقه من شعراء يمكن اعتبارهم أدري الناس بأخطار التعصب الطائفي الذميمة الذي عانوا منه الالهوال في وطنهم قبل رحيلهم عنه الى العالم الجديد ، بل كانوا هم أنفسهم من

ضحايه ، وفي مقدمة العوامل التي دفعت بهم الى الهجرة ، وثمة سبب آخر لا يمكن إنكاره وهو أن بروز هذا الاتجاه في أدب المهجرين شعره وثره كان في الواقع نتيجة تأثرهم بتحرر الفكر الغربي الحديث وما وجدوه في بيئتهم الجديدة من احترام للعقائد الفردية وشيوع التسامح الديني في المجتمعات الغربية وعلمانية الدول الحديثة .

ومن جهة أخرى فإن شعراء لبنان الذين عاشوا في حمأة الاحداث كانوا أسبق من بشروا بالتسامح الطائفي على نطاق واسع . وإن انبثاق مثل تلك الاشعار التي مرت بنا عن شعراء مسيحيين بالدرجة الاولى ، مفعمة بالنفحات النبيلة الصادقة لما يبعث على الفخار في حياة العرب الحديثة . ويتضمن من جهة أخرى مغزى هاماً ودلالة كبرى على إشراق النفس العربية وتحررها من بهايا التعصب والهوى .

لقد كان الشعر العربي الحديث - بصورة عامة - عامل خير ووثام ورائداً للعرب في نزوعهم الاصيل الى التسامح والتضامن والسلام .

الفصل الخامس

البطولة والفداء

ليس شعر البطولة والفداء بالعرض المستحدث في أدبنا الحديث ، فهو من أعرق الموضوعات التي عرفها الأدب العربي وسائر الآداب الأخرى ، كما كان محور شعر الملاحم في العصور الغابرة . ولم يكن شعر الحماسة عند العرب في أروع آياته سوى شعر البطولة والفداء والتضحية والاقدام مستوحاة من صميم حياتهم وواقع مجتمعيهم . ولعل أبرز ما قيل في هذا الموضوع صدر أول الأمر عن عدد من الشعراء الجاهليين ثم تجلّى بأسمى معانيه على ألسنة شعراء الخوارج .

وقد ورث العرب اليوم عن أجدادهم حب البطولة وتقديس التضحية وراح شعراؤهم يتغنّون بأعمال البسالة والاقدام التي أكبروها في معاصريهم وفي أجدادهم على السواء .

وإذا كان الجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال شاعرنا العربي ، فمن الطبيعي أن يهز سقوط الشهداء في ساحات الجهاد وجدان الأمة وبلهب قرائح شعرائها . ومن هنا لم يكذب مخلو ديوان شعر أو مجموعة شعرية خلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث من قصائد تمجد بطولات الشهداء وتخلد مواقفهم الرائعة .

وتبعاً لارتباط الأدب المتزايد بواقع الأمة العربية فإن جانباً كبيراً من شعر الرثاء أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في الشعر الحديث . ولعل أكبر حدث قدمت فيه الضحايا على مذبح القومية منذ قامت الحرب العالمية الأولى كان إعدام جمال باشا التركي على إعدام عدد كبير من أحرار الشام في ساحات دمشق وبيروت فقد تركت تلك المجزرة الأليمة جرحاً بليغاً في نفوس العرب ظل يدمي على كر السنين ويهيج قرائح الشعراء حتى يومنا هذا ، ففي تلك القصائد امتزجت صيحات الثأر والثورة بدموع الحزن والأسى .

وقد احتفظ لنا رجال الرعيد الأول ومؤرخو الثورة العربية بشذور قليلة من الشعر الجماسي الذي نظمه أو تمثل به أولئك الشهداء في لحظاتهم الأخيرة ، من ذلك ما تمثل به (باترو باولي) وهو يعتلي منصة الإعدام :

ومن لم يمت بالسيف مات (بحيلة) تنوعت الأسباب والموت واحد

وفي الطريق من سجن (عالية) حين سيق الأحرار الى ساحة الإعدام كان الشهداء يرددون هذين البيتين من سيارتهم المقفلة (٢) :

نحن أبناء الألى شادوا مجدداً وعلا
نسل حيطان الأبي جد كل العرب

كما رددوهما أيضاً امام أعواد الموت بصوت جماعي (٣) ، والمرجح أنها يشكلان المطلع أو اللازمة من أنشودة حماسية قدر لها أن تصحب المجاهدين حتى لحظاتهم الأخيرة . وقد ذكر مؤرخ الثورة العربية أمين سعيد أن الشاعر عمر

(١) أمين سعيد الثورة العربية الكبرى ١ : ٨٧

(٢) المصدر السابق ١ : ٨٦

(٣) الدكتور أحمد قنبري : مذاكراتي عن الثورة العربية ٥٥

حمد كتب على الطاولة قبل خروجه من دائرة البوليس ثلاثة أبيات حماسية من الشعر جعل يرددها وهو صاعد الى المشنقة (١)؛ وما يؤسف له أن المؤرخ لم يذكر لنا تلك الأبيات .

ولكن هل نجد من الشعر العربي في تلك الفترة ما يتناسب مع هول هذا الحدث الكبير ويشفي الغليل؟ الواقع أنه من الصعب كما يقول الأستاذ أنيس المقدسي (٢) « أن يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الملح والنفمة ، وما نحن نعيد ذكرى تلك الأيام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط والرهبة ، شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن أحد يجسر على التكلم أو البحث في الشؤون السياسية وإظهار الأسف على شهداء العربية . ومن الطبيعي أن يظل الشعر في هذه الفترة حبيساً في النفوس وأن يطأطئ الناس هاماتهم تحت سيف الارهاب المصلت وقوانين الحرب الصارمة ، وأن يلجم الشعراء ألسنتهم على مضض وهم يتميزون من الغيظ . وعلى هذا فان علينا أن نلتمس ما قيل في شهداء العرب من تخليد لذكراهم وتمجيد لبطولتهم بعد أن انجابت الكربة عن الوطن العربي وداعت نساءم الحرية وجوه الأحرار . وبعد أن استؤصلت شأفة الترك من البلاد .

وتعد القصيدة المطولة « النأحة » التي نظمها شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي في شهداء أيار وتفجع فيها عليهم من أهم ما يسجل مواقف الشهداء الرائعة ويصور بطولتهم الفذة وهم يعتلون أعواد المشانق (٣) :

دنوا فرقوها واحداً بعدواحد وقالوا وجيزاً ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذر ومستعجل كيلا يقال كسول

وقد أشار الزهاوي في قصيدته هذه التي عرفت بمعلقة الشهداء الى

(١) الثورة العربية الكبرى ٨٨
(٢) الاتجاهات الأدبية ١ : ١٠٨
(٣) انظر القصيدة كاملة في رقائق بطي : الادب العصري في العراق ١٨ ، والشهداء المشار إليهم عبد الغني العريسي وعارف الشهابي وعبدالكريم الخليل .

كثير من أولئك الشهداء بأسمائهم وأشاد برابطة جأشهم تجاه الموت الزؤام فقال :

وهل (للعريسي) الجريء و(عارف) إذا عد أقطاب اليراع عديل
(وعبدالكريم) الندب ماضع رشده إذ الدهر يسقيه الردي ويفول
تمثل فوق العود قبل وفاته بيت يؤسي الشعب وهو يقول
« إذا مات منا سيد قام سيد قؤول بما قال الكرام فمول »

أما الشاعر المهجري أبو الفضل الوليد فقد عمد بأسلوبه الحماسي وألفاظه
الجزلة الى تخليد ذلك الموقف في قصائده دون أن تبدو منه بادرة ضعف أمام القدر
أو استسلام للدموع ، فهو يناجي أرواح أولئك الشهداء بقوله (١) ،

مشيتم باسليين الي النسايا وكان لكم على النطع ابتسام
ليحيي العرب قد حجتهم وتم فصيحتكم لخطتكم دوام
على أعواد مرقية رفعت منارات بهاسهدي الأنام
ورب ضحية أحييت شعوباً فكان لها انعتاق واقتحام

وقد تناول شاعر دمشق خليل مردم بك موضوع شهداء أيار في جملة من
تناولوه من الشعراء وحرص على إبراز معنى تضحياتهم وأثرها في نشيد صرح الحرية في
بلادهم فقال (٢) :

وطني ، تقدس في الوري استقلاله شهداؤنا ودمائهم قربانه
فتعطرت بنفوسهم أجواؤه وتخصبت بنجيعهم قيعانه
ولقد عجبت لمن يحاول هدمه وعلى الجماجم وطدت أركانه

وعلى هذا المنوال كان سائر الشعراء ينسجون قصائدهم من نحو قول شاعر
العراق محمد رضا الشبيبي مناجياً أولئك الضحايا (٣) :

(٢) ديوانه ١١٨

(١) الاغاس الملهبة ٧٢

(٣) ديوانه ١٨٣

قالوا تكون فداءم أوطانهم فتجاوبوا كلا نكون فداءها
إن الضائر والقلوب إذا دجت دخل الأسي أعماقها فأضاءها

وفيا نظمه خير الدين الزركلي وإبراهيم طوقان ومصطفى الغلاييني وشفيق
جبري وعمر يحيى وحليم دموس ومحمد العدناني ونصرة سعيد وعشرات الشعراء
سواهم خير مثل على ما قدمه الشهداء الاوّل الى أدبنا الحديث من أسمى معاني البطولة
وأروع آيات الفداء مما كان خير زاد قومي للجبل العربي الصاعد .

ولعل أول ما يبدو للباحث من خلال هذه المقطوعات أن هذا الحدث الذي
شهدته ساحات دمشق وبيروت في ذلك اليوم الرهيب لم يكن حدثاً محلياً انحصر
صداه في هذين البلدين فحسب بل كان مصاب العرب قاطبة آثار قرائح الشعراء
إثارة حادة فتناوله - كما تبين لنا آنفاً - من في العراق ومن في الشام واهتز له من
كان في مهجره القصي . والظاهرة الأخرى التي تتجلى أمامنا من خلال هذا
الشعر وما يمثله في موضوعه أن أكثر من رثوا هذه القافلة من شهداء العرب
حرصوا على إبراز عظم التضحية التي قدموها ، وروعة البطولة التي تحلوا بها ، فلم
تكن قصائدهم مرثي دامة ، ولم تجد نغمات اليأس إليها سيلاً ، وربما كان
مرد ذلك الى أن أكثر ما قيل في هذا الشأن لم ينظم في إبان المجزرة الرهيبة وإنما
صدر بعد حين - كما سبق لنا القول - ولذلك لم تمل في تلك القصائد رنة
الحزن ولم تبلل قوافيها بدموع التفجع بقدر ما دوت صيحة اليأس وصرخة الثأر .
والحق إن اندلاع الثورة العربية الكبرى بعد تعليق أولئك الأحرار على الأعواد
بنحو شهر واحد ، وما طفحت به قصائد الشعراء آنئذ من روح التمرد والاباء
يعد دليلاً ساطعاً على ما بلغتته نفسية المجتمع العربي يومئذ من نعمة على الاستبداد والظلمين .

وما شهداء أيار الذين توجوا سفر البطولة والفداء بدمائهم الزكية وأرواحهم
الطاهرة إلا طليعة القرايين المقدسة فوق أديم هذا الوطن . إذ ما كاد المستعمر
الاجنبي يطأ سائر ارض العرب حتى أخذ الأحرار يتساقطون صرعى أمام

قوات البغي . وكانت معركة ميسلون واستبسال حاميتها مع قائدهم حتى الرمق
 الاخير مثلاً أعلى للبطولة خلد أصحابها في سفر نضال الشعوب وجعل منهم مناراً
 للنفوس المتحفزة نحو التحرر . وإن ما قيل من شعر في بطل ميسلون وصحبه
 كان شعراً متمرداً تعبق قوافيه برائحة الكفاح وتهب من ثناياه نفحات البسالة
 والاقدام . وكم حفز ذلك اليوم من عزائم وخلف من شجون وأثار من
 قرائح . لقد اهتز الياس فرحات لنبأ تلك البطولات فراح يشد (١) :

كأن الحق أسكرهم فثاروا وساروا بالعصي يقاتلونا
 كأنهم راوا في الفر عاراً فكروا بلنية يحموننا
 رأوا في ميسلون الموت مجدداً فماتوا دونها مستبسلينا

أما (يوسف العظمة) وزير الحرية السورية وقائد المدافعين عن دمشق
 ضد جحافل (غورو) الفرنسية فقد غدا في نظر الشعراء وسائر الناس بطيلاً
 خالداً فتحت له القلوب وانطلقت بتمجيده الحناجر ، فهو أول سد أقيم في وجه
 الاستعمار ، كما أنه رائد الشهداء في ساحة الجهاد . وما أكثر تلك القصائد التي
 تصور وقفته الملحمية الخالدة من مثل قصيدة أمير الشعراء شوقي التي يناجي
 فيها « بطل ميسلون » بقوله (٢) :

شهيد الحق في تبج الصحارى تخاف العاصفات له ذبالا
 مقيم ما أقامت ميسلون يذكر مصرع الاسد الشبالا
 مشى ومشت فيالق من فرنسا تجر مطارف الظفر اختيالاً
 فكفن بالصوارم والموالي وغيب حيث جال وحيث صالا

(١) ديوانه ١٧١

(٢) الشوقيات ٣ : ٢٢٧

كما أشار خليل مردم بك الى أن ذلك القائد كان فاتحة شهداء سورية ضد الاحتلال فقال يناجيه (١) :

أيوسف والضحايا اليوم أكثر لهنك كنت أول من بداها
غضبت لامة منها معد فأرضيت العروبة والالها

ومما يشير الى المدى الذي أثاره استشهاد بطل ميسلون في قرائح الشعراء أن أبا الفضل الوليد وهو في مهجره القضي صعق بالنبا فور سماعه بالفاجعة، فانكب على نظم قصيدته المطولة التي أسماها « الشهادية » في جلسة واحدة لم يدع خلالها القلم من يده إلا بعد أن أنجزها وكانت قد بلغت ١٦٨ بيتاً (٢) ومما قاله فيها (٣) :

هوى القائد الاعلى في العرب الذي حكى أنجد القواد بل كان أمهرا
وما بسقت حرية وتأصلت بغير الذي يجري من القلب مهذرا
تمنت مع فتیان قومي شهادتي ولكنني أهوى الحياة لأنأارا

وهكذا غدا شهيد ميسلون موضوعاً بطولياً سامياً نسج حوله الشعراء هالة ملحمية من آيات التضحية والفداء والخلود .

٢

ولم ينجل غبار الثورات القومية المتعددة في الشرق العربي الا عن أشلاء الضحايا الممزقة وجثث الشهداء البعثرة في مصر والعراق وسورية وفلسطين وفي كل شبر من الوطن العربي . وقد تجلى ذلك في أروع الشعر وأصدقته . من ذلك ما نظمته محمد مهدي الجواهري في إحدى البطولات التي تكشفت عنها الثورة العراقية الاولى التي شبت ضد الانكليز عام ١٩٢٠ اذ قال (٤) :

-
- (١) ديوانه ١٣١
(٢) روى هذا الخبر الدكتور إسحق موسى الحسيني عن أسعد طعمة أحد أقارب الشاعر
(٣) نفحات الصور ١٢٢
(٤) ديوانه ٣ : ٢١٦

كَمْ مَشَى بَيْنَ الكِبَاةِ وَحَوْلِهِ نُجُومٌ بَلِيلٌ مِنْ عَجَاجِ طَوَالِعِ
 هُمْ اسْتَلَمُوا اللُّهُوتَ وَالْمَوْتَ جَازِفِ وَهُمْ عَرَضُوا لِّلسَيْفِ وَالسَيْفِ قَاطِعِ

كما وصف محمد جواد العماري بطولة نفر من العراقيين إبان تلك الثورة الدامية في موقعة (الرميثة) حيث أبادوا فيلقاً انكليزياً بعد أن أحكموا محاصرته (١):

وتألفت حول الرميثة فتية مثل البذور يزينهم إبراق
 خاضوا المعارك ثأرين وما بهم إلا الجسور إلى الردى سباق
 فتلاءت في الرافدين رماحهم حتى استقل وبنده خفاق

وربما كان موضوع أبطال الثورة السورية وشهدائها من أهم الموضوعات التي حظيت بعناية الشعراء سواء ما كان منهم في الشام نفسها أو في سائر أقطار العرب. وما «ديوان الثورة» الذي ضم كثيراً من هذه القصائد إلا جزء يسير مما قيل في هذا الصدد، فقد تكشف الثورة السورية عام ١٩٢٥ عن بطولات فذة أذهلت الأعداء وكانت خير وقود للشعور القومي النازع نحو التحرر. ومما انتزع الإعجاب آنذاك تصدي سلطان الأطرش وجماعته من الدروز لمصفحات الفرنسيين بوثة جريئة شلت حركتها، وكان ذلك في وقعة (ميشو) المظفرة التي تفتى بها الشعراء. وقد صور إلياس قنصل في مهجره وثبة سلطان العبقريه بقوله (٢):

وأرعد تنك الغاصبين مهدداً فما زدت إلا جرأة حين أرعدا
 وقابلته والنار فيه مكافحاً إلى أن غدا سبط الحديد مجمدا

وتناول الشاعر القروي الموقف البطولي الذي وصفه قنصل فاستطاع أن يسمو به إلى جو ملحمي رائع ارتسمت حوله هالة من البطولة الخارقة لم يستوح روعتها من خياله وإنما أمدته بها الواقع ذاته فراح يخلد موقف «فتى الهيجاء» في

(٢) السهام ٥٧

(١) الادب العماري ٣٨

معركة (ميشو) بوصف رائع يذكر بقصائد المتنبي في معارك سيف
الدولة (١) :

خففت لنجدة العاني سريعاً	غضوباً لو رآك الليث ريباً
ألم يلبس عداك التنك درعاً	فسلمهم هل وقى لهم ضلوعاً
أغرّت عليه تلقى النار برداً	ويرميها الذي يرمي هالوعاً
فطاشت عنك جازعة ولولم	تهش لها لحاولت الرجوعاً
ولما صرت من مهج الاعادي	بجيث تذيقها السم النقيعاً
وثبت الى سنام التنك وثباً	عجيباً علم النسر الوقوعاً
فخروا فوق ظهر التنك صرعى	وخر التنك تحتهم صريعاً

ثم تعددت الوقعات وتساقط معها الشهداء وكان مصرع كل شهيد حافزاً
على قول أصدق الشعر وأشدّه حماسة . وحين سقط (فؤاد سليم) شهيداً في
يوم (مجدل شمس) إبان ثورة السوريين على فرنسا أيضاً ، رثاه عدد من الشعراء
بينهم خير الدين الزركلي إذ قال (٢) :

آليت ميتة حـر	وقد تحمل بـندك
قضيت حق العوالي	وأنت تقتاد جـندك
عملت للمجد حتى	أدركت بالموت مجدك

كما أشاد ببسالته شاعر العراق عبد المحسن الكاظمي في قوله (٣) :

مشى الى الموت لا يبالي	رأى صبا أم رأى سموما
جاهد دون الاوطان حتى	أصبح شلوأ بها حطيا

(٢) ديوان الثورة ٦٧

(١) ديوان الثورة ٨١

(٣) ديوان الثورة ٥٦

ومن آيات البطولة التي انبثقت من صميم الجماهير في سورية من خلل جمرات تلك الثورة رجل لم يعرفه الناس إلا باستشهاده وهو (حسن الخراط) الذي ضرب لقومه مثلاً خالداً في الاقدام ، وقد خصه شاعر دمشق محمد البرزم بمطولة قال فيها (١):

يا مؤثر الموت في إنقاذ موطنه ركبت صعباً فلا لاقيت خذلانا
سيرت ذكرك في الآفاق تحمله جوانب الجو أفرحاً وأحزاناً
وليس عندك من مال ولا عدد إلا العزائم قد مثلن إيماناً

وكان استشهاد أحمد مريود باعثاً على نظم قصائد كثيرة نسجت من واقع ملحمة ، إذ أنه حين بوغت بالجند من حوله وقد احتفى في أحد بيوت القرية (٢) من جبل الدروز العربي أنى أهلها أن يسلموه ، فما كان من جيش الاحتلال إلا أن هدد القرية كلها بالتدمير فوق أهلها ، وحينئذ لم يجد الأسد بداً من أن يخرج من عرينه مع نفر ضئيل ليلقوا وجه ربهم . ومن عجب أن الفرنسيين ازدهاهم هذا النصر فجعلوا يعرضون جثة الشهيد في دمشق ليرهبوا أهلها . وفي ذلك يقول خير الدين الزركلي (٣) :

أقبلوا يحملون أحمد وضاح الحميا مخرج السربال
شهد الله أنهم حملوا موئلاً مستصرخ وليث صيال

ثم يشير الى خروجه للافاقة الفرنسيين :

شق جنح الظلام يمضي إليهم رابط الجأش مشية الرئبال
قائلاً للحياة غيري غريمي قائلاً للنعم غيري وال

ومن هذا القبيل ما نجده لعمر يحيى في شهيد (حماء) صالح قنباز كما نجد لمحمد الفراتي وبدر الدين الحامد وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة قصائد مماثلة

(٢) إحدى قرى الدروز في جبل العرب

(١) ديوان الثورة ٣٠

(٣) ديوان الثورة ٨٥

في كثير من الشهداء الذين ضربوا أمثلة البسالة والتضحية في دمشق وحلب
وحماة ودير الزور ونذروا أنفسهم لطرد الغزاة . وبهذه البطولات التي قام بها
السوريون إبان ثورتهم والضحايا الغالية التي قدموها على مذبح الوطنية أشاد شوقي
أمير الشعراء في قصيدته الرائعة إذ قال (١) :

دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق
جرى في أرضها فيه حياة	كنهل الماء وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتجيا	وزالوا دون قومهم ليبقوا
واللاوطان في دم كل حر	يد سلفت ودين مستحق

وما زالت أبيات شوقي التي تصور آيات التضحية والبطولة في مقاومة
المستعمرين على لسان كل سوري وفي طليعة الشعر القومي الحديث .

أما فلسطين مهد عيسى ومسرى محمد ومبعث سائر النبوات فقد كانت أرضها
الطاهرة موئل الجهاد الدائب والعراع الدامي . وكما سقط في أتون معاركها من
شهداء ، ونبت في ترابها المقدس من بطولات . من ذلك ما شهدته تلك الديار
في احد ايام حزيران (يونيو) ١٩٣٠ الذي كان يوماً أغر في سفر التضحية
والفداء ، إذ صدر حكم الاعدام على ثلاثة من احرار فلسطين على اثر
ثورة ١٩٢٩ « فكان التكبير على المآذن وقرع النواقيس في الكنائس يتجاوب
صداهما في ارجاء فلسطين قاطبة . إذ في ذلك النهار نفذ حكم الاعدام بالشهداء
الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية ، وكان من المقرر رسمياً ان يكون الشهيد
(عطا الزير) ثانيهم ولكن (جججوماً) حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور
حتى فاز بيفيته .. وهنا يأخذ الشاعر ابراهيم طوقان ريشته ليصور هذا اليوم
المخضب بالدماء اروع تصوير وليسجل في شعره الوطني الخالد مصارع اولئك الشهداء ،
فتكون قصيدة (الثلاثة المحرأ) التي القاها في حفل حاشد ، فذهل عن الجمهور ،

(١) الشوقيات ٢ : ٨٨

وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه فكان يلقي بروحه واعصابه ، وما انتهى حتى كان بكاء الناس يعلو نسيجه» (١) . وقد انطق الشاعر عن طريق الرمز الساعات الثلاث الرهيبة التي نفذ خلالها اعدام الابطال المتتابعين ، فكان مما قالته الساعة الاولى (٢) :

انا ساعة النفس الالية ، الفضل لي بالاسبقية
اودعت في مهب الشبية نفحة الروح الوفية
لا بد من يوم لهم ، يسقي العدا كأس المنية
عاشت نفوس في سيل بلادها ذهبت ضحية

اما الساعة الثانية ساعة اعدام محمد حججوم فقد قالت :

أنا ساعة الرجل العتيد ، أنا ساعة البأس الشديد
بطلي يحطم قيده رمزاً لتحطيم القيود
زاحت من قبلي لأسبقها الى شرف الخلود
وقدحت في مهب الشباب شرارة العزم الوطيد

وأما الساعة الثالثة فقد قالت عن بطلها :

أنا ساعة الرجل الصبور ، أنا ساعة القلب الكبير
رمز الثبات الى النهاية في الخطير من الامور
بطلي أشد على لقاء الموت من صم الصخور
جدلان يرتقب الردى فاعجب لموت في سرور

لم تكن قصيدة « الثلاثة الحمراء » هذه سوى اثر رائع احكم طوقان تخطيطه فجعله في مقدمة وثلاث مراحل ثم خاتمة . إنها من الشعر القصصي الملحمي ، عمد فيها الشاعر الى نوع من الرمز الجلي الموحى ، وهي لم تكن قصيدة

(١) انظر مقدمة الديوان بقلم فدوى طوقان ، شقيقة الشاعر ، ص ٢١

رثاء وبكاء ، وتفجع ونواح كعبدنا بمألوف الشعر في هذه المناسبات في كثير من الشعر التقليدي ، فالساعات الثلاث رمز الحمية ، اودعت في مهج الشباب نفحة الروح الوفية وجزمت بأنه لا بد من يوم يسقي العدا المنية . وفي القصيدة نلس روح البأس وزى البطل يحطم القيد ، ويلهب في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد ، ونجده تجاه الموت اشد من صم الصخور يستقبله في جذل وسرور . وهكذا كانت الثلاثاء الحمراء صيحة البطولة المدوية وصرخة الحق المبين وصوت الاحرار الخالد.

ثم يسقط سعيد العاص في تلك الارض الطاهرة ، ويفدوا استشاده وقوداً جديداً للعزمت والقرايح في مختلف ديار العرب فاذا هي آية أخرى من آيات البطولة في فلسطين عبر عنها عمر أبو ريشة بقوله (١) :

يا دماء النور تجري سخاء بفرام البطولة الفضاح
أي برد خلعتيه احمر اللون على كاهل الجهاد الصراح
وكأنني اراك في زحمة الهول على سرج ضامر طواح
واخوك الجسور في القمم السودمطل على الروابي الفساح
لوحث كفه بمنديله الأحمر شوقاً الى اللقاء التاح
فحسبت الأجيال تهتف يا(خالد)جاهد في فيلق الجراح

كما يهتز احمد محرم من ضفاف النيل لمصرع هذا البطل فيقول فيه (٢) :

نظم المجد لابطال الحمى	ونظمت الشعر ناراً ودما
بطل ابصرت مجرى دمه	في جبين الشرق لما وجما
صخرة صماء تحمي صخرة	علمتها كيف تشفي الصما

ولم يكن شعراء الشرق العربي بمعزل عن نضال اخوانهم في المغرب

(١) ديوانه ١٩٩

(٢) الدكتور محمد حسين : الأتجاهات الوطنية ٢ : ١٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

الذي كان يقاوم شر انواع الاستعمار بضرارة ؛ وحين وقع عبدالكريم الريني في قبضة الغزاة وكان ممن ملأوا الاسماع ببساتنه ، ناجاه محمد الفراتي بقوله (١) :

ان يأسروك فانهم لم يأسروا الا الهزير الاغلب المرهوبا
 ما كنت أول نائر متظلم بالعسف قيد مكبلاً محروبا
 لاتأس فالتاريخ يحلف جاهداً بالله انك لم تكن مغلوبا

ويقع عمر المختار في قبضة الطليان الفاشيين وكان شيخ السنوسيين ورأس المجاهدين في طرابلس الغرب ، فلم يكن من اعدائه التمدنين الا ان بادروا الى شتقه بعد تعذيب مرير ، وقد هز مصرعه القاصي والداني وهاج الشعراء في كل مكان ، وكانت قصيدة احمد شوقي فيه درة تلك القصائد ، فهو لم يذرف الدموع عليه ، وانما وجد فيه مثلاً اعلى للبطولة ومناراً هادياً للشعوب (٢) :

ركز وارفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء
 يا ويحهم نصبوا مناراً من دم يوحى الى جيل الغد البغضاء
 جرح يصيح على المدى وضحية تلهس الحرية الحمراء
 بطل البداوة لم يكن يفرز على (تنك) ولم يك يركب الأجواء
 لكن اخو خيل حمى صهواتها وادار من اعرافها الهيجاء

ومصر التي كانت تغلي كالبركان تثور حيناً وتهبداً حيناً آخر اتفقت عام ١٩٣٥ في جملة انتفاضاتها وسقط بعض ابنائها شهداء برصاصات زبانية الطغيان ، وقد لقي محمد عبدالكريم الجراحي وجه ربه فاذا هو رمز التضحية والفداء في نظر الشعب . وتهتم جماعة (ابوللو) من الشعراء بهذا الحدث فتقيم

(٢) الشوقيات ٣ : ٧١

(١) ديوانه ١٥١

لذكره احتفالاً تجلت فيه أصدق المشاعر عبرت عنها قصيدة « الشاعر الشهيد »
لحسن كامل الصيرفي (١) ، وأخرى لابراهيم ناجي وغيرهما لسائر الشعراء
وكان ذلك منهم التفاتة قومية قل أن حفل بها بعضهم بعد أن طغى عليهم تيار
الرومانسية وغلبهم شعر الوجدان الذاتي .

وهكذا كانت روح المقاومة قد استثمرت في نفوس العرب وأخذت
تفجر الثورات العاتية ضد المستعمر من كل فج ، فقد انتشرت عصاباتهم في
الجبال يبعثون الرعب في فرائض المستعمرين وينقضون عليهم كالموت من فوق
الاشجار ومن تحت الاحجار حتى حرّموا النوم وأشربوهم الفصص ، وما
كان الجبل يسكت الا ليتحرك السهل وتثور المدينة ويهدر المتظاهرون ويمم
الاضراب ، فيسقط الضحايا بالعشرات مع مغرب كل شمس ، وتتخضب أرض الوطن
بدماء الشهداء ، إنه ثمن الحرية .

٣

على أن شعر البطولة والفداء لم يكن يبقى دائماً في نطاق شهيد بعينه ،
أو بطولة فرد في ذاته ، فهناك قصائد كثيرة كان ينزع فيها أصحابها الى التعميم ،
كان يبرزوا ملامح الاقدام وعناصر التضحية في جملة الشهداء المهولين الذين
سقطوا في فلسطين أو سورية أو مصر أو العراق أو المغرب أو في شهداء العرب
كافة ، وطبيعي أن تغلب على هذا النمط من القصائد الروح القومية المتمردة
وأن تخفت فيها رنة البكاء والاسى ، لان الشاعر ينجح فيها بصورة عامة للتعبير عن
عواطف الجماعة قبل عواطفه أو عن عاطفته من خلال عواطف مجتمعه ، وعلى
هذا الصعيد الشامل يصور أجد الطرابلسي بأس قومه وصمودهم كالطود تجاه

(١) انظر ديوانه ، الشروق ٩٢

جور الفرنسيين أثناء الاضراب الحسيني في سورية (١) :

كل يسير الى الامام مشمرا	وقد استعد لأن يعود شهيدا
وعتاده قطع الصفا لکن في	إيمانه ما يصدع الجلودا
وفؤاده بين الأضالع شعلة	حرى تشع عزبة ووقودا
شهداء مثل الزهر في أكامه	كانوا على ظلم القوي شهودا
سقطوا أمام بيوتهم وسط الحمى	صرعى فاحفلوا لظى وحديدا

فمع أن المناسبة خاصة في حدود الزمان والمكان استطاع الشاعر أن يرتفع بها الى هذا الصعيد الحماسي السامي ويتخذ منها منطلقا الى تجسيد البطولة الفذة التي انبعثت من نفوس اوائك الابطال المحبولين . وثمة أبيات رائعة لشفيق جبري يصور فيها دور الشهداء وأثر تضحياتهم في بناء مجد الأمة فيقول (٢) :

وطن كأن به على أشلائه	درأ على تاج الحمى منعبودا
القى الى سود المنايا ربه	فتقحموا فيه المنايا السودا
ملأت مهادهم الربوع مكارما	واليوم قد ملأوا العراء لحدودا
صحف بأحر قانيء مكتوبة	ضمن الزمان لأهلها التحليدا
عظلة الشعوب على ظلال لحدودهم	درجت مع الصبح المبين عمودا
ذكرى الدفين وإن تقادم عهده	تحيى الدفين وتبعث الموءودا

فمن المسير ان تعرف شيئا من خلال هذه القصيدة عن ظروف نظمها ومناسبتها إن لم يقدم لنا الشاعر نفسه ذلك . ومن الطبيعي أن ترجع بواعث نظم هذه الأبيات الى مناسبة خاصة واحداث محددة ولكن الشاعر استطاع ان يسمو الى آفاق ابعد واجواء أرحب حين جرد من أحداث طارئة وبسالات فردية نموذجاً للكفاح والبطولة متمثلين في ضمير الامة كلها .

(١) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ص ٥٥٠

(٢) صبري الأشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٢

وهذه الظاهرة في الشعر القومي الحديث تشير الى أن الشاعر العربي اخذ
 ينجح لتجريد والنظر الى موضوع البطل أو الشهيد من زاوية شاملة ، وذلك
 نتيجة ازدياد شأن الجماهير ودور الشعوب الفعال في صنع التاريخ ، ولهذا لم
 يعد الشاعر يكتب بما كان يكتب به قديماً من تفجع على الفقيده وعد المناقبه وتمجيد
 لذكوره ، فقد ارتبط الفرد بمجتمعه ارتباطاً لا انفصام له ، وغدت بسالته
 جزءاً من بسالته شعبه ورمزاً لها . ولعل قصيدة « الشهيد » لبراهيم طوقان
 فريدة في هذا الموضوع فقد حظيت بمكانة لا تداني في الشعر القومي الحديث ،
 ومن مقاطعها الملتبته (١) :

عس الخطب فابتم	وطنى الهول فاقحم
رابط الجأش والنهى	ثابت القلب والقدم
نفسه طوع همة	وجت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا	ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة	لفجها حرر الامم
سار في منهج الملا	يطرق الخلد منزلا
لا يبالي مكبلا	ناله أم مجدلا

فهو رهن بما عزم

ربما غاله الردى	وهو بالسجن مرتهن
لم يشيع بدمعة	من حيب ولا سكن
ربما أدرج الترا	ب سلبيا من الكفن
لا تقل أين جسمه	واسمه في فم الزمن
إنه كوكب الهدى	لاح في غيب الخن

أي وجه تهللا يرد الموت مقبلا
صعد الروح رسلا لحنه ينشد الملا

أنا لله والوطن

فالقصيدرة رائعة قل أن تجود بثلاثها قريحة شاعر . وقد عاش إبراهيم تجربتها حية حارة في فلسطين فكانت كالجدوة الملتببة قبسها من نضال قومه الدامي ، ومع أن الديوان يشير الى مناسبة نظمها وأنها كانت بصدد الذكرى الرابعة للشهداء الثلاثة (حجازي وجمجوم والوزير) فإن القصيدة بنصها لا تشير الى ذلك من قريب أو بعيد . وكل من أعجب بهذه الايات ، وترجم بنبراتها القومية لم يحرص كثيراً على ربطها بأصل مناسبتها واكتفى منها بأن تعالج موضوع الشهيد ايّ شهيد بهذا الابداع ، وبخاصة إذا كان الشاعر نفسه لم يأبه لهذا الربط في نظمه لاياتها . فهذا النمط من الشعر الذي يرتفع من الخاص الضيق الى الجو العام الشامل ليرفرف في عالم المثل الرحيب يذكرنا بدالية (المعري) المشهورة التي نظمها في رثاء (ابي حمزة الفقيه) وتخطى فيها نطاق الفرد ليحلق في جو إنساني رفيع قوامه فكرة الوجود والعدم وفلسفة الحياة والموت في الكون . اما ابو حمزة نفسه فلم يكن الا منطلق المعري نحو هذا الافق البعيد كما كان شأن شهداء فلسطين الثلاثة بالنسبة الى طوقان .

ولا يضارع هذه القصيدة في مضمار البطولة والفداء الا قصيدة أخرى للشاعر نفسه تعتبر صنوؤها ، وبلغت من الشهرة ما بلغت ، تلك هي قصيدة «الفدائي» وفيها يقول (١) :

لا تسل عن سلامته روحه فوق راحته
بدلته همومه كفنًا من وسادته

(١) ديوانه ٦٥

يرقب الساعة التي	بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا	ه باطراق هامته
بين جنبه خافق	يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى	أضمرت من شرارته
حمته جهنم	طرفاً من رسالته
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من شجاعته
صامت لو تكلم	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته	خلق الخزم ابكاً
وأخو الخزم لم يزل	يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظلاماً
وبلاداً اجها	ركنها قد تهدما
وخصوما بينهم	ضجت الارض والسما
مرحين فكاد يقتله	اليأس إنما
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من شجاعته

وربما تعود مكانة هذه القصيدة المرموقة في الشعر الحديث الى اسباب كثيرة ، في رأسها طرافة موضوعها ، إذ قلما عثرنا على قصائد أخرى عالجت موضوع الفدائي ، ولا ريب ان الشاعر استمد هذا الموضوع ايضاً من بيئة فلسطين ومن واقع احداثها ، فكانت تجربته اصيلة عميقة حية . ومن جهة أخرى نلمس في الفدائي ما لمسناه في الشهيد ايضاً من انطلاق الى الجو البطولي الشامل برغم ان المناسبة نفسها شديدة التخصيص والتفرد ، فهي ترتكز الى أن أحسد

أحرار فلسطين المتحمسين آلى على نفسه اغتيال يهودي بريطاني سام العرب الأهوال،
فكمن له وأطلق النار عليه . فمن ثنانيا هذا الحدث الطارئ الذي يقع ما يشابهه
في كل حين استمد طوقان جوهر البطولة والفداء .

وهكذا كانت قوافل الشهداء ومواكب الأبطال تتدافع في كل أرض عربية
حيث تنطلق ألسنة الشعراء مع تدفق الدماء الزكية وخفقات القلوب المتحفزة
ورفرقة الأرواح الطاهرة لتسجيل آيات البطولة والاقدام في سفر التحرر
والخلود ، وأصبح تساقط الاحرار صرعى في كل يوم موضوعاً يهز مشاعر
الأمة ويفرض نفسه على الادب . ومن هنا كثرت مرثي الشهداء كثرة تفوق
الحصر ، كما أضيفت إليها موضوعات البطولة والتضحية عامة منطلقاً من نطاق
الاحداث ومن حدود الزمان والمكان لتتكون رمزاً شاملاً ونبراساً وهاجاً
للأجيال المتطلعة الى الحرية . ولسنا نطالب الشاعر في هذا الشأن أن يتسم
في قصيدته بالاحاطة والتقصي وأن يعرف دائماً اسم الشهيد أو البطول وكيف
ومتى كان مصرعه وفي أي أرض سقط ، ولكن عليه ان يستشعر استشهاده
وينفعل به ويميش مغزاه ثم يشيد به على أنه الشهيد المجهول الذي احتسب دمه من
أجل تحرير وطنه .

٤

وثمة مظهر آخر لشعر البطولة والفداء في أدبنا الحديث نجده في عدد قليل
من القصائد ولكنه يدل على ظاهرة إيجابية إنسانية . فمع أن حياة العرب في
حاضرهما وماضيها حافلة بالبطولات الفذة والابجاد الخضبة بدماء الضحايا ،
فان استغراقهم فيها لم يقعد بهم عن تعشق البطولة واستجلاء آياتها أينما وجدت ولو
كانت في قوم غير قومهم وأرض غير أرضهم . فقد لجأ خير الدين الزركلي الى
تعريب قصيدة عن الفرنسية تحت اسم (الديدبان) أي الحارس وصور فيها

بطولة جندي يضحى بنفسه خلال الحرب الاولى لينقذ جيش قومه . والقصيدة
طويلة تمتاز بطابع قصصي شيق ومنها قوله (١) :

بات يرعى الدجى وحيداً فريداً	حاضر القلب مصغياً يتفكر
لم يرعه في ظلمة الليل إلا	وقع أقدام داهم يتحدر
فيلق إثر فيلق جاء يسعى	في ظلام الليل الهيم تنكر
به القوم فاستطاروا خفافا	صاح فيهم فاستقبلوه فأنذر
قال يا قوم يمموا النهر الاد	نى فان العدو إن حل دمر
فاذا بالخيام لا حى فيها	وإذا الديدبان لم يتقهقر
ويد كالخديد حلت عليه	ثم قادتته صاغراً فتصبر
سألوه عن جمعه أين ولى	فأضل القوم السبيل وحير
كذبوه وأبصروا النهر فانها	لوا عليه ضرباً وجلداً فأنكر
حاولوا خوضه فقالوا هلم -	ازل إليه فالغور بالخوض يسبر
همسوا بينهم لئن فاز خضناه	ه' وإلا فنحن بالعود أجدر
وقف الحارس الامين وقد فكر -	في أمر قومه وتدبر
ثم ألقى بنفسه يوهم القو	م بأن السبوح في النهر يغمر
فاختفى عنهم وقد خفض الرأ	س وظلت آثار كفيه تبصر
خاطب النفس وهو في لجج الما	ء وفي قلبه اللظى يتسعر :
« إن أردت البقاء خاضوا إلينا	وابتغوا معشرى بكل مضمّر
أو أردت الفناء هالمهم الما	ء فكفوا وتابعوا المسير في البر
حبذا الموت في سبيل قبيلي	إنما المرء من يموت فيذكر »

وشبهه بهذا الموقف الايجابي من بطولة سائر الشعوب وتطلع الشعراء

(٢) ديوانه ٢٧

العرب الى المثل الاعلى للفداء ما نظمه كل من الشاعرين خليل مردم وبدوي الجبل حول شهيد القدس (ايرلندا) وقد اشرنا اليهما من قبل، وكتاتهما تحكي قصة فتى ايرلندي مكافح آلى على نفسه ألا يذوق طعاماً أو شرباً ما دام في وطنه احتلال أجنبي ، وقد صور بطولته خليل مردم فقال (١) :

أبي رق الحياة فمات حراً وأبلغ نفسه في ذلك عذرا
وأقسم لا يكون حماء نهباً مباحاً أو يموت طوى ، فبراً
بميتته رأى إحياء شعب فأيقن أن بعد العسر يسرا
إذا كلحت له زرق المنايا تهلل وجهه وازداد بشرا

كما صور بطولة هذا الارلندي أيضاً بدوي الجبل إذ قال (٢) :

بسعت يديك بسطة أرمحي فكانت من عطايك الحياة
ولم تبخل بنفسك وهي علق متى بخلت بأنفسها الكفاة
علوت بها عن الاعراض حتى تساوى الموت عندك والحياة

وفي قصيدة عمر أبي ريشة « جان دارك » تصوير أخذ لآيات البطولة التي رفعت تلك الفتاة الفرنسية الى مصاف القديسين ، وجعلت من قصة حرقها ورباطة جأشها وإيمانها بحق وطنها في الحرية أسطورة خالدة بين الشعوب .

وحين وقف البشر يرقبون ما يكون من أمر تلك الحرب الاخيرة الطاحنة وقلوبهم واجفة من الملح كانت معركة (ستانفرد) نموذجاً رائعاً لبطولة الشعوب وصمودها ضد الظلم ، وقد اهتزت نفوس الجماهير من جميع الشعوب أيما اهتزاز لما انبثق من ارض البلاشفة من ضروب البسالة والاقدام ؛ حتى إن شاعراً مثل علي محمود طه عرف بعزوفه عن كل ما لا يتصل بالفرز ينظم قصيدة في هذا الحدث البطولي ويجعلها في ديوانه « زهر وخر » وفيها يخاطب « المدينة الباسلة » بقوله (٣) :

كم من (أخيل) فيهم لكنه رد المنير به وفك حصار
لم تجر ملحمة بوصف كفاحه لكن جرت بدماؤه الانهار

(١) جريدة البرق البيروتية عدد ١١٢٧ وانظر ديوانه ١٥٩

(٢) زهر وخر ٦٣

(٣) ديوانه ١٨٥

هو مهجة فنيت بأرض معادها	لتم غرس أو يطيب ثمار
هو موجة ذابت بحر وجودها	كيا يشور بروحها التيار
لاني رفعت بكم مثالا رائعا	يوما اليه في العلا ويشار
لشباب مصر وهم بناء حياتها	وحماها ان حانت الاخطار
هذي مدينتكم وذاك صراعها	رمز لكل بطولة وشعار

ونحن نقع على ما يماثل هذه الروح في عدد آخر من القصائد المشابهة وفي اشادة خليل مطران ببسالة (فتاة الجبل الاسود) . وكل هذه القصائد التي أوردناها لازركلي ومردم والجبل وعلي طه اتما عبرت عن مضمون البطولة والفداء الذي استمدته هؤلاء الشعراء من معين ناء عن الوطن العربي . ولهذا الامر دلالاته اذ أن معالجة هذا الموضوع في ذاته تم عن نزوع ملح في ضمير الشعراء نحو استجلاء آيات البطولة وتصويرها بما يصادف هوى في نفوس الشعوب العربية المتطلعة في معركة المصير نحو البطولات المثلى . ومن المرجح أن الزركلي لم يعرّب قصيدته تلك « الديدبان » لمجرد التلبي أو لقصده وجه الفن فحسب ، وأكثرت ديوانه في الشعر القومي . كما أنه ليس من قبيل الصدفة أن يقع شاعران معاً على موضوع جزئي واحد ناء عن حياتها وبيئتها - وهو شهيد ايرلندا - لولا عامل القصد والاختيار ، بل إن في آياتها ما يشير الى الربط والتجاوب بين كفاح الايرلندي وكفاح العربي . ومن جهة أخرى فإن « علي محمود طه » حرص على عرض بطولة (ستالنغراد) وتمنى على قومه التحلي بمثلها ، ولم يفته أن يكبر بسالة فتيان (الفولغا) ليجعل منهم مثلاً حياً لشبان النيل ، وليس للبطولة وطن .

أما مفهوم الاستشهاد فهو يتسم في الاصل بطابع ديني كأن يستحقه المرء بجهاده في سبيل الله . . ولكنه اكتسب طابعاً قومياً في العصور الحديثة وأخذ يستحقه كل حر يقضي في سبيل وطنه ، ومن هنا رأينا كلا الشاعرين مردم والبدوي يكبر بطولة ذلك الفتى الايرلندي ويعتبره شهيداً ، وكأنها يران في تضحيته الرائعة لإرضاء لله والوطن والضمير ، وهذا الامر يشير الى أن

النظرة الجديدة التي غلبت على الشعراء المعاصرين إنما هي نظرة القومية الصحيحة المتفتحة التي ترى في كل قومية مناضلة حليفة لها ، وفي كل بطولة أو تضحية تصدر عنها انتصاراً لها وشدأً لأزرها .

٥

ولكن هل اقتصر الشعراء في تصويرهم آيات البطولة والفداء على أوائل الأبطال المجهولين والشهداء الأبرار الذين لقوا ربهم أو من كانوا يسمون إلى لقاءه ؟

الواقع أن ثمة جانباً آخر من الشعر الحديث برزت فيه الروح القومية وتضوعت منه رائحة البطولة ، ذلك هو ما نظمته الشعراء من قصائد الرثاء في عدد من زعماء العرب الذين ماتوا على فراشهم وكان لهم في حياتهم أثر كبير في حياة شعوبهم من أمثال الشريف حسين والملك فيصل وغازي وسعد زغلول وإبراهيم هنانو .. وسواهم ممن وجد فيهم الشعراء أبطالاً كباراً .

وقد شغلت مراني الزعماء والعظماء حيزاً كبيراً من دواوين الشعراء . « وإذا كان الشاعر القديم يرثي الفقيده مرة أو مرتين إثر وفاته فإن الشاعر الحديث قد اتخذ لنفسه سنة جديدة وهي رثاء الفقيده في يوم ذكراه من كل عام وإنما جاءت هذه السنة من محاكاته للصحف ، فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائماً إلى من يلقي في أوتونها الوقود بين الحين والحين ليزداد الأتون لهباً فتزداد المشاعر قوة . وكان موت عظيم أو زعيم يقع من النفوس موقعاً أليماً ويزيدها بالوطن تعلقاً ، وإليه تلهفاً وحنيناً » (١) .

ولهذا كثرت قصائد الرثاء كثرة بالغة لدى الشعراء المعاصرين ذوي النزعة الاجتماعية وفيهم حافظ إبراهيم الذي قال :

إذا تصفحت ديواني لتقرأه وجدت شعر المرثي نصف ديواني

(١) عبد اللطيف حمزة : الصحافة والادب في مصر ٩٢

وما ازاد شأن هذا النمط من الرثاء إلا نتيجة لارتباط الادب المتزايد
بحياة العرب الحديثة ، بحيث أن جانباً كبيراً منه أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في
أدبنا الحديث . وطبعي أن يبقى كثير من شعر الرثاء الطافح بالنواح بعيداً عن
هذا الطابع القومي ، وأن يتحلى أيضاً بهذه الروح القومية كثير من الشعر الذي
قيل تمجيداً لمآثر الاحياء وبطولاتهم .

وهكذا فإن صور الفداء وآيات البطولة لم تلتصق في نضال العرب الحديث
الا من ظلال مآساتهم القائمة .

ومما يلاحظ في هذا المجال أن عامل الزمان المتقدم باطراد على أعمال أولئك
الأفذاذ كان يساعد على ارتسام هالة واسعة حولهم من البطولة والاجلال
والتضحية ربما كان مبعثها الوفاء لذكراهم والاعتراف بفضلهم ، وقد يكون
الباعث على ذلك أيضاً ميل الفنان بصورة عامة الى إكمال الصورة الواقعية التي
يسعى الى رسم ملامحها من فيض قريحته وذوب مشاعره ، ولعل الشعر من
أكثر الفنون قبولا لهذه الظاهرة واتساما بها . كل هذا بالإضافة الى الباعث الأصيل
في النفوس على تصوير هذه المآثر المثل في التضحية والفداء .

٦

وإذا حاولنا أخيراً أن نستقري ما نظمه الشعراء المعاصرون من قصائد في
موضوع البطولة والاقدام فاننا ناهس عنايتهم باستحياء البطولات الخالدة من خلال
تاريخ العرب الحافل . ومثلما وجدوا في الشهداء والابطال المعاصرين مادة غزيرة
ينغذون بها الشعر القومي وجدوا أيضاً في عظمة الأجداد من خلفاء وقواد
وفاتحين .. معيناً لا ينضب . فقد نظمت قصائد كثيرة في عظمة الرسول العربي
برزت من خلالها ملامح شخصيته الفذة وخصاله الحميدة وبخاصة في ذكرى

مولده الشريف أو هجرته المباركة . وقد نظم محمد عبد المطلب قصيدة مطولة في علي بن أبي طالب أسماها « العلوية » كما نظم حافظ إبراهيم من قبله قصيدة في ابن الخطاب وأسماها « العمرية » . وثمة قصائد أخرى كثيرة قيلت في عطاء العرب والمسلمين وتمجيدهم من نحو قصيدة أنور العطار في أسامة بن زيد وجيشه المظفر ، وقصيدة أحمد شوقي في صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، ومثلتها في الموضوع نفسه لخير الدين الزركلي ، وكقصيدة « طارق بن زياد » لعلي محمود طه وقصيدة عمر أبي ريشة في خالد بن الوليد ، وسوى ذلك مما نظمته الشعراء المعاصرون في تمجيد بطولات أبي عبيدة وقتيبة وابن القاسم وصلاح الدين . هذه انحصار العظيمة والبطولات العريقة التي لاح وميضها من جديد في قوافي شعرنا الحديث كانت تبدو وسط هالة كبرى من ملامح الجو الملحمي الذي تبثه في النفوس عظمة الأجداد ، وروعة أعمالهم . لقد كانت سير أعلام التاريخ العربي وأمجادهم أبدأ رائد المجاهدين العرب ، ونبراسهم الذي يتدون بهديه ، ومثلهم الأعلى في نضالهم المرير ضد الطغيان والاستعمار ، كما كانت الشعراء يجدون فيما حولهم من طارف البطولات صورة رائعة من جهاد العرب التليد الذي عدا أعلامه رمزاً خالداً في ضمير كل عربي ، فاذا لامست أسماع شاعر عربي معاصر كالشاعر القروي أبناء ضروب البسالة التي أبداها أهل فلسطين استشف وراء كل فتاة من نسائها بنت الأزرور ، ولاح له كل مناضل ابن شداد (١) :

فكل فتاة في فلسطين (خولة) وكل غلام في فلسطين (عنترة)

إن مثل هذا التطلع نحو الأجداد واستيحاء بطولاتهم مغزى بعيد الدلالة في نفسية المجتمع العربي الحديث ؛ فهو يشير بقوة الي أن الجيل العربي ما زال الى اليوم يعي ماضيه وعياً كاملاً على بعد العهد بينه وبين جدوده ، وما زال ماثلاً في ذهنه كرم حاتم وشجاعة عنترة وحزم عمر وبأس علي وبسالة خالد وجهاد صلاح الدين وعظمة الرشيد ونبوغ المعري .

(١) ديوانه ٣٦٣

إن المفاهيم العربية الأولى التي كانت المرءة رائدها والشرف مقياسها والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة أجنحتها، وما أعقبها بظهور الإسلام من مزايا جديدة كقائمة العدل بين عباد الله والساواة بينهم وحماية الضعيف وتحريرهم من ظلم القوى (١) .. كلها ما زالت ماثلة حتى اليوم في الجيل العربي أصيلة في نفسه ، راسخة في حياته . وإن قولة أبي الطيب قبل ألف عام :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
لا تكاد تختلف عن قولة شوقي في هذا العصر :

والحريّة الجراء باب بكل يد مضرجة يدق

فالعربي باق على إباته للضم وتمسقه للحريّة وذوده عن الشرف ، يعتصم بمثله العليا ويقدها ، وهو بعد ذلك يحيا لها ويفى في سبيلها .

ولكن هل في نزوع الفرد العربي الى المثل العليا ، وسعيه نحوها واستعداده للفناء في سبيلها ما يبعده عن طبيعة الحياة ؟ وهل في تصور الشاعر الحديث لسجايها هذا الفرد والدعوة لما يؤمن به ما ينأى به عن الواقع ؟ أما الحياة فليست حياة الدعة ورخي العيش والرضى بالهوان ، وأما الواقع فليس مجرد نقل مألوف لسلوك الناس وما هم فيه من أكل وشرب ونوم ويقظة وغدو ورواح . عندما كان شاعرنا القديم يعجب بممدوحه ويصفيه أشعاره كان يسبغ عليه الخصال التي يؤمن بها العربي ويقدها ويسعى جاهداً الى التحلي بها من مروءة وشهامة ، وبأس وتضحية ، وكرم وشجاعة . وحين ينقم عليه كان يسلبه إياها ويجرده منها ، وحين يرثيه كان يفتقدتها بعده ويندبها فيه ، ولم تكن هذه الخصال سوى المثل العليا التي طمع العربي الى بلوغها وذاب في حباها . البطولة ثورة والثورة قلب للواقع الفاسد ، وتمرد على حياة الذل ، ونشيدان لغد أفضل ، وتطلع الى قيم أسمى .

على أن شاعرنا الحديث لم يكن يسبغ على المناضل العربي ما ليس فيه ،

(١) انظر محمد المبارك ، الامة العربية ١٨٧

وبشيد بما لم يبلغه ؛ فلقد كتب العرب تاريخهم الحديث بدمائهم ، وفرش أبطالهم وشهداؤهم درب الحرية بجمجمهم ، ولم يكن من الشعر بعد ذلك إلا أن انفعل بأعمالهم ، وباهى بآثرهم . ومن هنا حرص كثير من الشعراء على تصدير دواوينهم باهداء حار صادق يزجونه الى تلك الدماء الزكية والارواح الطاهرة والبطولات الرائعة ، وكأنهم في ذلك إنما كانوا يردون ذوب مشاعرهم وزبدة قرائحهم الى من أوحى إليهم أسمى العواطف النبيلة ، ومن ألهمهم آيات الفن الرفيع . ولقد كان وجدان الجيل العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين أشد ما يكون تعطشاً الى مثل هذا الوقود الروحي لمشاعره القومية التنامية ، وتطلعاً في طريقه الوعر ونضاله العاثر الى أروع آيات التضحية والبطولة . والفكرة - كما يقول أوغست كونت - هي التي تدفع الى العمل .



وبعد فذلك هي فصول متعددة حاولنا من خلالها في هذا الباب الاخير استجلاء الموضوعات الرئيسية التي كانت مدار الشعر القومي الحديث في فترة ما بين الحربين العالميتين . ولا ريب أن ثمة موضوعات أخرى كانت مدار اهتمام الشعراء ، وكان يمكن أن تدرج في هذا الباب وتتناول بالبحث والتحليل . إلا أنها لا تعدو أن تكون فرعية جزئية تنحصر في نطاق ضيق ولا تغني في رصد الاتجاه العام ، وجلاء التيار السائد .

أما هذه الموضوعات البارزة في الشعر القومي التي عرضنا لها خلال الفصول المنصرمة فقد كانت تتنوع وتختلف بتنوع واختلاف المناسبات والأحداث التي تستدعيها وتبعثها . وربما اختلط عدد من هذه الموضوعات او كلها في قصيدة واحدة لأن الشعر القومي لا يخرج عن كونه نفثة وجدانية لا تتقيد بوحدة موضوعية

وهذه الموضوعات في الحقيقة لا تعب عن فنون شعرية كما هو المؤلف بين الفنون ،
لكنها موضوعات تنصب من منحدر واحد وان تفرعت بعد ذلك شعابه .

لقد حمل الشعر العربي الحديث رسالته بدأب حين ابي حاجات المجتمع
العربي ورغائبه ، وعبر عن اهتماماته ونواذعه ، فكان الصوت المدوي في وجه
الغزاة المستعمرين ، والشوكة الواخزة في جنب العلفاة المستبدين . كما كان الحافز
الفعال على النهوض والثورة والتحرر ، وخير بشير بالاخاء والتسامح ، وداعية
الى الاتحاد والتضامن . وهو الى ذلك سفر آيات البطولة والفداء الرائعة خلدها
للاجيال ، ومراة صادقة لنضال العرب المرير في سبيل انتزاع الحق السليب الذي
آمنوا به ولم يحدوا قيد شعرة عن المطالبة به .

الخاتمة

رسالة الشعر القومي

انبثق الشعر القومي بانبثاق فجر النهضة القومية في القرن التاسع عشر. ولكنه لم يكن إلا كأول الغيث. ثم أخذ ينهمر منذ اليقظة الدستورية. حتى إذا وقعت بلاد الشرق العربي في قبضة الاستعمار في الحرب العالمية الأولى دخل الشعر في طور جديد حين أخذ يواكب قضية التحرر القومي والمصير العربي. وقد اتسم منذ ذلك الحين بظواهر بارزة عامة نجملها فيما يلي:

١ - المضمون

١ - اتسم المفهوم القومي بالغموض والاضطراب شأن كل مفهوم اجتماعي في طور نشوئه، ولم ينبجس صافياً أول الأمر. فقد صجبت منذ ولادته في نفوس العرب منازع أخرى ذات جذور تاريخية عميقة أخذت تضي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه في بعض الأحيان.

فالعروبة كانت تعني الإسلام لدى شطر كبير من الشعراء، وكان هذا الاختلاط طبيعياً في تلك المرحلة حين كانت الدولة العثمانية في تكوينها الامبراطوري تضم شطراً كبيراً من المسلمين على اختلاف قومياتهم، وكان العامل الديني يطفى على الأفكار القومية.

وكذلك كان المفهوم القومي العربي مغشى بالنزعة الشرقية التي انبثقت أيضاً تجاه أطماع الغرب في بلاد الشرق عامة . إلا أن هذا المفهوم الشرقي كان مترجماً في أذهان الشعراء يتسع حيناً ليشمل الشرق بجموع أممه وينحسر حيناً ليعني المسلمين أو يضيق حيناً آخر ليقصر على العرب وحدهم .

ثم أخذ المفهوم القومي الصحيح يتسم بالصفاء ويشق طريقه إلى أذهان الشعراء إثر تعاقب الأحداث الجسام في الوطن العربي بعد أن اضمحلت النزعة الشرقية وخفت صوت الجامعة الإسلامية . ومع ذلك استمر المفهوم الشرقي في الشعر الحديث تبعاً لاستمرار المستعمر في تحكمه بالشرق ، كما استمر المفهوم الإسلامي معانقاً للفكرة العربية وداعماً لها .

ومن جهة أخرى تجلت في الشعر القومي خلال فترة عارضة من السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى - وبخاصة في مصر ولبنان - نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على إبراز كيان خاص بها نتيجة دوافع سياسية واجتماعية ونفسية ، كانت برغم تطرفها في بعض الأحيان ذات أثر في تعميق المشاعر الوطنية ورفد الاتجاه القومي .

كذلك كانت النزعة الانسانية الحقة التي تجلت في عدد ضئيل من القصائد - بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها العرب - تتضمن تعاطفاً شاملاً مع آلام الشعوب الأخرى وسمواً بالأحداث القومية الطارئة إلى أجواء الانسانية الرحية .

وهكذا فإن الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والنزعات الوطنية المحلية وال عاطفة الانسانية كانت جميعاً روافد مختلفة الألوان انصبت على التيار القومي فأكسبته قوة وتدفعاً ومضاء .

٢ - وقد تجلت عناصر القومية العربية في الشعر الحديث بالحاح الشعراء على وحدة الأصل العربي ووحدة اللغة وماضي العرب المجيد وتاريخهم الحافل ، وعلى آلامهم وآمالهم المشتركة ونزوعهم الشديد نحو وحدة أقطارهم وشعوبهم . فمن حيث وحدة الأصل تجلّى في الشعر حرص العرب على اتصال نسبهم المادي أو المعنوي بأجدادهم والباهاة بقحطان وعدنان وكندة وريعة واعتبار العروبة رابطة قرابة وشيجة وأن أفراد الشعوب العربية ليسوا إلا أبناء عم أو أشقاء .

وكانت رابطة اللغة العربية أقوى هذه الروابط القومية تبعاً لكونها لغة التراث العريق ولسان القرآن المبين وأداة التفاهم بين شعوب العرب على اختلاف أقطارهم . وقد اتسم شطر من القصاصد التي قيلت في هذا الشأن بطابع الجدل بسبب تعرض لغة الضاد لهجمات كثيرة من المتفرنجين ودعاة العامية وبخاصة في مصر والمهجر ، كما اتسم الشطر الآخر بكثير من روح الزهو والافتخار .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يلوذ الناس وفي مقدمتهم الشعراء بماضيهم الحافل في مثل هذه الفترات من البعث القومي وأن يطمحوا إلى استعادة أمجادهم السالفة والاعتداد بتاريخهم المجيد جاعلين من ذلك كله حافزاً لتقدمهم ونهوضهم . والعرب بطبيعتهم أمة محافظة شديدة الوعي لماضيها . وكم أعرب الشعراء في قصائدهم عن اعتزاز لا حد له بوقائع العرب وانتصاراتهم الحاسمة ، وكم تغنوا بظلمة الأمويين والعباسيين معتبرين إياهم مثلهم الأعلى الذي يطمحون إلى بعثه . لقد كان هذا الماضي الحافل والتاريخ المجيد بمثابة النسغ الذي حفظ للعرب ثقتهم بأنفسهم وضمن لدوحة العروبة البقاء .

أما حاضر العرب وواقعهم الذي حنل بالآلام والآمال في تلك الفترة من حياتهم بين الحربين العالميتين فمد كان أشبه بأتون مشتعل تلتهم فيه النفوس وتصطرح الأحداث . وبلغت الحياة السياسية والقومية مرحلة من الاضطراب لم يعد بوسع الأدب العربي معها أن يكون بمنزلة عما حوله . وتبين لسلك ذي عينين أن

مصاب العرب واحد في ابتلائهم بعدو واحد هو الاستعمار . فقد ألف الجرح بينهم ولم المصاب شعئهم فزادوا تقارباً وشعروا بقوتهم مجتمعين . وكان شعراء كل قطر يهتمون بأحداث القطر الشقيق الآخر ويحملون من قضيتهم قضيتهم . ولم يكن هذا الحاضر المشترك باينطوي عليه من آلام وآمل إلا رافداً كبيراً يبرز ماضي العرب العريق .

وأما الوحدة العربية فقد كانت أمل العرب عزف الشعراء على قيثارتها أصفى ألحانهم بعد أن أدركوا أن أزهى أيام تاريخهم كانت إبان اتحادهم . وكانت الثورة العربية الكبرى أجراً محاولة في هذا السبيل وقد قيل فيها شعر كثير ظل يفقد الوحدة العربية ويدعو إليها باستمرار . ومع أن الحدود بين أقطار العرب اكتسبت الصفة الدولية وغدت أمراً واقعاً إلا أن الشعراء كانوا بالأجمال في طبيعة من أنكروها وتجاهلوا أمرها . وبرغم أن قضية التحرر القومي كانت القضية الأولى التي استأثرت باهتمام العرب فإن الشعراء مع ذلك لم يجيئوا عن تعلقهم بالوحدة المنشودة .

٣ - وقد تبين لنا من خلال استقرار الشعر القومي أنه كان ينطوي على موضوعات كبرى انبثقت من واقع العرب القومي وحياتهم السياسية ، من مثل ما صدر عنه الشعراء من مناضلة للاستعمار وتنديد بالاحتلال وكشف زيف معاهداتهم ووعودهم والتشهير بفظائعهم ودسائسهم والتمكيم بديمقراطيتهم ومدنيتهم . وكان لهذا الشعر دور فعال في معركة التحرر التي خاضتها العرب بقوة خلال تلك المرحلة من حياتهم .

وكان التنديد بالاستبداد وفساد الحكم وجهاً آخر من وجوه النضال الذي خاضه الشعر القومي أيضاً . فقد تصدى الكثيرون من الشعراء بلا هوادة للمتزعمين والحكام وكشفوا عن خبيثة نفوسهم وفضحوا أمر تواطئهم مع الاجنبي . لقد نددوا بالملوك والطفاة والحكام الفاسدين وسخروا بالحكومات التي كانت ظلاً للاحتلال والمجالس النيابية المصطنعة والانتخابات المزورة . وبكلمة واحدة

كان الشعر القومي من هذه الزاوية شوكة في جنب الطغاة والمستبدين ومن
لاذوا بالاجني ورضوا أن يكونوا له أذنانا .

وانصب كثير من الشعر القومي أيضاً على استنهاض الهمم وتنبيه النفوس؛
إذ اتخذ الشعراء مواقف الريادة في الحض على الثورة وقيادة الرأي العام العربي
ضد الفساد الداخلي والظلم الأجنبي ، وكان العنفوان والتمرد والجرأة
الطابع الأول في هذا الشعر .

كما كان الحث على التضامن والتبشير بالتسامح موضوعاً رئيسياً في الشرق
العربي الذي استشرى فيه التعصب الطائفي والتفرقة الحزبية مما كان يفت في
عضد العرب . وقد كثرت القول حول هذه الادواء وبخاصة في مصر ولبنان .
وتغنى الشعراء من جهة أخرى في كل مناسبة بالوئام والاتحاد بين عناصر الشعب
وكانوا يحثون على الاخاء والمحبة والسلام .

وكان طبيعياً في مثل هذه المرحلة من حياة العرب الحافلة بالاحداث والمليئة
بالنضال أن يستأثر موضوع البطولات والتضحيات باهتمام الشعراء الى حد كبير
وأن يهز مشاعرهم ويلهب قرائحهم استبسال الاحرار وسقوطهم صرعى برصاص
الاعداء ذوداً عن كرامتهم واستقلال وطنهم ، وقد استطاع بعض القصاصد في
هذا الشأن أن يسمو الى منزلة رفيعة بفضل الجو الملحمي الذي اتسم به . وكان
هذا الشعر خير حافظ لمشاعر الامة وهاد لها في طريق الكفاح المرير . وطبيعي
أن يكون الرثاء مظهر كثير من هذا الشعر إلا أنه رثاء بعيد عن النوح والبكاء
فيه إباء وتجلد ، وفيه ثورة وعزم على الثأر .

وبالاجمال فإن الشاعر في معالجته هذه الموضوعات لم يكن يقتصر على
شؤون قطره فحسب بل كان يهتم بسائر أجزاء الوطن العربي ، فقد صهرت
وحدة القضية مشاعر الشعراء بحيث لم يعد من اليسير التمييز بين ما يقوله شاعر
في العراق وما يقوله شاعر في مصر أو آخر في لبنان . وكان هذا الامر أسمى
مظاهر الوحدة الفكرية والثقافية بين الشعوب العربية .

ب - الشكل

أما من حيث صياغة الشعر القومي وطابع أدائه الفني فقد اتسم بأكثر ما اتسم به الشعر العربي القديم من خصائص من حيث عبارته وتناوله الفني وعناصر مبناه وأوزانه وقوافيه . وكان الشعراء في فترة ما بين الحربين يحرصون على أن يسيروا في الطريق الذي سار فيه أجدادهم من قبل ولم يكادوا يحدثون في الشعر حدثاً جديداً .

لقد كانت مرحلة البعث التي عاشوها والحن التي لاقوها تشدهم بقوة الى كل ما يتصل بتراثهم وما يذكرهم بأجدادهم . والاسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة نبي العرب كان في ذاته ظاهرة قومية اتسمت بالاجلال والتقدير، فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي زوع جاد نحو قطع الصلة أو إضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب .

ومن هنا كانت لغة الشعر والخطابة فصيحة بالاجمال حتى في مخاطبة الجماهير مع أن العامية أقرب الى أذهانهم ، فقد أعرض الشعراء والخطباء في الموضوعات القومية عن اللهجات المحلية ولم يكن للزجل والشعر الشعبي دور كبير في بث المشاعر القومية في حين كان له شأن في مجال الوصف والغزل والوجدان الذاتي .. وهكذا كان بث الاساليب العربية الصافية والنسج على منوال الاجداد جزءاً من حركة البعث الشاملة .

لقد ظل التيار التقليدي إطاراً حياً للمضمون القومي الجديد لانه يرمز لقومية أصيلة ويمثل ثقافة تقليدية راسخة وذلك بالرغم من اختفاء عمالته أمثال البارودي وشوقي وحافظ والرصافي والزهاوي . والتقاليد أطول المنويات عمراً وأشدها مراساً .

وإن التجديد على أساس من القديم أو التعبير عن موضوعات جديدة بمباراة قديمة أو كالتدعية كان خطوة محدودة وممتدة لكنها منسجمة مع حال العرب في تلك الفترة من حياتهم القومية فترة البعث والتكوين .

ومن الملاحظ أن أكثر الشعراء الذين عاشوا بين الحريين وعالجوا الشعر القومي ينتسبون في الغالب إلى مدرسة بلاغية واحدة هي مدرسة الفصاحة والعبارة المشرقة واللفظ الجزل والموسيقى الواضحة . وكان أكثرهم أيضاً ببيدين عن الاتصال المباشر بثقافة الغرب وآدابه وتياراته الفكرية باستثناء ما اطلعوا عليه منقولاً في العربية ، أما الثروات الأدبية الحقيقية في اللغات الأجنبية فقد كانت مغلقة عليهم .

لقد كان سلطان القديم على الشعراء قوياً في العبارات وفي الصورة وفي هيكل التصيدة وسماها أسلوبها ، وكان يزداد قوة كلما كانت المرحلة قريبة من فجر البعث والنهوض القومي . ومما تجدر ملاحظته تبعاً لذلك أن المتصمين بالنهج التقليدي من الشعراء كانوا بالأجمال أقوى عروبة وكانهم يؤكدون بذلك من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون تعلقهم بهذه الأنماط الأدبية الأصيلة التي هي في الواقع من أهم مقومات القومية العربية ويحرصون على دوام الصلة بالتراث العربي وبعثه من جديد .

وثمة سبب جوهري آخر حد من تأثير الشعر القومي بالآداب الغربية وهو أن هذه الآداب في الغالب لم تعرف أصلاً الشعر القومي من حيث أنه موضوع بارز من موضوعات الأدب ، ولم يكن لمثل هذا اللون من الشعر حيز واضح لدى معظم الأوروبيين لأنهم لم يبتلوا بالاستعمار . إن الشعر القومي نط من الأدب اقتضته طبيعة الحياة العربية الحديثة وظروفها في فترة معينة من الزمان . وهو نابع من أعماق الذات العربية ومعبر عن المنازع الأصيلة للمجتمع العربي .

على أن المضمون في الشعر القومي كان متسقاً مع مشاعر العرب بل رائداً لها في كثير من الأحيان . إلا أن العبارات القديمة التي آثرها الشعراء للتعبير عن أفكارهم ومنازعاتهم الجديدة لم تكن في الغالب لتستطيع أن تطابق حقيقة تجاربهم وبالتالي نقلها . وإذا كان بعض الشعراء الكبار قد ورثوا ثورة لغوية كبرى واستطاعوا أن ينموها وأوتوا موهبة وافتناناً ، فإن كثيرين غيرهم لم يكن في طاقمهم ذلك فبقوا في حدود ما توارثوه من زاد لغوي يدورون في فلكه ، وهكذا توارت الاصاله تحت ركام التقليد وتضائل الابداع وافتقد كثير من الشعر القومي الحرارة والصدق الشعوري وقوة الايجاء حتى آل بعضه الى العقم ووران عليه جفاف النظم والرتابة والنثرية والتقريرية . وهذه الظاهرة نتيجة طبيعية إذا طالت فترة البعث وغدت حالة مستمرة لا مجرد مرحلة .

ولكن الأمر أخذ يتجه سريعاً نحو التبدل في أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد أن خفت وطأة السلبية في أدب العرب وفي حياتهم إثر انحسار الاستعمار عن جزء كبير من أراضهم . وغدا من اليسير بعد ذلك أن تهب رياح التجديد قوية على الشرق العربي الذي أخذ يطل على العالم ويفتخر من مختلف بناييع النشاط الانساني . (١)



هل لنا بعد ذلك أن نطرح في خاتمة المطاف على أنفسنا هذا السؤال فنقول :
هل أدى الشعر العربي رسالته في هذه المرحلة من حياة العرب الحديثة ؟

لا شك أن الجواب على ذلك أصبح يسيراً بعد كل ما تقدم ، إلا أنه لن يكون على كل حال قاطعاً بنعم أو بلا ، وإنما هو في الواقع بين بين . والحق

(١) سنتبع هذا الكتاب كتاباً آخر « شعرنا القومي في الميزان » نعرض فيه بالقد والتحليل لجانب الشكل والأسلوب في قصائدنا القومية .

أننا نظلم الشعراء إن قلنا إنهم لم يستطيعوا حمل الرسالة ولم يؤديوا واجبهم تجاه أمتهم . كما أننا نظلم هذا المجتمع العربي إذا ذهبنا إلى أن الشعراء فيه قاموا بواجبهم نحوه على أتمه .

وما من شك في أن ما مر بنا خلال هذا البحث يسمح لنا بأن نقول إنه كان للشعر دور فعال في تفتيح النفس العربية وإضاءة زواياها بنور الوعي القومي الصحيح .

لقد كان لتطورات السياسة التي هزت العالم العربي أثر بعيد في حياته الأدبية بل إن الشعر القومي نفسه كان وليد تلك المرحلة الحاسمة من حياة العرب، كما أنه أثر من جهة أخرى في هذه التطورات وأسهم في خلقها . ولكن علينا أن نعرف أيضاً بأن أحداثاً كبرى ألمت بالشرق العربي كالثورة العربية إبان الحرب الأولى ثم ثورة مصر في أعقابها ثم ثورات فلسطين بعد ذلك، ولكن ما قيل من شعر في هذه الأحداث التي هزت أعماق المجتمع العربي لم يكن في مستواها .

ولعل السر في أن الشعر العربي لم يستطع أن يؤدي رسالته القومية كاملة نحو المجتمع العربي أنه كان بالاجمال شعراً منفعلاً قبل أن يكون فاعلاً، يستوحي ولا يوحي . صحيح أن التأثير كان متبادلاً بحيث أثر الشعر في سير الأحداث وأثرت الأحداث بدورها في طبيعة الشعر، إلا أنه من الملاحظ أن القصيدة القومية التي تفجرت في نفس الشاعر العربي في هذه الفترة الصاخبة من حياة أمته كانت قصيدة صاخبة أيضاً وتأثرت بصخب تلك الأحداث نفسها، وهذا طبيعي في مرحلة مضطربة اتسمت بكثير من سمات التوتر والحماسة والانفعال وكان مصير العرب خلالها في كفة القدر . ومن هنا كان الشاعر العربي منفعلاً في أكثر الأحيان يتأثر قبل أن يؤثر، وكانت الأحداث والوقائع هي التي تنبسط الشعر من نفوس الشعراء، وبالتالي هي التي تخلق الأدباء وتنضجهم بنارها وتجمع لهم ثمرة لها .

وقد يكون في سرعة تتابع الاحداث التي مرث بالشرق العربي في هذه الفترة
الوجيزة الواقعة بين الحربين العالميتين ما استبق مبادرة الشعراء الى الاسهام في
خلقها والتأثير في مجراها ، فلم يبق آخر الأمر في نفوسهم سوى ردود فعل تجاهها .

وتبعاً لانحراف الشعراء في تيار السياسة انحرف رهط منهم في مضمونه
عن وجدان أمته وخرج عن محور مشاعرها وأمانتها وكان شعرهم كالبقعة
السوداء في الثوب الناصع . كما وجد شعراء (امتعات) اتخذوا من الشعر سلعة
وجملوه بوقاً لأولي الامر ، فاذا هو صورة شائمة للحياة القومية . كما اتسم كثير
من هذا الشعر أيضاً بسهات شعر البلاط القديم وانطوى على استخذاء ممجوج
تأباه روح العصر . وقد شاع نظم القصيدة السياسية حتى غدت أشبه بالمقالة
الصحفية .

وطبيعي من جهة أخرى أن تكون السلبية طابع أكثر ما مر بنا من
شعر قومي إذا لاحظنا أن حياة العرب السياسية كانت كلها مطبوعة بهذا الطابع
من مثل مناضلة الاستعمار والتنديد بالاستبداد والحض على الثورة وشجب التفرقة
والظمن على الطائفية . فقد كان على الشاعر العربي في تلك المرحلة أن يجعل من
قوافيه سهاماً يصوبها نحو كل ما يراه من فساد ، وأن يتخذ من شعره معولاً
يهدم به أعشاش الشر . والهدم ضروري للبناء وهو أيضاً طبيعي في معركة
التحرر القومي . ومع ذلك كانت الى جانب السلبية الحادة إيجابية بناءة لم تقتصر
على وصف البلاء وتشخيص الداء بل تجلت فيها الدعوة الى الوحدة العربية وإشادة
صرح الوطن العربي والتبشير بالاخاء والسلام والاتصال بكثير من قيم
الحياة المشرفة .

ولكن ما مدى ارتباط الشاعر العربي الحديث بوجدان قومه الجماعي ؟
لا شك أن عدداً متزايداً من الشعراء أخذ يربو على مر السنين ويبشر برسالة
التحرر القومي نحو أمته ، ومع ذلك كان ثمة شعراء أشبه بالزهاد والرهبان هم في

واد وأمتهم في واد ، لا يعرفون من أمر رساله الحياة سوى محراب الفن المجرد .
ومنهم أيضاً من كانوا (لا أبايين) تراقص السنة اللهب في بيوتهم وكأن الامر لا
يعنيهم . ومنهم من كانوا انهماميين تواروا عن المترك وآثروا السلامة في أشد
ساعات الخطر على قومهم ، ومنهم أخيراً من كانوا اتهازيين آثروا الجمجمة والتاجرة
بمشاعر قومهم وتطفلوا على الفن الصحيح فكافوا كخضراء الدمن .

أما شخصية الشاعر العربي ومذهبه في شعره فلم يبد فيها الوضوح
والاستقرار دائماً . ومع أن عدداً من الشعراء اهتموا الى الطريق السوي الذي
اختره فساروا فيه قدماً ، فان الى جانبهم أيضاً فئة أخرى وقفت على مفترق
الطرق لا تدري الى أين المسير ، أو أنها كانت تحاول السير من هنا حيناً ومن
هناك حيناً آخر . وهذا ما أدى الى توزيع الشخصية الفنية لبعض الشعراء وتبدد
اتجاهاتهم المتباينة حتى إن بعضهم كان في دواوينه الكثيرة أشبه بدائرة معارف
شعرية ، فنارة يهوى في أرجاء الطبيعة والسماء معتلياً جبال الاولب ، وحيناً
يتجه اتجاهاً اجتماعياً أو قومياً وينغمس في حمأة الاضطراع السياسي .

وكما تعايشت هذه الموضوعات المتباينة في قرائح بعض الشعراء تعايشت في
حياة العرب الادبية أيضاً مذاهب ومفاهيم شتى ؛ فكان الشعر الوجداني الحالم
المسرف في ذاتيته ، وكان الى جانبه الشعر القومي والاجتماعي المفرق في جماعيته .
وكما عاش الجون والزهد والمزل والجد في أدب العصر العباسي عاشت في عصرنا
هذا الرومانسية الى جانب الواقعية . وقد تبقى هذه الظاهرة الادبية في حياة العرب
دون أن تكتب الغلبة لاحدهما لان كلا منها إنما تلبى حاجات نفسية غالبة في
ضمير الفرد والجماعة وتستند الى فلسفة راسخة في الحياة .

وليس معنى الشعر أن تقتصر مادته على الدماء والحث والمدافع والسيوف
والثورة والعنفوان لان الشاعر إنسان قبل كل شيء وهو لا يستطيع أن ينسلخ
عن أحلام الانسان وأهوائه وميوله ومخاوفه ورغائبه .

قد لا يستسيغ ذوق العصر شطحات الرومانسيين ومع ذلك ليس من
حقنا أن ننكر عليهم حريتهم في فهم لان « الشعر - كما يقول امرسن - عقيدة ،
وأبعد الناس عن الشعر من ينظّمون في موضوع ما عن غير عقيدة » ومن
الخطأ أن نطلب الى أديب أن يفعل كذا وأن نقول له كن شاعراً قومياً أو كن
عاطفياً ذاتياً . لان الحياة هي التي تفرض عليه ذلك . وهو إن لم يعبر عن النزاع
الحية المتجددة تخلف عن التطور وانزل عن الحياة .

لندع الازهار جميعاً تفتتح ولندع أمرها بعد ذلك للوجود والعدم ؛
لأنها ما يذبل ويعود الى التراب ومنها ما ينفجنا بعاطر إشدها ويؤدي رسالته التي
خلقتها من أجلها الحياة .



وبعد ما مستقبل الشعر القومي في أدبنا العربي ...؟

قد يكون هذا الشعر طوراً من أطوار حياتنا الادبية ينتهي بانتهاء
الظروف التي أسهمت في خلقه ، ولكن الذي لا ريب فيه أنه في ماضيه وحاضره
كان نمطاً من الادب اقتضته حياة العرب وواقعهم ، إنه فن أصيل انبثق من
سميم وجدان العرب وطبيعة حياتهم ، وأخذ مكان الرائد في كفاحهم
ومعركة مصيرهم .

ولقد آمن الشعر القومي بمستقبل الحياة العربية وسار في طريق الواقعية
ولم يكن ليؤمن في ذلك بأن الاستعمار والاستبداد حكم الاقدار على الشعوب
وإنما هو بلاء ينبغي أن يجتث ويجب أن يستأصل ، كما لم يعد يؤمن بأن الشعوب
رعية يتصرف بمقدراتها الرعاة وإنما هي سيدة الوجود عليها أن تخطط تاريخ حياتها
بدمائها لتقرر بنفسها مصيرها وتصنع بيدها قدرها .

إن أمة تسير في طريق التكوين وتشق لنفسها دروب الحياة لتخلق
وجودها القومي الصحيح وتبني كيانها الانساني الوطيد لا بد أن يكون

لها أدب ينبثق عن تطورها واضطرابها ويتجاوب مع رغباتها وأمانها ويكون هو أبرز مظاهر تفتحها وانطلاقها .

وأني للحياة القومية أن تومض اذا لم يتغن الشعراء بأنداء فجرها ، ويغمس الكتاب أقلامهم بعرق نضالها ، ويستلهم ذوو الفكر والفن مقومات نتاجهم من صميم طبيعتها .

وإن الشعراء ، هذه الصفوة الرائدة في الامة بما جباها الله من إرهاف الحس وصدق الحدس ، أقدر على استبطان ضمير المجتمع والوقوف على دخائل وجدانه وتفهم ما يعتلج في أعماقه من اتجاهات ومنازع . وهي بعد جديرة إذا اتسمت بذلك كله أن تقف على مكامن الداء ومواطن العجز في مجتمعيها التوثب ثم تصدر في نتاجها عن كل ما يحمل اليه من عناصر الخير والفلاح وعوامل التقدم والازدهار .

والاتجاه القومي في الشعر الحديث يدور أيضاً في مساره ضمن فلك أرحب ليسهم إسهاماً فعالاً في بناء عالم متحرر من آفات الاستعمار ومآثم العدوان وزعات الطفيلين ، وفي حماية الحضارة الانسانية وتنميتها .

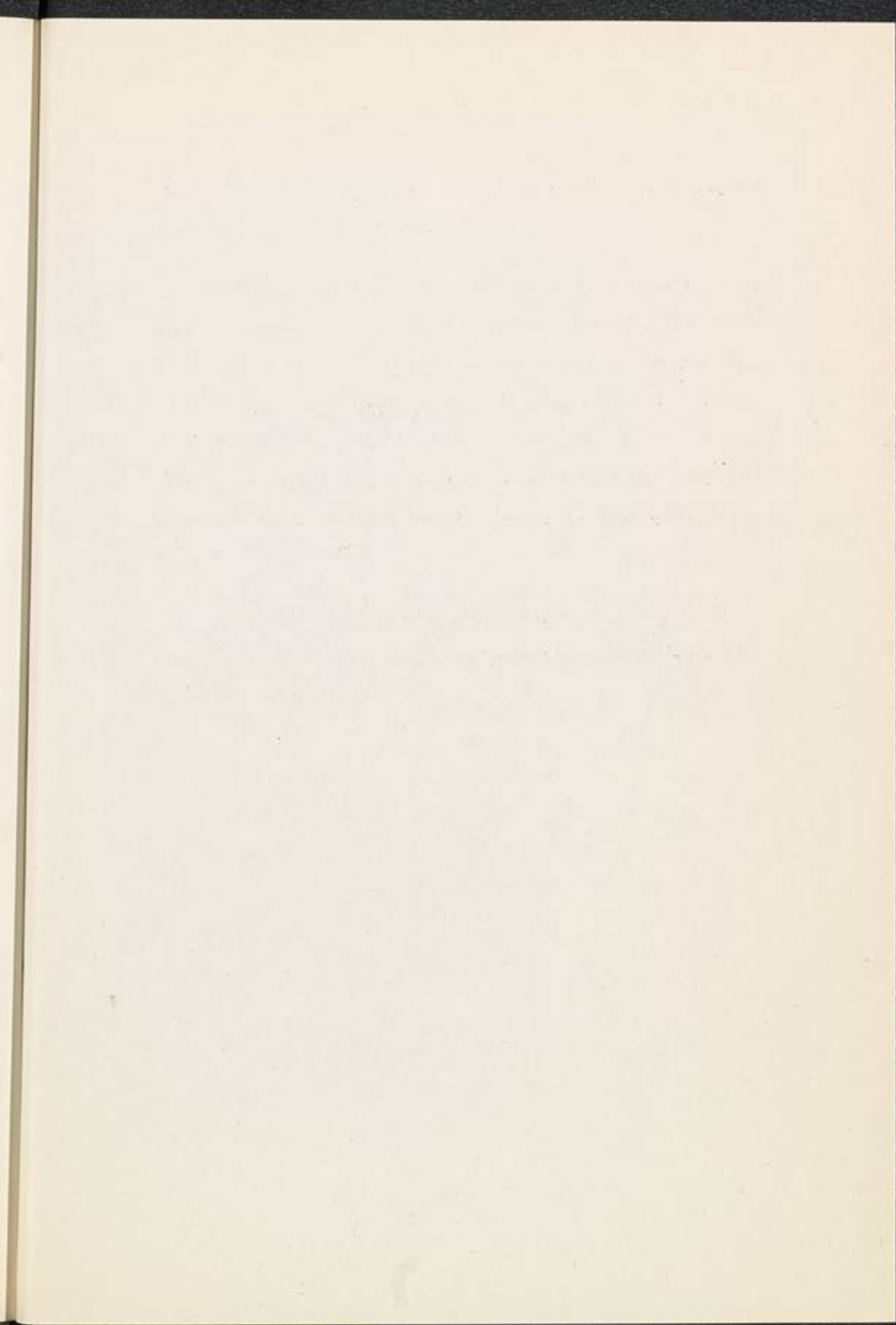
فهذا الشعر إذن يرى نفسه من كل ما يشوبه أو يعلق به من وصمة التعصب ولوثة الطائفية وآفة الاقليمية وبدعة المنصرية . إنه في قوميته ينطوي في جوهره على رسالة إنسانية تؤكد وجود العرب وحقهم في الحياة والحرية . وهو إذ يبشر بهذه الرسالة في أمة من الامم انما يجتريء ذلك من الرسالة الكبرى التي تتكاتف أمم الارض لمجلبها . وبذلك ينير بشملته الوهاجة بعض الزوايا المظلمة في المجتمع الانساني الواسع .

وما الشعر القومي الذي كنا بصدد دراسته ورصد مساره الا تعبير جميل وموح عن تجارب الشاعر العربي ممتزجة بتجارب أمته ومستمدة من حياة

مجتمعه . انه اعراب عن عزم ونضال من أجل حرية العرب ووحدتهم، وقطعة
تنبض بالحياة من تراثنا القومي الحافل .

أما أولئك الشعراء الذين نزلوا بذلك الفرع المورق من دوحة الادب الى
صميم المعركة القومية بعد أن كان حبيساً في بلاط الخلفاء وقصور الامراء يفرد
في أقفاص الذهب ويرسل أنغامه من أبراج العاج فقد طووا بين جوانحهم شعور
امة وكانوا عنوان نضال الشعوب العربية ورمز كفاحها ولسانها الناطق وقلبها
النابض وصوتها المدوي . وان القومية العربية تستوجب على ابنائها البررة حق
الوفاء لمن عملوا على رفع شأنها وتحقيق وجودها وتوطيد دعائمها ، ومن كانوا مرآة
صادقة لعصرهم ومصدر الهام وتوجيه لمواطنيهم وترجاناً لهم في آمالهم
وآلامهم .

وبعد . لقد كانت القومية العربية موجة من موجات التقدم البشري ،
ودعوة الى الايمان بالنفس ، والعمل في سبيل الخير والحق والحرية والسلام حملت
على اجنحة الشعر والادب والفن .



آراء واصداً

حول الطبعة الأولى من هذا الكتاب

« في المعهد العالي للدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ناقشت لجنة مكونة من الاساتذة الدكتور اسحق موسى الحسيني والدكتور محمد خلف الله احمد والدكتورة سهير القلماوي الاستاذ عمر الدقاق عضو البعثة الدراسية السورية في المعهد في رسالته المقدمة للماجستير عن (الاتجاه القومي في الشعر المعاصر) . وفي النهاية أجازت اللجنة رسالته وأثنت عليه ومنحته الماجستير بدرجة ممتاز وأوصت بنشر رسالته .

ولاهمية هذه الدراسة سجلت (صوت الشرق) تلخيصاً وجيزاً للرسالة لتقريب موضوعها الى القارئ العربي المعنى بشؤون الادب ...»

مجلة «صوت الشرق» القاهرة: (مايو) أيار ١٩٦٠

« صدرت دراسة جامعية جديدة عن (الاتجاه القومي في الشعر المعاصر) بقلم عمر الدقاق مفتش اللغة العربية . والدراسة بحث جامعي نال به صاحبه درجة الماجستير من معهد الدراسات

العربية العالية ، وطبع في جملة مطبوعات المعهد تقديراً لما في
البحث من إحاطة وجهد علمي «

مجلة « الجدي » - دمشق : ٧ آب ١٩٦٠

« صديقي ...

فرغت اليوم من مطالعة كتابك القيم (الانجاه القومي في
الشعر المعاصر) معجباً بجلدك واحاطتك ، مستمتعاً بكثير من
الاطياب الشعرية التي دلت باختيارها على رهافة حسك وسلامة
ذوقك . ولم يفتني - ولساني ينثر الثناء على قلمك الصنّاع -
ما رصعت به أبحاثك الشائقة من فقرات ، عدا عن إصابتك
بها كبد الحقيقة فهي آية في البساطة والمعنى الجميع بيد أني
أسف أن كتابك النفيس لم يسلم من أخطاء مطبعية غير قليلة ،
مما يدل على ضعف المسؤولية عند المنضد والطابع واستصغارها
الاثم الأدبي الذي يقترفانه بحق المؤلف ؛ فان تشويه العبارة
الجميلة لا يكاد يختلف عن تشويه الوجه الحسن ، أو هو ضرب
من تجريم البريء واعدامه الحياة ...

أدعو لك الله تعالى بأن يمنحك الفرص الطويلة السعيدة
لتخرج العديد من مثل هذا المصنف المفيد ... والسلام عليك
من صديقك الخالص :

الشاعر الروي « رشيد سليم الخوري »
جبيل ٥ تشرين الثاني ١٩٦٢

« ... لا أظن أن عصراً من العصور الشعرية في الادب العربي كان أوفر غنى ، وأكثر قولاً من هذا العصر الذي ترك في خزانة الشعر قصائد كثيرة ، ودواوين عدة تسجل هذه الفترة الملائم بالاحداث والوعي القومي والتفتح العربي .

وكما قال في المقدمة صاحب هذه الدراسة (لم يعد المجتمع الحديث بجيله الثائر يرضى للشعر ان يكون كالآنية المرصمة تسحر الناظرين برونقها . فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معالم الاصاله والوعي يطمح الى أن يجد في الادب صدى وجدانه وحياته وواقعه . كما لم يعد يوسع الادب العربي أن يستمر في عزله المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه ، دون ان يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها ..)

حقاً ، ان في هذه الدراسة الوافية جهداً مشكوراً عانى فيه المؤلف كثيراً من عناء جمع الشواهد المتفرقة ، وعناية الدراسة ، حتى غدت هذه الدراسة بحق مرجعاً أميناً وافياً ، تتجاوب فيه خفقات الشعر القومي ، وضرباً أميناً من ضروب الدراسة الموضوعية التي تنأى عن التحيز والعصبية ، وهي بذلك تبقى مثلاً من أمثلة الدراسة المتجردة الامن الحقيقة »

من مقالة تهديّة : خليل الهنداوي

بجريدة « المعرفة » دمشق : أيار ١٩٦٢

آ - المصادر (الدواوين)

١٩٣٦	حلب	المصر الجديد	ديوانه	بو ريشة - عمر
١٩٤٧	بيروت	الكشاف	ديوانه	بو ريشة - عمر
١٩٢٤	القاهرة	السلفية	(مصريات)	بو شادي - احمدزكي
١٩٢٦	القاهرة	السلفية	(مفخرة رشيد)	بو شادي - احمدزكي
١٩٢٦	القاهرة	السلفية	(وطن الفراعنة)	بو شادي - احمدزكي
؟	النجف	الزهراء	(الجداول)	بو ماضي - ايليا
؟	بيروت		(الحائل)	بو ماضي - ايليا
١٩٤١	القاهرة	مصر	(اشواق)	بو الوفا - محمود
١٩٥٣	القاهرة	المعارف	(المهوى والشباب)	الاختلال الصغير
١٩٣٥	القاهرة	المنار	ديوانه	ارسلان - شكيب
	القاهرة		ديوانه	الاسمر - محمد
١٩٤٦	القاهرة	دار المعارف	(تفريعات الصباح)	الاسمر - محمد
			(في بلادتي)، (رجال واشباه) مخطوطان	الاميري - عمر بهاء
١٩٥٣-٥٢	القاهرة	جزءان	ديوانه	البارودي - محمود سامي
؟	طرابلس	الحضارة	(يني وين الغواني)	البارودي - وجيه
١٩٣٧	النجف	الراعي		بحر العلوم محمد صالح
١٩٤٦	القاهرة		(ابن سمام الضحى)	البحيري - حسن
١٩٤٦	بيروت		(الفلسطينيات)	البستاني - وديع
١٩٢٥	صيدا	العرفان	ديوانه	بدوي الجبل - (محمد سليمان الاحمد)
١٩٣٢	دمشق	ط ابن زيدون	ديوانه	التقي - اديب
١٩٥٤	عمان		(عشيات وادي الياض)	التل - مصطفى وهي
١٩٤٧-٣٩	القاهرة	٤ أجزاء	ديوانه	الحارم - علي
١٩٣٤	ريودوجانيرو		(الروافد)	الجر - شكر الله
؟	القاهرة		(اغريد السحر)	الحدي - علي

١٩٥٠	القاهرة	الحندي - علي	(الحان الاصيل) الاعتماد
١٩٥٣ و ٥٠ و ٤٩	بغداد	الجواهري - محمد مهدي	ديوانه ٣ اجزاء
١٩٣٧	القاهرة	حافظ ابراهيم	ديوانه جزءان دار الكتب المصرية
١٩٢٨	حماه	الحامد - بدر الدين	ديوانه ط الاصلاح
١٩٤٨	النجف	الجبوبي - محمود	ديوانه
١٩٠٥	الاسكندرية	الحداد - نجيب	(تذكار الصبا) ط ٢
١٩٢٩	بيروت	حسن - محمد عبد الغني	(من ينبع الحياة) طبارة
١٩٢٩	بيروت	حمد - عمر	ديوانه طبارة
١٩٣٩	حلب	المحصي - قسماكي	ديوانه المارونية
١٩٢٧	صيدا	الحوماني - محمد علي	ديوانه العرفان
١٩٤٨	النجف	الخنزري - عبد الغني	ديوانه
١٩٥٩	القاهرة	الخطيب - فؤاد	ديوانه
١٩٣٦	القدس	الخوري - اسكندر	(المنقود)
١٩٣٦	القدس	الخوري - اسكندر	(المعلوم والمجهول)
١٩٢٠	القدس	دموس - حلیم	ديوانه
١٩٢٦	صيدا	دموس - حلیم	(الثالث والثاني)
	القاهرة	الرافعي - مصطفى صادق	ديوانه
١٩٥٣	القاهرة	الرافعي - معروف	ديوانه ط ٤ الاعتماد
١٩٢٥	القاهرة	الزركلي - خير الدين	ديوانه العربية
١٩٣٤	بغداد	الزهاوي - جميل صدقي	(الاشوال)
١٩٢٤	بيروت	الزهاوي - جميل صدقي	(الرباعيات)
١٩٢٨	بغداد	الزهاوي - جميل صدقي	(اللباب) الفرات
١٩٣٨	بروكلين	سماحة - مسعود	ديوانه السمر
١٩٤٠	بغداد	سماحة - محمد باقر	(نسات الفيحاء)
١٩٤٠	القاهرة	الشيبي - محمد رضا	ديوانه الترجمة والتأليف والنشر
١٩٣٨	بروكلين	الشرتوني - محبوب الخوري	ديوانه

١٩٥٣	بغداد	المعارف	(عواطف وعواصف)	علي	الشرقي - علي
١٩٥١	٥٠، ٤٨، ٥٠	أجزاء الاستقامة	(الشوقيات)	أحمد	شوقي - أحمد
١٩٣٣	القاهرة	مصر	(دول العرب وعظاء الاسلام)	أحمد	شوقي - أحمد
١٩٤٦	دمشق	اليقظة	(ألحان الالهي)	أحمد	الصافي النجفي - أحمد
			(الهواجس)	أحمد	الصافي النجفي - أحمد
١٩٤٧	بونس ايرس		(النوافل)	جورج	صيدح - جورج
١٩٤٨	القاهرة	المعارف	(الثروق)	كامل	الصيرفي - حسن كامل
١٩٤٣	القاهرة	ط ٣	(زهر وخمر)	محمود	طه - علي محمود
١٩٥٥	بيروت	دار الكشف	ديوانه	ابراهيم	طوقان - ابراهيم
٥١٣٤٣	صيدا		(الحماسيات)	محمد كامل شعيب	العاملي - محمد كامل شعيب
؟	القاهرة	الاعتماد	ديوانه	محمد	عبدالمطلب - محمد
١٩٤٦	نيويورك		(الارواح الخائرة)	نسيب	عريضة - نسيب
١٩٥٤	صيدا		(الالهي)	محمد	العدناني - محمد
١٩٤٨	دمشق		(ظلال الايام)	انور	المطار - انور
١٩٤٢	القاهرة		(أعاصير مغرب)	محمود	المقاد - عباس محمود
١٩٣٧	القاهرة		(عابر سبيل)	محمود	المقاد - عباس محمود
١٩٣٣	مصر		(وحي الاربعين)	محمود	المقاد - عباس محمود
١٩٤٩	مصر	ط شبرا	ديوانه	محمود	عماد - محمود
١٩٢٥	حيفا	العباسية	ديوانه	مصطفى	الغلايني - مصطفى
١٩٤٧	مصر		(صرخة في واد)	محمود	غنيم - محمود
١٩٣١	دمشق	بايل	ديوانه	محمد	الفراتي - محمد
١٩٣٢	سان باولو	ط مجلة الشرق	ديوانه	إلياس	فرحات - إلياس
	مصر	دار المعارف	ديوانه	عزيز	فهمي - عزيز
١٩٥٤	بيروت	دار الثقافة	ديوانه	إلياس	فياض - إلياس
١٩٥٠	بيروت	الكاثوليكية	(رفيف الاقحوان)	نقولا	فياض - نقولا
	سان باولو	ط مجلة الشرق	(الاعاصير)	رشيد سليم نخوري	القروي - رشيد سليم نخوري

١٩٥٢	سان بولو	ط صفدي	القروي - رشيد سليم الخوري
١٩٣٥	بيونس ايرس	ط ٣ (السهام)	قنصل - إلياس
١٩٣٣	د د	(على مذبوح الوطنية)	قنصل - إلياس
؟	دمشق	ابن زيدون	الكاظمي - عبد المحسن
١٩٤٨	القاهرة	ديوانه ج ٢	الكاظمي - عبد المحسن
١٩٢٠	دمهور	الفتوح	محرم - أحمد
١٩٦٠	دمشق	ديوانه	مردم بك - خليل
١٩٠٩	القاهرة	ط ديوانه : أجزاء	مطران - خليل
١٩٤٤	بيروت	الكشاف (أول الربيع)	المعلوف - رشدي
١٩٥٧	بيروت	دار الريحاني	المعلوف - فوزي
	القاهرة	(الشاطيء الصخري) الانجلو المصرية	المنصور - حسين
		(صدى الخاطر)	ناصر الدين - أمين
١٩٣١	لبنان	الصفاء (الالهام)	ناصر الدين - أمين
١٩٥٣	بيروت	ط ٢ صادر (همس الجفون)	نعيمة - مخايل
١٣٣٨ هـ		(عبرات الغريب)	الهاشمي - محمد
١٩٣٤	بيروت	ط ٢ الوفاء (الانفاس الملئية)	الوليد - أبو الفضل
١٩٣٤	بيروت	(نفحات الصور)	الوليد - أبو الفضل
١٩٥٤	دمشق	الهاشمية (زهر الربي)	ويردي - مخايل
؟		(المقد)	اليازجي - إبراهيم
١٩٣٦	حلب	العلمية (البراعم)	يحيى - عمر
	دمشق	الهلال (النظرات السبع)	اليعقوبي - أبو الاقبال
	التجف	النمان	اليعقوبي - محمد علي
١٩٢٤	مصر	المقطم	يكن - ولي الدين

ب - المراجع (المؤلفات)

- أبو سعد - أحمد (الشعر والشعراء في العراق) المعارف بيروت ١٩٥٩
 أرسلان - شكيب (حاضر العالم الاسلامي) أجزاء مصر
 أرمنازي - نجيب (سورية من الاحتلال حتى الجلاء) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
 أسد - ناصر الدين (الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن) القاهرة ١٩٥٧
 الاشرى - صبري (المختار من الشعر في سورية) ملحق برسالة جامعية، مخطوط
 الاشرى - عبدالكريم (النثر المبحري) جزءان معهد الدراسات القاهرة ١٩٦١
 انطون نيوس - جورج (بقظة العرب ترجمة حيدر الركابي اليقظة دمشق ١٩٤٦
 البدوي - المثلث (عرار : عبدالله وهبي التل) الوطنية عمان ١٩٥٨
 بطي - رفائيل (الشعر المصري في العراق العربي) مصر ١٩٢٣
 جبران - جبران خليل (المجموعة الكاملة لمؤلفاته) بيروت ١٩٥٥
 جبيري - شفيق (أنا والشعر) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٩
 جمعة - ابراهيم (القومية المصرية الاسلامية) القاهرة ١٩٤٤
 جمعية الرابطة العلمية الادبية بالنجف (الفلسطينيين) بنداد ١٩٣٩
 الجندي - أدهم (اعلام الادب والفن) دمشق ١٩٥٤
 الجندي - أنور (نزعات التجديد في الادب المعاصر) القاهرة ١٩٥٧
 الحافي - ناصر (جميل صدقي الزهاوي) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
 حسين - محمد (الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر) جزءان القاهرة ١٩٥٤
 الحسيني - اسحق موسى (الاخوان المسلمون) بيروت
 الحصري - ساطع (نشوء الفكرة القومية) ط ٢ القاهرة ١٩٥٥
 الحصري - ساطع (آراء واحاديث في القومية العربية) ط ٢ بيروت ١٩٥٦
 حمزة - عبداللطيف (الصحافة والادب في مصر) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٥
 الحوفي - أحمد محمد (وطنية شوقي) القاهرة ١٩٥٥

التحف	(شعراء الغري)	الحقاني-علي
بيروت ١٩٤٣	(الفكر العربي الحديث)	الخورى-رثيف
مصر ١٩١٦	المقطم (ثورة العرب)	داغر-أسعد
القاهرة ١٩٥٩	معهد الدراسات (الشعر العراقي الحديث)	الدجيلي-عبدالكريم
القاهرة ١٩٥٨	معهد الدراسات (شكيب أرسلان)	الدهان-سامي
القاهرة ١٩٥٥	جزءان (في الادب الحديث)	الدسوقي-عمر
بيروت ١٩٥٠	(الشعر العربي في المهجر الامريكي)	ديب-وديع
القاهرة ١٩٥٤	النهضة المصرية شعراء الوطنية	الرافعي-عبدالرحمن
القاهرة ١٩٤٦	جزءان (ثورة ١٩١٩)	الرافعي-عبدالرحمن
بيروت ١٩٥٦	دار العلم للملايين (معالم الحياة العربية الجديدة)	الرزاز-محمد منيف
دمشق ١٩٦٠	جامعة دمشق ط ٢ (تاريخ القرن العشرين)	رونوفن
بيروت ١٩٤٠	(الوعي القومي)	زريق-قسطنطين
القاهرة ١٩٥٧	ح ٤ دار الهلال (تاريخ آداب اللغة العربية)	زيدان-جرجي
القاهرة ١٩٣٢	(تراجم مشاهير الشرق)	زيدان-جرجي
بيروت ١٩٤٧	ط ٢ (الصراع الفكري في الادب السوري)	سعادة-أنطون
مصر ؟	(الثورة العربية الكبرى)	سعيد-أمين
مصر ١٩٥٤	معهد الدراسات (التيارات الادبية في العراق)	سعيد-جميل
القاهرة ١٩٥٩	المعارف (حافظ ابراهيم)	سندالجندي-عبدالحميد
القاهرة ١٩٥٨	معهد الدراسات (محاضرات في القومية العربية)	شهابي-مصطفى
بيروت ١٩٢٦	ح ٢ (الآداب العربية في القرن التاسع عشر)	شيخو-لويس
القاهرة ١٩٥٨	معهد الدراسات (الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام)	صليبا-جميل
بيروت ١٩٥٧	ط ٢ (أدبنا وأدبنا في المهاجر الامريكية)	صيدح-جورج
القاهرة ١٩٥٧	المعارف (الادب العربي المعاصر)	ضيف-شوقي
القاهرة ١٩٥٣	المعارف (شوقي شاعر العصر الحديث)	ضيف-شوقي
القاهرة ١٩٥٤	معهد الدراسات (حافظ ابراهيم)	الطاهر-أحمد
القاهرة ١٩٥٤	معهد الدراسات (معروف الرصافي)	طبانة-بدوي

- الطرابلسي - أحمد (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٧
عباس - احسان
- نجم - محمد يوسف (الشعر العربي في المهجر) بيروت ١٩٥٧
- عبيد - أحمد (ذكرى الشاعرين) الترقى دمشق ١٣٥١ هـ
- عرفة - ياسين (ديوان الثورة العربية) القاهرة ١٩٢٦
- عزام - عبد الرحمن (الرسالة الخالدة) التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٦
- عز الدين - نجلاء (العالم العربي) القاهرة ١٩٥٠
- عقل - سعيد (قدموس) ط ٢ بيروت ١٩٤٧
- علي - مصطفى (معروف الرصافي) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
- العمرى - خير الدين (شخصيات عراقية) بندا ١٩٥٥
- فارس - نبيه أمين ومحمد توفيق حسين (هذا العالم العربي) دمشق
- فروخ - عمر (شاعران معاصران) بيروت ١٩٥٤
- قدري - أحمد (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ابن زيدون دمشق ١٩٥٦
- الكيالي - سامي (الحركة الادبية في حلب) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٦
- ماهر حسن فهمي (شوقي: شعره الاسلامي) المعارف القاهرة ١٩٥٩
- المناركي - محمد (الامة العربية في معركة تحقيق الذات) دمشق ١٩٥٩
- المقدسي - أنيس الخوري (الاتجاهات الادبية) جزان بيروت ١٩٥٠
- المقدسي - أنيس الخوري (المواطف القومية في الادب العربي) مخطوط
- مندور - محمد (الشعر المصري بعد شوقي) ٣ أجزاء معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٨
- مندور - محمد (في الميزان الجديد) ط ٢ نهضة مصر القاهرة
- مندور - محمد (خليل مطران) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
- مندور - محمد (ولي الدين يكن) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٦
- ميرزا زهير (إبليبا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر) اليقظة دمشق ١٩٥٤
- نحاس - عبدالله يوسف (الفينيقيون) ط جريدة البصير ؟ ١٩٤٣
- مدير العناية ببندا (فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله) بندا ١٩٤٥
- هلال - محمد غنيمي (الرومانتيكية) ط نهضة مصر القاهرة ؟

ج - المحاضرات

- (مجموعة محاضرات دار الكتب الوطنية بـجلب) حلب ١٩٥٢
(محاضرات الموسم الثقافي) مطبعة حكومة الكويت
(محاضرات في الشعر المعاصر) أمال مخطوطة للدكتور إسحق موسى الحسيني

د - الدوريات

مجلة بيروتية	الآداب
جريدة - دمشقية	ألف باء
جريدة - مصرية	الأهرام
جريدة - بيروتية	البرق
مجلة كلية دار العلوم - مصرية	دار العلوم
مجلة - دمشقية	الرابطة الادبية
مجلة - مصرية	الرسالة
مجلة - مصرية	السياسة الاسبوعية
مجلة - برازيلية	العصبة
جريدة - دمشقية	القبس
مجلة - دمشقية	المجمع العالمي العربي
مجلة - مصرية	المشير
مجلة - مصرية	المقتطف
مجلة - مصرية	الهلال

(١) أشرنا الى المحاضرة وصاحبها والى أعداد الدوريات في هوامش البحث .

فهرس الشعراء

فصرنا هذا الجدول على الشعراء فأشرنا الى مواضع ورود اسمائهم في الكتاب ، وحرصنا على ذكر موطن الشاعر أو بلده ، وعلى اثبات تاريخ ولادته ووفاته ان تيسر لنا ذلك .

٢

اسطفان ، حبيب (سورية) ٢٣٢	ابن زيدون، أحد أبو الوليد (٣٩٤، ٤٦٣ هـ)
اسماعيل ، محمود حسن (مصر) ٢٣٠	٢٢٧، ٢٢٥
الأسمر ، محمد (مصر)	ابن الصباغ (العراق) ١٨
٨٠، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٤٠، ٢٦٣، ٢٦٤	ابن المعتز، عبدالله (٢٤٩، ٢٩٦ هـ) ١٨
٣٠٢، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٥٤، ٣٦٢، ٣٧٧	أبو تمام ، حبيب بن أوس (١٨٠-٢٣١ هـ) ١٨١
إقبال ، محمد (الباكستان) ٥٦	أبوريشة ، عمر (سورية ١٩٠٩-...)
الألوسي ، محمود شكري (العراق) ١٨	١٤٦، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٥، ١٩١، ٢٢٩
الالوسي ، الشهاب (العراق ١٨٠٣-١٥٣)	٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٣، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٩٦، ٣٩٩
١٨	٤١٢، ٤٠٨
الأميري ، عمر بهاء (سورية)	أبو شادي، أحمد زكي (مصر ١٨٩٢-١٩٥٥)
٦١، ٣٣١، ٣٣٥	٥٨، ١١٥، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٦
ب	٢١٦، ٢٢٥، ٢٤٥، ٣٢٠، ٣٣٤
البارودي ، فخرى (سورية)	أبو ماضي ، إيليا (المهجر ١٨٩١-١٩٥٧)
١٩، ٢٧٣	٣٨، ٤٧، ١٢٤، ١٣٧، ١٥٨، ١٥٩
البارودي ، وددي ، دسامي (مصر ١٨٣٨-١٩٠٤)	١٦٩، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٣، ٢٩٢، ٣٤٢
١٨، ٢٤٤، ٣٠، ٣٧، ١٠٨	٣٤٣، ٣٥٠، ٣٧٣، ٣٨٥
١٨٢، ٢٣٠	أبو الوفاء، محمود (مصر) ٣٠٣، ٣٥٥
البارودي ، وجيه (سورية) ٢٣٢	الاحدب ، ابراهيم (لبنان ١٨٢٦-١٨٩٠)
البازي ، علي (العراق) ٨٥، ٣٥٢	١٨
باولي ، باترو (سورية) ٣٨٨	الأخرس، عبدالغفار (العراق ١٨٠٥-١٨٧٣)
باكثير ، علي احمد (مصر) ١٢٦	ارسلان ، شكيب (لبنان ١٨٦٩-١٩٤٦)
بايرون ، جورج (انكلترا ١٧٨٨-١٨٢٤)	٣٠، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٩٠
١٠٩، ١٤٣	الازري، عبد الحسين (العراق) ٥٧
البحرزي (٢٢١-٢٨٣ هـ)	اسحق - أديب (سورية ١٨٥٦-١٨٨٥)
	٢٤، ٢٩٣، ٣٣٨

الجر ، عقل (المهجر ١٨٨٦-١٩٤٦)
١٤٠ ، ١٣٩
الجندي ، امين (سورية ١٧٥٦-١٨٤١)
١٩ ، ١٨
الجندي ، علي (مصر)
١٩٤ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ٧٧ ، ٦٥
٣٦٣ ، ٣٣٠ ، ٢٩٨
الجواهري ، محمد مهدي (العراق)
٢٦٩ ، ٢٦١ ، ٢٥٠ ، ١٤٧
٣٢٤ ، ٣٢١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٢
٣٩٣ ، ٣٥٢ ، ٣٤٨ ، ٣٣٩ ، ٣٢٥

ح

حافظ ابراهيم (مسرا ١٨٧١-١٩٣٢)
٦٣ ، ٤٨ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١
٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٧ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨
٢٧٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٥٣
٣١٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٨٩ ، ٢٧٨
٣٨٢ ، ٣٦٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٤ ، ٣٢٦
٤١٢ ، ٤١٠

الحيوي ، محمد سعيد (العراق) ٥٧
الحيوي ، محمود (العراق)
٣٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢٥٠
الحداد ، نجيب (لبنان ١٨٦٧-١٨٩٩)
٢٣ ، ١٨
حسن ، محمد عبدالغني (مصر)
٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٢ ، ١٦٣ ، ٦١
حسون ، رزق الله (سورية ١٨٢٥-١٨٨٠)
٢٢
الخلي ، جعفر (العراق) ١٥٠
الحمصي ، قسطنطين (سورية ١٨٥٨-١٩٤١)
٣٢٨ ، ٢١٠ ، ٢٠٩

البحيري ، حسن (فلسطين)
٣٨٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٤٢ ، ١٠٠ ، ٧٦
البزم ، محمد (سورية ١٨٨٤-١٩٥٥)
٢٩٦
البنفاني ، وديع (فلسطين)
٣٨٣ ، ٢٩٦ ، ١٩٨
البصير ، محمد مهدي (العراق ١٨٩٦-١٩٠٠)
١٥٠ ، ١٥٧
بيلاك ، اولانو (البرازيل ١٨٩٥-١٩٤٥)
١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢

ت

التمقي ، اديب (سورية ١٨٩٥-١٩٤٥)
٣١٦ ، ١٥٣ ، ٧٥
الطل ، مصطفى وهي (الاردن ١٨٩٩-١٩٤٩)
٣٢٥ ، ٣١٦
التونخي ، عز الدين (سورية) ٣٥٠
ث
ثاكري (انكلترا) ١٤٣ ، ١٠٩

ج

الجارم ، علي (مصر ١٨٨١-١٩٤٩)
٢٧٤ ، ٢٥١ ، ٢٠٦ ، ١٠١ ، ٩٦
٣٧٧ ، ٢٧٨
جبري ، شفيق (سورية)
٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢١٢ ، ١٢٣ ، ٧٩
٤٠٢ ، ٣٩١ ، ٣٤٧
الجيل ، بدوي (سورية)
٢٩٣ ، ٢٦١ ، ٢٣١ ، ٢١٩ ، ١٦٦
٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٣٩٦ ، ٣٨٤ ،
الجر ، شكر الله (المهجر ؟ - ١٩٠٠)
٣٧٤ ، ٢٦٧ ، ١٨٨ ، ١٣٩ ، ١٣٨

١٤٧ ، ١٣٠ ، ١٢٣ ، ١٢٢
٢١٧ ، ٢١٦ ، ١٩٠ ، ١٦٧
٣٠٣ ، ٢٤١ ، ٢٣١ ، ٢٣٠
٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥
٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣١٤
٣٤٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤
٢٧٨ ، ٣٦٩ ، ٣٤٦

ز

الزركلي ، خير الدين (سورية ١٨٩٣-...)
١٩٦ ، ١٥٦ ، ١٤٦ ، ١٣١ ، ٥٤
٢٨٧ ، ٢٦٤ ، ٢٥٨ ، ٢٢٩
٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٢ ، ٢٩٥
٣٧٩ ، ٣٦٥ ، ٣٥٣ ، ٣٤٧
٤٠٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩١
٤١٢ ، ٤٠٩
الزهاوي ، جميل صدقي (العراق ١٨٦٣-١٩٣٦)
٨٣ ، ٨٢ ، ٧٧ ، ٣٨ ، ٣٠ ، ٢٥
٢١٧ ، ١٨٨ ، ١٥٨ ، ١٤٧
٣١١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٠ ، ٢٥٤
٣٨٩ ، ٣٦٤ ، ٣٤٤ ، ٣٢١

س

الساعاتي ، محمود صفوة (مصر ١٨٢٥-١٨٨٠)
١٨
سر كيس ، سليم (لبنان ١٨٦٧-١٩٢٦)
٢٢
سميد ، نصرة (سورية)
١٩٨
صباحة ، مسعود (المهجر ١٨٨٢-١٩٤٦)
٣٢٥ ، ٢٨٧
صماكة ، محمد باقر (العراق)
٣٥٢

حمد ، عمر (لبنان ؟ - ١٩١٦)
٣٨٩ ، ٣٤٤ ، ١٨٧
الحوماني ، محمد علي (لبنان) ١٩٥ ، ٥٨ ، ٤٧
خ
الحضري ، عبدالغني (العراق)
٣٥٢ ، ٣٤٨ ، ٥٧
الخطيب ، فؤاد (لبنان ؟ - ١٩٥٩)
٢٧٢ ، ٢٠٧ ، ١٧٨ ، ٤٠ ، ٣٨ ، ٢٨
٣٨٧ ، ٣٣٢ ، ٢٨٧

الهوري ، اسكندر (فلسطين)
٣٨٢ ، ٣٧١ ، ٢٩١ ، ١٩٨ ، ١٦٧
الهوري ، بشارة (الاختل الصغير . لبنان
١٨٨٩ - ٠٠٠)
٣٧٠ ، ٢٨٦ ، ٣٤٠ ، ١٩٨
الهوري ، رشيد سليم . انظر القروي
د

الدجيلي ، عبدالكريم (العراق) ٣٢٧
دعبل بن علي الخزاعي (١٤٨ - ٥٢٤٦)
١٨١

دلال ، جبرائيل (سورية ١٨٣٦-١٨٩٢)
٢٣ ، ١٨
دموس ، حلم (لبنان)

٣٧٢ ، ٣٦٧ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٨١
٣٩١ ، ٣٨٢

ر

الرافعي ، عبد الحميد (لبنان ١٨٥٩-١٩٣٢)
٢٠٧ ، ٢٠١ ، ٤٥ ، ٤٠ ، ٣٨ ، ٣٠
٣٤٤

الرافعي ، مصطفى صادق (مصر ١٨٨٠-١٩٣٧)
٣٧٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٠٠ ، ٨٧

الرصافي ، معروف (العراق ١٨٧٥-١٩٤٥)
٤٤ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٢٩ ، ٢٦ ، ٢٥
١١٧ ، ٩١ ، ٨٣ ، ٨١ ، ٧٧ ، ٥٠

ص

- الصابي النجفي أحمد ، (العراق)
٣٢٨، ١٩٦، ٨٨، ٧٥
- صبري ، اسماعيل (مصر ١٨٥٤-١٩٣٣)
٢٧
- صيدح، جورج (المهجر)
٣٨٥، ٣٨٠، ٣٧٣
- الصديقي، حسن كامل (مصر ١٩٠٨-١٩٠٠)
٤٠١، ٣٥٦، ٣٥٥

ط

- طاغور، رابندرانات (الهند ١٨٦١-١٩٤١)
١٥٥، ١٥٣، ١٥٥
- الطرابلسي، أحمد (سورية)
١٧٤، ١٧٣، ٣٠، ٢٦، ١٣
- ١٦٤، ٢٥٢، ٢٣٧، ١٨٣
- ٤٠١، ٣٥٣، ٢٦٩
- طه، علي محمود (مصر ١٩٠٢-١٩٤٩)
٤٠٨، ٢٣٠، ١٦٧، ١٦٤
- ٤١٥، ٤٠٩
- طوقان، ابراهيم (فلسطين ١٩٠٥-١٩٤١)
٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠١، ٣٠٠
- ٣٩١، ٣٦٤، ٣٣٤، ٣٠٥
- ٤٠٥، ٤٠٤، ٤٠٣، ٣٩٨، ٣٩٧
- ٤٠٦

ع

- العالمي، محمد كامل شعيب (لبنان)
٨٧، ٥٣
- العامودي، محمد سعيد (العراق)
٨٤

ش

- الشبيبي، محمد باقر (العراق)
٣٢٤، ٣٢١، ٥٧
- الشبيبي، محمد رضا (العراق ١٨٨٧-...)
٢٤٢، ٢٣٤، ١٤٧، ٩٩، ٥٧
- ٣٩٠، ٣٢١، ٢٦٢
- الشرتوني، محبوب (المهجر ١٨٨٥-١٩٣١)
١٩٨، ١٩١، ١٩٠، ١٦٠
- ٣٨٥، ٣٧٣، ٣٦٨، ٢٨٥
- الشرقي، علي (العراق)
٣٥٢، ١٤٨، ٥٧
- الشرقي، محمد (سورية)
٢٦٤، ٢٢٤، ٢١٢، ١٨٨، ٨٤
- ٢٩٤، ٢٦٥
- شالي (انكلترة ١٧٩٧-١٨٥١)
١٤٣، ١٠٩
- شوقي، أحمد (مصر ١٨٦٨-١٩٣٢)
٥٨، ٥١، ٤٢، ٣٨، ٣٠، ٢٧
- ٩٤، ٨٤، ٨٢، ٦٧، ٦٢، ٥٩
- ١٠٣، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥
- ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩
- ١٢٢، ١١٧، ١١٤، ١١٣
- ٢٠١، ١٨٣، ١٦٦، ١٢٦
- ٢٣٠، ٢٢٧، ٢٢٥، ١١٦
- ٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧
- ٢٩٠، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٥٣
- ٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٥، ٣٥٤
- ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٧، ٢٧٦
- ٤٠٠، ٣٩٧، ٣٩٢، ٣٨٣
- ٤١٢

ف

النراقي، محمد (سورية)

٢٦٥، ٢٦٤، ٢٣٧، ٢٣٥، ٨١

٣١٣، ٣٠١، ٢٩٥، ٢٨٩

٤٠٠، ٣٩٦

فرحات إيلاس (الهجر ١٨٩٣ - ١٠٠٠)

١٩٧، ١٣٣، ١٣٢، ٩٢، ٨٢

٢٧٢، ٢٦٧، ٢١٤، ١٩٨

٣٥٠، ٣٠٣، ٢٩٢، ٢٨٧

٣٧٣، ٣٧١، ٣٧٠، ٣٦٦

٣٩٢، ٣٨٥، ٣٨٤

الفرطوسي، عبدالنعم (العراق)

٣٥٢

فكري، عبدالله (مصر ١٨٣٤ - ١٨٩٠)

١٨

فلويدر، غوستاف (فرنسة ١٨٢١ - ١٨٨٠)

١٤٣، ١٠٩

فهمي، عزيز (مصر)

٢٦٣، ٢٥٠

فياض - هولاء (لبنان)

٣٨٢، ٣٧٤، ١٩٨

ق

الهروي، رشيد سليم الخوري (الهجر ١٨٨٧ - ...)

١٤٥، ١٣٢، ٩١، ٨٩، ٦٧

١٩١، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٢

٢٣٥، ٢١٤، ١٩٨، ١٩٢

٣٠٣، ٢٩٥، ٢٨٩، ٢٦٨

٣٥٠، ٣٤٥، ٣٣٠، ٣٢٩

٣٨٤، ٣٨٣، ٣٧٣، ٣٧٠

٤١٢، ٣٩٤، ٣٨٥

عبدالمطلب؟ محمد (مصر؟ - ١٩٣١)

٧٠، ٤٥٠، ٤٤، ٣٨، ٣٠، ٢٧

٢٣٨، ٢٢٨، ١٩٤، ١٢٥، ٨٧

٣٥٤، ٢٨٨، ٢٧٨، ٢٥٤

٤١٢، ٣٥٥

عبدالله، محمد (مصر ١٨٤٩ - ١٩٠٥)

٣٦٧

الصيدي، محمد حبيب (العراق)

٢٣٢ (فلسطين ١٩٠٤ - ١٠٠٠)

٣٩١، ١٩٤

عرضة، نسيب (الهجر ١٨٨٧ - ١٩٤٦)

٣٠٠، ٢٩٥، ٢٧٢، ١٦٧، ١٢٩

عصاف جورج (الهجر ١٨٨٣ - ؟)

٣٤٢

الطار، أنور (سورية)

٤١٢، ٣٥٧، ٢٢٩

العقاد، عباس محمود (مصر ١٨٨٩ - ١٠٠٠)

٢٥٥، ٢٥٤، ١١٧، ١١٦

٣٧٩، ٣٣٤

عقل، سعيد (لبنان)

١٥٠، ١٤٢، ١٣٦، ١٣٥

عباد، محمود (مصر)

١١٨، ١١٣

العباري، محمد جواد (العراق)

٣٩٤ (عنترة، ابن شداد ٥٢٥ - ٦١٥)

٤١٢، ١٧٣

غ

الغلايني، مصطفى (لبنان ١٨٨٥ - ١٩٤٤)

٢٥٤، ٢٣١، ٢١٩، ٨٢، ٧٨

٣٩١، ٣٥٠، ٣٤٩، ٢٩٦، ٢٩٣

الغنيمة، محمود (مصر)

١٩٥، ١٢٥، ٩٥، ٦٥، ٦٤

٢٥٠، ٢٤٢، ٢٣٦، ٢١٣، ٢٠٥

مجددي، صالح (مصر) (١٨٢٦-١٨٨٠)
٢٤، ١٨

مجرم، أحمد (مصر) (١٨٧٧-١٩٤٥)
٤٣، ٤١، ٣٨، ٣٧، ٣٠، ٢٧
٨٠، ٧٠، ٦٦، ٦١، ٥٩، ٥٢
٢٣٧، ٢٣٠، ١٨٣، ١٢٥
٢٧٨، ٢٧٣، ٢٥٣، ٢٣٨
٣٩٩، ٣٣٢، ٣٦٠، ٣٢٦

المراش، فرنسيس (سورية) (١٨٢٦-١٨٧٣)
١٨

مردم، خليل (سورية) (١٨٩٥-١٩٥٩)
١٣١، ١٣٠، ٦٦، ٥٨، ٤٠
٢٣٣، ٢١٢، ٢٠٩، ١٦٦
٢٥٩، ٢٥٥، ٢٣٩، ٢٣٤
٢٦٥، ٢٦٤، ٢٦٠، ٢٥٩
٣٢٨، ٣١٣، ٢٩٧، ٢٨٥
٣٨١، ٣٧٨، ٣٦٥، ٣٥٣
٤٠٩، ٤٠٨، ٣٩٣، ٣٩٠

المصري، عبدالحليم (مصر) (١٨٨٧-١٩٢٢)
٤٢، ٤١

مطران، خليل (لبنان) (١٨٧١-١٩٤٩)
٢٢٠، ٢٢٠، ٢١٥، ١٢١، ٣٠
٣٣٨، ٣٣٣، ٢٨٥، ٢٣٠
٤٠٩، ٣٧٠

المري، أبو العلاء (٣٦٣-٤٤٩ هـ)
٢٣٠، ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣
٤٠٤، ٣٧٩، ٣٦٧

المطوف رشدي (لبنان)
١٤٢، ١٤١

المطوف، فوزي (الهجر) (١٨٩٩-١٩٣٠)
٢٤٠، ٢١٨، ١٨٩، ١٤٢

الفزويني، محمد (العراق) ٥٧
القشطيني، ناجي (العراق) ٣٢٨
قنصل، الياس (الهجر) (١٩١٤-٠٠٠)
٢٨٦، ٢٥٩، ٨٩، ٧٩، ٧٨
٣٨٤، ٣٠٨، ٣٧٠، ٣٦٦
٣٩٢، ٣٨٥
ك

الكاشف، أحمد (مصر)
٤١، ٣٨

كاشف الغطاء، محمد حسين (العراق) (٣١٦، ٥٧)
الكاظمي، عبدالمحسن (العراق) (١٨٦٥-١٩٣٥)
١٦٥، ١٤٧، ٩٣، ٣٨، ٢٥
٢٥٤، ٢٤٩، ٢٣٠، ٢١٧
٣٤٧، ٢٩٧، ٢٨٧، ٢٧٠
٣٩٥، ٣٤٨

كيبينغ، رديارد (انكلترا) (١٨٦٥-١٩٣٦)
١٠٣، ٧٦، ٧٤

كيتس، جون (انكلترا) (١٧٩٥-١٨٢١)
١٤٣، ١٠٩
ل

لامارتين، القونس (فرنسة) (١٧٩٠-١٨٦٩)
١٤٣

الليبي، علي (مصر) (١٨٢١-١٨٩٦)
١٨

لي هنت (انكلترا)
١٤٣، ١٠٩

م

المأمون، ابراهيم (مصر) ١١٨
المتني، أحمد أبو الطيب (٣٠٣-٣٥٤ هـ)
١٨١، ١٥٨، ١٥٤، ١١٩
٣٩٥، ٢٥٧، ٢٣٠

هوميروس (اليونان القرن ٩ ق.م.)
١٧٣

و

الويد، أبو الفضل « الياس طعمه »
(المهجر ١٨٧٤-١٩١٧)

٩١ ، ٨٧ ، ٦١ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٦
٢١٨ ، ٢٠٢ ، ١٩٦ ، ١٩١ ، ١٤٩
٢٧٠ ، ٢٦٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٤ ، ٢٣٣
٣٠٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٦ ، ٢٧١
٣٩٣ ، ٣٩٠ ، ٣٧٣ ، ٣٥٠ ، ٣٤٢
ويردي ، مختايل خليل الله (سورية)
١٧٢

ي

اليازجي ، ابراهيم (لبنان ١٨٤٧-١٩٠٦)
٣٤١ ، ٢١٤ ، ٢٠٤ ، ١٨
اليازجي ، ناصيف (لبنان ١٨٠٠-١٨٧١)
١٨

يحيى ، عمر (سورية ١٩٠١)
٣٩١ ، ٣٥١ ، ٣٣٠ ، ٢٣٥ ، ٩٠
٣٩٦

اليعقوبي ، أبو الاقبال (فلسطين)
٨٢
اليعقوبي ، محمد علي (العراق)
٣٢٨ ، ١٥٠ ، ١٤٧ ، ٨٥ ، ٦٠

يكن ، ولي الدين (مصر ١٨٧٣-١٩٢١)
٣١٠ ، ٧٨ ، ٢٧ ، ٢٦

٢١٨ المقدسي ، أنيس (لبنان)
٣٠ الملائمة شيلي (لبنان)
المنصور ، حسين (السوان)
١٢٢ ، ٩٩ ، ٩٨
ن

٤٠١ ناجي ، ابراهيم (مصر)
ناصر الدين ، أمين (لبنان)
٢٨٥ ، ٢٣١ ، ١٨٣ ، ٨٧ ، ٣٠
٣٤٥ ، ٣١٠

نسيم ، أحمد (مصر ١٨٨٧-١٩٣٨)
٧٧

العسائي ، بدر الدين (سورية ١٨٨١-١٩٤٣)
٤٣ ، ٤١ ، ٣٠

نعيمه ، مختايل المهجر (١٨٨٩-...)
١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦١ ، ١٢٩ ، ٧٤
٣٧٢

هـ

الهاشمي ، محمد (العراق)
٣٥٢ ، ٢٩٠ ، ٤٥

الهندي ، خيرى (العراق)
٣٣١ ، ٣٢١ ، ١٤٧ ، ٨٣

الهنداوي ، احمد رضا (العراق)
٣٥٢ ، ١٩٦

هوجو ، فيكتور (فرنسا ١٨٠٢-١٨٨٥)
٣٣٧

المحتوى

- تقديم
المدخل : بواكير الشعر القومي ٣١ - ١٥
١٤ - ٥
ملاحح النهضة العربية في القرن التاسع عشر ١٥ - بوادر اليقظة
القومية في مصر والشام ١٧ - شذرات مبكرة من شعر التحرر ١٩ -
قصائدناثرة من الشعر الحماسي ٢٤ - اليقظة الدستورية والشعر القومي ٢٦

الباب الاول

روافد التيار القومي

- الفصل الاول : الجامعة الاسلامية ٧٢ - ٣٥
ترابط عاملي الدين والقومية في الشعر العربي ٣٥ - التداخل بين الجامعة
الاسلامية والجامعة العثمانية واختلاط مفهومي العروبة والاسلام ٣٧ -
بدء الانشطار بين عنصري الامبراطورية العثمانية وانبثاق القوميتين
الطورانية والعربية ٤٤ - انهيار نظام الخلافة وتحول الشعراء عنه ٤٩ -
تميز النزعة العربية وبدء استقلالها عن النزعة الاسلامية ٦٣

- الفصل الثاني : الرابطة الشرقية ١٠٤ - ٧٣
الجذور البعيدة للرابطة الشرقية ٧٣ - انصار المشاعر الوطنية في
الروح الشرقية الشاملة ٧٦ - خفوت النزعة الشرقية في الشعر
بقيام الحرب العالمية الاولى ٧٩ - اشتداد العاطفة الشرقية اثر غدر
الحلفاء بالعرب ٨٠ - اختلاف مفهوم الشرق ضيقاً واتساعاً وتأثيره
بمجرى الأحداث القومية ٨٦ - اضطراب مفهوم الشرق واختلاطه
بمفهوم الاسلام ومفهوم العروبة ٩٣

الفصل الثالث : النزعات الوطنية الاقليمية و الفرعونية ، الفينيقية ،

الآشورية ، ١٠٥-١٥٢

ازدهار النزعات الوطنية المحلية في الشعر على انقاض الجامعة
الاسلامية ١٠٥ - النزعة الفرعونية تنطلق من أساس وطني ونفسي
١٠٦ - تطرف الشعراء في التعلق بأبجداد الفراعنة ١١٤ - التنديد
بالنمرة الفرعونية ١٢٢ - النزعة الفينيقية لدى شعراء لبنان ١٢٧ -
التنديد بالفينيقية ١٣٠ - الفينيقية تقف عند حدود التفاخر بالماضي
السحيق ١٣٢ - النزعة الآشورية تلد هزيمة في العراق و صداها
خافت في الشعر ١٤٥

الفصل الرابع : العاطفة الانسانية

١٥٣ - ١٧٦
الأواصر بين العاطفة الانسانية والقومية ١٥٣ - العاطفة الانسانية
تشدت إبان الحروب والنكبات الكبرى ١٥٧ - تعانق النزعتين
الانسانية والقومية ١٦٣ - الصيحات القومية في الشعر تملو على
الانغام الانسانية ١٧١

الباب الثاني

تيار القومية العربية

تمهيد : نشوء الفكرة القومية ١٧٩ - ١٩٢

أصول المشاعر القومية عند العرب ١٧٩ - تميز مشاعر العروبة في
التاريخ الحديث ١٨٢ - التناحر بين العروبة والطورانية ١٨٤

١٩٣ - ١٩٨ الفصل الاول : وحدة الاصل

تمسك العربي بنسبه واعتزازه بأصله ١٩٣ - الوشائج الدموية والمنوية
مع الأسلاف ١٩٧

الفصل الثاني : اللغة العربية

١٩٩-٢٢٠

آثر اللغة في دعم الكيان القومي ١٩٩-اعتزاز الشعراء بلغة النضاد ٢٠٠ -
الفصحى تخوض معركة القومية ضد التفرنج والعامية والشعوية ٢٠٢

الفصل الثالث : الماضي المشترك

٢٢١ - ٢٤٥

الشاعر القومي الحديث ظل وثيق الارتباط بمجد آبائه ٢٢٤- الاعتزاز بالماضي
التليد يغدو عاملاً سلبياً معوقاً ٢٣٨ - رد فعل تجاه النزوع الى الماضي ٢٤١

الفصل الرابع : المطامح والآلام المشتركة

٢٤٦-٢٥٦

انصهار مشاعر العرب في بوتقة نضالهم العاثر ٢٤٧ - انبثاق الأمل
المشترك من خلل الكفاح المرير، والتطلع الى وحدة المصير العربي ٢٥١

الفصل الخامس : الوحدة العربية

٢٥٧-٢٧٩

وحدة الوطن العربي منذ القدم ٢٥٧ - سحق الشعراء على التجزئة وتنديدهم
بالحدود المصطنعة ٢٦٠ - تعلق الشعراء بالوحدة الشاملة ٢٦٦ - تبشير
الشعراء بالدولة العربية الموحدة ٢٧٠

الباب الثالث

موضوعات الشعر القومي

الفصل الاول : مناضلة الاستعمار

٢٨٣-٣٠٧

انفجار مشاعر النقمة ضد الحلفاء إثر احتلالهم بلاد العرب ونكثهم
المهود ٢٨٤-التنديد برسالة التمدن الزائفة ومبادئ الحرية المزعومة ٢٩٢
كشف الشعراء اقنعة الاستعمار من انتداب ووصاية وحماية ٢٩٦- التبصير
بأساليب المستعمرين ٣٠٠ - التهكم والسخرية طابع كثير من الشعر
القومي ٣٠٣

الفصل الثاني: التنديد بالاستبداد وفساد الحكم

٣٣٩-٣٠٨

النثر والشعر في فترة الاستبداد الحميدي ٣٠٩ - خيبة الأمل تجاه
الملوك والحكام العرب ٣١١ - تجرؤ الشعراء على الطغاة ٣١٤ - التنديد
بالبرلمانات المصطنعة والحكومات السورية ٣٢٦

الفصل الثالث: استنهاض الهمم والحض على الثورة

٣٥٨-٣٤٠

الشعر يحمل رسالة التنبيه والتبصير ٣٤٠ - سر يأن روح الثورة والتمرد
إثر الاحتلال ٣٤٦ - الشعر يواكب الثورات القومية في الشرق العربي ٣٤٨

الفصل الرابع: التضامن والاياء

٣٨٦-٣٥٩

الشقاق السياسي وتفرق أهواء الأمة وأثر ذلك في الشعر القومي ٣٦٠ -
التعصب الديني والنزاع الطائفي وأثر ذلك في الشعر القومي ٣٦٦ - الشعر
يحمل رسالة الوثام ويحث بالتسامح والاياء ٣٧٥

الفصل الخامس: البطولة والفداء

٤١٥-٣٨٧

الشعر يواكب آيات البطولة في نضال العرب الحديث ٣٨٨ - الشعراء يخلدون
أبطال الأمة وشهداءها ٣٩٣ - تجاوب الشعراء العرب مع بطولات الشعوب
الأخرى ٤٠٦ - موضوع البطولة والفداء ومنزلته في الأدب الحديث ٤١٠

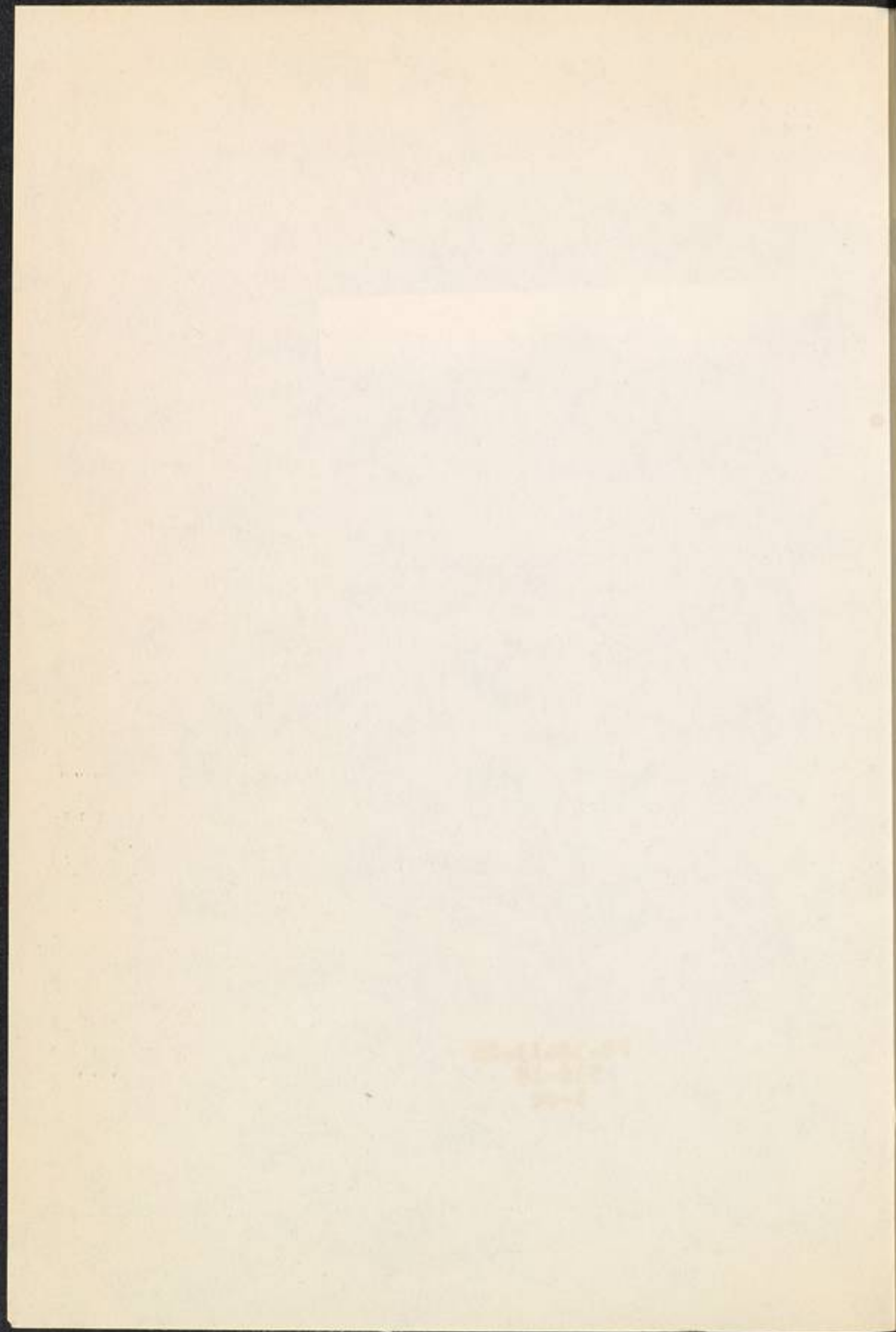
الخاتمة : رسالة الشعر القومي

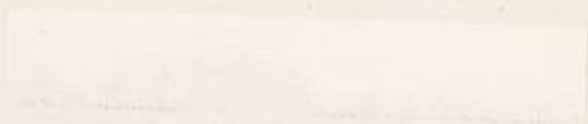
٤٢٩-٤١٦

المضمون ٤١٦ - الشكل ٤٢١ - رسالة الشاعر العربي ٤٢٣ - مستقبل
الشعر القومي ٤٢٧

٤٣١	آراء وأصدقاء
٤٣٤	المصادر
٤٣٨	المراجع
٤٤٢	فهرس الشعراء
٤٤٩	المحتوى

PB-38413-SB
538-18
5-cc





**Bookkeeper**[®]

Deacidification for Libraries and Archives

November 2009

NYU - BOBST



31142 03183 1525

PJ7561 .D3 1963

al-Ittijah